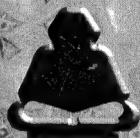


الأعمال
الدينية



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَذَّةٍ
لَنَا لَمَّا كَانَتْ أَمْشِجَ الحَرَامَ إِلَى

أحمد أمين

صحى الإسلام

مهرجان القراءة للجميع



اهداءات ٢٠٠٣

أمره أ.د/رمزي حكي

القاهرة

ضحى الإسلام

أحمد أمين

ضحى الإسلام
(الجزء الأول)



هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
ومزي زكي بطرس

مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الدينية)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية للتكاملة للترقية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

ضحى الإسلام

(الجزء الأول)

أحمد أمين

الخلافة

الإشراف الفني

للغنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان



مقدمة

وهكذا تمنى مسيرة مكتبة الأسرة للتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بدراثها الأنبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وإن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والعصارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم ...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر
الواعد تقدم صفحات متألفة من متعة الإبداع
ونور المعرفة مصدر القوة في عالم اليوم..
صفحات تكشف عن ماضيها العريق وحاضرنا
الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرهان

فَيْتُ الدِّينِ الْبَحْثُ الْخَمِيْسُ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

لعل أصعب ما يواجه الباحث في تاريخ أمة هو تاريخ عقلا في نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلي . أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبئت ، وكيف نمت ، وما العوامل في إيجادها ، وما العناصر التي غذتها ، وما الطوارئ التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، وبلغ منك في استخراج الجهد . لأن الفكرة أول أمرها لا مظهر لها نستدل به عليها ، وقد تتكون من عناصر قد لا تخطر ببال ، ويعمل في تغييرها وتعديلها عوامل في متتهى الفموض . والمذاهب الدينية قد يكون الباعث عليها غير ما ظهر من تماليمها ؛ قد يكون الباعث عليها سياسياً ، وهي في مظهرها الخارجي مجردة من كل سياسة ، وقد يكون الباعث لها إفساد الدين فستشكل بشكل المتحمس للدين ، وقد يكون المذهب صالحاً كل الصلاح ولكن يحكيه أعداؤه فيشوهرونه ويلقون فيه فيفسدونه ، فيقف الباحث حائراً ضالاً ، يتطلب بصيصاً من نور يهديه ، أو أثراً في الطريق سلكه من قبله فيحتديه .

وفوق هذا، فالأفكار متنوعة، والآراء متعددة، وقضايا كل عصر تختلف ما قبلها، ويراه الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برابط، ولم تتصل به أية صلة، فيعمل فكره فيما عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب، وما قد يصل بينهما من سبب.

ففي سبيل الله ما يلاق مؤرخ الفكر من عناء لا يتناسب وما يحصله من نتائج!

* * *

سرت في «نخبة الإسلام» سيرى في «نجر الإسلام» رائدى الصدق والإخلاص للحق، فإن أصبت لحمد الله على توفيقه، وإن أخطأت فالحق أردت، ولكل امرئ ما نوى.

عنيت بضعة الإسلام للمائة سنة الأولى للعصر العباسى (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) أعنى إلى خلافة الواثق بالله، فهو عصر له لون على خاص، كما أن له لونا في السياسة والأدب خاصا، امتاز بغلبة العنصر الفارسى، وبحركة الفكر إلى حد ما، وبدولة المعتزلة وسلطانهم، وبتلون الأدب من شعر ونثر لونا احتذى على كثر الدهور، واختلاف المصور. كما امتاز بتحويل ما باللسان العربى إلى قيد فى الدفاتر وتسجيل فى الكتب، وما باللسان الأجنبى إلى لغة العرب. وهو فى كل هذا يخالف العصور قبله والعصور بعده. مخالفة تجعله حائقة قائمة بنفسها، يصح أن تسمى، وأن تدرس، وأن تميز. على أنى أحيانا يدعونى إيضاح الفكرة إلى أن أربطها بما كان منها فى العصر الذى قبله، كما قد يدعونى تسلسلها إلى أن أتجاوزه إلى العصر الذى بعده.

وقد دتته أبواباً أربعة :

الباب الأول فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر، واجتزأت منها بما له أثر قوى فى العلم والفن.

والباب الثانى فى الثقافات المختلفة دينية وغير دينية.

والباب الثالث في الحركات العلمية ، ومعاهد العلم ، وحرية الفكر ، ومزايا
البلدان في تلك الحركات .

والباب الرابع في المذاهب الدينية ، وتاريخ حياتها ، وأشهر رجالها ،
وأهم أحداثها .

وكنيت أحرز أن سيكون حجمه حجم « فجر الإسلام » ، فلما شرعت في
تأليفه اتسع عليّ موضوعه ، وغمرتني مناحيه ، وواجهتُ مسائل لم تكن
خطر لي ، فتركيت البحث على سجيته ، والقول على طبيعته ، فإذا هو ضعف فجر
الإسلام أو يزيد ، فاضطرت أن أجعله جزءين ، في كل قسم بابان .
وأنتقدم إلى القراء اليوم بقسمه الأول ، راجياً ألا يفرغوا من قراءته حتى
أقدم إليهم قسمه الثاني .

على أني لم أقل في كل موضوع إلا كلمته الأولى ، ولم أنظر إليه إلا نظرة
الطائر ، ولو حاولت أن أستوفي الكلام في كل فصل لكان من كل فصل كتاب .
فإن نجحت في إثارة الباحثين لنقده ، وتصحيح خطئه ، وتوسيع مباحثه ، فذلك
حسبي ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

أحمد أمين

٢٣ رمضان سنة ١٣٥١

١٩ يناير سنة ١٩٣٣

مقدمة الكتاب

• للدكتور محمد معين

أراد ناقد من هاد التمثيل أن يثني على قصة راقته ، وملكته عليه إعجابه ، وكان صاحب القصة له صديقاً حياً ، فتوقع أن يلام في الثناء عليه ، ولكنه لم يصرح من إهداء هذا الثناء إلى صديقه في غير تردد ولا تحفظ ، وأعلن في صراحة — أجبني — أن من خيانة الأصدقاء أن تتخذ صداقتهم وسيلة إلى جحود ما لهم من حق ، وإخفاء ما لهم من فضل ، وتجاهلهم هذه المجاملة السلبية التي تدفك إلى أن تتردد وتتخفظ ، وتقدم إليهم ثناء ممتقاً شاحباً ، حتى لا تهم بالإغراق ، ولا توصف بالحياة . وحتى لا يسوء ظن قرائك بنصيبك من الإنصاف ، وحظك من الاستقلال .

رأى ذلك الناقد « وأنا أرى معه » أن هذا النحو من معاملة الأصدقاء خيانة منكرة ، وظلم قبيح ، وأنه في الوقت نفسه نوع من اتهام النفس . والإسراف في سوء الظن بها . فليس ينبغي للناقد أن يُصدّر — فيما يرى من رأى — عما يقول الناس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه ، وإنما هو مدين لنفسه وقرائه بما يعتقد أنه الحق الخالص ، سواء أَرْضَى الناس أم سخطوا ، وسواء أوافق رأيه هوى القراء ، أم انحراف عنه .

وعلى هذا النحو من الاستعداد عدت دائماً إلى النقد ، واجتهدت ما استطعت ألا أظلم الصديق لصداقته ، ولا ألطمخ لخصومته ، وليس الظلم مقصوراً على أن تنفض من العمل الأدبي أو العلمي ، أو تنقص من قيمته لأن

صاحبه صديق لك ، أو حرب عليك . بل هناك ظلم أقبح من هذا وأشنع ، وهو أن تثي على من لا يستحق الثناء ، أو تغلو في حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار ، وأن تحمد الخصم لأنه خصم ، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك خاصمه فحجز عن إنصافه وتحامل عليه .

ولست أريد أن أخون صديقي « أحمد أمين » بالإسراف في الثناء عليه ، ولا أن أخونه بالفض منه والتقصير في ذاته ، وإنما أريد أن أنسى صداقته ، وأهل — ولو لحظة قصيرة — ما بيني وبينه من مودة كلها صفو وإخاء استطعنا أن نجمله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأغراض الحياة ، إنما أريد أن أنصفه ، وأشهد لقد فكرت وقدرت ، وجهلت نفسي في أن أجد شيئاً من العيب ذى الخطر أصف به هذا الكتاب الذى أقمته إلى القراء فلم أجده ، ولم أوفق من ذلك إلى قليل ولا كثير .

وليس ذنبى أن « أحمد أمين » قد قصد إلى عمله في جد وأمانة وصديق ، وقدرة غريبة على احتمال المشقة والعناء ، والتجرد من المواقف الخاصة . والأهواء التى تعبت بالففوس ، فوفق من ذلك إلى أعظم حظ يستطيع العالم أن يظفر به في هذه الحياة .

نم ؛ وليس من ذنبى أن « أحمد أمين » قد استقصى فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأجاد القراءة ، وفهم فأتقن الفهم ، واستنبط فوق إلى الصواب . ليس من ذنبى هذا ولا ذاك ، وليس من ذنبى أن « أحمد أمين » بعد هذا كله ، وبفضل هذا كله ، قد فتح في درس الأدب العربى باباً وقف العلماء والأدباء أمامه — طوال هذا العصر الحديث — يدنون منه ثم يرتدئون عنه ، أو يطرقونه فلا يفتح لهم ، ووفق هو إلى أن يفتح على مصراعيه ، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق ناصية ، يتجهج لها عقل الباحث والعالم والأديب ، ليس شئ من هذا ذنبى أنا ؛ وإذا لم يكن بد من أن يلام أحد لأف علماً مصرعياً

قد وفق إلى هذا الفوز المين ، وأهدى إلى اللغة العربية كتاباً لم يسبق إلى مثله ، فلْيَلِمَ هذا العالم للمصرى حبه ، وليعاقب « أحمد أمين » لأنه قد ظفر بهذا الفوز .

قد اختار « أحمد أمين » لكتابه عنوانه هذا « ضحى الإسلام » وهو لا يقدر إلا أن الضحى يأتي بعد الفجر ، وأنه وقد أظهر « فجر الإسلام » يجب أن ينمّس في ضناه ، أما أنا ، فكنت أهم مع هذا التهم ، وأذهب معه هذا المذهب ، ولكنى لم أكّد أبداً معه قراءة الكتاب حتى أخذت أحس شيئاً لم أرد أن أتحدث به إليه ، مخافة أن يكذب ظنى مضيقاً في قراءة الكتاب ، ولكننا مضينا ، ومضينا حتى آتينا هذا الجزء الذى قلمه إلى القراء . فإذا هذا الشيء الذى كنت أحبه يزداد وضوحاً وجمالاً وقوة . وإذا ظنى يصدق شيئاً فشيئاً حتى يصبح يقيناً ، وإذا أنا مؤمن إيماناً لا يشوبه الشك بأن هذا الكتاب الذى أنا سعيد بتقديمه إلى القراء يُلقى على تاريخ الإسلام في العصر العباسي الأول نوراً رائئاً وضاء قوياً هو أشبه شيء بنور الضحى .

فالكتاب « ضحى الإسلام » لأنه يدرس تاريخ الحياة العقلية للمسلمين في القرن الثانى للهجرة ، وهو « ضحى الإسلام » لأنه قد جلى هذه الحياة وأظهرها للناس كأوضح ما يمكن أن تكون ، وكأجل وأبعى ما يمكن أن تكون ، ولست أدرى أيها أهنى بهذا الفوز « أحمد أمين » لأنه قد جد وألح ومضى في الجد والإلحاح ، حتى انتهى إلى هذا التوفيق أم الجامعة المصرية لأنها قد احتلت إلى « أحمد أمين » وولت إليه ما وكلت من أنواع الدرس وفنون البحث ؟ ولعل الخير كل الخير في أن أصرف هذه التهنئة عن « أحمد أمين » وعن الجامعة إلى الذين يقرءون اللغة العربية ، ويعنيهم أن يؤرخوا آدابها ، ويستكشفوا ما اشتملت عليه من الكنوز التى كانت مجبولة إلى الآن ، هؤلاء أحق بالتهنئة لأنهم سيبرون منذ اليوم إلى

أغراضهم في طريق واضحة سهلة معبدة ، يغمرها نور الفضي .

لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل ، غامضة مضطربة يتحدث عنها مؤرخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق ، ويقولون فيها بالظن لا باليقين . ذلك عصر قد اضفى ، وألقى بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستار صفيق ألقاه « أحمد أمين » ، وأصبح الذين يقصدون إلى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا ، ويسيروا في منحهم على بصيرة وهدى .

ما أكثر ما كنا نضيق صدرنا بهذه الأمور الغامضة التي كان يابغأ إليها مؤرخو الآداب حين كانوا يذكرون تطور الحياة الإسلامية — أيام بنى العباس — بفضل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم ، وبفضل اتصال العقل العربي بالمقول الأجنبية ، وبفضل الترجمة والمترجمين ، والتأليف والمؤلفين . كانت هذه الألفاظ كلها رموزاً إلى الآن تدل على أشياء كثيرة ، ولكنها لا تدل على شيء . تُصَوِّرُ أمام الباحثين صوراً مختلطة مضطربة لا تحصى ولا تستقر ، فهي ذاهبة أبداً ، جاثية أبداً ، غامضة أبداً . نسي إليها ، ولا نفلح بها . أو يصرفنا عنها الكسل العقل ، الذي هو آفة حياتنا الأدبية في هذا العصر . أما الآن فقد ضببطت هذه الصور أحسن ضبط ، وجلت أحسن تجلية ، وأصبحنا إذا ذكرنا تطور الأمة العربية أو الأمم الإسلامية في القرن الثاني للهجرة نعرف بل نحس حقيقة هذا التطور ومصدره ، والآماد التي اتت بها إليها ، وأصبحنا إذا ذكرنا الحياة الاجتماعية للمسلمين في هذا العصر لا نقول كلاماً مبهماً ، وإنما نقول كلاماً يدل على ما يراد به أحسن دلالة وأجلاها ، يدل على طبيعة هذه الحياة وما تقوم عليه من اتصال بين الأفراد والجماعات ، على اختلاف الأجناس واليثلث والأمزجة ، يدل على طبيعة الزواج الذي كان يكون بين هؤلاء الناس فيخبط دماؤهم خلطاً ، أو قل يمزجها مزجاً ،

يدل على طبيعة الرق الذي عا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم ، وصهرها كلها في مِرْجَل واحد هو النولة الإسلامية ، فكون منها شخصية جديدة كل الجدة ، طريفة كل الطرافة ، هي شخصية الأمة الإسلامية .

نم ؛ ويدل على هذه الطبقات التي كان يتألف منها الجسم الاجتماعى ، للأمة الإسلامية ، والتي كانت تنقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة ، التي يحتاج إليها هذا الجسم لا ليحيا فحسب ، بل ليزفه هذه الحياة ويرقيها ، ويأخذ فيها بأعظم حظ ممكن من الترف المادى والعقل والشعورى جميعا .

وإذا ذكرنا الثقافة اليونانية ؛ فلن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى اللبهم الذى زمرنإ إليه بالفلسفة أحيانا . ولكننا سنعرف بالضبط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان ، وكيف أخذوه ، ومن أين أخذوه ، وكيف أساغوه أولاً ، ثم تمثّلوه بعد ذلك ؟ وقل مثل هذا فى الثقافة الهندية والفارسية ، أستغفر الله بل خيراً من هذا ، قل أكثر جدّاً من هذا ، فما أعلم أن باحثاً عن تاريخ الأدب العربى وفقى إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند ، أو بين العرب والفرس إلى مثل ما وفقى إليه « أحمد أمين » .

وهو — بعد هذا كله — أول من بسط هذا فى اللغة العربية بسطاً يطمئن إليه الباحث الذى يسلك إلى بحه طريق الجد والصدق ، لا طريق المبت والتضليل . وإذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية ؛ فلن نفهم منهما منذ اليوم ما كنا نفهمه من قبل ، من أن اتصال المسلمين باليهود والنصارى قد أحدث بين أولئك وهؤلاء ضروباً من التأثير العقلى العام .

ولكننا سنعرف طبيعة هذا التأثير ومقداره ومصدره ، ثم سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة ؛ فيها أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن .

أستطيع أن أقول إن « أحمد أمين » حينما انتدب لتأليف هذا

الكتاب قد اتخذ لآمة الحارِب ، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليلفنه ، أو ليمدله عن إظهار الكتاب . وهذا الغرض : هو تحليل الحياة العقلية الإسلامية في القرن الثاني من النُمُوس والإيهام ، وما زال بهذا النُمُوس والإيهام حتى أجلاهما عن موقفهما ، وانتزع منهما حياة السليدين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة . وكان يزورنى كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائحة من الفنائم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المتصلة ، فأقاسمه سعادته بالظفر ، واغبطاه بالفوز .

ولست أحب أن تقدر أنى أعمد في هذا الكلام إلى ضروب الحزاز وألوان التمثيل لأزين القول وأتممه ، ولكنى أحب أن تستيقن أنى إنما أقول الحق خالصاً من كل زينة ، بريئاً من كل تنميق . فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً عنيفة طويلة مملّة بين المؤلف وبين النُمُوس والإيهام . وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره ، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التي سترها في فصول هذا الكتاب ، ويتأهب في الوقت نفسه لهجمة أخرى يكسب بها موقعة أخرى ، وينتصر بها انتصاراً جديداً .

ومع أن المؤلف قد أفتق جهداً قوياً في أن يجتنبك مشاركته فيما كان يحمل من عناء ، ويلقى من مشقة ، وينوق من مرارة الصبر والمصابرة ، ومطاوله المسائل المعضلة التي كانت تعرض له : فأنت واجد أثر هذا كله في فصول الكتاب ، حيث ترى المؤلف يسير في أناة تشبه البطء ، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة ، تشبه أن تكون إغراقاً في التفصيل ، وتقليداً للجاحظ في حب الاستطراد ، ولكن اثبت لهذا البطء ، واصبر لهذا التفصيل ، وامض مع الكاتب في رفق وأناة ، فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرقى أقوم جداً مما كنت تظن ، وأنفس جداً مما كنت تنتظر ، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً ، وإنما قصد إليها قصداً ، وتممدها تعبداً . لأنه لم يكن

يستطيع أن يعدل عنها حتى يضحى بالأمانة العلمية ، والتحقق الذى يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء .

ولا تخف من هذا البطء ، ولا تشفق من هذه المطاوعة ، فان يمترضك ملل ، ولن يغفل من حذك سأم ، ولن تضيق بالكتاب لحظة ، فقد عرف الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك ، وكيف ييث أملكك فى هذه الطريق من الزهر ما يستهوى عينك ، وكيف ينشر حولك فى هذه الطريق من الأصداخ الحارة ما يخلب أذناك . وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول ، وسترى أن الكاتب على إبطائه وأناته مسرع مسرف فى السرعة بعض الأحيان .

أشهد لقد وفق « أحمد أمين » فى هذا الكتاب إلى الإجابة العلمية والفنية معا : استكشف الحياة العقلية الإسلامية استكشافاً لم يسبق إليه ، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شئ عن جفاء العلم وجفوته ، وأدنى شئ إلى جبال الفن وعنوجته .

فلنيم القراء بفصول هذا الكتاب ، ولنيم المؤلف بما ينم به الظافر حين ينتهى إلى فوز لا تشوبه شائبة . ولتكن هذه الحياة الجادة الخصبه المنتجة — فى تواضع ولين جانب — التى يحياها « أحمد أمين » درساً نافعاً ، ومثالاً صالحاً للذين يريدون أن يحياوا فى مصر حياة العلماء .

لم حسين

الباب الاول

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الاول

مقدمة

يصور بعض المؤرخين الحالة — وقد سقطت الدولة الأموية ؛ وقامت الدولة العباسية — تصويراً يخيل إليك منه : أن هناك حدوداً فاصلة بين الدولتين ، وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بانتهاء الدولة الأموية ، وأن صفحة أخرى بدئت بقيام الدولة العباسية ، وأن ليس هناك كبير علاقة بين الأمة الإسلامية في عهدها الأول ؛ والأمة في عهدها الثاني . وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة ؛ وعلى الأخص من الناحيتين : الاجتماعية ، والعقلية .

فقد حدثت حوادث في صدر الإسلام وفي عهد الدولة الأموية — أخذت تعمل عملها منذ وجودها ، واستمر تأثيرها مع سقوط الأمويين ، وقيام العباسيين . خذ لنك مثلاً : تعاليم الإسلام . فقد ظلت تعمل وتنتشر ؛ مؤثرة في البلاد المفتوحة ومتأثرة بها . وكذلك الشأن في انتشار لغة العرب ؛ فلم

يكن قيام الدولة العباسية صفحة جديدة لهذين الماملين ، وإنما كانت مهذاً لامتدادها — ومن أوضح النثل على ذلك : عملية الامتزاج بين الأمم الفاتنة والمفتوحة . فقد بدأت من عهد عمر بن الخطاب ، ووقفت وقفة صغيرة لما أصاب الأمم للعلوبة من الدهش . ثم بدأت تخضع للنظم الاجتماعية ؛ من تزاوج ، ودخول في الإسلام ، وتعلم للعربية . ثم ظهور جيل جديد يحمل الدم العربي والأجنبي معاً ، بل يحمل مع ذلك خصائص الأمم المختلفة التي يتكون منها دمه . سواء كانت خصائص جسمية ، أو عقلية ، أو خلقية ، أو روحية . وأخذ هذا الجيل في الظهور في عهد الدولة الأموية ، وظل ينمو ويتعاقب في الدولة العباسية — وكان من نتائج هذا الامتزاج : أن كل جنس بدأ يتعلم من الأجناس الأخرى ما يشعر بأنها أخذته منه بحظ أوفر . فالعربي يأخذ من الفرس والرومان حضارتهم ، والفرس تأخذ من العرب الدين ، واللغة ، وهكذا . وهذه العمليات ظلت سائرة في العهد العباسي ؛ كما كانت سائرة في العهد الأموي .

بل أستطيع أن أقول : إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر في الحكم الزمن الذي حكمته الدولة العباسية ، لظهر على يديها من الحركات العلمية ، والإصلاحات الاجتماعية ؛ قريب مما ظهر على يد العباسيين . ودليلنا على ما نقول :

(١) أن الدولة الأموية نفسها وهى هي ، كانت الحركة العلمية ، والمذاهب الدينية ، والنظم الاجتماعية ؛ في آخرها أرقى منها في أولها . فانتظمت تعاليم الخوارج ، ونشأ الاعتزال ، واعتنقه بعض الخلفاء الأمويين ، ونظمت حلقات الدروس في المساجد ، وأخذ العلماء يبحثون مسائل في القدر ، وغير القدر ، وتناقشوا مع اليهود والنصارى وبدأت نواة التأليف ، والترجمة ،

وظهرت الكتابة الفنية — إلى كثير من أمثال ذلك — ولو كان اتساع الحركة العلمية من عمل العباسيين وحدهم لكان آخرُ الدولة الأموية يشبه أولها .

(٢) أن الأمويين أنفسهم لما انتقلوا إلى الأندلس ، وكونوا فيها مملكة عاصرت العصر العباسي الأول ؛ لم يكن تشجيعهم للعلم وحركة الترجمة والتأليف أقلّ كثيراً من عمل العباسيين . وكذلك مدنيّتهم وحضارتهم . وأكبر فرق بينهما : نشأ مما أحاط بالعباسيين من مدينيات العراق القديمة ، والفرس ، واليونان وما أحاط بالأمويين بالأندلس ، من مدينة لائيقية . فاما الليل إلى التوسع في الحضارة ، ومنها العلم ، والأخذ بأوفر حظ من الفظ الاجتماعية التي تليق بهم ؛ فنكان حظّ الدولتين ممّا .

ذلك بأن المملكة الإسلامية ، كانت من أول عهدها تسير متقلّة في أطوارها الطبيعية . ويُسلّمها طَوْرٌ إلى طور ، فتنتقل من طور تغلب فيه البداوة ، إلى طور من الحضارة ، ثم إلى طور آخر ، وهكذا . . . وجاءت الدولة العباسية ؛ والأمة سائرة إلى الحضارة بطبيعة ما يحيط بها من ظروف . فسارت في هذا الانجاء . وانحطاً كل انحطاً أن يُفهم أنها أوجدته من عدم !

نعم ! إن هناك عوامل ظهرت مع العباسيين — وبعضها من عملهم ؛ كغلبة النفوذ الفارسي ، ونقل العاصمة من الشام إلى العراق . وكان لهذه العوامل أثر غير قليل في نمو الحركة العلمية والاجتماعية ، ولكن هذه الحركات كانت حركات مساعدة فقط . ولو لم توجد لاستمرت الأمة في سيرها إلى الحضارة ، وإن كان يكون سيرها أبطأ . فسلطة العنصر الفارسي كانت تنمو في الحكم الأموي ، وعلى الأخص في آخره ، ولو لم يتح لها فرصة الدولة العباسية لأتيحت لها فرص أخرى مختلفة الأشكال . والعراقيون كان يصح أن يُستخدموا في الحركة العلمية -- والعاصمة في الشام — بل نحن نرى بالفعل ، حركة الحسن البصري وتلاميذه الدينية بالبصرة تنمو وتقوى . والحركة اللغوية تنمو

وتقوى ؛ يمثل أبى عمرو بن التلاء ، وقربنه عيسى بن عمر الثقفى — بالبصرة
أيضاً — فى عهد الدولة الأموية . ولم يكن اتساع هاتين الحركتين فى العهد
العباسى إلا أثرًا لمؤلا وأمثالم ، وتقدمًا طبيعىً نتج من نشاط تلاميذهم .
ولكن مما لاشك فيه أن الحياة الاجتماعية — التى كانت تهيأها الدولة
العباسية — لونت العلوم والآداب بلون خاص ، وجعلت لها صفات خاصة ،
ما كانت تكون لو استمرت الدولة الأموية فى حكمها .
وهذا ما سنحاول وصفه فى الباب الآتى . وسنقتصر من وصف الحياة
الاجتماعية ، على ماله أثر كبير فى العلم والفن .

الفصل الأول

سكان المملكة الإسلامية في هذا العصر

واضح أن الأمم تختلف في ميزاتها اخلافاً كالذي بين أفرادها . فهي تختلف في عاداتها ، وتجارها ، وفي منهج تفكيرها ، وكفايتها ، ودرجة عقليتها ، ومقدار ثقافتها ، وحدة عواطفها ، أو هذونها .

وفوق ذلك ، نرى أن لكل أمة « أدباً » يختلف عن أدب الأمم الأخرى . وأدب كل أمة منتزع من : طبيعة إقليمها ، وتاريخها ، وخيالها ، وملوكها وسوقها ، وعقلائها وسفهاءها وصلحاءها وجرميها ، ومن نظامها السياسي ، وعلى الجملة من كل شيء يتصل بحياتها .

نستطيع بعد ذلك أن نقول : إن المملكة الإسلامية في هذا العصر كانت مكونة من أمم مختلفة . فقد كان من أجزائها المغرب — حيناً — ومصر والشام وجزيرة العرب ، والعراق ، وفارس ، وما وراء النهر . وكانت هذه الأمم تختلف فيما بينها كل الاختلافات التي أبتناها . وكلها خضعت للحكم الإسلامي ، وتكون منها جميعاً مملكة واحدة ، وكان لكل أمة من هذه الأمم مزايا وصفات عرفت بها ، فشهد العرب مثلاً : بالقدرة على الشعر ؛ حتى قال أحمد بن أبي دؤاد : « ليس أحدٌ من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر ، طبعاً رغب فيهم ، قل أو كثرة ^(١) » . واشتهر أهل السند ؛ بالصيرفة ، والعم بالمعاقير . يقول الجاحظ : « إن السند لم طبيعة في الصرف ، لا ترى بالبصرة صيرفياً إلا وصاحب كيسه سندي ، واشترى محمد بن السكن أبا رواح السندي

(١) الأغاني : جز ٢٠ : ٥١ .

فكسب له المال العظيم ، وَقَلَّ صيدلانيٌّ عندنا ، إلا وله غلامٌ سِنْدِيٌّ ، قَبِلُوا
أيضاً في الخبرة ، والمعرفة بالمقايير ، وفي صحة المعاملة ، واجتلاب الحرفاء مبلغاً
حسناً ^(١) ، واشتهر أهل مرو ، وخراسان بالبخل ؛ حتى قال في العقد الفريد :
« أجمع الناس على بخل أهل مرو ، ثم أهل خراسان ؛ قال ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ :
« ما رأيتُ الذئبَ قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاجَ ، ويثيرُ الحبَّ إليها ،
ويَلطَفُ بها . إلا في مَرَوْ ، فإني رأيته يأكل وحده ؛ فقلت أن يؤمهم في
المأكَل . ورأيت في مَرَوْ طفلاً صغيراً في يده بيضة ، فقلت له : أعطني هذه
البيضة ؛ فقال : ليس تَسعُ يدك ؛ فقلت أن اللؤم ، وللمنع فيهم بالعُطْمِ المُركَّبِ ،
والحيلةُ التفتُّورة » ^(٢) .

واشتهر البمانون بالمشق ، والحجازيون بالدَّلِّ ^(٣) ؛ كما اشتهر العراقيون ،
بالظُرف . قال إسحاق بن إبراهيم اللوصلي :

لَنْ قَلْبِي بِاللَّيْلِ تَلَّ عَرَازِي ^(٤) مَعَ ظُفْرِ مِينَ الظُّبَاءِ الْجَوَازِي

شَادِنٍ ، لَمْ يَرَ الْيَرَّاقِ ، وَفِيهِ مَعَ ظُفْرِ الْيَرَّاقِ ، دَلُّ الْحِجَازِ

وعُدَّ الجاحظ مزايا كل أمة في عصره . فقال : « ميزة سكان الصين ،
الصناعة . فهم أصحاب السبك ، والصياغة ، والأفراغ ، والإذابة ،
والأصباغ الصبغية ، وأصحاب الخراط ، والنحت ، والتصاوير ، والنسج .
واليونانيون يعرفون المِلكَ ؛ ولا يباشرون العمل . ويميزتهم الحكم والآداب .
والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ، ولا حُساباً ، ولا أصحاب
فلاحة ، فيكونوا مهنة . ولا أصحاب زرع تلخوهم من صفار الجزية . . .
ولا طلبوا للماش من السنة للكتليل ، ودهوس الموازين ، ولا عرفوا
الدوائيق ، والقرايط . فحين حملوا حُدْمَهم ، ووجهوا قواهم إلى قول الشعر ،

(١) الحيوان : جزء ٣ : ١٣٤ . (٢) العقد الفريد : جزء ٣ : ٣٦١ .

(٣) زهر الآداب . جزء ١ : ٢٢٣ . (٤) تل عراز بفتح العين قال أبو الفرج الأصفهاني

إنه بالركة . وأنشد البيهقي ٨١ . وهناك تل آخر بهذا الاسم شمال حلب ذكره بانوت .

وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة ، وتصريف الكلام وقياة البشر ؛ بمد
 قياة الأثر ؛ وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ،
 وتعرف الأنواء ؛ والبصر بالخليل ، والسلاح ، وآلة الحرب ؛ والحفظ
 لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب ، والثائب .
 بلغوا في ذلك الناية . وميزة آل ساسان : في الملك والسياسة ، والأتراك : في
 الحروب . . وليس في الأرض كله تركي كما وصفنا . كما أنه ليس كل
 يوناني حكيم ، ولا كل صيني في غاية من الحذق . ولا كل أعرابي شاعراً ،
 قائماً . ولكن هذه الأمور في هؤلاء أمم وأمم . وفيهم أظهر وأكثر^(١) . وقال
 في موضع آخر في الكلام على الزنج : « وم أطبع الخلق على الرقص ،
 والضرب بالطبل ؛ على الإيقاع الوزون ، من غير تأديب ، ولا تعليم .
 وليس في الأرض أحسن خلقاً منهم^(٢) » « واشتهر الهند بالحساب ، وعلم
 النجوم ، وأسرار الطب ، والخرط ، والتنجير ، والتصاوير ، والصناعات
 الكثيرة العجيبة^(٣) .

كذلك كانوا يختلفون في الأهواء ، والميول السياسية ، يوضح ذلك :
 ما رواه ابن فضال : « قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة — حين
 اختارهم للدعوة ، وأراد توجيههم — : أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة على
 ابن أبي طالب . وأما البصرة : فعمانية تدين بالكف ؛ وتقول : كن عبد الله
 المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة غربية مارقة ، وأعراب :
 كأعلاج ، ومسلمون ؛ في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام : فليس يعرفون
 إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان ؛ عداوة لنا راسخة وجهاً متراكماً .
 وأما أهل مكة والمدينة : فقد غلب عليهما أبو بكر ، وعمر . ولكن عليكم بخراسان
 فإن هناك المدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وصدوراً سليمة ، وقلوباً فارغة ،

(١) انظر رسائل الجاحظ : ٤١ وما بعدها . (٢) رسائل : ٦٣ (٣) رسائل : ٧٣ .

لَمْ تَنْقَسَمْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَتَوَزَّعْهَا النَّحْلُ ، وَلَمْ تَشْتَلَهَا دِيَانَةُ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهَا
فَسَادٌ ، وَلَيْسَتْ لَمْ الْيَوْمَ هَمُّ الْعَرَبِ ، وَلَا فِيهِمْ كَتَحَاذِبُ الْأَتْبَاعِ بِالسَّادَاتِ ،
وَكَتَحَاذِلِ الْقَبَائِلِ ، وَعَصَبِيَّةُ الْعَشَائِرِ . وَلَمْ يَزَالُوا يُذَالُونَ ، وَيُسْتَهْنَوْنَ ،
وَيُظْلَمُونَ وَيَكْظَمُونَ ؛ وَيُؤْمَلُونَ الدُّلُولُ . وَهُمْ جَنْدُ لَمْ أَجْسَامِ وَأَبْدَانِ ،
وَمَنَاكِبِ وَكَوَاهِلِ ، وَهَامَاتِ وَلَحَى وَشَوَارِبُ ، وَأَصْوَاتِ هَائِلَةٍ ، وَلَفَاتِ
نَفْخَةٍ تُخْرِجُ مِنْ أَنْفَوَاهِ مَنْكَرَةً ^(١) .

كذلك كان في كل أمة من هذه الأمم طوائفٌ مختلفة لها شعائر،
وعادات خاصة ، فمنهم يهودٌ ؛ حافظوا على تقاليدهم ، وحرّموا الزواج
إلا منهم ، ونصارى ؛ تمسكوا بشعائرهم وعاداتهم ، ومجوس ؛ يقيمون هياكلهم ،
ويوقدون نيرانهم .

كما نجد خلافاً في الآداب فُتْرَسَ لَمْ أَدَبٌ هو نتيجة تاريخهم ،
وحياتهم الاجتماعية . وعراقيون لَمْ آدَابٍ قَدِيمَةٍ وَرَثُوهَا مِمَّا اعْتَصَرَهُمْ مِنَ
الدُّلُولِ . ومصريون لَمْ أَدَبٍ كَذَلِكَ ، وأدب هندي ، وأدب شامى ،
وأدب يوناني ، ورومانى .

دع عنك الاختلافات الإقليمية : فأمةٌ تعيش في جبل ، وأخرى في
سهل ؛ وجوٌّ باردٌ شديد البرودة ، وحارٌّ شديد الحرارة ؛ وأمةٌ ساحلية ،
وأمةٌ صحراوية . وما يستتبع ذلك من خلاف بين الأمم في العادات ،
والطبيعة ، والزواج .

كل هذه الاختلافات التي لم نذكر منها إلا أمثلة قليلة ؛ كانت تكون
الملسكة الإسلامية في العصر العباسى الأول ، وكانت ساحتها وعلمها تُصْطَرِّهُ
فيه هذه المواد المختلفة ، وتتفاعل فيه كما تتفاعل الأجسام المختلفة كياوياً .
وقد كانت هناك عوامل قوية ساعدت على هذا الامتزاج . ألمنا بها في الجزء

(١) عبون الأعبار . جزء ١ : ٢٠٤ .

الأول من كتابنا^(١) . ولكن لا بد أن نزيد هنا كلمة عن شيء كان ظاهرة الأثر في هذا العصر ، وهو « عملية التوليد » :

ونتنى بالتوليد ؛ أن يتزاوج رجل من أُمّة وامرأة من أُمّة أخرى ؛ فينشأ بينهما نسل يجري في عروقه دم الأُمّتين . وقد امتاز العصر العباسي الأول بكثرة هذا الجيل من الناس . وكان هذا التوليد ظاهرة قوية ؛ نتجت عن اختلاط الأجناس ، ومن نظام الرقّ والولاء الذي طُبّق عقب الفتح الإسلامي . فقد أصبح البيت الإسلامي — وخصوصاً بيوت الخلفاء ، والأمراء ، والأغنياء — « عصبية أم » ينتج من النسل ما يحمل خصائص الأم المختلفة . خذ لذلك مثلاً : بيت أبي جعفر المنصور . فقد كان في بيته : أرؤى بنت منصور الحنظليّ وأولدها المهديّ ، وجعفر الأكبر . وأُمّة كردية كان المنصور اشترأها ففسرها ؛ فولدت له جعفر الأصغر . وأُمّة رومية يقال لها « قالي » أولدها « صالحاً المسكين » . وامرأة من بني أمية أولدها بنتاً تسمى « العالية »^(٢) . هذا مع أن أبا جعفر المنصور لم يسرف في التسرى إسراف من أتى بعده . « وكان للرشد زهاء ألفي جارية من المفتيات والخدمّة في الشراب ؛ في أحسن زَيٍّ من كل نوع من أنواع الثياب ، والجوهر »^(٣) . « ويقال : إنّه كان للمتوكل أربعة آلاف سرّيّة »^(٤) . وسيأتى من ذلك الشيء الكثير عند الكلام في الجوارى .

كانت هذه الجوارى المختلفة الأنواع ، تُوزّع على القاطنين ، وتباع في أسواق النخاسين ، وتهبّدى كما تهبّدى الطُرف اللطيفة ، وتمنح كما يمنح المال . وكانت الحرائر من الأمم المختلفة ؛ تتزوج من غير جنسها ، وكانت هؤلاء وهؤلاء ينسلن نسلًا عديداً ، وكان نسلهن أكثر من نسل العربيات

(١) انظر كتاب فجر الإسلام : الجزء الأول ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) اللقد ٣ : ٢٩٨ . (٣) أغانى : ٩ : ٨٨ .

(٤) مسعودى جزء ٣ : ٣٠٨ .

الخالصات ؛ قلعة عدد العرييات إذا نسب لغيرهن . بل كان ذلوع الناس بالاختلاط بغير العرب أقوى وأشد ، وميلهم إلى الإمام أكثر منه إلى الحرائر . ولذلك سببان : (الأول) أن الجمال في كثير من نساء هذه الأم المفتوحة أوفر ، والحسن أتم ؛ قد صمكتن الحضارة ، وجلاهن النعيم . هذا إلى ما حببهن به طبيعة الإقليم ؛ من بياض البشرة ، وصغرة الشعر ، وزرقة العيون ، ونحو ذلك . (الثاني) ما أشار إليه الجاحظ ؛ من أن عادة الزوج بالحرائر ، كانت في عهده كعادتنا الآن ! لا ينظر الرجل إلى من يريد أن يتزوج ؛ ولكن تتوسط « الخاطبة » فتروى له من محاسنها ما تشاء . وقد لا يتفق ذوقها وذوقه . . . هذا إن صدقته ! . وليس ذلك هو الشأن في الأئمة ، فهو يراها قبل أن يقدم على تملكها . قال الجاحظ : « قال بعض من احتج للعملة التي من أجلها صار أكثر الإمام أحظى عند الرجل من أكثر المهيئات^(١) : إن الرجل قبل أن يملك الأئمة قد تأمل كل شيء منها ، وعرف ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بمد وقوعها بالمواقفة . والحررة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال ، ومواقفتهم قليلا ولا كثيرا ! والرجال بالنساء أبصر . . . وقد تحسّن المرأة أن تقول : كان أنفها السيف ! وكان عينها غزال ! وكان عنقها إبريق فضة . . . ! وكان شعرها المناقيد . . . ! وهناك أسباب أخرى ، بها يكون الحب والبغض »^(٢) .

ومن أقوال العرب المشهورة : « الأئمة تُشتري بالعَيْن : وتردُّ بالعمية ، والحررة غُلٌّ في عنق من صارت إليه ! » . وقالوا : عَجبت لمن لبس القصير ؛ كيف يلبس الطويل ! ولئن أخفى شعره ؛ كيف أعفاه ! وعجبا لمن عرف

(١) الميرة : الحررة الغالية للمهر .

(٢) رسائل الجاحظ : ١٦٨ .

الإمام ؛ كيف يُقدِّم على الحرَّاء ١١»^(١) .

وقد اشتهرت الأصقاع المختلفة ؛ بميلهم إلى أجناس مختلفة من النساء بمحك الجوار ، وبمحكم ما كانوا يأْمِرون ويسْتَرْقُونَ « من ذلك : أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم : الهندياتُ وبناتُ الهنديات ، والأغوار^(٢) . واليمن أشهى النساء عندهم : الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل الشام أشهى النساء عندهم : الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم وسبيهم إلا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس »^(٣) .

من هذا الاختلاط الذي أبنا طرْقًا منه ؛ نشأ جيل جديد يحمل ميزات خاصة ، حتى بعض الخلفاء أنفسهم كانوا من هذا الصنف « فالحيزُران سبئية هي من خَرْشنة^(٤) ولدت موسى الهادي ، وهرون الرشيد ، ابني محمد المهدي . وشاهسفرم بنتُ فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى ابروز ، ولدت للوليد بن عبد الملك ، يزيد بن الوليد الناقص ، وإبراهيم بن الوليد الخلويع^(٥) . ومروان بن محمد ؛ ابن أمة كردية^(٦) . وأبو جعفر المنصور ؛ أمه بربرية اسمها سلامة . والمأمون ؛ أمه أمة تسمى سراج . والمتنم ، أمه أمة تسمى مازدة . والواثق ؛ أمه أمة تسمى قراطيس . والمتوكل ؛ أمه أمة تسمى شجاع^(٨) . ومثل ذلك في العلماء ، والشعراء . قال الأصبهي : « كان أكثر أهل المدينة

(١) العقد الفريد ؛ جزء ٣ ؛ ٢٩٦ .

(٢) في القاموس ؛ الفورة ؛ الغم ؛ بلدة عند باب هراة ، وبلا هاء ؛ ناسية بالمعجم ..

(٣) رسائل الجاحظ ؛ ٧٥ .

(٤) خَرْشنة ؛ بلدة قرب ملطية . قال أبو فراس ؛

إن زرت خَرْشنة أسيرا فلکم حطت بها أميرا

(٥) في كتاب البلدان لابن الفقيه ؛ بناء هذا الاسم ، شاهنرد ولعله أصبح !

(٦) زهر الآداب - هاشم القند - جزء ١ ؛ ٢٢٢ .

(٧) الطبري جزء ٩ ؛ ٣١٨ .

(٨) انظر كتاب المعارف لابن قتيبة ١٢٨ وما بعدها .

يكرهون الإمام ، حتى نشأ منهم علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله . ففاقوا أهل المدينة فقهاً ، وعلماً ، وورعاً . فرغب الناس في السراى^(١) .

خضع هذا الصنف من المولدين لقوانين « الوراة » فكسب من آباءه وأمهاته صفات خاصة . وكان صنفًا ممتازاً . والعرب من قديم آمنوا بأن الزواج بالأبعد ، خير من الزواج بالأقارب . وروى في الخبر « اغتربوا لا تفضوا »^(٢) . وقال الشاعر :

فَقَى لَمْ تَقْلُدْهُ بِنْتُ قَوْمٍ قَرِيبَةٍ ، قَيْضُوى . وَقَدْ يَضُوى رَدِيدُ الْقَرَائِبِ
وقال آخر :

أُنْذِرْ مَنْ كَانَ يَبْعِدَ الِهَمَّ ، تَزْوِيجَ أَوْلَادِهِ بِنَاتِ الِثَمِّ
فَلَيْسَ نَاجٍ ، مِنْ ضَوْى وَسُمْ

ورؤوا : « أن عمر نظر إلى قوم من قريش ؛ صغار الأجسام . فقال :
مالكم صغرتم ؟ قالوا : قرب أمهاتنا من آبائنا . قال : صدقتم ؛ اغتربوا .
فتزوجوا في البعداء فأعجبوا »

والواقع أيد هذه النظرية : فالمولدون في مصر المباشى ؛ كانوا من
أظهر العناصر ، ولم يمتازوا بصفات مختلفة ، في أجسامهم ، وعقولهم ، وصناعاتهم ،
وذلك باختلاف أمهاتهم . يقول أحد القواد : « ما في الدنيا أحد أشجع من
أبناء خراسان المولدين ، ولا أفنك منهم »^(٣) . ويقول الأصمى : « بنات العم
أصبر ، والنرائب أنجب ، وما ضرب رموس الأبطال كابن الأبحمية » .
« وسئل بعضهم عن ولد الرومية . فقال : صلف ، مُعْجَب ، بخيل . قيل : فولد

(١) العقد : ٣ : ٢٩٦ .

(٢) معناه : تزوجوا في البعداء الألساب ؛ لا في الأقارب . قال في اللسان : « وذلك أن

العرب تزعم : أن ولد الرجل من قرابته يحى ضارياً ، شحفاً » . (٣) طيفور : ١٤٣ .

الصقليّة؟ قال : طَفِيسٌ ، زَنِيمٌ . قيل : فولد السوداء ؟ قال : شجاع ، سخي .
 قيل : فولد الصفرأ ؟ قال : هم أنجب أولاداً ، وألين أجساداً ، وأطيب أنفواها .
 قيل : فولد العربية ؟ قال : أفنٌ ، حُصودٌ^(١) . الخ . ويقول الجاحظ : « رأينا
 الخِلَاسِيَّ من الناس — وهو الذي يتخلق بين الحبشي والبياض — والعادة
 من هذا التركيب ؛ أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ، ومثيرة .
 ورأينا اليسريَّ من الناس — وهو الذي يخلق من بين البياض ؛ والهند —
 لا يخرج ذلك التناجُ على مقدار ضخم الأبوين ، وقوتهما ؛ ولكنه يحى أحسن
 وأملح^(٢) . » ويقول في العلة ؛ في ميزة النصراني على اليهود في الشكل ، والعقل :
 « إن الإسرائيلي لا يزوج إلا الإسرائيلي . . . فكانت الفرائب لا تشوبهم ،
 وفحولة الأجناس لا تضرب فيهم^(٣) . »

إن شئتَ ؛ فانظر في كتاب الأغاني ، تجد أن أكثر من نبغ من المغنيات
 في الحجاز ، ثم في العراق ؛ في العصر الأول العباسي من « مولات المدينة » أو
 من تلاميذهن — ومولاتُ المدينة : نساء تتجن من آباء عرب ، وأمّهات من
 غير العرب — أو شئتَ ؛ فانظر إلى كثير من العلماء ، والأدباء ، وتحرّ
 أجناس آباؤهم ، وأمّهاتهم ، تجدهم من المولدين . وقد رأيتَ شهرة مولدي
 خراسان ، ومولدي الأبحام عامة ؛ بالشجاعة . وقديماً ظهر باليمن عنصر ممتاز سماهم
 العرب « الأبناء » . « وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لنا
 جاء يستعجده على الحبشة ؛ فنصروه ، وملكوا اليمن ، وتدبروها
 وتزوجوا في العرب ، فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن
 أمّهاتهم من غير جنس آباؤهم^(٤) . » ومن مشهورى العلماء من الأبناء : طاووس

(١) محاضرات الأدباء جزء ١ : ٢٠٧ . (٢) كتاب الحيوان جزء ١ : ٧١ .

(٣) رسائل الجاحظ — على هامش الكامل — جزء ٢ : ١٦٦ و ١٧٠ والنبارة هناك أطول .

(٤) لسان العرب في مادة « ابن » .

ابن كيسان ، ووهب بن مُتَبِّه التاجيان — غير أن هؤلاء الأبناء ؛ كانوا من أب فارسي ، وأم عربية يمنية . وللوللون في عصرنا المباسي كان أكثرهم من أب عربي ، وأم أعجمية .



وكا كان هناك « توليد » بين الأجسام ، كان هناك توليد عقلي . فمقول الناس من الأمم المختلفة ، كان يتناوبها اللقاح . فالفارسي ؛ يحمل عقلا فارسيا ، ثم يمتنق الإسلام ، ويتعلم اللغة العربية ، فينشأ مزيج من العقليتين ، تتولد منه أفكار جديدة ، ومعان جديدة . واليوناني النصراني ، أو الرومي النصراني ، أو العراقي اليهودي ؛ يخالط العربي المسلم ، ويتبادلان الرأي والقصاص ، والفكرة ، فينشأ من ذلك فكر جديد ، وهكذا . — ومن ثم كان « الأدب العربي » بمعناه الواسع . الذي يشمل كل ثقافة ؛ ليس في الحقيقة أدبا عربيا ؛ وإنما هو « مزيج » طبع بالطابع العربي الإسلامي فسي أدبا عربيا ؛ ولندكر مثلا يوضح هذا : ذلك أنا نرى العرب في جاهليتها أدبها ؛ أدب عربي بالمعنى الصحيح . وهو إن اقتبس شيئا مما حوله ؛ فقد كان اقتباسه قليلا خفيفا . أما الروح الغالبة القوية فهي : الروح العربية . فهو يمثل الحياة العربية أحسن تمثيل ، ويصور حياتهم الاجتماعية أتم تصوير ، فيه خيالهم ، وفيه طريقة صيدهم ، وفيه وصف حروبهم ، ولهمومهم ، وجدهم ، وبدائتهم . فإذا نحن طفرنا إلى المعصر المباسي . وجدنا الناس ، وخاصة الفرس الذين دخلوا في الإسلام ، وكانت لهم غلبة على مرافق السوء ، لم يعودوا يتذوقون بذوقهم الفارسي الشعر العربي الجاهلي ، وإنما يتذوقون ما ألفوا ، من التنقى في شعرهم بالحب ، والخر . فظهر المباس بن الأنحف الخراساني البيئته ، وأبو نواس الفارسي الأم ؛ يشبعان ذوقهما . الأول ؛ في عشقه والثاني ؛ في خمراته . قد كان للعربي الجاهلي شعر في الحب ، وشعر في الخمر .

ولكن شتان بين خمریات طَرَفة ؛ وخمریات أبی نواس ، وشتان بين شوق امرئ القيس ؛ وشوق العباس . ويعجبني في ذلك قول الجاحظ : « كم بين قول امرئ القيس — تقولُ وَقَدْ مَالَ الْقَيْيُطُ بِنَا مَمًا — وبين قول علي بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضَمْنَا ؛ بعدَ هَجْعَةٍ ، وَأَذْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادِ مُعَذِّبٍ
فَبِتْنَا جَمِيعًا ؛ لَوْ تَرَاقُ زُجَاجَةٌ مِنَ الرَّاحِ ؛ فَيَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ ^(١)
لم تكن الحضارة وحدها ، هي التي أشتجت هذا الفرق . ولكن كان من أكبر العوامل فيه : تزاوج الأجناس ، وتزاوج الأفكار ، كالذي كان في الشعر . فقد أخذ الفرس الوزن العربي ، والقافية العربية ، والأسلوب العربي . ولكن أخذوا بجانب ذلك ؛ الخيال الفارسي ، والنوق الفارسي . انظر إلى القصيدة التي يقولها الخريزي : يذكر بغداد ويصف ما انتابها من الفتن — أيام الخلاف بين الأمين والمأمون — والتي مطلعها :

قَالُوا : وَلَمْ يَنْلَقُ الزَّمَانُ بَيْنَدَادَ ، وَتَغْبُرُ بِهِ عَوَايِرُهَا ^(٢)

تحس بنفس قصصى ، ممتع طويل ، لا عهد للعرب به من قبل . وانظر أنواع الحكم الهندية الفارسية العربية — التي تجدها في أقوال ابن المقفع — وانظر القصص الذي في ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة . وانظر أنواع المقامات التي تجلت في عمل البديع ، والحريري . كل هذا وأمثلة : أنواع لا يعرفها العرب انخلص . وإنما كانت — من غير شك — نتيجة عملية التوليد التي أشرنا إليها . وما كانت تكون لو عاش العرب وحدهم . أو الفرس وحدهم . ومثل ذلك يقال فيما ظهر من أنواع العلوم المختلفة ، التي سنوضحها في فصول تالية .

(١) محاضرات الأدباء جزء ٢ : ٦٨ .

(٢) القصيدة في تاريخ الطبري جزء ١٠ : ١٧٦ . وتبلغ ١٤٥ بيتاً .

والخلاصة أن لقاح العقول أنتج مخلوقات جديدة ؛ لها ميزاتها الخاصة ،
كما كان الشأن في توليد الأجسام .

* * *

وبعد : فمع هذه الاختلافات المتنوعة — التي أبنا — كانت هناك روح
واحدة تفرغ على العالم الإسلامي . هي روح شرقية ، توحد بين أفرادها
— مهما اختلفت أجناسهم وأنواعهم — هذه الروح هي التي أخضعت الفلسفة
اليونانية ، لما دخلت في بلادها . فأصبغت عليها ثوباً من روحانياتها ، وإلهاماتها .
وهي التي جعلت علماء التاريخ والاجتماع يدركون خصائص مشتركة بين
الشرق ، تخالف تلك التي للغرب . روح ورثها الشرق من أجيال ، وساعد
على تكوينها يثاثرهم الطبيعية ، والاجتماعية ، وجعلتهم يتذوقون غير ما يتذوقه
الغربي ، ويدركون الأشياء على غير النمط الغربي ، كما جعلت لهم مدنيات ؛
تخالف — من وجوه كثيرة — للمدن الغربية . جاءت الأديان المختلفة من :
بوذية ، ويهودية ، ونصرانية . فصبغت هذه الروح صبغة خاصة . صبغة
لامادية ، تؤمن بإله فوق هذا العالم ، وترجو جنة ، وتخاف ناراً ، وترى أن
وراء هذه السعادة الدنيوية ، والشهوات الجسمية ، سعادة أخرى روحية ! فلما
جاء الإسلام ، ونشر سلطانه على الممالك الشرقية . زاد هذه الروح وقواها ،
وعمل في توحيدها . فقد كانت هذه الأمم المختلفة تخضع لقانون واحد .
ولنظام في الحكم واحد ، وتشكل بلغة واحدة ، ويدين أغلبها بدين واحد .
ورحلات العلماء في منتهى القوة ، على صموبة المواصلات . والرحالون يتبادلون
الأراء ، والمعتقدات ، ويدعون دعوات دينية وسياسية . والحكام يرسلون من
من مركز الخلافة مرزوقين بشعاليين واحدة في جوهرها .

كل هذا : وحد بين الأمم المختلفة ، وكوّن منها ما يصح أن يسمى أمة
واحدة ، لها : أدب واحد ، وثقافة واحدة ، وعلم مشترك .

الفصل الثاني

الصراع بين العرب والموالي

يظهر أن العرب في الجاهلية لم يكن لهم شعور قوى بأنهم أمة ! إنما كان الشعور القوي عندهم : شعور الفرد بقبيلته . ذلك : أنا إذا رجعنا إلى ما نرجع صحتنا من الشعر الجاهلي وجدناه مملوءاً بالشعور القبلي ، فالعربي يمدح قبيلته ، ويتفنى بانتصارها ، ويعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته . ولكن قل أن نجد شعراً يتفق فيه العربي بأنه عربي ! ويفخر فيه على غيره من الأمم . والسبب في ذلك واضح . وهو : أن العرب في الجاهلية لم يكونوا أمة بالمعنى الصحيح . فلم يتحلوا لمة ولا ديناً ، وليس لهم آمال وطنية واحدة ، ولا ما هو شرط أولى للأمة ، وهو وجود شخص ، أو هيئة ، كثة من عدة أشخاص ، لها قوة تنفيذ أوامرها على كافة أفرادها ، وحملهم على 'عها . وطبيعة المعيشة القبلية التي كانت تعيشها تأبى ذلك .

أضف إلى ذلك ؛ أنه لم يكن هناك ما يشجع العرب على هذه الفكرة . لأنهم إذا نظروا هذا النظر لم يشعروا بذلك بعظمة ، ولا غر . فقولهم : الفرس من ناحية ، والروم من ناحية ، وعلاقة العرب منهم ليست علاقة تشعر بالقوة . فهم يتعاملون معهم تجارياً ولكن ليست علاقة الند بالند . بل علاقة الفقير بالثني ، والضعيف بالقوى . ومن تاجر منهم ، وانتقل إلى فارس ، والروم ورأى عظمتهم ، استضعف نفسه — نعم ! وردت بعض قصص قد تنقص ما قول : كالذي رواه القُطَيب عن الكلبي : من وفود العرب على كسرى^(١) ، واختار النعمان « بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم . لا يستثنى

(١) تجمعا في المقعد للفريد : جزء ١ : ١٢٤ .

فارس ، ولا غيرها . وأن أمة لو قرنت بالعرب لَفَضَّلَتْهَا (العرب) بمزها ، ومنعتها ، وحسن وجوها ، وبأسها ، وسخاها ، وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وألفتها ، ووفائها ، الخ » . ولكننا شك في هذا الخبر شكاً كبيراً . فإننا لم نجد هذا الخبر إلا عن الكلبي ، وهو مشهور بالوضع . ولأن هذا الحديث لم نجد أحداً رواه في العصر الأموي مع أهميته ؛ إنما روى عن الكلبي وحده ؛ في العصر العباسي ، هذا إلى أن ما فيه من الصنعة الفنية ؛ دليل على وضعه — بل عندنا من الأخبار الصحيحة ما ينقصه ، ذلك ما يقوله قَتَادَة وهو من مشهورى التابعين ، وهو كذلك : عربى صميم ، من سدوس . قال عند تفسير قوله تعالى : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » : « كان هذا الحى من العرب ؛ أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراة جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، مَكْهُومِينَ على رأس جُحْرٍ بين الأسدين : فارس ، والروم . لا والله ما فى بلادهم يومئذ من شيء يُمسدون عليه . من عاش منهم عاش شقيماً ! ومن مات رُدَى فى النار ! يؤكلون ؛ ولا يأكلون ! والله ما تعلم قبيلة يومئذ من حاضر الأرض ، كانوا فيها أصغر حظاً ، وأدق فيها شأنًا منهم . حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورثكم به الكتاب . وأحل لكم به دار الجهاد ، ووسع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ! ! » ^(١) .

والعرب لما انتصرت قبيلة منهم على فرقة من الجيش الفارسي يوم ذى قار ، عدت ذلك تغراً عظيماً ، مع أنه ليس بشيء ذى خطر ، فأية فرقة لأية أمة ؛ عرضة للانهزام ، ولكن العرب أحسوا بالفخر العظيم لاتصهارهم . كأنهم ما كانوا يتوقعون أن تهزم حملة فارسية ؟ ، بل فى نفس هذه القصة مستند قوى لما نقول وهو : أن العرب لما انتصروا يوم ذى قار ، لم يتغنوا بنصرة العرب على

(١) تفسير الطبري : ٤ : ٢٥ .

الفرس ، إنما تغنوا بنصرة القبائل التي اشتركت في الحرب . وهم : الشيبانيون ،
والجبلليون واليشكرون ، ولم تتجَلَّ في الفناء روح عربية عامة .

ويخبرنا الطبري : أنه عندما أراد عمر فتح فارس ، تخوفوا من الفرس ،
وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربهم ! يقول : « وكان وجه فارس من
أكره الوجوه إليهم (إلى المسلمين) وأقلمها عليهم ؛ لشدة سلطانهم ،
وشوكتهم ، وعزمهم ، وقهرهم الأمم » . وَرَوَى أَنَّ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ تَكَلَّمَ فَقَالَ :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! لَا يَنْظُرَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهَ . فَإِنَّا قَدْ تَبَحَّجْنَا رِيفَ فَارَسَ ،
وَعَلْبَانَهُمْ عَلَى خَيْرِ شَيْءٍ السَّوَادِ ، وَشَاطِرْنَا ، وَنَانَا مِنْهُمْ ، وَاجْتَرَأَ مَنْ قَبَلْنَا عَلَيْهِمْ ،
وَلَمَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا ۱۱ » (١) .

فالذي يظهر لنا من هذا كله : أن العربي في الجاهلية كان يعتز بقييلته .
والخدمة التي يفتخر بها هي : التي يأتي أفراد قبيلته ، فلما رهن حاجب
ابن زُرارة قومه عند كسرى وَوَفَّى ابْنَهُ بِالرَّهْنِ ! كان الذي يفتخر بذلك
قبيلة تميم (٢) ، والذي يفتخر بالشاعر أو الشجاع قبيلته ، وَقَلَّ أَنْ يَتَجَاوَزُوا
ذلك إلى عدِّ المَكْرُومَةِ ، مَكْرَمَةِ أُمَّةٍ !

فلما جاء الإسلام ، تكونت العرب أمةً ، وكانت فيها خصائص الأمة التي
أشرنا إليها ، من : اتحاد لغة ، ودين ، وميول ، ومن وجود حكومة على رأسها .
وأعقب ذلك الانتصارُ على أضخمِّ أمتين كانتا في عصرها . وهما : فارس ،
والروم . ولكن مع هذا لم تنمح الروح القبالية . فوجدت النزعتان معاً :
(نزعة العربي لقبيلته ، ثم بطنه ثم نخذه) و(نزعته للدم العربي ، والأمة العربية ،
والجنس العربي) وسارت النزعتان جنباً إلى جنب ، في صدر الإسلام ،

(١) تاريخ الطبري : جزء ٤ : ٦١ .

(٢) يقول أبو تمام ، يمدح أبا دلف السبيل :

إذا انصرفت يوماً تميم يفتوسها ، وزادت على ما وطئت من مناقب
فأنتم بلى قار ، أمالت سيفكم ؛ هروش الذين استرهنوا قوس حاجب !

ومرنا نسمع العربي يفخر بقبيلته في الإسلام ، كما كان في الجاهلية ، وزاد
في الإسلام الافتخارُ بالجنس العربي ، كالذي يقول :

إِنَّا مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ حَيَّاهُمْ
طَلَقْتُ عَلَى عَادِ يَرْجَمُ مَرْمَرِ
وَسَلَّتْ تَاجِيْ مَلِكٍ قَيْصَرَ بِالْقَنَا ،

وَاجْتَزَنَ بَابَ الدَّرْبِ لِابْنِ الْأَحْمَرِ^(١)

فأما النوع الأول ، وهو العصبية القبلية ، فالحوادث التاريخية في العصر
الأموي ، والقصائد الأموية كلها تفسر هذه النزعة ، ولا تفهم إلا بها .
ولننس لك أمثلة للدلالة عليها : يقول رجل من بني أسد بن خزيمة يمدح
يحيى بن حبان :

أَلَا جَلَّ اللَّهُ الْيَتَانَيْنِ كُلَّهُم ،
فَدَى لِفَتَى الْفَتَيَانِ ، يَخْتِي بِنِ حَبَّانِ
وَلَوْلَا عُرْيُوقِي ، مِنْ عَصَبِيَّةِ
لَتَلْتُ ، وَأَلْفًا مِنْ مَعْدٍ بِنِ عَدْنَانِ
وَلَكِنْ نَفْسِي لَمْ تَلِبْ بِمَشِيرَتِي ،
وَطَابَتْ لَهُ نَفْسِي بِأَبْنَاءِ قُحْطَانِ

وروى اللبرّد عن شيخ من الأزد قة ، عن رجل منهم : أنه كان
يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه . فقيل له : ألا تدعو لأهلك ؟ فقال :
إنها تميمية^(٢) .

ودُعيل يفخر باليمن ، ويمدح مناقبهم ، ويردُّ على الكُتَيْبِ افتخاره
بنزار ، في قصيدة تبلغ ستمائة بيت . أولها :

(١) بنو الأصغر : الروم ، قال ابن سيده : لا أدري لم سوا ذلك !

(٢) التكمال جزء ١ : ١٩٨ .

أَفِيقِ مِنْ مَلَأَمِكَ يَا طَلْعِينَا كَفَانِي اللَّوَمَ مَرَّةً الْأَرْبَعِينَ^(١)

وقد ذكر السعدي : ملركاً من القصيدتين^(٢) ، وعقب ذلك بقوله :

« ونسى قول الكيت في النزارية ، واليمانية ، وانقضت نزار على اليمين ، وانقضت اليمين على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من الناقب ، وتحزبت الناس ، وثارَت المصيبة في البدو والحضر ، وتبع ذلك أمرُ مروان بن محمد الجعدي ، وتمصبه لقومه من نزار على اليمين ، وانحرف اليمين عنه إلى الدعوة المباسية .

وكان عند كثير من ولاية العرب ، هذه النزعة السيئة في الحكم ، وقبيلته حوله ترى أنه إذا ولى الرجل قد وليت قبيلته ، فلما ولى ابن هيرة العراق اعتقدت فزارة : أنها وليت الحكم . فلما عزل وتولى خالد بن عبد الله القسري ، اشترأت أعناق قسري ، وذلت فزارة . وقال الفرزدق :

لَعَمْرِي لَئِنْ نَابَتْ فَزَارَةٌ نَوْبَةً لَمِنْ حَدَثِ الْأَيَّامِ تَحْسِبُهَا قَسْرُ
وفي العصر المباسي ، لما تولى معن بن زائدة الشيباني اليمين ، قتل من أهلها تمصباً لقومه من ربيعة ، وغيرها من نزار ، فكان عقبة بن سالم — وإلى عمان ، والبحرين — يقتل من القيسيين تمصباً لقومه من قحطان ، وكيداً لمعن لما عمله في اليمين^(٣) .

والأمثلة على ذلك كثيرة — لا حصر لها — والذي يهمننا في موضوعنا هنا هو النزعة الثانية . وهي نزعة العرب ضد اللو إلى :

اعتنق العرب الإسلام ، وسموا قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وأعلنوا بأن الإسلام خير الأديان وأب الناس

(١) لشوار المحاضرة جزء ١ : ١٧٧ .

(٢) جزء ٢ : ١٥٥ . (٣) انظر السعدي جزء ٢ : ١٥٥ .

حولهم في ضلال . وأنهم حاة الإسلام ، وحلة الدين القويم . وأن عليهم دعوة الناس كافة ، ليتخلوا عن دياناتهم السابقة ، ويدخلوا فيه . وكان من بعد ذلك الجهاد . فظفروا بنارس ودكوا عرشها ، واتصروا على الروم ، وهزموا جبشها ، واستولوا على كثير مما في أيديها . وعلى المجلة ، قد رأوا : أن سيادة العالم كانت للفرس والروم . فانتقلت فجأة إليهم ! . وأن هؤلاء الفرس الذين كان العرب بالأمس يخشون بأسهم أصبحوا تحت حكمهم ! وهؤلاء الروم الذين كان العرب يمتنون أن يفتحوا لهم باب الشام ، ومصر ، ليتاجروا فيها قد هزموا ، وفروا أمامهم إلى عقر دارهم ! كل هذا : رفع من نفسية العرب . وغلا كثير منهم في ذلك فشحروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز ، ليس من جنسه دم الفرس ، والروم ، وأشباههم ! وتلكهم هذا الشعور بالسيادة ، والعظمة ، فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى السود . وكان الحكم الأموي مؤسسا على هذا النظر ! والحق : أن العرب في هذا لم يطيعوا الإسلام في تعاليمه ! فله تملأ يقول : « إِنَّا الْيَوْمَ نَدْعُو إِخْوَةَ » ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالْقَوَى » ويقول عمر : « لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليتهم ! » وإذا قلتُ العرب ؛ فليست أعني جميعهم ، فقد كان هناك طائفة كبيرة ، من خيارهم ، تدن بتعاليم الإسلام ، وتجعل مقياس الفضل التدنُّن لا الدم ! فقد كان علي بن أبي طالب : لا يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمي ، ولا بصانع الرؤساء ، وأسراء القبائل . فكان هذا من أكد الأسباب في تقاعد العرب عنه ! ^(١) . وروى اللدائني : أن طائفة من أصحاب علي مشوا إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، ونفضل هؤلاء الأشراف — من العرب ، وقريش — على اللوالم ، والعجم ، واستعمل من تخاف خلفه من

(١) شرح تيج البلدة لابن أبي الحديد عن اللدائني جز ١ : ١٨٠ .

الناس — وإنما قالوا له ذلك ، لِمَا كان معاوية يصنع في المال . فقال لهم :
 أَنَا مَرُوتِي أَن أَطْلُبَ النِّصْرَ بِالْجُورِ ؟ ^(١) . ولكن سواد العرب ، وحكام
 بنى أمية ، وولايتهم ، كانت عندهم هذه المصيبة العربية قوية ، يحرقون معها
 من لم يكن منهم . وكتب الأدب ، وحوادث التاريخ ، مملوءة بالشواهد على
 ذلك : نزل جرير يقوم من بنى المنبر فلم يُصْنِفُوهُ حتى اشترى منهم القرى !
 فانصرف وهو يقول :

يَا مَالِكَ بْنَ طَرِيفٍ ، إِنَّ بَيْعَكُمْ
 رَفَدَ الْقَرَى ، مُقَسَّدٌ لِلدِّينِ ، وَالْحَسْبُ !
 قَالُوا تَبِيعُكُمْ بَيْعًا ؛ قَهْلْتُ لَهُمْ :

يَبِئْسُوا الْمَوَالِيَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْقَرْبِ !
 قال للبرد : إنَّ حِلَّةَ اللِّوَالِي أَضَتْ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ . لأنه حطهم ،
 ووضعهم ، ورأى أن الإساءة إليهم غيرُ محسوبة عيبًا ^(٢) .
 وقال المختار ، لإبراهيم بن الأشتر يوم خازير ، وهو اليوم الذى قُتل فيه
 عبيد الله بن زياد : « إن عامة جنودك هؤلاء الحَمَرَاءُ (يريد الموالى) ، وإن
 الحرب إن ضَرَسْتَهُمْ هَرَبُوا ، فاحمل العرب على متون الخليل ، وأزجلِ
 الحمرَاءَ أمامهم » ^(٣) .

وروى الأغاني : أن رجلا من الموالى خطب بنتًا من أعراب بنى سليم ،
 وتزوجا . فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة ، ووالها يومئذ إبراهيم
 ابن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى اللولى ، ففرق بين اللولى
 وزوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ، ولحيته ، وحاجبيه !

(١) شرح النجاء جزء ١ : ١٨٢ .

(٢) الكامل ١ : ٢٧٣ .

(٣) الكامل ١ : ٢٧٤ .

قال محمد بن بشير :

قَضَيْتَ يَسَنَةً ، وَحَكَمْتَ عَدْلًا ، وَلَمْ تَرِثِ الْحُكُومَةَ مِنْ بَعِيدٍ !
وفيها يقول :

وَفِي لِلْمَافِينَ ، لِلْمَوَالِ نِكَالٌ ، وَفِي سَلْبِ الْخَوَجِبِ وَالْخُدُودِ !
إِذَا كَافَأْتَهُمْ بَيْنَاتِ كِسْرَى ، فَقُلْ يَحْدُ الثَّوَالِي مِنْ مَزِيدٍ ؟
فَأَيُّ الْخَلْقِ أَنْصَفُ لِلْمَوَالِ مِنْ اضْطِهَارِ الْعَبِيدِ إِلَى التَّعْيِيدِ ؟^(١)
وكان الحجاج — أحد أركان الدولة الأموية — ينفذ هذه السياسة في شدة ،

ودقة ، وقد رسم أيدي النبط بالمشرط . وفي ذلك يقول الشاعر في مولى :

لَوْ كَانَ حَيًّا لَهُ الْحَجَّاجُ مَا سَلِمْتَ

صَحِيحَةً يَدُهُ مِنْ وَثْمِ حَجَّاجٍ^(٢)

ولما نزل الحجاج واسطاً نقي النبط منه ، وكتب إلى عامله بالبصرة وهو الحكم بن أيوب — يقول : إذا أتاك كتابي ، فاقب من قبلك من النبط ، فإنهم مفسدة للدين ، والدنيا . فكتب إليه : قد قميت النبط ، إلا من قرأ منهم القرآن ، وتفقه في الدين . فكتب إليه الحجاج إذا قرأت كتابي فادع من قبلك من الأطباء ، ونم بين أيديهم ؛ ليقفوا عروقلك . فإن وجعلوا فيك عرفاً نبلياً فاطلمه ! والسلام^(٣).

وأمر الحجاج أن لا يؤم الكوفة إلا عري^(٤) . ولما قبض على سعيد بن جبير ، وكان قد خرج مع ابن الأشعث ، على الحجاج . قال له الحجاج : أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عري ، فجعلتك إماماً ؟ قال : بلى . قال : أفأوليتك القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعري !

(١) الأغاني جزء ١٤ : ١٥٠ . (٢) شرح النج جزء ٤ : ١٢٣ .

(٣) محاضرات الأدباء : ١ : ٢١٨ . (٤) المقدم جزء ١ : ٢٠٧ .

فاستغضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري ، وأمرته ألا يقطع أمراً دونك !
قال : بلى . قال : أو ما جعلتك في سُنَّاري وكلمهم من رموس العرب ؟ قال :
بلى . قال فما أخرجك علي ؟ الخ^(١) .

ويقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية إذا
أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى ؛ دفعه إليه ليحصله عنه . فلا
يمنع ، ولا السلطان يغير عليه ! وكان إذا لقيه راكباً ، وأراد أن ينزل فعل ،
وإذا رغب أحد في تزوج مولاة : خطبها إلى مولاها دون أبيها وجدّها^(٢) .

وطرب للموالى طرباً شديداً لما مدحهم جرير بن الخطمي بيت قال فيه :
فَيَجْمَعُنَا وَالْفَرَّ أَوْلَادَ سَادَةٍ أَبٌ لَا يَبَالِي بَعْدَهُ مَنْ تَغَدَّرَا
فاجتمعوا حوله يسلمون عليه ، ويسألونه كيف أنت يا أبا حَزْرَةَ ؟
وأهدوا له مائة حلة^(٣) .

بل احتقر العربُ طائفةً للمولدين — الذين ذكرنا طرفاً من نبوغهم ،
وخصائصهم في الفصل السابق — وسموا ابن العربي من الأئمة « الهجين »
قال في لسان العرب : الهجنة من الكلام ما يمييك ، والمهجين : العربي ابن
الأمة لأنه مهيب^(٤) .

قال ابن عبد ربه : « وكانت بنو أمية لا تستخلف بنى الإمام ، وقالوا :
لا تصلح لهم العرب » ويقول الأصبغى : في تعاليه ذلك « إن الناس يرون أن
امتناعهم (عن توليتهم) كان للاستهانة بهم . وإن هذا غير صحيح وإنما كانوا
يتمنعون عن توليتهم لأن بنى أمية كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن
أم ولد » . ونحن أميل إلى تعليل الناس من تعليل الأصبغى — لأن قولهم

• (٢) محاضرات الأدباء ١ : ٢٢٠ .

• (٤) عقد جزء ٣ : ٢٩٧ .

• (١) الكامل جزء ١ : ٣٩٧ .

• (٣) انظر الأغاني ٧ : ٦٥ .

هو الذى يتمشى مع الواقع ، والمطلق الصحيح . وسياسة بنى أمية كلها تؤيد ذلك . فهم إذا اختاروا والياً راعوا عريته ، وإذا اختاروا قاضياً ، أو إماماً يصلى بالناس راعوا ذلك . وليسوا فى هذا يرجعون إلى ضرب من التنجيم كما يزعم الأصمى . وقد لاقى بنو أمية كثيراً من العنت لتعيين خالد بن عبد الله القسرى والياً على العراق . ولاقى هو كثيراً من هجو الشعراء لأن أمه أمة رومية . وأكبر دليل على نقض قول الأصمى : أنهم ولو أفعلا يزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد ، وأمهاتهم إماء ! ولو كانوا يمتقدون بالتنجيم ما ولوم — إنما الحكمة فى توليتهم أن اللوالب بدموا يقوون فى آخر العهد الأموى ، فاضطر الناس لضرب من الخضوع أمام قوتهم .

وذهب أعرابى إلى سوار القاضى ، فقال : إن أبى مات ، وتركنى وأخاً لى — وخط خطين ناحية — ثم قال : وهيناً لنا — ثم خط خطاً آخر ناحية — ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال ينقسم اثلاثاً إن لم يكن وارث غيركم . فقال له : لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى ، وأخى ، وهيناً لنا . فقال سوار : المال ينقسم سواء . فقال الأعرابى أياخذ المهجين كما أخذ وبأخذ أخى ؟ قال : أجل ! فنضب الأعرابى ، وقال : تعلم والله إنك قليل الخلالات باللهناء ^(١) . وحكى الجاحظ قال : « قلت لعبيد الكلابى وكان فصيحاً قتيلاً : أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف جريب ؟ قال : لا أحب اللؤم بشئ ! قلت : فإن أمير المؤمنين ابن أمة . قال : أخزى الله من أطاعه ! ويقول الرياضى :

إِنَّ أَوْلَادَ السَّرَارَى كَثُرُوا يَا رَبِّ فِينَا
رَبِّ أَدْخِلْنِي بِلَادًا لَا أَرَى فِيهَا هَجِينًا

(١) ميون الأخبار ٢ - ٦١ : قيل : إنه ليس باللهناء أمة ؛ وإنما كان فيها الحرائر : الكامل للمبرد .

وكتب محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يُعَيِّر
أبا جعفر المنصور : « واعلم أني لست من الطلقاء أولاد ، ولا أولاد اللماء ،
ولا أعزقت في الإمام ، ولا حضنتني أمهات الأولاد ! الخ » .

فالحق أن الحكم الأموي لم يكن حكماً إسلامياً ، ويسوى فيه بين الناس ،
ويكافأ فيه من أحسن عريباً كان أو مولى ، ويعاقب فيه من أجرم عريباً
كان أو مولى ، ولم يكن الحكم فيه خدمة للرعية على حساب غيرهم . كانت
تسود العرب في النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية . فكان الحق والباطل
يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل . فالعمل حق إذا صدر عن عربي من
قبيلة ! وهو باطل إذا صدر عن مولى أو عربي من قبيلة أخرى ! — ولنا
الآن بصد أن نبحت إذا كان المولى أسعد خطاً تحت حكم العرب منهم تحت
حكم الفرس أو الروم أو أعق ؟ فذلك ما يهم الباحث السياسي .

ولا بد أن نكرر هنا ما سبقت الإشارة إليه من أن هذا النظر القاسي
الذي وصفناه ليس نظراً عاماً كان عند العرب جميعهم . إنما كان هو النظر
السائد بين البدو والولاة . أما نظر المساواة فقد كان سائداً في الأوساط
العلمية والدينية . فالعالم يشرف بعلمه سواء كان مولى ، أو عريباً . ومن
سادة التابعين من كانوا موالى ، والناس منحوم من الإجلال ما منحوا
العرب ، لا تفاضل بينهم إلا بالدين ، والعلم . فنجد الزهري ، ومسروق بن
الأجدع ، وشريحاً ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة ، من سادات التابعين . وهم
من العرب . كما نجد الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ،
وعطاء بن يسار وربيعة الرأي ، وابن جريج ، من سادة التابعين . وهم من
للموالى . والناس — من عرب وموال — يأخذون عنهم على السواء ،

وينقلون من حَامة أحدم إلى حلقة الآخر، حتى لئرى الحسن البصرى . ينقد خلفاء بنى أمية ، وينقد يزيد بن المهلب ! ويرى أن يزيد وصحبه وبنى أمية وأصحابهم ضالّال مارقون ! ويقول : والله لو ددت أن الأرض أخذتها خسفًا جميعًا ! ثم يأتى يزيد بن المهلب فى رهط من قومه إلى الحسن ، ويهم أحدم بقتله . فيقول يزيدُ : « اغمد سيفك ! » فوالله لو فعلت لأقلب من معنا علينا^(١) . ولما مات تبع الناسُ كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يعلى المصر ، ولم يستنكر الناس عمل الحجاج فى قتله الآلاف من العرب والموالى كما استنكروا قتل سعيد بن جبير . وهو مولى لعمله ودينه !

هذا الذى ذكرنا : هو الذى يفسر لنا ما يروى فى كتب التاريخ والسير من قصص مختلفة تدل على احتقار الموالى حينًا واحترامهم حينًا . ويظن الظان لأول وهلة أن بينها تضاربًا ، والحق أن لا تضارب . وأن الأوساط السياسية ، وأوساط أشراف القبائل ، وأوساط البدو كانت تحقر الموالى . وأن الأوساط الدينية والعلمية ما كانت تتمصب لجنس ولا دم . وإنما كانت تتمصب للدين والعلم وتقوّمها حيث كانا .

* * *

كان يقابل هذه العصبية العربية عصبية أخرى من الموالى وخاصة الفرس . قد تملكهم التعجّب . كيف غلبهم العرب ! وعبر بعضهم عن هذا للمعنى : بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر ! وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم القديم ، وعزم النالذ ، وأنهم أهل الحضارة العظيمة ، ومن عرفوا كيف يسوسون الملك ، ويدبرون الحكم . وأنهم لما حكموا لم يكن لهم إلى العرب حاجة ، ولما حكم العرب لم يستطيعوا أن يحكموا إلا بعموتهم .

(١) ابن خلكان ٢ : ٤٠٨ .

لم تكن عند الفرس نزع قلبية ، ولم يكونوا يُعْتَوْنَ بالأنساب عناية العرب بها^(١) ، إنما كانوا يتمصبون أحياناً للبلدان . فقد كان أهل خراسان مثلاً من أشد الناس عصبية بعضهم لبعض . وكانت المصيبة القوية عندهم المصيبة للأمة . وذلك طبعي . لأنهم قطعوا — من عهد بعيد — طور البداوة ، وتحصروا ، وكانوا أمة بكل معناها الصحيح ، وبدعوا يفخرون على العرب في العهد الأموي — كالذي رأيت من شعر إسماعيل بن يسار^(٢) — فقد كان يتغنى دائماً بمجد الفرس ، ودخل على هشام بن عبد الملك في خلافته فاستشده فأنشده قصيدة يقول فيها :

إِنِّي وَجَدْتُ مَا عُوْدِي بِذِي خَوَرٍ عِنْدَ الْحِفَاظِ ، وَلَا حَوْضِي بِمَهْدِهِ !
أَصْلِي كَرِيمٌ ، وَعَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ ! وَلِي لِسَانٌ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومِ !
أَحْيَى بِهِ مَجْدَ أَقْوَامٍ ذَوِي حَسَبٍ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ بِتَاجِ أُنْثَى تَقُومِ^(٣)
جَجَاحِجٍ سَادَةٍ يُبْلِغُ مِرَازِبَهُ جُرْدٌ عِتَاقٍ مُسَلِّحٍ مُطَاعِمِ^(٤)
مَنْ مِثْلُ كِمَسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعَا وَالْهُزْمُ أَنْ لِقَعْرِهِ أَوْ لِنِظْمِهِ !
أَسَدُ الْكُتَاتِبِ يَوْمَ الرُّوْعِ إِنْ زَحَفُوا وَهُمْ أَذْلُوا مَلُوكَ التُّرْكِ ، وَالرُّومِ !
يَمْشُونَ فِي حَقِّ الْمَازِي سَاهِنَةً تَمَشَّى الْفَرَاخَةُ الْأَسَدَ الْهَامِمِ^(٥)
هَنَّاكَ إِنْ تَسَالَى تُنَلِّقَ بَأَنَّ لَنَا : جُرْثُومَةً قَهَرَتْ عِزَّ الْجَرَائِمِ
فَغَضِبَ هِشَامٌ . وَقَالَ أَعْلَى تَفْتَخِرُ ، وَإِنِّي أَنْشُدُ قَصِيدَةً تُمدَحُ بِهَا نَفْسُكَ

(١) انظر مقدمة ابن خلدون . (٢) انظر الجزء الأول من فهر الإسلام : ١٢٨ .

(٣) مسموم : من هم رأسه إذا لقت عليه الهامة .

(٤) ججاحج : جمع جمجج . هو السيد المسارع في المكارم ، والمراد به : جمع قرظبان

وهو رئيس الفرس ، والمتناق من الخيل : للتجائب .

(٥) الماذي : كل سلاح من الحديد ، والمأذية : الدرع البيضاء ، والهائم : جمع هلميم .

وهو السابق الجلود من الخيل والناس .

وأعلاج قومك؟ غُطَوْه في اللاء . ففظوه في البركة حتى كادت نفسة تخرج .
ثم أمر بإخراجه وهو يشر . وفناه من وقته إلى الحجاز^(١) .

ولكن هذه النزعة صدها الأمويون صدّاً عنيقاً ؛ وعاقبوا عليها في قوة
وجبروت . فتحولت من غر ظاهراً إلى دعوة سرية ، وكانت الدعوة العباسية .
غير أننا نقرر هنا كالذي قررناه من قبل — وهو أن هذه النزعة لم تكن
نزعة الفرس عامة . ففهم من دخل الإسلام إلى أصحاب قوسهم . كمن سميناهم
من التابعين ولم ينسوا أن للعرب عليهم نعمة لا تقدر . وهي : أنهم هدّوهم
إلى الإسلام ، واستنقذوهم من ضلال المجوسية إلى هداية الوحداية .
ففي الأوساط العلمية ، والدينية كان الفرس لا يؤمنون بعربية ، وفارسية
إنما يؤمنون بإسلام سوى بين الناس أجمعين ، ولكن كثيراً من سواد الناس
ومن أشراف الفرس كانوا يكرهون العرب ، وخاصة الحكام ، والبيت
الأموي . روى صاحب الأغاني : « أن إسماعيل بن يسار استأذن على النعمير
ابن يزيد بن عبد الملك يوماً فحجبه ساعة ، ثم أذن له ، فدخل يبيكي .
فقال النعميرُ : يا أبا فائد تبيكي ؟ قال : وكيف لا أبكي ، وأنا على مروانيتي
ومروانية أبي أحببُ عنك : فجعل النعمير يعتذر إليه وهو يبيكي . فإ
سكت حتى وصله النعمير بحملة لها قدر ، وخرج من عنده فليقه رجل
فقال له أخبرني : ويليكَ يا إسماعيل أي مروانية كانت لك أو لأبيك ؟ قال :
بفضنا إمام ، امرأته طالق إن لم تكن أمه تلحن مروان وآله كل يوم
مكان التسبيح ، وإن لم يكن أبوه حضره اللوت ، فقيل له : قل لا إله إلا الله
فقال : لعن الله مروان ، تقريباً بذلك إلى الله تعالى ، وإبداً له من التوحيد ،
ورأفة له مقامه ! »^(٢) .

كره للوالى الحكم الأموى كراهة عميقة فسموا في إسقاطه وقد

(٢) أغاني ٤ : ١٢٥ .

(١) أهل ٤ : ١٢٠ .

كانت وجهة نظرم : أن الأمويين لم يعدلوا في حكمهم لنا ، وترقبنا انتقال الأمر من خليفة إلى خليفة . فكان أمر الظلم على السواء — اللهم إلا إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز وهو فذ ، وليس في الإمكان أن نحول الأمر من العرب إلى الفرس ، فيكونوا هم الحاكمين . لأن السلطة الكبرى لا تزال في يد العرب ، ولأنه إذا أثبتت هذه الدعوة تجتمع العرب . وغير الفرس من الموالى علينا . فلندعُ إنّا إلى حل الخلافة من يد الأمويين إلى يد الهاشميين . فتجد القلوب مستمعة لقبول الدعوة لأن الهاشميين عرب ولأنهم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين ، وهذا يُسرّع في قبول الدعوة ، ويصبغها صبغة دينية . وأخيراً فنحن إذا عضدنا الهاشميين ؛ رأوا أنهم وصلوا إلى الحكم بعموثنا ، ونجحوا بتدبيرنا . فيكون ظاهر الحكم لهم وباطنه لنا ، تتولى المناصب العالية ، وندير شئون الدولة ونترك لهم أبهة الخلافة ، ومظهرها الخارجى . فلهم الشكل ولنا الجوهر . لعل هذا كان أهم ما يدور في خلد المؤسسين من الفرس للدعوة العباسية « قال نصر بن سيار يخاطب الزارية واليمانية ويحذرهم هذا المدو الداخل عليهم . بقوله :

أُبْلِغَ رِيعةً في مَرِيٍّ وإخوتهم فليفضبوا . قبل ألا يرفع الغضب
ولينصبو الحرب إنَّ القومَ قد نصبوا حرباً ، يُحَرِّقُ في حافاتِها الخطب
ما هالكُم تَلْقَحُونَ الحربَ بينكم كأنَّ أهلَ الحِجَا عن رأيكم حُزِبَ
وتتركون عدواً قد أظلكو مما تأشَّبَ ، لا دينَ ، ولا حسب
قَدِماً يدينون ديناً ما سمعتُ به عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب
فن يكن سائلاً عن أصل دِيهمو فإنَّ دِيهمو : أن تَقْتَلَ العرب^(١)

(١) حقه ٢ : ٣٥٣ .

وكتب إبراهيم الإمام لأبي مسلم الخراساني : « إن استطعت ألا تدع
بخراسان أحداً يتكلم بالعربية إلا قتلته فافعل ! وأيما غلام بلغ خمسة أشبار
تهمه فاقله وعليك بمصر فإنهم العدو القريب الدار فأبذ خضرهم ، ولا تدع
على الأرض منهم ديناراً »^(١) .

كانت خراسان مهد الدعوة العباسية ، وكانت قطراً عظيماً ، يبلغ نحو
ضعف ما يطلق الاسم عليه الآن . وقد تولاهما أمراء من العرب بين مضرى
ويمانى فكانوا يحكمون حكماً عربياً ، بل قبلتياً . فأجج ذلك نار الحقد بين
العرب والفرس أولاً وبين اليمانيين والمصريين ثانياً . فالأزديون
يمثلون اليمانيين ، وتميم وقيس يمثلون المصريين . وكل يعمل للزعامة ،
والثلبة . فإذا تولاهما يمانى وسمى اليمانيين وحدهم ، وحقر من شأن غيرهم ،
والعكس . والفرس بين هؤلاء وهؤلاء ضائعون . تولى خراسان المهلب
ابن أبى صفرة وآله عهداً طويلاً ، وهم أزديون — أى يمانون —
فكانت السلطة بيدهم وحكموا حكماً عربياً قبلتياً ، وكانوا فى مدتهى الزروة ،
والنقى . فكانوا يمدون اليمانيين أولاً ، بمالهم ، وبجواهرهم قال المدائنى : « باع
وكيل يزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مقلّ بعض أملاكه بأربعمائة ألف
درهم . فبلغ ذلك يزيد . فقال له يزيد : تركتنا بقالين أما كان فى مجازى الأزد
من تقسمه فيهن ؟ »^(٢) وكان عمر (بن عبد العزيز) يفيض يزيد
(ابن المهلب) وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم^(٣) .
وتولى قتيبة بن مسلم وكان باهلياً أى (مضرى) « فتكرت له أمراء القبائل لإذلاله
إياهم واستهانت بهم ، واستطاعته عليهم »^(٤) وأخيراً تولى خراسان نصر بن
سيار ، وكان مضرى كذلك « فكث أربع سنين لا يستعمل فى خراسان
إلا مضرى »^(٥) لهذا وأمثاله : سادت العلاقة بين اليمانيين والمصريين .

(١) شرح النهج ١ : ٣٠٩ . (٢) ابن خلكان ٢ : ٣٩٥ .
(٣) ابن خلكان ٢ : ٤٠٤ . (٤) شرح النهج ١ : ٣٠٩ .
(٥) ابن خلكان ٣ : ٩٧ .

فلما شعروا باجتماع الفرس عليهم فكثروا أن يجمعوا كتهم ، ويوحّدوا صفوفهم ، فقد رأينا نصر بن سيار ينيب العرب إلى أن الفرس تريد أن تهلك العرب ، فأولى أن يتحد العرب ؛ كما اتحد الفرس ، بل نرى أن الأمر قد وصل إلى أكثر من ذلك . « قد توادعت قبائل العرب من ربيعة ، ومضر ، واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني »^(١) ؛ ولكن أبومسلم وقومه بدعائهم ؛ أججوا نار الفتنة بين قبائل العرب من جديد . « فجعل أبو مسلم يكتب إلى شيخان الخارجى يذم اليمانية تارة ، ومضر أخرى . ويوصى الرسول بكتاب مضر ؛ أن يتعرض لليمانية ليقرموا ذم مضر . والرسول بكتاب اليمانية ؛ أن يتعرض لمضر ليقرموا ذم اليمانية »^(٢) ويرسل أبو مسلم لعلي بن الكرمانى — أحد زعماء اليمانيين — من يقول له : أما تأنف من مصالحة نصر بن سيار ، وقد قتل بالأمس أباك وصلبته ؟ ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار فى مسجد تصليان فيه ا^(٣) — وأخيراً بعد حوادث ودسائس نجح أبو مسلم « وتقدم نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتبس منه أن يدخل مع مضر . وبعثت ربيعة وقحطان إلى أبي مسلم يمثل ذلك . فتراسلوا بذلك أياماً ، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين ، حتى يختار أحدهما ففعلوا . وقدم الوفدان ، وسمع أبو مسلم وشيعته انخبط فى ذلك » ثم أعلن أبو مسلم اختياره . فقال : « قد اخترنا علي بن الكرمانى ، وأصحابه من قحطان ، وربيعة . . . فهض وفد مصر ، عليهم اللذة والكتابة »^(٤) .

اجتمع على الدولة الأموية النينية ، والرهبية ، والعجم . وكان فى

(١) ابن خلدون ٣ : ١٢١ . (٢) ابن خلدون ١ : ١١٩ .

(٣) الطبرى ٩ : ٩٧ . (٤) نهج القصة بطولها فى تاريخ الطبرى ٩ : ٩٧ .

النقباء^(١) — وهم القادة ، والزعماء الذين حاربوا الدولة الأموية — كثير من العرب . منهم ؛ قحطبة الطائي . وكان من أعظم العرب نفوذاً في قومه وقد خطب في أهل خراسان يحقر العرب ، ويعظم الفرس ؛ في لهجة غربية فكان فارسياً أكثر من الفرس أنفسهم إذ يقول : يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم لعلمهم ، وحسن سيرتهم ؛ حق بدّلوا ، وظلموا . فسخط الله عز وجل عليهم ؛ فانزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبهم على بلادهم . . . واسترقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدّلوا وغيروا ، وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البر والتقوى من عثرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ؛ لأنكم طلبتموم بالنار^(٢) وبعد أن أذى العرب علمهم . نكل أبو مسلم بهم ، وقتل زعماءهم .

* * *

سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، ونال الفرس بعض أمّنتهم لا أمّنتهم كاملة . فأمّنتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها ، وعملها ، ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر ، فالخلفاء العباسيون مقتنمون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس ، وكذلك العلماء والمؤرخون . فداود بن علي^(٣) يحطّ بيقول : يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين ، مقهورين على حقنا حتى أتاه الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تشوقون ؛ فأظهر فيكم الخلفاء من هاشم ، وبيّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل

(١) تجد أسماء النقباء وقبائلهم في الطبري ٩ : ٩٨ .

(٢) طبري ٩ : ١٠٦ . (٣) داود بن علي هو : عم أبي جعفر المنصور .

الشام الخ»^(١). وأبو جعفر المنصور يقول : « يا أهل خراسان ! أنتم شيعتنا ، وأنصارنا ، وأهل دعوتنا »^(٢). ويقول الجاحظ : « دولة بني العباس أجمعية خراسانية ، ودلة بني مروان عربية أعمرانية »^(٣). وكانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة . لإقبال الدولة العباسية من خراسان »^(٤). وأوصى المنصور ابنه قبل وفاته فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك ، وشيعتك ؛ الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودمائهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ؛ أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتختلف من مات منهم في أهله وولده »^(٥).

استتب هذا غلبة الفرس ، ونفوذهم . حتى عد المؤرخون من أهم خصائص هذا العصر النفوذ الفارسي ، وضعف النفوذ العربي .

ولكن إلى أى حد غلب العرب ؟ وهل كان نفوذ الفرس في الدولة العباسية كنفوذ العرب في الدولة الأموية ؟ وهل انتهى بذلك الصراع بين العرب والموالي ؟ الحق أنه لم يكن كل ذلك ، فالخلفاء العباسيون عرب هاشميون — ولو من قبل الأب — وهم يفخرون بذلك ، ويعمدونه من أكبر مناقبهم وهم إن حفظوا للفرس معوتهم ؛ فلن يتسوا عربيتهم ، ويوم يشعرون بأن الفرس زاحموهم في سلطانهم ؛ نكلوا بهم كما نكل المنصور بأبي مسلم والرشيد بالمراسكة . والأمين بالفضل بن سهل . فالفرس في العصر العباسي الأول كان لهم نفوذ كبير . ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب كانت أعظم المناصب كالوزارة في يد الفرس ، ولكن كانت الخليفة عربياً هاشمياً ، وكان له قواد من العرب كما له قواد من الفرس ، وكان له ولاية من العرب ، وولاية من الفرس . فجدد المنصور كانوا أقساماً أربعة :

- | | |
|-------------------------------|----------------------|
| (١) طبرى ٩ : ١٢٧ . | (٢) مسعودى ٢ : ١٩٠ . |
| (٣) البيان والتبيين ٣ : ٢٠٦ . | (٤) مسعودى ٢ : ١٨٣ . |
| (٥) طبرى ٩ : ٢١٩ . | |

يمنية ، ومضرية ، وربيعة ، وخراسانية^(١) . — وفي اليوم الذي ولى فيه للأموّن طاهرا الشرطة ولى جماعة من الهاشميين كُورَ الشام^(٢) . وقد ولى للنصور محمد بن خالد بن عبد الله القسري الحرّمين^(٣) . وولاه الرشيد للأمصار كان كثير منهم عربا^(٤) . واشتهر في هذا العصر من أمراء العرب وقوادهم سميد بن سلم الباهلي ، ومن بن زائدة الشّيباني ، وأبو دُلف العجلي ، وزُوح بن حاتم بن قبيصة والمهلب ابن أبي صُفرة ، وثُمّامة بن أشرس ، إلى كثير من أمثال هؤلاء .

كل هذا ؛ يجعلنا نقول : إن الانقلاب العباسي جعل كِفّةَ الفرس راجحة . ولكنه لم يدمد الكفة الأخرى العربية . وهذا ما جعل الصراع يستمر في هذا العصر . فلنتبعه في إيجاز :

نرى في هذا العصر أن الناس لا يزالون يَنزِعون إلى الفخر بالنسب العربي ، والولاء العربي . حتى لنرى أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسبا عربيا . فيزعم أنه من نسل سَلَيْط بن عبد الله بن عباس^(٥) . وكتاب الأغاني يحدّثنا : أن إسحق الموصلي — وهو ما هو من القرب من الرشيد — تناظر مع ابن جامع بمحضرة الرشيد فتفالا فاسبه ابن جامع ، فضى إسحق إلى خازم بن خزيمة (وهو عربي) فتولاه^(٦) ، وانتسب إليه . وقبل ذلك منه قتال إسحق :

إذا كانت الأحرارُ أصلي ، ومُنصبي ،

ودافعَ ضيبي خازمُ ، وابن خازم

عَطَسْتُ بأفٍّ شامخ وتناولت

يداي التُّرْبِيَا قاعداً : غيرَ قائم^(٧)

(١) طبري ٩ : ٢٨٢ . (٢) طيفور ٦٤ .

(٣) الجيهشاري : ١٣٨ . (٤) انظر الطبري ١٠ : ١١٢ .

(٥) طبري ٩ : ١٦٧ . (٦) أي طلب أن يكون إسحق مولاً له .

(٧) انظر الحكاية في الأغاني ٥ : ٥٦ والنكت الملتصم ١ : ٨٨ .

فهذه القصة : تدلنا دلالة واضحة على حاجة الأعاجم في هذا العصر — حتى الأشراف منهم — إلى الالتئام إلى العربي بالولاء ؛ ليحتجى به ويدافع عنه . ويحكى الأغاني أيضاً أنه كان لعلى بن اخطيل صديق فارسي ، فتاب مدة وقد أصاب مالا ، ورفقة . ثم عاد إلى الكوفة ، وادعى أنه من تميم فقال يهجوهم :

يُرُوحُ بِنِسْبَةِ الْمُؤَلَّى ، وَيُصْبِحُ يَدْعَى الْعَرَبَا !

فلا هذا ، ولا هذا كَ يَذْرُكُهُ إِذَا طَلَبَا !

إلى أن يقول : يَشْمُ الشَّيْخَ وَالْقَيْصُو م كَي يَسْتَوْجِبَ النَّسْبَا !

فصار تشبهاً بالقَو م جِلْفَا ، جَافِيَا ، جَشِيَا !

إِذَا ذُكِرَ الْبَرِيرُ^(١) بَكَى وَأَبْدَى الشُّوقَ وَالطَّرِيَا^(٢) !

وليس ضميره في القَو م إِلَّا التَّيْنُ ، وَالْعَبَا^(٣) !

ويحكى في موضع آخر : أن والبة بن الحُباب كان يدعى النسب إلى العرب فقال فيه أبو التاهية :

أَوَالْبُ أَنْتَ فِي الْقَرَبِ كَيْثَلُ الشَّيْصِ فِي الرُّطْبِ !

هَلُمَّ إِلَى اللُّوَالِي الصَّيْدِ فِي سَعَةٍ وَفِي رُحْبِ !

فأنت بنا لعمرك الله ، أشبه منك بالعرب^(٤) ! الخ

وَادَّعَى رَجُلُ النِّسْبَةِ إِلَى الْعَرَبِ قَالِ فِيهِ بَشَارُ :

ارْفُقْ بِعَمْرٍو إِذَا حَرَكْتَ نَسْبَتَهُ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ قَوَارِرِ !

ويقول فيه : إِنْ عَمْرَأُ طَاعَرَفَوْهُ عَرَبِيٌّ مِنْ زَجَاجِ !

مظلم النسبة لا يعرف إِلَّا بالسراج

(١) في القاموس : البرير الأول من ثمر الأراك .

(٢) القصيدة بهما في الأغاني وقصيدة أخرى مظهرها في هذا المعنى ١٣ : ١٨ .

(٣) القصيدة في الأغاني ١٦ : ١٤٩ .

وقال غلغل للوصلى :

أنتَ عندى عربىٌّ ؛ ليس فى ذلك كلام !

عربى ، عربى ، والسلام ۱۱۱

شَعرَ أَجفانَكَ قَيَّصُو م ، وشيخ ، وثمام^(١)

أفلو كان العرب قد ذُلُّوا فى هذا العصر ، وحقر شأنهم على الوصف الذى يصفه بعض المؤرخين كانت هذه الحركة — أعنى حركة الانتساب إلى العرب والاعتزاز بهم — تبلغ هذا المبلغ ؟

إنما الذى نشاهده كذلك ، أن الحركة العربية دوفعت بحركة أخرى فارسية ، وأن الصوت انخلفت الذى كنا نسمعه من مثل : إسماعيل بن يسار ، فى العهد الأموى فيعاقب عليه ، أصبح الآن شديداً ، وقوياً حراً . ونرى بشاراً زعيم هذه الحركة يفخر مرة بخراسان ويقول :

وهجاني ممشر كاهمو حق ، دام لهمْ ذاك الحُتْمُ

ليس من جُرمٍ ، ولكن غاظم شرفى العارض قد سدَّ الأفق

من خراسانَ ، وَيَبْقَى فى الذرى ، ولدى السعاقِ فرعى قد سَمَقَ^(٢)

وفخر مرة بالعمم فيقول :

وَبُنْتُ قَوْماً بِهِمْ جِنَّةٌ يقولون منْ ذا ؟ وَكُنْتُ الْقَلَمُ !

ألا أَيُّهَا السَّائِلُ جاهداً . لِيَعْرِفْنِي ؛ أنا أُنْفِ الكرم !

نَمَتْ فى الكِرامِ بنى عامر ؛ فروعى ، وأصلى : قريش الصِّم !

ويقول ذلك أَمَامَ المهدي فلا يماقيه ؛ كما فعل هشام ابن يسار ، بل

(١) حاضرات الأدباء ١ : ٢٢٢ وما بعدها . (٢) سق سق : علا وطال .

يسأله من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها فى الفرسان ، وأشدّها على الأقران ، أهل طخارستان :

بل كان يتبرأ من الولاء ويقول :

أصْبَحْتُ مَوْلى ذِي الْجَلال ، وبمضهم ؛

مَوْلى الرّيب ! نَفَذَ بِفَضْلِكَ فَافْخِرْ
مَوْلَاكَ أَكْرَمَ مِنْ تَمِيمِ كُلِّهَا .

أهل القمّال ، ومن قرشٍ المشتر !
فارجع إلى مولاكَ غَيْرَ مَدَافِعِ .

سبعانَ مَوْلَاكَ الأجل الأَكْبَرُ !

بل كان يدعو إلى الموالى نبذ ولائهم للعرب . فيروى الأغاني : أن رجلاً من بني زيد شريف ، قال لبشار : « يا بشار ! قد أفسدت علينا موالينا تدعوم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم ، وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل ! فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنفسه ! » ^(١) .

وقال له عربى : ما للموالى والشعر ؟ فقال يهجو العرب :

أَحْيَيْنَ كَسِيئْتُ - بعد الرّمى - سَرّاً ، ونادمتُ الكِرَامَ على الثُّقار ؟
تفاخِرَ يا ابن راعيَّةٍ ورايح ؟ بنى الأحرارِ ، حُسْبِكَ من خَسارِ !
تُرَيْخُ ^(٢) بَخْطَبَةِ كَسَرٍ للموالى ، ونفسِكَ المكارمَ صَنِيدُ فار
وكنْتَ إِذا ظَلَمْتَ إلى قِرايح ؛ شَرِكَتِ الكلبَ وَلَجَ الإِطار ^(٣)

(١) الأغاني ٣ : ٥١ . (٢) ترقيع : تزييد . (٣) الإطار : ما حول البيت .

وتنقلو للقفاز تدرّجها ولم تعقل يدراج الدّار^(١)
وتتّشع الشمال للابسيها ، وترنّعي الضأن بالبلد القفار^(٢)
ولبشار كثير من هذا الضرب ؛ يدلنا على ما تقول من أنه كان زعيم
الحركة العدائية للعرب . كما يرى ما كان له ولأمثاله من حرية — في جهاء
العرب — لم يكونوا يملكونها في العصر الأموي .

وكثر ادعاء الناس للانتساب إلى كسرى كذلك حتى قال جَحْظلة :
وأهل القسرى كلهم ينتمون لكسرى ادعاءً فأين النبط؟^(٣)



بما لا شك فيه : أن نفوذ الفرس قد قوى في عهد العباسيين الأولين ، وكان
هذا النفوذ يزداد قوة يوماً فيوماً .

قد كان استخدام اللوالم في العهد الأموي نادراً ، وكان يقابل بامتعاض .
قد استعملوا — مثلاً — رجاء بن حيوة ، وكان مولى كِنْدَةَ . واستخدم
عمر بن عبد العزيز مولى ، وجملة والياً على وادي القرى . فموتب على ذلك .
ولكن ما كان شاذاً في العصر الأموي صار هو للأولف في العصر العباسي ،
ابتداءً للنصور يكثر من استخدام اللوالم . يقول السيوطي : « إن للنصور
أول من استعمل مواليه على الأعمال ، وقدمهم على العرب . وكثر ذلك بعده
حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها »^(٤) . وليس معنى هذه العبارة أن أحداً
قبله من خلفاء بني أمية لم يستعمل مولى قط وإنما للمعنى : أن للنصور اتخذ
استعمال اللوالم مبدأ له وقاعدة ، ورأسهم على العرب . وهو بهذا المعنى : أول
من فعل ذلك ، والجهشيارى في كتابه تاريخ الوزراء . يروى لنا ما يفهم منه

(١) تدرجها : تخطها لتسيحها والدراج : طائر . (٢) أغاني ٣ : ٣٣ .
(٣) معاصرات الأئمة ٢ : ٢٢٣ . (٤) تاريخ الخلفاء ١٠٠ .

إن أكثر من تولى الأعمال للمنصور موالى^(١). ويقول السعدي في المنصور : إنه أول خليفة استعمل مواليه ، وغلمانه ، وصرّتهم في مهماته ، وقدمهم على العرب . فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده — من ولده — سنة ؛ فسقطت ، وبادت العرب . وزال بأسها ، وذهبت مراتبها^(٢) . ويرى الطبري : « أنه كان للمنصور خادم أصغر إلى الأبدية ، ماهر لا بأس به فقال للمنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال : عريي يا أمير المؤمنين . قال ومن أي العرب أنت ؟ قال من خولان ، سئيت من الهين ، فأخذني عدو لنا نجني فاسترققت ، فصرت إلى بعض بني أمية ، ثم صرت إليك . قال : أما إنك نيم الغلام ، ولكن لا يدخل قصرى عريي مخدّم حرى . اخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت ! »^(٣) . وروى الأغاني : أن أبا نعيمة وقف على باب أبي جعفر ، واستأذن فلم يصل ، وجملت الخراسانية تدخل ، وتخرج فتها : به ؛ فيرون شيئاً أعرايياً ، جلفاً فيمبشون به . فقال له رجل عرفه : كيف أنت يا أبا نعيمة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحت لا يملك بعضى بعضاً تشكو العروق الأبضات^(٤) أبضاً !

كما تشكى الأزجي القرضا كأنما كان شبابي قرضا !

فقال له الرجل : وكيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة ؟ فقال :

أكثر خلق الله من لا يدري من أي خلق الله حين يلقى !

وحلة تشر ثم تطوى ، وطلسان يشتري فيغلى

لعبد عبدي ، أو لمولى مولى . يا ويح بيت اللال ! ماذا يلقى ؟^(٥)

(١) النظر الجليشباري : ١٣٩ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٧ .

(٢) السعدي ٢ : ٤٠١ . (٣) الطبري ٩ : ٣١٦ .

(٤) الأبضات : المتقلصات .

(٥) الأغاني ١٨ : ١٣٨ .

ولكن مع هذا كله استخدم المنصور بعض العرب . فقد ولى سلم بن
تخينة الباهلي البصرة كما ولى مولى كوز البصرة ، والأبلة^(١) . ورأيت قبل
أن جند أبى جعفر كانوا عرباً ومجاً .

فلما جاء الرشيد ؛ زاد نفوذ الفرس بفضل البرامكة ، وقد كانوا المصرفين
للدولة وشؤونها . فاستتب نفوذهم نفوذ جنسهم ، واتخذوا لذلك سياسة
حكيمة . منها : ما يرويه لنا الطبرى : أن الفضل بن يحيى (البرمكى) اتخذ
بخراسان جنداً من العجم سماهم « العبّاسية » وجعل ولائهم لهم (للمباسبين)
وأن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ، وأنه قدم منهم بعدد عشرون ألف
رجل . فسموا ببغداد « الكرنبيّة » وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم
ودفاترم^(٢) .

وزاد نفوذهم كذلك في عهد المأمون فقد انتصر الفرس نصرة ثانية

(١) عيون الأخبار ١ : ٢٩٠ .

(٢) طبرى ١٠ : ٦٢ . وقد ساعد على هذا النفوذ نوع من الولاء جديد ، ظهر في هذا
العصر ، ولم تكن تعرفه من قبل . وهو غير أنواع الولاء التي فرسناها في « فجر الإسلام » ذلك
هو ما يسميه ابن خلدون : « ولّاء الاسطناح »^(١) وذلك أن الخليفة يتخذ قوماً من الفرس ،
أو الترك مثلاً يمنحهم شرف الانتساب إليه وإلى دولته ، ويستخدمهم في القيام بشؤونه
والحرب معه ، ويجرى عليهم الأرزاق ؛ فيسمون مواليه ، وموال دولته . كما استخدم
المباسبون الأولون بنى برمك ، وبنى لويث من الفرس : فأطلق عليهم : موال الدولة
المباسبية ، وكما فعل المصمّم بالأتراك . وهو معنى لم نحظ به في دولة بنى أمية فلم يكن لدولتهم موال
بهذا المعنى - على ما أعلم - وهذا النوع من الولاء زاد نفوذ الفرس أولاً ، والترك ثانياً ؛
لأنه كان يزيد عددهم ، وقوتهم ، وكان يشعرون بأن الدولة دولتهم ، وأن لهم سلطاناً على
الرمية مستمداً من سلطان خليفتهم . وقد رأينا فيما نقلنا عن الطبرى أنه في مرة واحدة كان
خمسمائة ألف فارس موالى للمباسبين - وهذا عدد الموال الذين كانوا يؤسرون فيسترقون . فترى
من هذا كيف نحر العرب بالموال .

(١) انظر ابن خلدون ١ : ١١٤ .

كانت كانت بين المباسيين ، والأمويين . لأن أغلب الفرس تعصب للأمون ،
وأكثر العرب تصبوا للأمين . فحدث غلبة للأمون نصرته فارسية .
فطيفور يذكر لنا في تاريخه : « أن العرب كانوا يركبون ومعهم القيسى ،
والنشاب ؛ بين يدي للأمون »^(١) . وروى الطبري : « أن رجلاً تعرض
للأمون بالشام مراراً فقال له : يا أمير المؤمنين ! انظر لعرب الشام
كما نظرت لمجم أهل خراسان . فقال « للأمون » : أكثرت عليّ يا أبا أهل
الشام ! والله ما أنزلتُ قيساً عن ظهور الخيل ؛ إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت
مالي درهم واحد ! وأما الهين ؛ فوالله ما أحببتها ولا أحبّني قط ، وأما قضاة
فسادتها تنتظر السفيناتي وخروجه فهكون من أشياعه ، وأما ربيعة ، فساخطة
على الله مند بحث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شريكاً .
اعزب فمل الله بك »^(٢) .

فلما جاء المعتصم أحل الترك محل الفرس . فشكل الترك بالفرس والرب
جميعاً ، كما سيتضح ذلك عند الكلام على العصر الثاني إن شاء الله .

كان لنفوذ الموالى وخاصة الفرس مظاهر عدة :

(١) إن قصور الخلفاء ملئت بالموالى يستخدمون في أعمال شتى ، وبيوت
الحريم ملئت بالخصيان ، وقد أخذ المسلمون ذلك عن البيزنطيين ، ولم تكن هذه
العادة معروفة عند العرب .

...

(٢) قصر المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس تقريباً .

(٣) نفوذ العادات ، والتقاليد الفارسية كإحياء يوم النوروز ، وليس القائنسوة .

(٤) انتشار الثقافة الفارسية ومنفرد له باباً خاصاً .

(١) طيفور تاريخ بغداد : ١٥ . (٢) طبري ١٠ : ٢٩٦ .

لم يستسلم العرب لقوة اللوالم ونفوذهم بل قاوموا . وكان بين اللامنيين صراع عنيف حيتا ، وهادئ حيتا ، واتخذ هذا الصراع أشكالا مختلفة . فمثلا : يعتمد الصراع على اللس عند اللليفة فيكيد العرب للوالى ، ويكيد للوالى للعرب . ومن أجل هذا كان تشكيل الللفاء باللوزراء من حين إلى حين . حتى قال قائلهم :

إن الوزيرَ وزيرَ آل محمد أودى ، فمن يشاك كان وزيرا

وكان تاريخ الوزراء سلسلة نكبات ، ولنا نستبعد أن كثيرا منها كان سببه ما يشمر به الللفاء — تحت تأثير اللساس — من نفوذ الفرس ، وقوة سلطانهم ، واستبدادهم بالأمور دونهم . يقول ابن خلدون : « وإنما نكَب البرامكة ما كان من استبدادهم على اللولة ، واحتجابهم أموال اللجاية . حتى كان الرشيد يطلب اللسير من اللسير من اللال فلا يصل إليه . فقلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه . فغلظت آثارهم ، وبمد صيتهم ، وعمرُوا مراتب اللولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سوام . من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابه ، وسيف وقلم » ويقول « إن البرامكة مدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم ! وأسَنُوا لعلتهم اللجوائز والصللات ، واستولوا على القرى والضيايع . . . حتى آسفوا اللبطانة ، وأخذوا اللخاصة . . . فكشفت بهم وجوه اللنافسة واللحسد ، ودبت إلى مهادم اللثير من اللولة عقارب السعاية . حتى قد كان بنو قَظْطبة — أحوال جعفر — من أعظم اللساعين عليهم ! » .

ويتناقش نعيم بن حازم العربى مع اللفضل بن سهل الفارسى بيت ىدى

لألمون فيحسن الفضل هل الخلافة إلى العلويين . فيقول نعم للفضل : إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ثم تحتال عليهم ثم تصير الملك كسروياً^(١) .

وكثير ممن تولى المناصب الكبيرة من الفرس ؛ كان ينكل بمن استطاع من العرب كالذي كان بين الأفشين وأبي دلف العجلي . فقد كان الأفشين فارسياً من « أشروسنه » بآسيا الصغرى . وكان قائد جيوش المتصم ، وكان يكره العرب من أعماق نفسه ، وكان يقول : « إذا ظفرت بالعرب شدخت رموس عظامهم بالذبؤوس »^(٢) وسيأتى له ذكر عند الكلام في الزندقة . وأبو دلف العجلي عربي من نزار ، وكان يعيش عيشة عربية . كرمياً شجاعاً ممدحاً ، وبابه مفتوح للشعراء والأدباء والسؤال ، وماله مقسم عليهم ، وكان أحد قواد المتصم أيضاً « وكان سيد أهله ، ورئيس عشيرته من عجل وغيرها من ربيعة . وكان شاعراً مجيداً شجاعاً بطلاً مغنياً »^(٣) .

فيحدثنا التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » : أن الأفشين مّم بقتل أبي دلف وصنّقه بالحديد ، وأجلسه على نطع بين يديه يقرّعه ويخاطبه بأشد غضب ، ويهم بقتله ! فيعلم أحمد بن أبي داود (وهو عربي وقاضى للألمون وللمتصم) فيسرع إلى الأفشين ويدخل عليه من غير استئذان خيفة أن يعجل عليه . ويقول له « إن أبا دلف فارس والعرب وسريفا ؛ فاستبقه وأنعم عليه . فإن لم تره لهذا أهلاً فنيه للعرب كلها ، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تنفل على ملوك العرب ! ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملكه وأنت اليوم بقية العجم فأنعم على شريف من العرب بالغفو عنه ! » فيأبى

(١) جهتيارى ص ٢٩٢ .

(٢) اللدبرس شييه بالمصا في رأسها عجرة ٤ البيان والتبيين ٣ : ٣٣ .

(٣) سمودي ٢ : ٢٧٧ .

ذلك الأفشين ثم شعر ابن دواد بمكاته عند المعتصم حتى يستطيع أن يكلم على لسانه . فيقول للأفشين : إني رسول أمير المؤمنين إليك وهو يقول : لا تملث في القاسم بن عيسى حدثاً فإنك إن قتلته قتلت به ! » وذهب إلى المعتصم فأخبره الخبر فأقره عليه . وبذلك نجى أبو دلف سيد العرب من سيد العجم^(١) وكان أحمد بن أبي دواد من ناحية أخرى يستخدم منصبه فيقضى حوائج العرب . « فيقول (للمعتصم) فلان الهاشمي ، وفلان القرشي ، وفلان الأنصاري ، وفلان العربي » ، ولا يزال يتلطف حتى تقضى مطالبه^(٢) .

وشكل آخر من شكل الصراع — وهو الصراع الأدبي الذي كان معروفاً في العصر الأموي — وهو الافتخار بالأنساب من طريق الأدب . كالذي كان بين عبد الله بن طاهر (الفارسي) يفخر بنسبه في الفرس . فيرد عليه محمد بن يزيد (العربي الأموي) يفخر بالعرب . فقد قال عبد الله بن طاهر قصيدة يفخر بها بماثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم الأمين . يقول فيها :

أَقْمِرِي حِمَا لَهَجَتْ بِهِ قِرَاعِي عَنْكَ مَشْفُول
أَنَا مِنْ قَدْ تَعْرِفِي نَسَبِي سَلَفِي الْفَرُّ الْبِهَالِيلِ
وَمِنْهَا : وَأَبِي مِنْ لَا كِفَاءَ لَهُ مِنْ يُسَاوِي عَجْدَهُ ؟ قُولُوا !
وَمِنْهَا : أَنْظَرِ الْخُلُوعَ كُلَّهُ وَحَوَالِيهِ الْقَوَائِلِ
فَتَوَى وَالتَّرَابُ مُضْجَعُهُ ظَالٍ عَنْهُ مَلَكُهُ غَوْلُ
قَادَ جَيْشًا نَحْوَ نَائِثَةٍ ضَاقَ عَنْهُ الْعَرْضُ وَالطُّولُ
مِنْ خِرَاسَانَ مَصْنَعِهِمْ كَكَلِيوْتِ ضَمًّا غِيلُ

(١) انظر القصة يأكلها في كتاب الفرج بعد الشدة ٢ : ٦٨ .

(٢) انظر القصة في السيرة ٢ : ٢٩٤ .

وهبوا لله أنفسهم لا معازيل، ولا ميل^(١)

ويقول محمد بن يزيد : « لما بلغتني هذه القصيدة امتعضت العرب ، وأنفت
أن يفخر عليها رجل من العجم لأنه قتل ملكا من ملوكهم بسيف أخيه
لا بسيفه . فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع . فوددت عليه
قصيدته ، ومطلها :

| | |
|------------------------------|---------------------------|
| لا يرُعَكَ القال والقيل | كل ما بَلَّغْتَ تَضْلِيلُ |
| يا ابن يَتِ التار موقِدَها | ما لحاذيه سراويل |
| من حسين من أبوك ومن | مصعب فالتكوى غول |
| نسب في الفخر مؤتسب ، | وأبوات أراذيل |
| قاتل الخلويع مقتول ، | ودم القتلول مطلول |
| ومنها : ما جرى في حود أثلتكم | ماء مجد فهو مدخول |
| قدحت فيه أسافله | فأعاليله مهازيل |

ويقول قائل من الفرس :

بهاليلُ غُرٌّ من فؤابة فارس إذا اتسبوا لا من عُرينة أو عُكل!
هو راضئ الدنيا ، وسادة أهلها إذا اقتضروا لا راضئ الشاء والإبل
فيقول آخر عربي :

لا تغتر أنك من فارس في معلنٍ لللك وديوانه
لو حدثت كسرى بذات نفسه صفمته في جوف إِيوانه !

(١) القصيدة موجود بعضها في الفرج بعد الشدة ١ : ٧٤ وهي ملومة بالتحريف ،
والقصة مختصرة في الأغاني ١١ : ١٣ .

وهناك شكل ثالث من أشكال الصراع ؛ هو الصراع العلمى وسنعرض

له بعد .

كانت نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب ، وغلبة الموالى . ولكن يجب أن
قرر أن هزيمتهم التامة كانت من الناحية السياسية والإدارية . فأما دينياً ولفوياً
فقد انتصر العرب فلم تستطع الجوسية أن تسير الإسلام . ولم تستطع لغات
للموالى أن تضع من شأن لغة العرب بل خدمتها وعملت على ترقيتها من نواح
مختلفة . وظل الموالى الذين يخضعون أغراضهم السياسية ، وينجحون فيها
يخدمون فى الوقت نفسه الدين واللغة — يصمون قواعدهما ، ويضبطون شواردهما —
وحركات الزندقة التى كانوا ينقثونها من حين لآخر أخذت فى قوة وإن كانت
قد تركت أثراً ضئيلاً — كما أن سعى بعضهم لإحلال اللغة الفارسية محل العربية
لم يصادف فى عصرنا الذى نؤرخه آذاناً سمعية ، وظلت اللغة العربية هى اللغة
الرسمية ، وهى لغة الدين ، ولغة العلم ، وأقبل الموالى على تعلمها ، وإجادتها لإجادة
تقرب من إجادة أهلها . وحسبك دليلاً : أن أبا مسلم الخراسانى كان يجيد
العربية ، وبهم أراجيز روبة^(١) . وأن أكثر الكتاب المجيدين فى العربية فى
هذا العصر كانوا فرساً ، وأن الأحمى يحكى عن عصره : أن مما يخل بالمرودة
التكلم فى مصر عربى بالفارسية^(٢) .

(٢) حيون الأخبار ١ : ٢٩٦ .

(١) الأغاني ١٨ : ١٢٣ .

الفصل الثالث

الشَّعْوبِيَّة

نستطيع بعد الذى ذكرنا فى الفصل السابق ، أن نقول : إن عصرنا الذى تؤرخه ؛ كانت تسود فيه ثلاثة نزعات :

(النزعة الأولى) تذهب إلى أن العرب خيرُ الأمم ، ولم فى ذلك حجج ، فبملها فيما يأتى :

(١) أنهم عاشوا حياتهم متمتعين باستقلالهم ؛ فهم فى جاهليتهم جاوروا دولتى الفرس والروم ، وكلتاها دَوَّخَ الميلاد وأبَسَ ملكا عظيما ، وكلتاها كان له من الجند والعدد والعدة ما لا يحصى كثرة . ومع هذا فلم تجرؤ كلتاها أن تمس استقلال العرب ، وأن تطأ ديارهم ، تَسْلُقُومَ ، واستعانوا باللّٰخِصِين فى الحيرة ، والفسانيين فى الشام ، ومنعومهم لئلا ، وقدّموا لهم الديار ليعوم من غارات عرب الجزيرة عليهم . فهم كانوا أحوج إلى العرب من حاجة العرب إليهم !

ولم يشأ أصحاب هذه النزعة : أن يصدقوا أن زهد الفرس والروم فى أرضهم ، وعدم إقدامهم على إخضاعهم ؛ منشؤه : أن أرض الجزيرة ليس فيها من الخيرات والثروة ما يطمع ! بل اعتقدوا أن انصراف الفرس والروم عنهم إنما كان لشجاعة العرب وإقدامهم وصبرهم ، وأن لهم من أرضهم منعة تجعل حربهم حرب عصابات ؛ لا يستطيع الجيش للنظم أن يجارهم فى أشكال حروبهم ، ولا أن يقف أمامهم .

وأما في إسلامهم ؛ فقد حافظوا على استقلالهم ، بل وأضاعوا استقلال
 القرس ، وأخضعوهم لحكمهم ، وكسروا جيوش الروم ، وطردوهم من أملاكهم .
 (٢) أن لم صفات خلقية امتازوا بها ؛ فهم أكرم الناس لضيف ، وأنجدهم
 مستصرخ ، يقر أحدهم ناقته التي لا يملك سواها للطارق ينزل به ، وهو ممسك
 بمنان فرسه ؛ كلما سمع هَيْمَةً^(١) طار إليها ! وم أوفى الأمم ؛ يتكلم أحدهم
 الكلمة فتكون صَكا ، ويلجأ إليه لاحتى فيحق جواره ؛ حتى ليحتكم
 فيه جازه حكم الصبي في أهله ؛ وم على ذلك قاعدة الأمم في البيان ، وحسن
 التعبير ، وم معدن الشعر ، ولم في حسن البديهة ، وقول الأمثال السائرة ،
 وإبداع الكلام ما ليس لغیرهم ، وم أحفظ الناس لأنسابهم فليس أحد منهم
 إلا يعرف نسبه ، ويسئ آياه ، وإذا اتسب أحدهم إلى غير آياته عرفوا أنه
 دَعِي ؛ حفظوا أنسابهم ، وبنوا على ذلك أحسابهم !

(٣) بينهم نشأ الإسلام ، ورسول الله من أنفسهم ، وم الناشرون له
 بين الأمم ، والداعون إليه ؛ والحامون لدعوته . فكل من أسلم من المعجم في
 عنقه مِنَّة من الرب لا تقدَّر ؛ هم الذين أهدوه من دينه القديم ، وم الذين
 أخرجوه من الشرك إلى التوحيد ، وم الذين اصطلوا نار الحروب لمداخه ، وم
 الذين قتلوا أنفسهم لحياته !!

هذه هي أم حجج الداهيين إلى هذا الرأي .

ويروون أن جماعة اجتمعوا باليرْبَدِ ، ومهم ابن المقفع . فسألم أي
 الأمم أعدل ؟ فنظر بعضهم إلى بعض ؛ فقالوا لعله أراد أصله من فارس !
 فقالوا : فارس . قال ابن المقفع : ليسوا بذلك إنهم ملكوا كثيرا من
 الأرض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغابوا على كثير من الخلق فما
 استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم في نفوسهم . قالوا : فالروم ؟

(١) الهيمه : الصوت الذي تفرح به ، وتخافه من حذر .

قال : أصحاب صنعة . قالوا : فالصين ؟ قال : أصحاب طرفة . قالوا : الهند ؟ قال : أصحاب فلسفة . قالوا : السودان ؟ قال : شر خلق الله . الخ . . . قالوا : قتل . قال : العرب . فضحكوا ! قال ابن القفيع : إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة . إن العرب حكمت على غير مثال مثل لما ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يهود أحدم بقوته ، ويفضل بجهوده ، ويشارك في ميسوره وميسوره ، ويصف الشيء بقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما يشاء فيحسن ، ويبيح ما يشاء فيبيح ، أذبتهم أنفسهم ، ورفعتهم همهم ، وأعلنت قلوبهم وألستهم . . . واقتنع الله دينه وخلافة بهم إلى الحشر . . . فن وضع إصبعهم خبير ، ومن أنكر فضلهم خُصم^(١) .

ويروي لابن القفيع أيضاً أنه قال : وقد جرى ذكر الشعر وفضيلته : « أي حكمة تكون أبلغ أو أغرب أو أعجب ، من غلام بدوي لم ير ريفاً ، ولم يشبع من طعام ؛ يستوحش من الكلام ، ويفزع من البشر ، ويأوي إلى ما لم يره ، ولم يمهده ، ولم يعرفه . ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساوئها ، ويمدح ويهجو ويذم ، ويعاتب ويشتب ، ويقول ما يُكْتَب عنه ، ويُروى له وينق عليه ؟ ! »^(٢) ، ونحن مع شكنا في هذه الرواية عن ابن القفيع لأسباب ليس هذا موضعها ؛ فإننا تثبتنا لأنها تمثل هذه النزعة^(٣) .

ويقول الجاحظ : « ليس في الأرض كلام هو أمتع ، ولا أفع ، ولا آثق ، ولا ألد في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالمقول السليقة ، ولا أثق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان من طول سماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء »^(٤) .

(١) للمقد الفريد ٢ : ٥٠ . (٢) زهر الآداب - حل هاشم المقد - جزء ٢ : ٢ .

(٣) من أدلة الوضع ؛ أن العبارة للتأني ووردت في مجموعة الرسائل طبع الجواب من كلام

جلال العسكري . (٤) زهر الآداب ٢ : ٢ .

وهذه النزعة كان يمثلها أشراف العرب ويدوم، كما كان يمثلها قوم من العجم أسلموا إسلاماً عقيقاً، وأحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعناق قوسهم، وأحبوا العرب لأن النبي منهم، ولأنهم أسلموا على أيديهم.

(النزعة الثانية) تذهب إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، ولا أية أمة أفضل من أية أمة. «والناس كلهم من طينة واحدة، وسلالة رجل واحد». وإنما التفاضل بين الأفراد لا بين الأمم «وليس تفاضل الناس فيما بينهم بأبائهم وأحبابهم، ولكن بأفئادهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم وبفسادهم». ألا ترى أن من كان ذوقه الهمة، ساقط المروءة لم يشرف، وإن كان من بني هاشم في ذوائبها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بطن منها! إنما الكرم من كرم أفعاله، والشريف من شرف همة! (١).

يقف هؤلاء موقفاً — على السواء — بين الأمم. فلا عربي أفضل من أعجمي لأنه عربي، ولا أعجمي أفضل من عربي لأنه أعجمي. وليست العربية ولا الأعجمية عاملاً من عوامل التفاضل. إنما عامل التفاضل الدين وحده عند قوم، والشرف وسمو الخلق عند آخرين! وفي هذا المعنى جاء القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ!» وفي الحديث «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالقوى!» و«للمؤمنون تكافؤ دماؤهم، ويسمى بذمتهم أدانهم، وهم يد على من سواهم» ويقول المأمون: «الشرف: نسب. فشريف العرب أولى بشريف العجم من وضع العجم بشريفهم، وشريف العجم أولى بشريف العرب من وضع العرب بشريفهم» (٢) وابن قتيبة بعد أن دافع عن العرب وأبان فضلهم على غيرهم من الأمم، غاد فتقد

(٢) محاضرات الأدباء: ١ : ٢١٩.

(١) المقدم ٢ : ٨٩.

كل ذلك وقرر المساواة فقال في آخر كتابه « تفضيل العرب » : « وأعدل القول عندى ، أن الناس كلهم لأب وأم . خلقوا من تراب ، وأعيدوا إلى التراب ، وجروا في مجرى البول ، وطرا عليهم الأقدار . فهذا نسبهم الأعلى الذى يُردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء ، ثم إلى الله مرجعهم فتتقطع الأنساب ، وتبطل الأحساب إلا من كان حسبه التقوى أو كانت مآنته طاعة الله ^(١) » .

وحجة هؤلاء أن في كل أمة الطيب والخليب ، ولكل أمة محاسنها ومساوئها ، وخير ميزان توزن به الأعمال ، الدين أو الخلق . ولما نستطيع ذلك في الأمم إنما نستطيعه في الأفراد . ففرد خير من فرد يدينه أو يخلقه ، ولا شيء غير ذلك . وهذا الصنف من الناس يسمون « أهل التسوية » أى الذين يسوون بين الأمم ، ولا يحملون فضلا لأمة على أخرى ، ويمثلهم أكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم ، لأن روح الإسلام وقواعده تؤيد هذا المذهب .

(النزعة الثالثة) تميل إلى الخطأ من شأن العرب ، وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم وحجتهم في ذلك :

(١) أن العرب ليست لها أية ميزة ، على حين أن كل أمة لها ميزة تفخر بها . فالرومان تفتخر بعظم سلطاتها ، وكثرة مدائنها ، وعظيم مدنيّتها . والهند تفخر بمحكتها وعلتها ، وكثرة عددها ، وأنهارها وثمارها . والصين تزعم بصناعاتها ، وفنونها الجميلة ، وما إلى ذلك . ولا تجد العرب تمتاز بشيء يضارع ما ذكرنا : جذب في أرض أو بدواة في عيش أو كانوا في جاهليتهم يقتلون أولادهم من الفقر ، ولا يستقر لهم حال من الغزو والسلب ، ويفعلون المكرمة

(١) المقد ٢ : ٩ .

الصغيرة كالطعام جائع ، وإغاثة المهوف فيملثون الدنيا بها شعراً وثراً ، ويتبهون بذلك غفراً !

(٢) قالوا : بم يكون الفخر ؟ أبالملك ؟ فأين ملك العرب من ملك الفراعنة ، والعلقة والأكسرة والقيصرة ؟! أو من سليمان الذي أوتي من الملك ما لا ينفى لأحد من بعده ؟! أو من ملك الإسكندر وقد بلغ مطلع الشمس ومغربها ! أم بالنبوة ؟ لجميع الأنبياء من غير العرب ما خلا أربعة ؛ هودا وصالحا وإسماعيل ومحمدا ! أم بالصناعة والعلم ؟ فالعرب أضعف الأمم في ذلك شأننا ، وأعظمهم يداً ، وأجلبهم عقلاً ! أم بالشعر ؟ فلم ينفرد العرب به . فليونان شعر موزون مقفى . ولرمان شعر كذلك . أم الخطب والبيان ، فلفرس واليونان والرومان خطب محبرة ، وبيان ساحر ، فما الذي يفخرون به بعد ذلك ؟! ، يفخرون بالكرم والوفاء ؟ وقولهم في ذلك أطول وأعرض من فصاحم ! ويفتخرون بالأنساب وقد كانوا في جاهليتهم لا يتقيدون بنوع الزواج المعروف في الإسلام . بل كان من أنواع زواجهم شيوع المرأة بين عدة رجال ! وكانوا في حروبهم يتسبى بعضهم نساء بعض ، ويستمتع بها من غير زواج ، فكيف يدري أحدهم أباه ! !

(٣) وإن غفرت بالإسلام فليس بالإسلام دين العرب وحدهم ، بل هو دين الناس . والإسلام نفسه حارب نزعتكم ، فهدم المصيبة الجاهلية ، وجعل مقياس الشرف التقوى . فالدين بيننا وبينكم ، والدنيا نحن نحظى بها وأعرف بمزاياها ، وأكثر تفهماً في شئونها .

ويمثل هذا الصنف — ممن يحقرون العرب ، ويضعون من شأنهم ويسودون كل أمة عليهم — من ظلوا على دينهم القديم ، أو أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، أو غلبت عليهم النزعة الوطنية . فكروا من العرب أنهم أزالوا ملكهم ، وأضاعوا استقلالهم .

هذه هي النزعات الثلاث التي كانت في ذلك العصر . وعلى هذا النحو كانوا يجادلون . وقد أطلق على أصحاب النزعتين الأخيرتين اسم « الشعوبية » وكان أحق الناس بهذا الاسم الطائفة الثانية ، لأنهم يقولون « بالشعوب » أى يقولون بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم في الشرف والخسة . فكان أمامهم أن يتسموا باسم مشتق من « المساواة » أو باسم مأخوذ من الشعوب يدل على أن الشعوب سواء ، فاختاروا الثانى وسمُّوا « الشعوبية » . ولذلك يقول في العقد الفريد : « الشعوبية وهم أهل التسوية » ويقول في الصحاح : « الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على المعجم » ولكن لا نلبث أن نراهم أطلقوا هذا الاسم على الصنف الثالث أيضاً . فلو قرأنا ما كتب الجاحظُ ، وصاحبُ المقد وغيرهما وجدنا أنهم انسقوا في تسمية الماديين للعرب « بالشعوبية »^{١٠} والظاهر أن تسميتهم بهذا الاسم تأخرت عن تسمية أهل التسوية به . كما تأخرت الفرقة الثالثة عن الفرقة الثانية تاريخياً ، فطبيعى — وقد كان العرب متغلبين في العصر الأموى ، وكانت النزعة الأولى على أشدها وقوتها وسلطانها — أن يبدأ الموالى فيقولون بالمساواة فقط . وكل أميتهم أن يظفروا بذلك ، حتى إذا اشتد الجدل ، وأحس الموالى بقوتهم وسلطانهم . أيام الرشيد والمأمون ، ظهرت النزعة الثالثة تضع من شأن العرب ، وترفع من غيرهم . فانسحب اسم « الشعوبية » عليهم وصار يطلق على أصحاب النزعتين معاً . بل وحتى صار أكثر ما يطلق على الصنف الثالث . قال في اللسان : « والشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب ، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم » .

يستنتج مما ذكرنا أن لفظ الشعوبية مأخوذ من الشعوب : جمع شُئِب . وهو جبل الناس ، وهو أوسع من القبيلة ، وأشمل . قال الزبير بن سَكَّار : « الشَّعْب ، ثم القبيلة ، ثم الهارة ، ثم البطن ، ثم الفضد ، ثم القصيلة » ، وعلى

هذا فالعرب شعب ، والفرس شعب ، والروم شعب وهكذا — وقد ذهب قوم إلى أنها مأخوذة من الشعوب في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا » وقالوا : إن المراد بالشعوب بطون العجم ، والقبايل قبائل العرب — وهو تفسير في نظرنا غير صحيح ، وأوضح دليل على ذلك أن العرب لم تكن تفهم حين نزول الآية . فقد قلنا إلينا الطبرى آراء كثير من الصحابة والتابعين في تفسير الآية وكلها تدور حول أن المراد بالشعوب النسب البعيد ، أو البطون . والقبايل دون ذلك — والذي يظهر أن تفسير الشعوب بالعجم ، والقبايل بالعرب تفسير شومى وضعه أجهى ، واستطرد منه إلى القول بأن العجم أفضل من العرب ، لأن الله قدمهم في الذكر . قال ابن قتيبة : « وبلغني أن رجلا من العجم احتج بقول الله عز وجل : يَا أَيُّهَا النَّاسُ — الآية . وقال : الشعوب من العجم ، والقبايل من العرب ، وللقدم أفضل من للآخر . وقد كنت أرى أهل التسوية يحتجون بهذه الآية ، وقد غلطوا من وجهين : أحدهما ، أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل . قال الله عز وجل : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » قدم الجن على الإنس ، والإنس أفضل منها . . والوجه الآخر ، أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب . وكل قوم كثروا واتشعّبوا قد صاروا شعوبا » .

من الجائز أن يكون اسم الشعوب أخذ من الشعوب بعد أن فترت الآية بهذا التفسير — ولكنه يكون مركزاً على أساس خطأ — وأرجح أن اسم الشعوبية لم يستعمل إلا في العصر العباسي الأول ، بدليين ظنيين : (الأول) ما أسلفنا وهو أن هذه النزعة التي تحاول مساواة العرب أو تحقيرهم ، لم تتخذ شكلا قويا واضحا يصح أن يطلق على معتقديه اسم إلا في هذا العصر ، أما قبل ذلك فقد كانت نزعة خفية لا تستطيع الظهور ، وإذا ظهرت أخذت . والحاجة إلى

الاسم إنما تكون بعد أن ينفذ للبدا شكل عقيدة عامة أو حزب ، (الثاني)
أنا لم نر من أطلق هذا الاسم على هذه النزعة في العصر الأموي ، نعم إن
الأصفهاني في الأغاني قال : إن إسماعيل بن يسار كان شعوبياً ، ولكن من
الواضح أن الأصفهاني وهو عباسي سمي إسماعيل بالاسم الذي يستحقه لثا رَفَعَ
شأن العجم — وتفقّى في ذلك بشعره أمام هشام بن عبد الملك ، وليس للمعنى
أن إسماعيل بن يسار عُرف بذلك الاسم في عصره . وذلك كما عدّوا سلمان
الفارسي متصوفاً ، مع أن قائلاً لم يقل بأن اسم الصوفية عُرف في عهد سلمان .
كذلك روى عن مسروق : « أن رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه
الجزية ، فأمر عمر ألا تؤخذ منه » ومسروق تابعي كان في العصر الأموي .
وقد فسر ابن الأثير الشعوب في هذا القول بالعجم ، قال في اللسان : « ويمحور
أن يكون جمع الشعوب — وهو الذي يصغر شأن العرب — كقولهم اليهود
والجوس في جمع اليهودي والمجوسى » ونحن نستبعد التفسير الثانى ، لأنه صادر
من متأخرين ، وقد فسروه بما عرفوه بعد عصر مسروق ، والذي نراه : أن
مسروقاً أراد أن رجلاً من الشعوب الأخرى غير العرب أسلم وإن لا يكون
فيه دليل .

وقد يستأنس — على ما قول — بأن أكثر أسماء المذاهب التي وضعت
في صدر الدولة الأموية ؛ لم تكن فيها إيا النسبة كالفوارج ، والشيعية ، والمُرجئة ،
والمعتزلة ، ولم تؤلف هذه النسبة إلا في آخر العهد الأموي ، أو صدر العصر
العباسي . كالجهمية ، والقدرية ، ثم الراوندية ، والخرّمية ، والشعوبية —
وأقدم ما وصل إلينا من الكتب التي استعملت لفظ الشعوبية ، كتاب البيان
والتبيين للجاحظ .

يمكننا أن نستنتج من دراستنا للشعوبية النتائج الآتية :

(١) أن دعاة الشعوبية بدعوا دعوتهم مستندين على تعاليم الإسلام نفسه ؛

فهو لا يفضل شعباً على شعب ، والقوية أو الثتوية عنده إنما وضعت على الأعمال لا على الأجناس ، وقد يكون العبد الرقيق ، والتبطل في الذليل ، عند الله في أعلى عليين ، وسيدّه المُكاثَر بأهله وولده وماله أسفل سافلين . ثم تدرجوا من ذلك إلى تحقير العرب وشؤونهم ، وبيان ميزة الأم الأخرى عليهم . وساعدهم على ذلك ما كان للفرس من نفوذ ظاهر في الدولة العباسية .

(٢) أن الشعبية لم تكن عقيدة مخلوذة التعاليم ، لها شعائر ظاهرة مُؤمّنة كما قول في المذاهب الدينية ، فإننا نستطيع أن نقول : إن هذا شافعي ، وهذا حنفي . فيمكننا أن نحدد وجوه الخلاف ، ونبين الفروق في الشعائر . كما نستطيع أن نقول ، إن هذا من أهل السنة والجماعة ، وهذا معتزلي فنذكر ذلك . ولكننا لا نستطيع أن فنل ذلك في الشعبية لأنها نزعة أكثر منها عقيدة ، فهي أشبه بالارستقراطية ، والديمقراطية . بل هي في الحقيقة نوع من الديمقراطية يحارب ارستقراطية العرب ، لذلك لا نستطيع أن نخصر معتقبيها ؛ فهم في كل بلد ، وفي كل قطر ، ومن كل جنس كما لا نستطيع اليوم أن نحصى من ينزعون إلى الديمقراطية ، أو الاشتراكية .

(٣) مما ساعد على هذه النزعة الشعبية ، أنها تساند النزعة الوطنية ، والمصبية الدينية . فالعرب أزالوا استقلال فارس ، وحكوا مصر والشام والمغرب وأهلها ليسوا عرباً . فاستتبع ذلك أن كثيراً من الفرس كانوا يحنّون إلى ملكهم واستقلالهم ، وكثيراً من نصارى الشام ومصر كانوا يكرهون العرب للسليّن الذين أجلا الروم النصارى عن بلادهم ، ويتمنون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . وإن كان لا بد أن يُحكّموا فن أهل دينهم .

نم ! إن من دخل في الإسلام من الفرس وأهل مصر والشام والأندلس كانوا أقل حدة في هذه النزعة الوطنية ، ولكن لم يكن كلهم قد دخل الإسلام

إلى أعماق نفوسهم ، وتملك مشاعرهم إلى حد أن تغلب النزعة الدينية
النزعة الوطنية .

(٤) يمكن أن نستنتج مما تقدم : أن الشعوب كانوا أصنافاً مختلفة ، منهم
فرس ، ومنهم نبط ، ومنهم قبط ، ومنهم أندلسيون . وقد صُغت شعوبية كل
صنف من هؤلاء صبغة خاصة ؛ فالفرس صُغت صبغة وطنية تدعو إلى
الاستقلال ، واتخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد ، والنبط ظهرت
في شكل عصبية للأرض وزراعتها ، وتفضيل معيشة الحرث والزرع على
الصحراء ومعيشتها . والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب ، وأرادوا
طردهم من بلادهم ، وكان آخر ثورة كبيرة في عهد المأمون ، فلما هزموا لجئوا
إلى الكُتَيْد « بأعمال الحيلة ، واستعمال السكر ، وتمكنوا من النكاية بوضع
أيديهم في كتاب انتراج »^(١) . وفي الأندلس ظهر ابن غَرْسِيَّة ، ووضع
رسائله في الشعوبية ، ورد عليه كثير من العلماء .

(٥) هذه الشعوبية كانت درجات مختلفة تتبدى معتدلة هادئة ، وتنتهى
متطرفة عنيفة . فترى قوما معتدلين مالوا إلى تسوية العرب بغيرهم كما رأيت ،
وآخرين حقروا من شأنهم ، وسلبوهم كل منزلة ، كما ترى قوما فرقوا بين
العرب والإسلام . فهاجوا العرب من حيث هم أمة ، ولم يرضوا للإسلام
بمكره . بل صرحوا بأن الإسلام دين الناس جميعاً لا العرب وحدهم —
وكثير ممن حكينا قولهم في ذم العرب كانوا من هذا الصنف ، بل يصح لنا أن
نعد ابن خلدون شعوبياً بهذا المعنى ؛ فقد حكينا ملخص رأيه في العرب في
الجزء الأول من « فجر الإسلام »^(٢) . وهو رأى في أشد العنف والقسوة على
العرب وخصائصهم ، قل أن نرى شعوبياً متطرفاً وصل إلى ما وصل إليه في
صراحته وشدته . ولكنه في رأينا كان مسلماً حقاً حر التفكير في حدود الدين ،

(١) انظر المقيزي ١ : ٧٩ و ٨٠ . (٢) ص ٣٦ .

على حين أنا نرى قوما آخرين لم يفرقوا بين العرب والإسلام، وأدتههم كراهيتهم للعرب إلى كراهيتهم لكل ما جاء عنهم، ومن ذلك الدين. وقد حكى الجاحظ عن قوم من هؤلاء، قال: «وربما كانت البداوة من جهة العصية؛ فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه ذلك من الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحلات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف»^(١). وقد دعت هذه النزعة قوما إلى أن يتبرعوا من الشعوبية إذ هي باب الإلحاد.

(٦) نلاحظ شيئاً من الوفاق بين بعض تعاليم الخوارج والشيعة والمعتزلة. فالخوارج — كما علمت — يرون أن التولية لا يشترط فيه أن يكون قرشياً بل ولا عربياً. والذي أرى أن هذه النزعة منهم لا يقصد منها تحقير العرب، وإعلاء شأن غيرهم. وكيف يكون ذلك وأكثر الخوارج كانوا عرباً خالصاً! وهذا الرأي صدر عنهم حين الخلاف بين عليٍّ ومعاوية؛ والشعوبية لم تتكون بعد، فالظاهر أن رأيهم هذا صدر عن اجتهاد بحث، دعا إليه محض الرغبة في إصلاح أمور المسلمين. وأما المعتزلة فترى للسعود يقول: «وقد زعم جماعة من المتكلمين. منهم ضرار بن عمرو، وتامة بن أشرس، وعمرو بن عثمان الجاحظ؛ أن النبط خير من العرب!». وهؤلاء الثلاثة من رموس المعتزلة. وأرى أن رأي المسعودي — وتبعه في ذلك «جولنزيهر»^(٢) — خطأ، ويظهر لي أن خطأها جاء: من أن ضراراً وأصحابه ذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه الخوارج. فلم يقتصروا على أن يقولوا: إن الخلافة لا يلزم أن تكون في قریش ولا في العرب. بل قالوا: إن غير العربي ولو

(١) الحيوان جزء ٧ : ٦٨ والمبارة في الأصل مقبلة وقد اختصرناها.

(٢) انظر في ذلك كتاب جولنزيهر • Muhammedanische Studien • وقد عقد فيه فصلاً ممتعاً في الشعوبية استدلنا منه كثيراً في بحثنا.

بطيًّا أولى من القرشي لأنه يسهل خله إذا جار وظلم . ودليلنا على ذلك ما جاء في شرح النووي على مسلم : « ولا اعتداد بسخافة ضرار بن عمرو في قوله : إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدّم على القرشي ليهوّن خله إن عرّض منه أمر »^(١) . وقد فهم الفاهمون من هذا أن ضراراً وصحبه يفضلون النبطي على العربي وهو فهم غير صحيح بل هو العكس ، يرى في وضوح إلى القول بأن العربي أشرف وأن من المصلحة أن نولي غير المعتز بمصيبته يسهل خله ، وذكر النبطي على أنه مثل في الخسة ! والجاحظ — بوجه خاص — من الصعب عدم شعوبياً ، فقد انبرى في كتابه « البيان والتبيين » للرد على مطاعن الشعوبية ، وسقّ رأيهم . بما يدل على إخلاص فيما يقول — نعم ! إنه ألف رسالة في فضل الموالي وعدد مناقبهم . ولكنه ذكر ذلك على لسانهم ، وقد صرح بأنه ألف هذه الرسالة أيام المعتض جالب الأتراك ، وذكر أنه إنما ألّفها لا يُفضّل بها بعض الجنود على بعض « وقد كانت جند الخلافة إذ ذاك على خمسة أقسام : خراساني ، وتركي ، ومولى ، وعربي ، وبنوي »^(٢) وإنما ألّفها ليؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة ، وليزيّد في الألفة إن كانت مؤتلفة^(٣) ، ويحذّر من المناقنين يدسون الدسائس ليوغروا الصدور ، ويفرقوا القلوب ، ويقول : « إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك إلا بذكر مثالب سائر الأجناد فترك ذكر الجميع أصوب ، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم »^(٤) . وعلى الجملة فقد صرح فيه « أنه يرى إلى تعدد مناقب الترك من غير أن يتعرض لنم غيرهم » ولكنه لم يضبط قلمه فجّح به أحياناً إلى تفضيل الترك على غيرهم في بعض الأمور ، لكن من العسير عد هذا القدر شعوبية .

على أن الجاحظ في نظرنا لم يكن يعبر عن رأيه في مدح الشيء وذمه بل

(١) جزء ٤ : ٢٦٥ . (٢) يريد ببنوي ما كان من أبناء الدعوة إلى الدولة العباسية .

(٣) رسائل الجاحظ : ١٧ . (٤) المصدر عينه : ٢٢ .

كان يذم الشيء ويمدحه إجابة لدعوة كبير ، أو رغبة في إظهار مقدرته البيانية على تصوير الشيء بصورتين متباينتين ، فإن نحن اعتمدنا على القرائن فما في كتاب البيان والتبيين أدلُّ على نفسه ولذلك نرجح أنه ليس شعوبياً .

وأما التشيع فقد كان عشَّ الشعوبية الذي يأوون إليه ، وستارهم الذي يستترون به . وسياق طرف من ذلك عند الكلام في الشيعة .

(٧) يذهب ابن قتيبة إلى أن الذين اعتنقوا الشعوبية هم سِفلة الناس وغوغاؤم فيقول : « ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد نصباً للعرب من السِّفلة ، والحشوة ، وأوباش النبط ، وأبناء أكرَّة القرى . فأما أشراف العجم ، وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم ، وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً » ولكن يظهر أنه اقتصر على من يتظاهر بالشعوبية وهؤلاء كانوا كما ذكر ابن قتيبة . أما الأشراف فكانت حركتهم سرية خفية لا يجرعون أن يظهرها بها لكبر مراكزهم ، وخشية من الشك فيهم عند الخلفاء . فهم يؤيدون — من وراء حجاب — هذه الحركة فلا يراها ابن قتيبة وأمثاله . وقد ذكر ابن قتيبة أن ممن ذهب مذهب الشعوبية « قوما تحلوا بحلية الأدب فخالسوا الأشراف ، وقوما اتمسوا ببسَم الكتابة قُربوا من السلطان فدخلتهم الأنفة لأدبهم ، والفضاضة لأقذارهم من لؤم مفارصهم ، وخبث عناصرهم . فتنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم ، ودخل في باب فسيح لا حجاب عليه ، ونسب واسع لا مدافع عنه ، ومنهم من أقام على خساسته ينافح عن لؤمه ، ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوى الشرف ، ويظهر بغض العرب بتنقصها ، ويستفرغ مجهوده في مشائهما ، وإظهار مثالبها ، وتحريف الكلم في مناقبها ، وبأسائها نطق ، وبهممها أنف ، وبآدابها تسلج عليها ، فإن هو عرف خيراً ستره ،

وإن ظهر حقه ، وإن احتمل التأويلات صرفه إلى أقبحها ، وإن سمع سوءه ،
نشره وإن لم يحده تَحَرُّصَه ! » (١) .

فالحق أن الشعوبية لم تكن في السفلة وحدهم ، وهؤلاء السفلة لم يكونوا
الآخذين بزمامها ؛ وإنما كان معهم كثير من الطبقة المتعلمة الراقية ، وإن لم
يَرْقَ نَسَبُها إلى الملوك والأشراف ، وهؤلاء هم الذين كان لهم الأثر الشعبي
في الأدب والعلم — كما سترى — ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طبقة بلغت أعلى
للمناصب في الدولة . فكانوا يمدُّونهم سرا بجاههم وبعلمهم ، فقد أُلِّفَ عَلَّانٌ
الشعبي ككتابا في مثالب العرب ؛ فأجازته طاهر بن الحسين عليه ثلاثين ألفاً .
وإذ كان هؤلاء العقلاء لا يكرون ؛ هم رؤساء هذه الدعوة ؛ كانت حربهم
علمية أدبية دنيئة ؛ أكثر منها ثورات ظاهرة .

بلغت هذه الحركة أوجها في القرن الثالث الهجري ، وساعد على ذلك
الخلفاء العباسيين تمصُّبوا للإسلام ، ولم يتمصِّبوا كثيراً للعربية . فخاربوا الزنقة ،
ولم يحاربوا — في شدة — النزعة المعجبية . وذلك طبيعي لأن أكثرهم — كأبناء —
مولدُونَ . ولقي العرب من العجم عنتاً شديداً ، فالوزراء أكثرهم عجم ،
والدسائس تدس في القصور لإضعاف شأن العرب ، وإذا ثار العرب في
جزيرتهم أو في الأطراف نكل بهم قواد العجم وجيوشهم أشد تنكيل ، وفي
أعماق نفوسهم شعور بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية ، ولم يكن شعور
الترك الذين جلبهم المعتصم بأحسن حالا من شعور الفرس ، وكثر الشعر في
هذا القرن والذي بعده من الأعاجم الذين تعلموا العربية يفخروا بنسبهم .
ويعتزون بقومهم ، فافتتح ذلك بشار بن بُرْد كما رأيت . وتبعه ديك الحين .
الشاعر المشهور ، قال في الأغاني : « وكان شديد التشبُّب والعصية على العرب .

(١) كتاب العرب من وسائل البلاغ ص ٢٧٠ .

يقول : ما للعرب علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم عليه السلام ، وأسلمنا
كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلا منا قتل به ، ولم نجد الله عز وجل فضلكم
علينا إذا جمعنا الدين ١ .

ويقول قائلهم :

فلست ببارك إيواف كسرى لتوضع أو لحومل فاللخول
وصب في الفلا ساع ، وذئب بها يعوى ، وليث وشط غيل
وكان « الخريمي » الشاعر المشهور يكثر في شعره من الاعتزاز بالنسب
الفارسي والتحقير من شأن العرب فيقول :

إني امرؤ من مراءه الضئد ألسنى عرق الأعاجم ، جلدًا طيب الخبر
ويقول :

أبا الضئد بأس إذ تُعزنى جمل^(١) سيفها ومن أخلاق جاري الجمل
فإن تغري يا جمل ، أو تتجمل فلا نغز إلا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شرعًا في الحياة ، ولا يرى قير على قبر علاء ولا فضل
وما ضرني أن لم تلدني يحاير^(٢) ولم تشمل جرّم على ولا عكل^(٣)
إذا أنت لم تحمّر القديم بمحدث من الجدل ينقعل ما كان من قبل
ويقول :

وناديت من مزي وبلغ فوارسًا لم حسب في الأكرمين حبيب
فيا حسرتا لا دار قومي قريسة فيكثر منهم ناصري ويطيب
ولإن أبي ساسان كسرى بن هزيم^(٤) وخافان لي لو تملين نسيب

(١) يكنى بجمل من العرب . (٢) يحاير ، وجرم ، وعكل : أساء قبائل هزيمية .

مَلَكْنَا رَقَابَ النَّاسِ فِي الشَّرْكِ ، كُلُّهُمْ لَنَا تَابِعٌ طَوْعَ الْقِيَادِ جَنِيبٌ
نَسُوْكُمْو حَتَفًا ، وَقَضَى عَلَيْكُمْو بِمَا شَاءَ مِنْهَا غَطْيٌ وَمَصِيبٌ
فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامَ وَانْشَرَحَ لَهُ صَدُورُ بِهِ نَحْوِ الْأَنَامِ تُنِيبٌ
تَبِعْنَا رَسُوْلَ اللَّهِ حَتَّى كَانَمَا مِمَّا عَلَيْنَا بِالرَّجَالِ تَصُوبٌ

ويقول المتوكلي وكان من ندماء المتوكل :

أَنَا ابْنُ الْأَكْرَامِ مِنْ نَسْلِ جَيْمٍ ^(١) وَحَازِرُ إِارِثِ مَلُوكِ الْعَجَمِ
وَعَجِي الَّذِي بَادَ مِنْ عَزَمِ ، وَعَقَى عَلَيْهِ طِوَالَ الْقِدَمِ
وَطَالِبُ أَوْتَارِهِمْ بِجَهْرَةٍ ، فَمَنْ تَامَ عَنْ حَقِّهِمْ لَمْ أُنَمِ
مَعَى عِلْمِ الْكَاتِبَانِ ^(٢) الَّذِي بِهِ أُرْتَجَى أَنْ أَسُودَ الْأُمَمِ
قَلْبَ ابْنِي هَاشِمٍ أَجْمَعِينَ ، هَلُمُّوا إِلَى اتِّخَالَعِ قَبْلَ النَّدَمِ
مَلَكْنَاكُمْ عَنُوءَةً بِالرَّمَا حَ طَعْنَا وَضَرْبًا ، يَسِيفُ حَزَمِ
وَأَزَلَّاكُمْ الْمُلُوكَ . أَبَاؤُنَا ، فَمَا لِنْ وَفَيْتُمْ بِشُكْرِ النِّعَمِ
فَمُودُوا إِلَى أَرْضِكُمْ بِالْحِجَازِ لِأَكْلِ الضَّبَابِ ، وَرَعَى الْفِئَمِ
فَلَمَّا سَأَعَلُو سِرَرَ الْمُلُوكِ بِحَدِّ الْحَسَامِ ، وَحَرَفَ الْقَلَمِ ^(٣)

وقد شعر العرب بخطورة موقفهم ، ولكن لم يستطيعوا دفع الشر عنهم ،
ونجد في كثير من الشعر في ذلك العصر والذي بعده ظلاما من الحسرة والألم ،
وقد ذكرنا طرفا من ذلك في الفصل السابق . وتري هذا المعنى واضحا بعد في
شعر المتنبي . فيألم وقد زار شعب بوان بفارس من ضعف اللغة العربية بها فيقول :

(١) يريد جيم : جميد ملك لفرس .
(٢) الكاتبان : نسبة إلى كايه (جلوه) حداد فارسي رفع علم الثورة وقد ورد في الأصل
الكاتبان وهو خطأ .
(٣) مجسم الأدياء : ١ : ٢٢٣ .

ملاعب جِنَّةٍ لو سار فيها سليمانُ لسار بِتَرْجان !
ويقول : ولكن الملقى العريّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ويقول في قصيدة أخرى :

وإنما الناس بللوك ، وما تَفْلَحُ غَرْبُ ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسبٌ ولا عهد لم ولا ذِمَمُ
بكل أرضٍ وطقتها أُمَمٌ تُرعى بعبدٍ كأنها غَمَمُ !
يستخسِنُ الخَزْءَ حين يَلْسُهُ وكان يُبْرِى بِظَفَره القَلَمُ !



والآن نعرض للأشكال المختلفة التي حارب بها الشعويّة العرب :
قد عملوا إلى مزنة العرب الظاهرة التي يمتزّون بها ، وهى البلاغة ، وقوة
الخطابة ، وحضور البديهة ، فأخذوا ينتصونهم فى ذلك من نواح مختلفة :
كان العرب إذا خطبوا أكثروا من الإشارة بأيديهم ، يمثلون بها أغراضهم
ويستمعون بذلك على إيضاح للمعنى ، وقوة التأثير فى السامعين ، وكثيراً
ما يستعملون فى إشاراتهم الخصرة [وهى ما يُسمّكه الإنسان يده من عصا ،
أو مِرْعة أو عِكازة أو قضيب] وكثيراً ما كانوا يُشيرون فى خطب السلم
بالخصرة ، وفى خطب الحرب بالقسي . وأحياناً كانوا يتكئون أثناء خطبهم على
القسي ، وكثيراً ما يلبسون للخطابة زياً خاصاً ؛ فيضعون العمامة وضماً
يدل على تأهبهم للخطابة . فجاءت الشعويّة تهزأ بهم فى ذلك . وتقول :
أى ارتباط بين الكلام والمصا ، وبين الخطبة والقوس ، وما إلى أن
يَسْتَلِمُ العقل ، ويصرفنا لطواطر ، ويعترضنا الذهن ، أشبه ، وليس فى
حملها ما يَسْتَحْذِ الذهن ، ولا فى الإشارة بهما ما يجلب اللفظ ، وقد زعم
أصحاب الفناء أن الملقى إذا ضرب على غنائه قصر عن الملقى الذى لا يضرب
على غنائه ، وحلّ المصا بأخلاق القفّادين أشبه ، وهو بجفاء الأعراب

وَعَنْجَهِيَّةُ أَهْلِ الْبَدُو، وَمُزَاوَلَةُ إِقَامَةِ الْإِبِلِ عَلَى الطَّرِيقِ أَشْكَلُ، وَبِهْ أَشْبَهُ! ^(١) :
وقد رد عليهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وأفرد لذلك بابا خاصا سماه
« كتاب العصا » من أجل ذلك ، كما عابهم في جوهر الموضوع فقالوا : ليست
الخطابة ميزة امتزمت بها وحدكم ، فهي شيء في جميع الأمم . حتى إن الزنج مع
غباوتها ، وفساد مزاجها لتطيل الخطيب . وأخطب الناس الفرس لا العرب ، ولم
فوق خطبهم التأليف في صناعة البلاغة ، وصعرفة القريب ككتاب « كازوند »
ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالراتب والعبر وللثلاث ، والألفاظ
الكرمية والماني الشريفة ، فلينظر إلى سير الملوك (ملوك الفرس) ^(٢) ، بل
أين معانيكم ، وحكمكم وخطبكم ، وطريقة تفكيركم ، مما للفرس واليونان والمند ؟
وأين كلامكم الجافي ، وأصواتكم الفليضة من طول اعتيادكم مخاطبة الإبل ؟ مما
لهؤلاء من معنى دقيق ، ولفظ رشيق ، وصوت رقيق ؟ ! وقد قارن الجاحظ
بين بلاغة الفرس والروم ، وبلاغة العرب ، فقال : إن الأولى صادرة عن
تفكير وروية ، والثانية صادرة عن بديهية وسرعة خاطر .

كذلك عابوا العرب في آلائهم الحربية فسَخَرُوا مِنْ رَمَاحِهِمْ ، وَمِنْ عُرْمَى
خِيُولِهِمْ ، وَمِنْ قَنَاقِهِمُ الصَّيَاءَ مَعَ أَنَّ الْجَوْفَاءَ أَخْفَ مَحْمَلًا ، وَأَشَدَّ طَمَعًا ، وَمِنْ قَلَّةِ
الْخُبْرَةِ فِي تَنْظِيمِ جِيُوشِهِمْ ، فَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ لِلْيَمِينَةِ وَلَا لِلْيَسَرَةِ ، وَلَا الْقَلْبِ
وَلَا الْجَنَاحِ ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ الْمَرَادَةَ وَلَا الْجَانِيقَ ، وَقَارَنُوا بَيْنَ
حَالَةِ الْجَيْشِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْجَيْشِ الْفَارِسِيِّ فِي تَنْظِيمِهِ وَفِي آلَاتِهِ ، وَأَبَاتُوا مَا لِلأَوَّلِ
مِنْ حِقَارَةٍ ، وَمَا لِلثَّانِي مِنْ عَظَمٍ ، وَفَاتِ الشُّعُوبِيَّةُ أَنَّ هَذِهِ الْقَارَنَةُ أَحَقُّ
لِشَأْنِهِمْ ، وَأَوْضَعُ لِمَكَاتِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ الْعَرَبُ بِآلَاتِهِمُ السَّادِجَةِ الْخَفِيرَةِ سَقَطُوا
الْفَرَسَ بِآلَاتِهِمُ الضَّخْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَجِيُوشِهِمُ لِلنَّظْمَةِ الْكَثِيرَةِ ^(٣) .

(١) البيان والتبيين ٣ : ٦ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر في ذلك الجزء الثالث من البيان والتبيين .

ونوع آخر من مسالك الشموية ، وهو أنهم في هذا العصر أكثروا من التأليف في مناقب العجم . فسميد بن سُميد البَحْتَكَا ن ، كان كاتباً شاعراً مترسلاً عذب الألفاظ ، وكان يدعى أنه من أولاد ملوك الفرس ، وكان شديد المصيبة مع العرب ، وألف كتاب « انتصاف العجم من العرب » وكتاب « فضل العجم على العرب وافتخارها »^(١) ونرى ابن النديم ينقل عن كتاب اسمه « مفاخر العجم »^(٢) وفي مقابل ذلك يضعون الكتب في مثالب العرب ، كالحليم بن عديّ — وهو من أشهر العلماء بالأخبار والرواية ، جالس المنصور والمهدي والهادي والرشد ، وقد وضع عدة كتب في المثالب منها : « كتاب المثالب الصغير » و « كتاب المثالب الكبير » و « كتاب مثالب ريعة » و « أسماء بغايا قریش في الجاهلية ، وأسماء من ولدن » ويتصل بهذا كتاب له ، اسمه : « كتاب من تزوج من الموالى في العرب »^(٣) وكذلك سهل ابن هارون صاحب « بيت الحكمة » . قال فيه ابن النديم : « كان حكيماً فصيحاً شاعراً ، فارسي الأصل ، شعوبى للذهب ، شديد المصيبة على العرب . وله في ذلك كتب كثيرة »^(٤) ، وقد وضع رسالته المشهورة في البخل . ولعل ذلك منه نزعة شعوبية ، لأن العرب كانوا يتمدحون كثيراً بالكرم ، ويعمدونه من أكبر مناقبهم ، كما اشتهر الفرس بالبخل ، فوضع سهل هذه الرسالة يقلب فيها قيمة الكرم والبخل ، ويمدح الكرم وذيلة والبخل فضيلة . وروى له صاحب زهر الآداب أبياتاً تدل على شعوبيته ، يفترق فيها بفارسيته ، ويذم العربية ، ويقارن بين بيته في ميسان وبيت آخر عربي فيقول :

أجملت بيتاً فوق رابية فَرَحَ النجوم كأنه نجم
كَبِيتَ شَرَّ وسط مجهلة بفنائهِ الجُملَانُ والبُهْمُ^(٥)

(٢) الفهرست ٤٢ .

(٤) فهرست ١٢٠ .

(١) فهرست ابن النديم ١٢٣ .

(٣) فهرست ٩٩ و ١٠٠ .

(٥) هامش المقد ٢ : ١٩٠ .

وألف علان الشعوي — وأصله من الفرس — كتاب اللئدان في
 المثالب « قال ابن النديم : إنه هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، ويحتوى على
 مثالب قريش ، ومثالب تميم بن مرة ، ومثالب بنى أسد بن عبد العزى ، ومثالب
 بنى مخزوم ، وعدد القبائل كلها وذكر مثالبها^(١) .

وألف أبو عبيدة مغمّر بن المثنى ، وهو من أشهر العلماء في النحو والأخبار ،
 وكان أصله من يهود فارس — كتباً كثيرة تعرض فيها للعرب . منها « كتاب
 لصوص العرب » وكتاب « أدعياء العرب » كما ألف كتاب « فضائل
 الفرس »^(٢) وقال فيه ابن خلكان « وكان يكره العرب وألف في مثالبها
 كتباً »^(٣) وقد صور لنا ابن قتيبة نوعاً من الطعن الذى كان يستعمله أبو عبيدة
 فقد عمد إلى مفاخر العرب فتهكم بها . كانوا يفخرون بقوس حاجب ويعزون
 بوفاته فتضاحك عليه واستضحك الناس منه ، واستسخر فعل حاجب ،
 وخساسة عوده ، وقلة ثمنه ، ويذكر قول الشاعر :

أيا ابنه عبد الله ، وابنة مالك ، ويا ابنه ذى البردين ، والفرس الوزر !

فيها بالشعر ، ويصحب في سخرية من التمدح بأن أباهاً ذو بردين و فرس
 ورد . ويقارن ذلك بملوك فارس وتيجانها ، وأن أبريز كان يرتبط تسعة
 وخمسين فيلا على مرابطه ، وتخدمه ألف جارية ، وفي حجرته التى يشرف منها
 على الداخل عليه ألف إماء من ذهب^(٤) .

وكتب للمثالب هذه — على ما يظهر — عمدت إلى ما صدر عن كل قبيلة
 من بيت تعريته ، أو عمل تؤاخذ عليه ، أو جريمة ارتكبها أحد أفرادها فتقيدتها
 وأذاعتها . للشهير بالعرب جميعاً . كما أن كتب مناقب المعجم ومفاخرها عمدت

(١) الفهرست ١٠٥ و ١٠٦ . (٢) الفهرست : ٥٤ .
 (٣) ٢ : ١٥٥ . (٤) انظر رسائل البغداد : ٢٧١ وما بعدها .

إلى ما استحسن من عادات الفرس ، وعظمة ملوكها ، ونظام جيوشها ، وسياسة ملكها فشادت به . ولم يصلنا شيء من هذه الكتب — على ما أعلم — كما لم يصلنا أى كتاب ألف فى بيان دعوى الشعوبية ، وإنما وصل إلينا نصف من أقوالهم وآرائهم ؛ أهمها ما ورد فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وما ورد فى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وما نقله ابن قتيبة فى كتابه (العرب)

والظاهر أن أكبر سبب فى ضياع هذه الكتب أن المسلمين عدّوا هذه النزعة الشعوبية نزعة ضد الإسلام فصوّجوا من قتل الكتب المؤلفة فيها ، وتقرّبوا إلى الله بإعدامها وبرّئوا المخلصون من الليل إليها . كما فعل الرّحشري فى أول كتابه المقتصر . فقد حدّ الله « إذ جَبَلَه على الغضب للعرب ، والعصبية لهم ، وبرّأه من الانضواء إلى لقيف الشعوبية » .

ولم يقتصر هؤلاء الذين ذكرنا من علماء الشعوبية على وضع كتب المثالب . بل يظهر أنهم وضعوا فى الأدب قصصاً كثيرة تؤيد جانبهم . وقد اختلقوها اختلاقاً ، وكانت هذه أخطر على العرب من الحرب الظاهرة ، لأن قضيها أصعب ، والوقوف على بطلانها أعسر ، ويمكننا أن نترك أنهم لجأوا فى ذلك إلى نوعين : (النوع الأول) الوضع وهو أن يضموا القصص الشنيعة فى شرح الآيات أو الأمثال . ويختلقوا القصة اختلاقاً . كما فعل أبو عبيدة فى شرح المثل « جان مايلوى على الصّغير^(١) » فقد نقل البكرى فى كتابه « التنبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه » حكاية فى ذلك عن أبى عبيدة لا نستطيع ذكرها لشناعتها^(٢) ! وروى الميثم بن عدى قصة طويلة . تلخص فى أن رجلاً من تنوخ نزل بحى من بنى عامر فخرّجت إليه جارية ، فقالت : بمن أنت ؟ قال : من تميم . فذكرت له أحياناً فى ذم تميم ، فقال لها : لست من تميم بل أنا

(١) ما يلى : أى ما يرج لغة جينه على من يصغر به .

(٢) التنبيه : ٧٧ .

من قبيلة عَجَل ، ففعلت ذلك ، وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة ، وهي تروى الآيات في ذمها حتى استفند القبائل . ولما اعتسب إلى بني هاشم قالت : أترى الذي يقول :

بنى هاشم عودوا إلى تَخَلَّاتكم فقد صار هذا التمر صاعا بدمهم !
فإن قلتمو : رهط النبي محمد فإن النصارى رهط عيسى ابن مريم^(١)
والحكاية كلها على ما يظهر من وضع الشعوية ، أو من وضع الهيثم بن عدى نفسه ، يرى واضعها إلى ذكر مثالب القبائل العربية .

(والنوع الثانى) نسبة الشيء إلى غير قائله ، وهو طريق سلكوه لإفساد الأدب العربى ، وإضاعة معالمة ، حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به ، وتلك أكبر بنية لهم . ومن الأمثلة على ذلك : أن يقول أبو عبيدة فى البيتين الآتيين :

هَيَّيْنُونْ لَيَّيْنُونْ أيسار دَوُّو كرم سُوَّاس مكرمة أبلاته أيسار
إن يسألوا الخير يعطوهم وإن خبروا فى الجهد أدرك منهم طيب أخبار
إنهما للقرندس الكلابى يمدح بنى عمرو الفتوين ، فينكر الأصمى عليه ذلك ، ويقول : محال أن يمدح كلابى غنوا لما بينهما من المداوة^(٢) ولو فحصنا الأدب فى ضوء هذه النظرية ؛ لوجدنا الشيء الكثير للموضوع للخط من العرب ، وإفساد الأدب ، مما لا نستطيع أن نستقصيه هنا .

« كان فى هذا العصر ثلاثة ، هم أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم يربلهم ولا بدمهم مثلهم ، عنهم أخذ جل ما فى أيدي الناس من هذا العلم بل كله وهم : أبو زيد الأنصارى ، وأبو عبيدة ، والأصمى ! »^(٣) وقد

(١) تجد الحكاية بطورها فى مروج الذهب للمسعودى من ١٧٥ - ١٨٠ فى الجزء الثانى .

(٢) انظر التنبيه : ٧٢ و ٧٣ . (٣) للزهرى ٢ : ٢٠٢ .

اشتهر أبو زيد بحفظ الغريب من اللغة وبالنحو ، وتنازع الرياسة الاثنان الآخران ، ويظهر أن الأعمشى بحكم عريقته كان يتعصب للعرب ، وكان يشتدّ فيما يروى فلا يميز إلا أصحّ اللغات ، وكان لا يمحِب في القرآن ، ولا في الحديث خشية الخطأ^(١) ، وكان يقول في شيء برأيه . وكان لا يفسّر شعراً فيه هجاء^(٢) . كأنه كان يرى أن ذلك يمسّ دينه ! وكأنه يرى أن في الهجاء خطأ من اللجوء أو قبيحته ، وفي ذلك تماس بالعبودية ، وكان يمتاز عن أبي عبيدة بحسن إلقائه ، ولطف نغمته — أما أبو عبيدة ، فيظهر أنه كان أوسع علماً ، وأكثر ثقافة ، يعرف تاريخ الفرس لفارسيته ، والثقافة اليهودية لليهودية آباءه ، والثقافة الإسلامية لأنه نشأ فيها . ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأعمشى . وكان حرّ الرأي يفسّر القرآن برأيه ، فيؤاخذ الأعمشى على ذلك^(٣) ، وليس للعرب حرمة في نفسه ، إذ ليس يعربى بل في نفسه الكراهة لهم ، فهو يطلق لسانه في هجوم ، وذكر مثالبهم . وقد استغوى الناس بسمة اطلاعه ، كما استغوى الناس الأعمشى بفصاحته وحسن بيانه . قال الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة^(٤) . وقالوا : « إن طلبه العلم كانوا إذا أتوا مجلس الأعمشى اشترى البعر في سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشترى الدر في سوق البعر لأن الأعمشى كان حسنَ الإنشاد والزخرفة لردى الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده التبيح ، وإن الفائدة مع ذلك عنده قليلة . وإن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة ، مع فوائد كثيرة ، وعلوم جمة »^(٥) — ويظهر أن كلام الأعمشى وأبي عبيدة ، كان في عصره يمثل فكره . فالأعمشى يمثل العربية ، والتعصب لها ، وحُب العرب وإجلالهم والإشادة بذكورهم . وأبو عبيدة يمثل فكرة

(١) الزهر للسيوطي .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٢٠٩ .

(٣) ابن خلكان ٢ : ١٥٥ .

(٤) ابن خلكان ٢ : ١٥٦ .

(٥) ابن خلكان ٢ : ١٥٥ .

(٦) ابن خلكان ٢ : ١٥٦ .

الشعوبية ، والبحث عن معاييب العرب والتشهير بهم . وكان كل زعيم ، يلتف حوله من يؤيدون فكرته ، ويناصرونه ويتعصبون له ؛ العرب حول الأصمى ، والفرس حول أبي عبيدة ، فرى إسحق بن إبراهيم الموصلى ، وهو فارسى يقول للفضل بن الربيع :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن العلم عند أبي عبيدة
وقلمه ، وآثره عليه ، ودع عنك القريذ بن القريذة ^(١)
ويقول أبو الفرج الأصفهاني : إن إسحق الموصلى « كشف للرشد معاييب الأصمى ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه ، وأن الصنعة لا تزكو عنده ووصف له أبا عبيدة بالثقة والصدق والسباحة والعلم ، وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع ، واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمى . وأسقطه عندهم ، وأنقلوا إلى أبي عبيدة من أقدمه ^(٢) ونجد أبا نواس ، ونزعته الفارسية لاتنكر ، يقدم أبا عبيدة على الأصمى ، ويقول : « أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمى فبئلبل يطربهم بنفاته » ونجد الأصمى من ناحية أخرى يذم البرامكة ، ويقول :

إذا ذكر الشراك في مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزك

وأبو عبيدة يشيد بذكر الفرس ، ويؤلف كتاب « فضائل الفرس » ويؤلف كتاباً فى أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم من سلف وخلف ، وأخبارهم وخطبهم وتشعب أنسابهم ، وما بنوه من المدن وكوروه من الكور ، واحترفوه من الأنهار ، وأهل البيوتات منهم ، وما وسم به كل فريق من السهارجة وغيرهم ^(٣) .

(١) ينى الأصمى . (٢) الأتاني ٥ : ١٠٧ . (٣) للمسعودى ١ : ١١٣ .

ومن آثار الشعوبية أنهم لَوَنُوا ما رووا من تاريخ الفرس لوناً زاهياً جليلاً ، ونسبوا إلى ملوكهم الحكم الرائعة ، والسياسة الحكيمة ، وكسوة أبهة وعظمة بالنفوس فيهما ، وزعموا أن الفرس من ولد إسحق بن إبراهيم عليه السلام ، والعرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وإسحق ابن سارة الحرّة وإسماعيل ابن هاجر الأمة ، فهم أفضل من العرب لأنهم بنو الأحرار ، وأما العرب فبنوا اللّٰخناء ^(١) . وهي دعوى غير صحيحة علمياً ، وإنما وضعت ليرفع الفرس من شأنهم وليفتخروا بها على العرب ، كما زعموا أن سابور سمي ذا الأكتاف لأنه أوقع بالعرب في العراق وخلع أكتافهم ^(٢) .

وأغرب من ذلك ما اخترعه شعوبية النبط من حديث نسبوه إلى عليّ ابن أبي طالب ، فقد رووا أن رجلاً سأله فقال : أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش . فقال : نحن قوم من نبط كوثي ، ورووا عن ابن عباس أنه قال : نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثي ! وفي رواية أخرى عن عليّ - أنه قال : من كان سائلاً عن نسبتنا فإننا نبط من كوثي ^(٣) ، وقد أئصب العلماء أنفسهم في تفسير هذه الأحاديث فقال بعضهم إنها أراد أن أباهما إبراهيم عليه السلام كان من نبط كوثي ، وقال قوم إنها أراد التبرؤ من الفخر بالأنساب ، وقال قوم إن كوثي اسم من أسماء مكة ، ولو أنصفوا لأراحوا أنفسهم من تأويل هذا الهذيان .

واستغل الفرس سلسان الفارسي استغلالاً عظيماً ، فَرَّوْا له من الزهد والحكمة والعلم ما لم يرو لأى صحابي آخر حتى جملوا عُمره فوق أعمار الناس فقيل إنه أدرك عيسى عليه السلام ، وروى أبو الشيخ في طبقات

(١) انظر رسائل البلاغ ص ٢٦٥ . (٢) مسعودي ١ : ١٢٢ .

(٣) انظر الأحاديث في لسان العرب ٢ : ٤٨٧ ومعه ياقوت في مادة «كوثي» ، وكوثي بلدة بسواد العراق .

الأصفهانيين أن أهل العلم يقولون : عاش سلمان ثلثائة وخسين سنة ، فأما مائتان وخسون فلا يشكون فيها ^(١) . ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية « وَإِنْ تَقُولُوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » فقالوا من يستبدل بنا ؟ فضرب صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان . ثم قال : هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجال من فارس ، وهو الذى قيل فيه : سلمان منا أهل البيت ، وهو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق . ومن ذلك الحين عرف العرب كيف يستعملون الخنادق في الحروب ، فهم في ذلك مدينون للفرس . وعلى الجملة فقد اتخذه الفرس وسيلة لبيان عظمتهم ، وأن لهم فضلاً كبيراً على المسلمين ^(*) .

وكان للشعوبية مجال فسيح في الحديث . فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل الفرس ، وأسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين ، مثل ما روى أن الأعاجم ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَأَنَا بِهِمْ أَوْثَقُ مَنِّي بِكُمْ » وفي رواية « لَأَنَا بِيَعُضِهِمْ أَوْثَقُ مَنِّي بِيَعُضِكُمْ » ^(٢) وفي حديث آخر « سَيَأْتِي مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ فَيُظْهِرُ عَلَى الْمَدَائِنِ كُلِّهَا إِلَّا دِمَشْقَ » ^(٣) . وفي حديث « لَا تَسْجُؤُوا فَارِسًا فَا سَبَّهُ أَحَدٌ إِلَّا انْتَقِمَ مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا » ، « وَرَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهُ رَدِفَهُ غَنَمٌ سُودٌ ، فَرَدِفَتْهُ غَنَمٌ بَيْضٌ ، مَا يَرَى السُّودَ فِيهَا لَكَثَرَتِهَا فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ بِذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ : السُّودُ الْعَرَبُ وَيَسْلُمُونَ ، وَالْبَيْضُ الْعَجَمُ يَسْلُمُونَ بَعْدَهُمْ حَتَّى مَا يَرَى فِيهِمُ الْعَرَبُ لَكَثَرَتِهِمْ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَخْبَرَنِي

(١) الإصابة لابن حجر ٣ : ١١٣ . (٥) وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أملى كتاباً على من فيه أنه صلى الله عليه وسلم لدى سلمان وجبل ولادة له ، وأرخ الكتاب في جمادى في السنة الأولى الهجرية وقد ندد الخطيب البغدادي هذا الكتاب تنقيداً دقيقاً فانظره في الجزء الأول صفحة ١٧٠ . (٢) تفسير الوصول ٣ : ١١١ . (٣) المرجع نفسه ٣ : ١٢٧ .

لَلَّذِ سَخَّرَا^(١) . ومن هذا القبيل ما وضعوه من الأحاديث الكثيرة حول الإمام أبي حنيفة الفارسي الأصل ، يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار بها إليه أو نص عليه كالذي روى : لو كان العلم مُعَلَّقًا عند الثُّرَيَّا لتناوله رجل من فارس ، وكالذي رويوا : أن آدم افتخر بي وأنا افتخر برجل من أمي اسمه نعمان ، وكنيته : أبو حنيفة هو سراج أمي . ورويوا : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن سائر الأنبياء يفخرون بي ، وأنا افتخر بأبي حنيفة ، من أحبه فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضني^(٢) .

والحق أن العرب ومن تعصب لهم قابلاو علمهم بمثله ، فوضعوا الأحاديث الكثيرة في تفضيل العرب ، ووجوب حبهم . مثل « من غشَّ العرب لم يَدْخُلْ في شفاعتي ولم تَنْلَهُ مَوَدَّتِي » ، ومثل « إذا اختلف الناس فالحق في مُضَر » ، ومثل « أَحَبُّوا العربَ لثلاث لَأَنِّي عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » . ومن أُلْطِفَ ذلك أنهم رويوا حديثًا للنبي صلى الله عليه وسلم مع سلمان الفارسي نفسه ، ذلك أن رسول الله قال : يا سلمان لا تَبْغُضْني فتفارق دينك ؛ قال : قلت : يا رسول الله ! كيف أَبْغُضُكَ وبك هداني الله ! قال لا تبغض العربَ فتبغضني الخ^(٣) . ونعالم الإسلام التي تدعو إلى المساواة ، وتعلم أن الفضل ليس إلا بالتقوى نأبى مدح القرس أو العرب أو أية أمة لجنسيتها .

ونكاد نجد إصبع السعوية في كل علم حتى في الفقه ، فلو قرأت مثلا باب الكفاءة في الزواج ، رأيت أن الأئمة أنفسهم لم تؤثر فيهم العصبية أى أثر ، فالإمام مالك العربي لم يعتبر الكفاءة ، وعنده أن المجى يتزوج العربية من غير أن يكون للولى حق الاعتراض ، ومذهب أبي حنيفة الفارسي يعتبر

(١) محاضرات الأدباء ، للأصفهاني ١ : ٢١٩ .

(٢) انظر ابن عابدين وهامشه ١ : ٥٤ و ٥٥ .

(٣) ابن قتيبة في رسائل البلاء ٢٩٣ .

الكفاءة، فالقرشيون^(*) أكفاء لبعض؛ وليس غير القرشي كفوًا لهم، والمجبي ليس كفوًا للعربية. ولكن سرعان ما نجد نظرية توضع على بساط البحث يهدم بها الجزء الأكبر من العصبية العربية. وهي: «شرف العلم فوق شرف النسب» قال قاضيان: «الحبيب يكون كفوًا للنسب. فالعالم المجبي يكون كفوًا للجاهل العربي والتلويح، لأن شرف العلم فوق شرف النسب»^(١). وقالوا: «وكيف يصح لأحد أن يقول إن مثل أبي حنيفة أو الحسن البصري وغيرها ممن ليس بمجبي لا يكون كفوًا لبنت قرشي جاهل أو لبنت عربي بوال على عقبيه ١؟»^(٢) ويطول بنا القول لو عدنا أثر الشعوبية في كل علم.

وما نأسف له أن الشعوبية أزهرت في عصر تدوين العلوم، وكل حركة علمية كانت بعد إنما أُنست على ما دُون في هذا العصر العباسي الشعبي، ولم يكن لنا علم مُدَوَّن قبل ذلك، وهذا يجعل استكشاف الآثار الشعوبية صعبًا غامضًا. فلو كان لدينا تاريخ مدون في العصر الأموي لفهمنا كيف تلاعب به الشعوبيون في العصر العباسي، ولو كان لدينا تاريخ للقرن موثوق به دُون أثناء حكم الفرس لأدركنا في وضوح كيف جَمله الشعوبيون، ولو كان العرب في العصر الإسلامي الأول وضعوا كتبًا في الأنساب ومقابها ومثالبها ووصلت إلينا لعرفنا ما اختلقه الشعوبيون عليهم لإفساد أنسابهم، والخط من شأنهم، وهكذا في كل العلوم. ولكن قُدِّر أن يقرن تدوين العلم بسطوة الشعوبية، فكان ذلك من سوء حظ العلم، ولذلك أجد العلماء أنفسهم في تعرّف أسرار الشعوبية وخفاياها وآثارها في العلم، ولا يزال المدي أمامهم فسيحًا، والبحث في مهده.

(*) في المبسوط للرخسى: «أن سفيان الثوري كان من العرب فواضع ورأى الموال أكفأ. له، وأن أبا حنيفة كان من الموال فواضع ولم ير نفسه كفوًا للعرب» ٢٢: ٥٥. (١) ابن مابدين ٢: ٤٩٨. (٢) المصدر نفسه ٤٩٩.

ومع هذا فقد كان الشعوية جانب حسن، فقد أنت الشعوية وكل شيء
 للعرب يُعجّد، من نسب عربى، ولغة عربية، ورأى عربى، وعادات
 عربية. فأخذ الشعويون — يقرضون هذا للنقد، والتحليل؛
 عرضوا أنساب العرب للنقد كالذى فعل أبو عبيدة مع غلوه، فكان
 يرد على قوم ينتسبون للعرب فيبين أن النسبة كاذبة مخنقة، وفي كتاب
 الأغاني عن أبي عبيدة من هذا الشيء الكثير، وعرضوا اللغة العربية للنقد،
 فسيويوه في كتابه النحو يُخطئ العرب في بعض أقوالهم، ويدعى العرب
 أن البلاغة ليست إلا فهم، فيرد الشعوية بأن هناك أمّا أخرى لها بلاغة ولها
 خطب، ولها حكم لا تقل عما للعرب، وينبهون على أن عادات العرب ليست
 المثل الأعلى للمادات، ففيها الحقير للرزول والجيد المحمود — كل هذا النقد
 وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه. وهى: عرض ما للأمم الأخرى
 من كل ذلك لتكون المقارنة أتم، فتمرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات
 العربية، والحكم الأجنبية والبلاغة الأجنبية بجانب البلاغة والحكم العربية
 والنظام الفارسي والأدب الأجنبي بجانب النظام والأدب العربيين ونحو ذلك،
 وهذا — من غير شك — مفيد للعلم والعقل.

نعم! لو وقفت الشعوية عند هذا الحد، فلم يتهجموا على العرب بقلب
 محاسنهم مساوى، والتشهير بهم بالحق حيناً، وبالباطل أحياناً، ولم يحاولوا إفساد
 الدين بالزندقة، وإفساد العلم بالكاذب — لو وقفوا عند ذلك لأحسنوا —
 ولكنهم أفرطوا انفسروا كثيراً وكبرها ومقتوا كثيراً.

الفصل الرابع

الرقيق وأثره في الثقافة

قبل أن نتكلم في الرقيق وأثره ، يجب أن نبين في كلمة موجزة موقفه القانوني في المملكة الإسلامية ، وبعبارة أخرى ما كان يطبق من الأحكام الإسلامية عليه .

تقضى تعاليم الإسلام — أو على الأقل — للبادئ التي استنبطها الأئمة . من أصول الأحكام ، وجرى عليها العمل حتى عصرنا الذي توارخه بأن « سبب الرق : وقوع الكافر أسيراً في يد المسلمين عند الحرب » فإذا حارب المسلمون الكافرين فن أسر من المحاربين منهم جاز للإمام أن يسترقه ، كما يجوز له أن يسترق أهل البلد الذي فُتِح في الحرب ، رجالاً كانوا أو نساء^(١) . وهذا الكفر والوقوع في الأسر هما سببا الرق . ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سببه ، فلو وقع كافر في الأسر فاسترق ثم أسلم . لا ينزل عنه الرق^(٢) — وهذا الرقيق يُعَدُّ مالاً ، شأنه في ذلك شأن المتاع . فمن استرق في الحرب عد جزءاً من الغنيمة كالآلات الحربية ، وكانقود وكنخل . وعلى الجملة مثله كمثل كل شيء مقوم وقع في يد الفاتحين ، وشأن هذه الأشياء — أن الإمام ينقلها إلى دار الإسلام ، ثم يأخذ خمسها يصرفه في الصالح العام من إعطاء للفقراء والمساكين ، وصرف في وجوه البر المختلفة . وأما أربعة الأخماس فتوزع على من اشترك في القتال ، والرقيق يفعل به ذلك ، تخمسه للصالح العام والباقي يقسم على القتاتين . وقد ميزوا عند القسمة على المحاربين

(١) انظر ما كتبه في الجزء الأول من فجر الإسلام ١٠٢ . ؟

(٢) الصريح ٢ : ١٨٠ .

بين الفارس والراجل ، وبعبارة أخرى بين الخيالة والرجالة . فجعل للفارس سهمان في قول بعض الفقهاء ، وثلاثة في قول بعضهم ، وللراجل سهم واحد . على هذا الخط الذي أبتنا كان يوزع الرقيق .

وإذ كانت الحروب في صدر الإسلام تكاد تكون دائمة ، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون متلاحقاً مطرداً ، والبلاد المفتوحة والأمم المغلوبة لا تكاد تعدّ ، أمكننا أن نتصور كيف كان الرقيق لا يحصى كثرة ، وكيف كان مختلفاً متنوعاً تنوع الأمم التي اشتبك معها المسلمون في قتال — وإذ كنا أبتنا كيف يوزع الرقيق فهنا كيف انتشر بين المحاربين ، ودخل في بيت كل منهم . وإذ كان الرقيق يعدّ مالا ، وتجري عليه كل العقود المالية مع بيع وشراء ، وإجارة ورهن ، أمكننا أن نفهم أنه لم يقتصر على المحاربين بل كان في متناول أيدي الناس جميعاً ، وكان له سوق يشتري منه من شاء ويستعمله كما شاء !

هذا من الناحية المالية ، وأما علاقة الرجال بالإماء من الناحية الجنسية فنبينا فيما يأتي :

هناك سببان يُحلان المرأة للرجل : عقد الزواج ، وملك العيمين ، فأما عقد الزواج فلا يحل للرجل الحر أن يتزوج أكثر من أربع ، أعنى أنه لا يحل له أن يكون على ختمته في وقت واحد أكثر من أربع زوجات ، ولكن يحل له أن يطلق منهن ، ويتزوج غيرهن بعد انقضاء علتهن . هذا هو قول أكثر الفقهاء . وإن كان لنيرهم أقوال أخرى لا محل لها هنا — وهذا الحكم عام سواء كانت الزوجات الأربع حرائر أو إماء — وكل الذي ذكره الفقهاء في هذا الموضوع أنه لا يحل أن يعقد الرجل عقد زواج على أمة إذا كان متزوجاً حرة ، ولكن العكس بصح ، فيجوز له أن يتزوج حرة على أمة . وقد

لوحظ في ذلك أن زواج الأمة بعد زواج الحرة امتحان للحرة، وجرح لشرها وعزتها. والأمر الثاني مما يُحل للمرأة للرجل: «مَلِكُ التَّيْمَنِ» أعنى ملكية الرجل للأمة، قال تعالى: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْدُلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» فمن ملك جارية جاز أن يتسراها، وهي حلٌ له سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، وسواء كان متزوجاً واحدة أو أربعاً. ولا يتقيد الرجل في ذلك بحد. فيحل له أن يتزوج إلى أربع، وأن يملك من الجوارى ويتسرى منهن ما شاء من العدد وإن كثرت^(١).

من أجل ذلك كان البيت الإسلامى فيه — غالباً — زوجة أو زوجات، وكان يجانبهن عدد من الجوارى قد تسراهن رب البيت.

وكثيراً ما كان يقع الخلاف بين الحرائر والجوارى السراى، وذلك طبيعى — حتى ذهب بعض اللغويين إلى أن تسميتهن بالسراى كان سببه الغيرة، قل اللسان عن بعضهم أن الشرية الأمة التى يتسراها صاحبها — مفسوبة على غير قياس إلى السرِّ، وهو الإخفاء، لأن الإنسان كثيراً ما يسرها ويسترها عن حرته» وكثيراً ما ينسل الرجل الواحد الحرائر والجوارى فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجوارى، ويعتزون بأنه لم يمر في عروقتهم دمٌ رقيق، كالكذى كان بين الأميين والمأمون، فكلاماً ولد الرشيد، ولكن أم الأميين زوجة حرة، وأم المأمون جارية سُرِّية، وقد ضربنا قبل أمثالا من هذا القبيل ببيوت الخلفاء ونسلم المتنوع، وكانت بيوت غيرهم من الرعية مثل بيوتهم في هذا الباب.

(١) انظر البدائع ٢ : ٢٦٦.

وهذا الرقيق الذى أبيا - من رجال ونساء لا يَسْتَرِدُّ حَرَّتَهُ إِلَّا بِأَنْ يَبْعَثَهُ مَالِكُهُ . وقد عقد الفقهاء باباً طويلاً للعتق ، أبانوا فيه الألفاظ التى يكون بها العتق ، وما يعرض له من أشكال ، والذى يهمننا منه الآن : كلمة فى « أم الولد » ذلك أن الأمة إذا ولدت من سيدها سميت « أم ولد » وقد رفعوها فوق منزلة الجارية التى لم تلد منه ، ومنحوها حقوقاً لم تنلها غيرها ، أهمها : أنه لا يصح لمالكها (وهو مستولدها) أن يبيعها ، ولا يهبها - وعلى ذلك جرى جمهور الفقهاء - ولكنها تبقى حرة لمالكها حتى يموت ، فإذا مات صارت حرة ، تجرى عليها كل أحكام الحرائر . أما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار .

هذا هو الوضع القانونى لمسألة الرقيق ، والنظام الذى كان يسود فى عصرنا الذى نؤرخه ، وهو قدّر لا بد منه لقهم النتائج الأدبية والعلمية والاجتماعية .

وقد كان المسلمون والنصارى واليهود على السواء فى تلك الرقيق ، ولكن التسرى لم يكن نظاماً مشروعاً عند اليهود والنصارى ، وإن ارتكبه بعضهم خروجاً على القانون . فقد رووا أن أبا جعفر المنصور أهدى طليبه جورجيس بن بختيشوع النصرانى ثلاث جوار حسان روميات مع ثلاثة آلاف دينار ، فردّ الجوارى فسأله المنصور لم رددهن ؟ قال : لأننا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة ما دامت المرأة ، ولا تأخذ غيرها^(١) .

ولسكن من ناحية أخرى يروى الجاحظ أن « طيانو » رئيس الجاثليق قد همّ بحرم كلام عَوْنِ الْعِبَادَى (وكان نصرانياً) عندما بلغه أنه اتخذ السراى ، فتوعد عَوْنُ الْجَاثَلِيقِ وحلف لئن فعل لِيُسْلِمَنَّ^(٢) .

(١) أخبار الحكماء ص ١٥٩ .

وروى القفطى : أن النصارى عاتبوا يوحنا بن ماسوية على اتخاذ الجوارى . وقالوا : خالفت ديننا . وأنت تكلم ! فلما كنت على سنتنا ، واقصرت على امرأة واحدة ، وكنت شمساً لنا ، وإما أخرجت نفسك عن الشباسين ، واتخذت ما بدا لك من الجوارى . فقال لهم : إنما أمرنا فى موضع واحد ألا نتخذ امرأتين ولا ثوبين . فمن جعل الجاثليق . . . أولى أن يتخذ عشرين ثوباً من يوحنا الشقي فى اتخاذ أربع جوار ؟ قهولوا للجاثليقكم : أن يلزم قوانين دينه حتى نلزم معه فإن خالف خالفناه (٢).

وقد كانت للمملكة البيزنطية تحريم على من ليس نصرانياً أن يملك رقيقاً نصرانياً ، ولكن المسلمين أباحوا لليهود والنصارى أن يملكوا الأرقاء ولو كانوا مسلمين .



انتشرت تجارة الرقيق فى المملكة الإسلامية فى ذلك العهد ، كما انتشرت فى غيرها من الممالك ، وكان فى بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » (٣) اتُهب فى الفتنة بين الأمين والمأمون ، وبكاء شاعر فى قصيدة طويلة آخرها :
ومها أنس من شيء تولى فإني ذاكرُ دار الرقيقِ

وقد سُمي تاجرُ الرقيق « نَخَّاساً » وكان فى الأصل يطلق على بائع البواب ، واشتهر فى ذلك العصر كثير من النخاسين فى بغداد ، وسبب شهرتهم ما لهم من جوار حسان يأوى إليهن الشعراء والأدباء ، منهم بالكُرخ نخاس يكنى « أبا عمير » كان له جوار قيانُ لمن ظُرف ، وكان من جواريه جارية تسمى « عبادة » هويتها عبد الله محمد بن البواب فيقول :

(٢) أخبار الحكة ٣٨٧ .

(١) الميران الجاهل ٤ : ٩ .

(٣) مسعودى ٢ : ٢٤١ .

لَوْ تَشَكَّى «أَبُو عُثَيْرٍ» قَلِيلًا لَا تَبْنَاهُ مِنْ طَرِيقِ الْعِيَادَةِ
 قَضَيْنَا مِنَ الْعِيَادَةِ حَقًّا وَنَظَرْنَا فِي مَقَلَّتِي «عَبَادَةَ»^(١)
 وَمِنْهُمْ أَبُو الْخَطَّابِ النَّخَّاسُ، كَانَ لَهُ جَارِيَةٌ مَفْتِيَةٌ تَعْرِفُ بِذَاتِ الْخِلَالِ،
 كَانَ يَهْوَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْمَوْصِلِيُّ^(٢)، وَمِنْهُمْ «حَرْبُ بْنُ عَمْرِو التَّغْفِيُّ» كَانَ نَخَّاسًا،
 وَكَانَ لَهُ جَارِيَةٌ مَفْتِيَةٌ وَكَانَ الشُّعْرَاءُ وَالْكَتَّابُ وَأَهْلُ الْأَدَبِ يَفْضَدُونِهَا بِمُخْتَلَفٍ إِلَيْهَا
 يَسْمَعُونَهَا، وَيُنْفِقُونَ فِي مَنْزِلِهِ التَّفَقُّاتِ الْوَاسِعَةِ، وَيَبْكُونَهُ وَيَهْدُونُ إِلَيْهِ، وَفِيهَا
 وَفِيهِ يَقُولُ أَشْجَعُ :

أَشْكُو الَّذِي لَاقَيْتُ مِنْ حُبِّهَا وَيُقْضِي مَوْلَاهَا إِلَى الرَّبِّ
 مِنْ مُبْضِي مَوْلَاهَا وَمِنْ حُبِّهَا سَقِمْتُ بَيْنَ الْبُفْضِ وَالْهَبِّ
 فَاخْتَلَجَا فِي الصَّدْرِ حَتَّى اسْتَوَى أَمْرُهُمَا فَاقْتَسَمَا قَلْبِي
 تَعَبًا لَللَّهِ شِفَائِي بِهَا وَجَعَلَ الشُّمَّ إِلَى حَرْبٍ^(٣)

وَمِنْ «أَبُو دَلَامَةَ» يَنْخَاسُ بِيَعِ الرَّقِيقَ، فَرَأَى عِنْدَهُ مِنْهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 حَسَنٍ فَانْصَرَفَ مَهْمُومًا، فَدَخَلَ إِلَى الْمَهْدِيِّ، فَأَنشَدَهُ قَصِيدَةً يُفْضِلُ فِيهَا النَّخَّاسَةَ
 عَلَى الشُّعْرِ مَطْلَعًا :

إِنْ كُنْتُ تَبْنِي التَّيْسَ حُلُومًا صَافِيًا فَالشُّعْرَ أَغْذِيهِ وَكُنْ نَخَّاسًا^(٤)
 وَلَئِنْ كَانَ الْمُسْتَهْتَرُونَ مِنَ الْأَدْبَاءِ يَنْبِطُونَ النَّخَّاسِينَ عَلَى نَخَّاسَتِهِمْ، فَكَثِيرٌ
 مِنَ الْعُقَلَاءِ كَانَ يَكْرَهُ هَذِهِ الْحَرْفَةَ وَيَعْتَقِبُهَا. دَخَلَ نَاسٌ عَلَى مَعَاوِيَةَ، فَسَأَلُوهُ
 عَنْ صَنَائِعِهِمْ فَقَالُوا : بَيْعُ الرَّقِيقِ، قَالَ : بَيْسُ الصَّجَارَةِ، صَمَانُ نَفْسٍ، وَمَوْزُونَةُ
 خُرْسٍ^(٥).

وَكَانَ عَلَى تِجَارَةِ الرَّقِيقِ عَامِلٌ مِنْ عَمَالِ الْحُكُومَةِ يَشْرَفُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ،
 وَيَرِاقِبُ تِجَارَتَهُمْ يَسْتَوِي «قِيَمَةُ الرَّقِيقِ» :

- (١) أَهْلُ : ٢٠ : ٤٤ . (٢) أَهْلُ : ١٧ : ٥٠ . (٣) أَهْلُ : ٩ : ١٢٨ .
 (٤) مِيزَانُ الْأَنْبَاءِ : ١ : ٢٠٠ . (٥) أَهْلُ : ٢٠ : ٢٧ .

كان هؤلاء الأرقاء أنواعاً مختلفة فمنهم السود . وكانت أهم أسواق ذلك الصنف مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا ، وكانت القوافل تأتي بهم وبالذهب من الجنوب ، وكان الثمن العادي للعبد في منتصف القرن الثاني حول مائتي درهم . وقد رووا : أن كافوراً الإخشيدى الحيشى الذى ملك مصر قد بيع في أول أمره سنة ٣١٢ هـ بثمانية عشر ديناراً لأنه كان خصياً^(١) ، وفيه يقول المتنبي لما غضب عليه :

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْحَصَى مَكْرُمَةً ؟ أَقَوْمُهُ الْبَيْضُ أَمْ آكَاؤُهُ الصَّيْدُ ؟
أَمْ أَذُنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَائِمَةٌ أَمْ قَدَرُهُ وَهُوَ بِالْفَلَسِّينِ مَرْحُودُ ؟
وَذَاكَ أَنْ الْفَعُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةً عَنْ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ انْخِصِيَةِ السُّودُ ؟
ومنهم البيض ، ومن أشهرهم الأتراك والمغالبية ، وقد كان الناس يفضلون المغالبية على الأتراك ، كما يدل على ذلك جملة للخوارزمي وردت في كتاب يتيمة الدهر « ويُستخدم التركي عند غيبة الصقلي »^(٢) وقد كان أهم مركز لتجارة الرقيق الأبيض مدينة ممرقند ، فقد اشتهرت بإصدار أحسن الرقيق من هذا النوع ، وعظمت تجارته في المملكة الإسلامية ، وفي أوروبا ، وكان تجارته في أنحاء أوروبا من اليهود^(٣) .

وقد كان لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها « فالمغنديات عرفن بالوداعة ، ولين الجانب والملدوء ، وحسن رعاية الطفل . ولكن سرعان ما يعرض لمن الذبول . وامتاز الرقيق من رجال المهنود بتدبير للزلزل ، والمهارة في الصناعات اليدوية . ولكنه عرضة للموت الفجائى في ريمان شبابه ،

(١) Mez في كتابه Die Renaissance Des Islams .

(٢) يتيمة : ١١٦ ويطلق المغالبية على الأجناس التي تسكن من بلغاريا إلى حدود

(٣) Mez .

للسلطانية .

وأغلب ما يجلب الرقيق الهندى من « قندهار » واشتهرت السنديات بالخمر
التبخل ، والشعر الطويل . واشتهرت مولات المدينة (يعنى الإمام اللاتى
نشأن بالمدينة وريتن فيها) بالدلال ، وللليل إلى السرور والفكاهة والمجون ،
وبحسن الاستعداد للتبوغ فى الفناء . وعرفت مولات مكة بدقة المعصم
والفصل ، والعيون الناعسة . والأمة البربرية (للفرية) لا تبارى فى حسن
الإنتاج ، وهى لدمائة خلقها ولين عريكتها صالحة لأن تعود نفسها القيام بأى
نوع من العمل ، ولثلث الأعلى للجارية — كما قال أبو عثمان الدلائل — : أن
تكون من أصل بربرى فارقت بلادها ، وهى فى التاسعة من عمرها ، ومكنت
ثلاث سنين فى المدينة ، ومثلها فى مكة ، ثم رحلت إلى العراق فى السادسة
عشرة من عمرها لتتوقف بثقاته ، فإذا بيعت فى الخامسة والعشرين كانت قد
جمعت بين جودة الأصل ، ودلائل اللدييات ، ورقة المكيات ، وثقافة
المراقبات .

« والسودانيون كانوا يغمرون الأسواق : وقد عرفوا بقله الثبات والإمال ،
كما عرفوا بالليل إلى الضرب على الدف والرقص ، وهم أحسن خلق الله بياض
أسنان لكثرة لعابهم ، ويمابون عادة بنتن الإبط ، وخشونة اللبس .
« والحبشيات عرفن بالضعف والترهل : والاستعداد لأمراض الصدر ،
وهن على العكس من السودانيات لا يحسن الفناء ولا الرقص ، ولكنهن
قويات الخلق ، موضع ثقة ، أهل للاعتداع عليهن .

« والتركية بياض البشرة ، على حظ عظيم من جمال وحياة ، ولها عينان
صغيرتان جذابتان ، وهى فى النال بدينة أميل إلى القصر ، ولود ، كريمة نظيفة
تجيد الطهى ، ولكن لا يوثق بها ولا يعتمد عليها .

والأمة الرومية بياض البشرة فى حمرة ، ناعمة الشعر زرقاء العينين . طليعة
مستعنة للتشكيل بما يحيط بها من ظروف ، مخلصه ثقة . والعبد الرومى يجيد تديير

المنزل ، ومحب النظام ، ويميل إلى القصد في الإغراق ومجد الفنون الجميلة » .
 « والأرمن شر الجنس الأبيض ، بنيتهم جيدة ولكن أقدامهم قبيحة .
 لا يعرفون بالعفة وتقشوفهم السرقة ، خشونة في طباعهم وخشونة في كلامهم ،
 إذا أنت تركت الأرمني ساعة بلا عمل عمد إلى الأذى يرتكبه ، وهو إنما يعمل
 للخوف ، فيجب أن تحمل له العصا دائماً ، وتعنفه ليعمل ما تريد ^(١) » .

إذن كان الرقيق وعلى الأخص الجوارى مختلفات الأنواع ، هنديات
 وسنديات ، ومكيات ومدنيات ، وسودانيات وحشيات ، وتركيات وروميات
 وأرمنيات — وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النحاسين بألوان الحمام
 فشبه الصقالية بالحمام الأبيض ، وشبه الزنج بالحمام الأسود الخ ^(٢) .

وهذا ما جعل قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء مأوى لرقيق من أم
 متعددة ، تختلف في الطباع والمادات واللغات . فالتبري يمدحنا : أن المأمون لما
 غضب على الفضل قتله أربعة من غلمانه : غالب للمسودي الأسود ، وقسطنطين
 الرومي ، وفرج الديلي ، وموفق الصقلي ^(٣) . وقدما أن المتوكل كان له أربعة
 آلاف سُريرة ^(٤) من مختلف الأجناس طبعاً ^(٥) « ودخل أحمد بن صدقة على المأمون
 في يوم السعائين ^(٦) وبين يديه عشرون وصيفة جلياً روميات منزلات ، قد تزين
 بالديباج الرومي ، وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب ، وفي أيديهن الخوص
 والزيتون . فقال له المأمون : ويحك يا أحمد قد قلتُ في هؤلاء ألياً فغنتي فيها
 ثم أنشدني :

(١) ترجمنا هذه القطعة ولخصناها من كتاب Mez السابق وهو قتلها من رسالة ألفها ابن
 بطلاق في شراء الرقيق ، وهي محفوظة في مكتبة برلين ولم نتمكن لها حل أصل عربي في مصر
 (٢) الحيوان ٣ : ٧٥ . (٣) ابن جرير ١٠ / ٢٥٠ .
 (٤) مسعودي ٢ / ٣٠٨ . (٥) يوم السعائين جيد للتصاري .

عَلَيْنَا كَالْزَائِرِ . مِلَاحٌ فِي الْقَاصِرِ
جَلَا مِنْ السَّمَانِ عَلَيْنَا فِي الزَّائِرِ
وَقَدْ زَرَقَ أَصْدَاغَا كَاذِبِ الزَّرَارِ
وَأَقْبَلَ بَأَوْسَاطِ كَاوَسَاطِ الزَّائِرِ

فنفاه بها فلم يزل يشرب ، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص^(١) .
والرشيد يمدحه مهووف بن أبي حفصة بقصيدة ، فيعطيه مالا ويعطيه
عشرة من رقيق الروم^(٢) . وكان لمحمد بن شغوف الهاشمي ثلاثة غلمان مفتين ،
اثنتان صقليين : خاقان وحسين ! وكان خاقان أحسن الناس غناء ! وكان
حسين يغني غناء متوسطاً وهو مع ذلك أضرب الناس ! وكان الغلام الثالث
يقال له حجاج ، حسن الوجه ، روعى الغناء^(٣) .
وكان لبشار جارية سوداء يقول فيها :

وَغَادِقِ سَوْدَاءِ بَرَاقَةِ كَلَمَاءِ فِي طَلِبِ وَفَى لَيْنِ
كَأَنَّهَا صِيَفَتْ لِمَنْ نَالَهَا مِنْ عَنَبِ الْمَسْكِ مَجْجُونِ^(٤)

وكان لأبي الشيمس الشاعر جارية سوداء وكان يمشقها وفيها يقول :
يَا أَبِئْسَ عَمِ الْمَسْكِ الذِّكْرَى وَمَنْ لَوْلَاكَ لَمْ يُتَخَذْ وَلَمْ يُطَبَّ
نَاسِبُكَ لِلْمَسْكِ فِي السَّوَادِ وَفَى الْـ رِيحِ فَأَكْرَمَ بِذَلِكَ مَنْ نَسَبَ^(٥)
وكان لإبراهيم بن المهدي جارية رومية تكس البيت ، ولا تحسن
العربية^(٦) .

وكان للمهدي جارية نصرانية ، تعلق في صدرها صليباً من ذهب^(٧) إلى .

(١) أغاني ١٩ : ١٣٨ . (٢) طبرى ١٠ : ١١٤ . (٣) الأغاني ١٥ : ٥٣ .
(٤) أغاني ٣ : ٤٩ . (٥) أغاني ١٥ : ١١٩ . (٦) أغاني ٦ : ٧١ .
(٧) الطبرى ١٠ : ٢٠ .

كثير من أمثال ذلك — فأنت ترى أن البيوت ما كانت تخلو غالباً من رقيق جارية أو غلام ، وأنهم من أجناس مختلفة ، وديانات مختلفة ، وثقافات مختلفة ، وقد رأيت فيما قصصنا أن الخلفاء والأغنياء تركوا لماليتهم حرية الديانة ، فقد تكون الجارية نصرانية تلبس الصليب والزمار ، وتلبس لبسها القوي وتتكلم بلغتها ولا تحسن العربية ، ولهذا من النتائج ما سننبه عليه .

* * *

اتجه العباسيون إلى تعليم الجوارى — على اختلاف أنواعهن — اتجاهاً قوياً ، وأكثر عنايتهم كانت بتعليمهن الفناء ، فقد اشتهر الفناء في هذا العصر انتشاراً عظيماً ، وعُدَّ حاجة من حاجات الإنسان الضرورية ، فترى للفنيين والمغنيات في المحال العامة وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء ، وفي بيوت الأغنياء والفقراء ، ونما ذوق الناس في الفناء نمواً غريباً وملئت الكتب بالحكايات عنه ، شغف الناس به حتى ليغن مغن على الجسر فيجتمع السامعون حوله ويخاف من سقوط الجسر بهم^(١) ، وحتى كان بعضهم يكاد ينطع العمود برأسه من حسن الفناء^(٢) . ولم يصحج الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغنى بها . فصاحب الأغاني يحدثنا أن الوائقي والتتصر كان لهما أصوات يفتي بها ، وكانا يجيدان ذلك^(٣) . وعقد فصلاً طويلاً ممتعاً لأولاد الخلفاء وصنعتهم في الفناء^(٤) . وكان لملكية بنت الخليفة للهدى ثلاثة وسبعون صوتاً (حوراً) ويحدث أحد بن أبي داود القاضي فيقول : كنت أعيب الفناء وأطمعن على أهله فرج للمتصم يوماً إلى الشامية في حرقاة يشرب ، ووجه في طلبه فصرت إليه فلما قربت منه سمعت غناء حترني ، وشغلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي ، فالتفت إلى غلامي أطلب منه سوطه فقال لي : قد والله سقط

(١) أغاني ١٨ : ١٢٨ . (٢) أغاني ١٥ : ١٥٦ .
(٣) أغاني ٨ : ١٦٣ . (٤) ٧ - ٣٥ تركك في الجزء التاسع

سوطي ، قلت له فأى شيء كان سبب سقوطه ؟ قال : صوت سمعته شغلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي ، فإذا قصته قصتي ! قال : وكنت أنكر أمر الطرب على الفناء ، وما يستفز الناس منه ، ويغلب على عقولهم ، وأناظر المعصم فيه ؛ فلما دخلت عليه يومئذ أخبرته بالخبر فضحك وقال : هذا عي كان يعنيني :

إن هذا الطويل من آل حفص نشر المجد بعد ما كان مانا
فإن تبت عما كنت تناظرنا عليه في ذم الفناء سألته أن يعيده . ففعلت ، وفعل ، وبلغ بي الطرب أكثر مما بلغتني عن غيري فأنكره ، ورجعت عن رأي منذ ذلك اليوم^(١) .

دعاهم الشغف بالفناء إلى تعليمه الجوارى للتمتع بفنائهن ومنظرهن معاً ، وتعلم الفناء استمتع تعلم الأدب ، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يتفنون بالشعر العربي القصيح مثل شعر عمر بن أبي ربيعة ، وبشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية ، وللفنية لا تحسن أن تغني هذه الأشعار إلا إذا حفظت كثيراً من الشعر ، وأجادت مخارج الحروف وأطلعت على كثير من الأدب .

بل رأينا أحداث كثيرة عن مغنيات كن يفتنن بما يخترعن من شعر وصوت يقول أبو دلامة من شعره :

هذي رسالتي شيخ من بني أسد يهذي السلام إلى العباس في الصحف
تخطها من جوارى المضركاتبة قد طالما ضربت في اللام والألف
وطالما اختلفت صيفاً وشاتية إلى معلها باللوح والكثف^(٢)
حتى إذا نهى التديان وامتلأ منها وخيفت على الإسراف والقرف^(٣)

(٢) الكثف عظم عريض كانوا يكتبون فيه لقلة

(٣) القرف من قرف الذهب ارتكبه .

(١) أغاني ٩ : ٥٥ .

القراطين عظم .

صينت ثلاث سنين ما ترمى الحدا^(١) كما يصون تجار درة الصدف^(٢)
 وكانت عريب الغنية تروي الجاريات الأشعار ليتغنين بها^(٣). ويقول
 اللبرد: «حدثني الجاحظ عن إبراهيم بن السندی قال: كانت تصير إلى «هاشمية»
 جارية «حمدونة» في حاجات صاحبها، فأجمع نفسي لها وأطرد الخواطر من
 فكري، وأحضر ذهني جدي، خوفاً من أن تورد علي ما لا أضمه، لبعد
 غورها واعتدارها علي أن تجرّ علي لسانها ما في قلبها — وكذلك ما يؤثر
 عن خالصة، وعتية جاريّتي رقيقة بنت أبي العباس^(٤).

ويقول للسعدي: «لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه ابن طاهر
 هدية فيها مائة وصيف ووصيفة وفي المدية جارية يقال لها «محبوبة» كانت
 لرجل من أهل الطائف قد أدبها وتقفها، وعلمها من صنوف العلم، وكانت تحسن
 بكل ما يحسنه علماء الناس، فحسن موقعها من المتوكل».

إذن كانت الجارية كثيراً ما تعلم أدباً، وتعلم فنّاً، وخاصة الفناء. وكان
 هذا التعلم يفي قيمتها أضعاف ثمنها، فقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار فلما علمها
 إبراهيم بن المهدي الفناء عرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار^(٥). وقد بيعت
 عريب الغنية الشهيرة بخمسة آلاف دينار^(٦).

ودحان يشتري جارية بمائتي دينار، فيعلمها ويبيعها بعشرة آلاف دينار^(٧).
 واشترى الرشيد جارية من الموصل بسة وثلاثين ألف دينار يحسبها من
 من يأكته^(٨). إلى كثير من أمثال ذلك.

(١) أغاني ٩ : ١٣٦ . (٢) فوارد الحاضرة ١ : ١٣٢ .

(٣) الكامل ٢ : ٢٧٩ . (٤) مروج الذهب ٢ : ٣٠٩ .

(٥) أغاني ١٤ : ١٠٩ . (٦) أغاني ٥ : ١٤٣ .

(٧) أغاني ٥ : ٧ ويقال هذا من يأكته أي يصلح له ويلائم طبعه .

وقد كان إبراهيم الموصلي مغنى الرشيد على ما يظهر من أكثر الناس نشاطاً في تعليم الجوارى وتثقيفهن ، ومن أسبقهم في التوجيه إلى ذلك . يحدث ابنه فيقول : « لم يكن الناس يطمّون الجارية الحسناء الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود ، وأول من علم الجوارى المثنّات أبى ، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن » وفي ذلك يقول أبو عيّنة الشاعر وكان يهوى جارية يقال لها « أمان » ، طلب مولاها فيها ثمناً كبيراً :

قُلْتُ لِمَا رَأَيْتُ مَوْتَى أَمَانٍ قَدْ طَعَى سَوْءُهُ بِهَا طُغْيَانًا
لَا جَزَى اللَّهُ الْمَوْصِلَى أَبَا إِسْحَاقَ عَنَّا خَيْرًا وَلَا إِحْسَانًا
جَاءَ نَارُ سَلَّابُوحَى مِنَ الشَّيْءِ طَانٍ أَغْلَى بِهِ عَلَيْنَا الْقِيَانَا
مَنْ غِنَاهُ كَأَنَّهُ سَكْرَاتُ الْحَسْبِ يَصْبِي الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَا^(١)

وَأَتَتْهُ هُوَ (إبراهيم الموصلي) ويزيد حوراء شركة لشراء الجوارى ، وتعليمهن الغناء ، والمشاركة في ربحهن^(٢) .

* * *

نشر هؤلاء الجوارى نوعاً من الثقافة كان لا بد منه في مثل مدينة العباسيين وهو لا بد منه في كل مدينة . وأعنى بذلك الفنون الجميلة ، وما يتبناها من رقى في الذوق الفني : فقد كان بجانب الحركة العلمية في ذلك العصر حركة أخرى لا تقل عنها شأنًا . وهى الحركة الفنية من غناء وتصوير ورقص ، والحق أن الناس شعروا إذ ذاك شعوراً قوياً بالجمال ، وتفنّن شعراءهم — وخاصة مسلم ابن الوليد ، وأبا نواس — في وصف الجمال والولوع به وقراءته من غير ملل كما قال أبو نواس :

(٢) أغاني ٣ ، ٧٣ .

(١) أغاني ٥ : ٩ .

للحسن في وجناته بدع ما إن يملّ الدرس قارها
ويحكى الجاحظ : أن من رأى الديك والدجاجة يشربان الماء ، وكان
عطشان ذهب عطشه من قبح حسو الديك والدجاجة ، ومن رأى الحمام يشرب
الماء وكان ريان يشتهي أن يكون فيه في الماء لجمال شربه^(١) وهذا — من غير
شك — يدل على شعور بالجمال قوى ، وكان القَتَّابِي يمد جمال كل مجلس أن
يكون سقفه أحمر وبساطه أحمر ، ويقول بشار :

هَجَّانَ عَلَيْهَا حُمْرَةَ فِي بِياضِهَا تَرُوقُ بِهَا الْعَيْنِينَ وَالْحَسَنَ أَحْمَرَ^(٢)
وشعروا بجمال للمعنى كما شعروا بجمال الصورة فأكثرُوا من القول في جمال
الروح وجمال الحديث فيقول بشار :

وَكَاَنَّ رَجَعَ حَدِيثُهَا قَطَعَ الرِّيَاضُ كَسِينَ زَهْرًا
وَكَاَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سَحْرًا

ويقول :

وَبِكْرٍ كُنُوزِ الرِّيَاضِ حَدِيثُهَا تَرُوقُ بِوَجْهِ وَاضِحٍ وَقَوَامٍ
والحق أن الجوارى كُنْزٌ أَكْبَرُ عامل ، في نشر الشعور بالجمال ، وما
يتبعه من فنون جميلة ، وأب الناس في العصر الذي نؤرخه لم يكتفوا
بالجوارى من ناحية جمالهن الخلقى ، بل شغفوا بهن من ناحية الجمال القضى
أيضاً ليجمعوا بين الجمالين ، كانوا يميلون إلى الفناء وإلى الرقص ، وإلى
التفنن في اللبس ، وإلى غير ذلك من ضروب الفن . فأخذوا يعلّمون الجوارى
هذه الفنون ، وسرعان ما تحول النيوغ فيها من الرجال إلى الجوارى ، وأخذ

(١) الحيوان ٥ : ٣٣ .

(٢) أغاني ١٧ : ١١ .

نوايح الغنين يلتفتون لجواريتهم ألحانهم وأصواتهم وطريقة غنائهم ؛ فإبراهيم
 اللوصلي يعلم جواريه قننه حتى يحسنه ، وعبد الله بن طاهر كان يعلم الغناء علماً
 تاماً ؛ فيصنع الأصوات بقننها لجواريه ، وللفنون ينقسمون إلى حزيين : حزب
 القديم ، وحزب الجديد ؛ فينقسم الجوارى إلى قسمين تبعاً لمن أخذن الفن
 عنهم ، وامتلاً كتاب الأغاني بترانيم الجوارى للغنيات أمثال عريب ومُتيم
 ويذلل وذات الخلال وفريدة وأمثالهن ، وعقد الفصول الطوال في نوادرهن وميزة
 كل منهن ونوع تفوقهن .

والآن نذكر طرقاً من أنواع الفنون التي نشرتها :

فأول ذلك : الغناء ، وقد غرن العراق بالغناء الجيد ، وما يتبعه من لمو
 ومجون . وقد كان هؤلاء الجوارى في هذا على نوعين ، جوار مغنيات
 للخاصة ، فالحليفة له جوار يغنيهن ، والأمراء والأغنياء كذلك — ثم هم يهادون
 هذه الجوارى حباً في التجدد ، وفراراً من الاختصار على صوت واحد .
 وهناك نوع آخر وهو : قيان عامة وأكثر ما يكون أن نغلاً يملكن ،
 فيعرضهن للغناء في محال يأوى إليها الغتيان لسماعهن ، والإغراق عليهن . ومن
 نماذج ذلك ما حكاه لنا صاحب الأغاني عن ابن رامين : فقد كان له منزل
 بالكوفة ، وله جوار مغنيات أشهرهن اسمها « سلامة الزرقاء » وكان أجلاً
 مُبَيَّن بالكوفة ، يجتمع في بيته الغتيان للسمع والشراب ، ويقولون فيه وفي
 قيناتهن الشعر . ومن كان يختلف إليه روح بن حاتم الهلبي ، وعبد بن الأشعث ،
 ومن بن زائدة ، وابن اللقيع وأمثالهم يسمعون ويتفقون عن سمة ، وينشدون
 أشعار الغزل . ولما خرج ابن رامين حاجاً بجواريه بكى الشعراء لغروجه ،
 ووصفوا لوزعتهم من فرقة مجلسه ، كما وصفوا كثرة الناس الذين كانوا يشنون
 بيته ، من ذلك قول أحدهم :

أَيُّ حَالٍ يَا ابْنَ رَامِينَ حَالُ الْحَيِّينَ لِلْسَّائِكِينَ

تَرْكَنَهُمْ مَوْتِي وَلَمْ يَنْقَلَبُوا - قَدْ جَرَّعُوا مِنْكَ الْأَمْرِينَ
وَسِرَتْ فِي رَكْبٍ عَلَى طَيْبَةٍ رَكْبٍ تَهَامٍ وَبِغَائِبٍ
يَا رَاعِي الدَّوْدَ قَدْ دُرُعْتَهُمْ وَيْلَكَ مِنْ رَوْعِ الْحَبِينِ
فَرَقَتْ بَجْعًا لَا يُرَى مِثْلُهُمْ بَيْنَ دُرُوبِ الرُّومِ وَالصِّينِ^(١)

وفي الحق أن هذا النوع من الجوارى أثر أترأسيثافي نشر الخلالة والحجون .
ومن قراء رسالة القيان للنسوبة للجاحظ ، أو قرأ وصف « الوشاء » في باب ذم
القيان في كتابه « الموشى » أدرك ما كان لمن من أثر ترى ظله في شعر الشعراء
الخليمين في ذلك العصر ، وما كان أكثرهم^(٢) . ويعلم الجاحظ فساد هؤلاء
الفتيات بقوله « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ؟
وإنما تكتسب الأهواء ، وتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي إنما تنشأ من
لذن مولاهما إلى أوان وفاتها فيا يصُدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . . ،
وبين الخلفاء والجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جِد ، ولا يُرجع منه إلى ثقة
ولا دين ، ولا صيانة مهزومة ، وتروى الحاذقةُ منهن أربعة آلاف صوت
فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدا ما يدخل في
ذلك من الشعر ، إذا ضرب بعضه ببعض كان من ذلك عشرة آلاف بيت
ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب من عقاب ، ولا ترغيب في
ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر . . . العشق والصبوة والشوق ، ثم لا تنفك
من الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرَّحهم كله
تجشيش . . . ! وهي مضطرة إلى ذلك لأنها إن أهملتها قصت ، وإن لم تستفد
منها وقتت ، وكل واقف فيلحقان أقرب »^(٣) .

(١) الأغاني ١٣ : ١٢٧ وما بعدها . (٢) الموشى ص ٩٥ وما بعدها .
(٣) رسالة القيان ص ٧٢ .

وغير هذا نشر الجوارى أنواعاً من الظرافة ، قلدهن فيها الناس ، وجروا على أثرهن ، كحب الأزهار وتمشقها ، فيحدثنا « الأغاني » أن « متما » جارية على بن هشام « كان يحبها البنفسج جداً ، وكان عندها أثر من كل ريحان وطيب ، حتى أنها من شدة إعجابها لا يكاذ يخلو من كمها الريحان ، ولا تراه إلا كما قطف من البستان »^(١) ، وفطن الناس إذ ذاك إلى دلالة الأزهار على للماني فيقول شاعرهم :

أهدت إليه بِنَفْسِهَا يُسْلِيهِ تُنْبِيهِهُ أَنْ يَنْفَسَهَا تَقْدِيهِ
فارتاح بعد صباية وكآبة ورجا لحسن الفطن أن تُذْنِيهِ
ويقول آخر :

سُرَّ بِالْأَسِّ الَّذِي أَهْدَتْ لَهُ ثُمَّ لَمَّا أَهْدَتْ الْوَرْدَ جَزَعُ
ذَاكَ أَنَّ الْأَسَّ بَاقٍ ، دَائِمٌ وَلَئِنْ الْوَرْدَ حِينًا يَقْطَعُ

ونوع آخر ظريف انتشر بينهم ، وهو كتابة الأشعار الرقيقة والجلل الظرفية تطريزاً على الأقصة والأردية والأكلام ونحوها . « قال للاوردي : رأيت جارية ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة . ١٠ . عليها قميص مكتوب في وشاحه :

أَغْيَبَ عَنْكَ يَوْمَئِذٍ لَا يُعَيِّرُهُ نَأَى الْهَلْ ، وَلَا صَرَفٌ مِنَ الزَّمَنِ
وعلى طراز الرداء :

- أَقْلَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا سُرُوراً مَحَبَّةً قَدْ نَأَى عَنْهُ الْحَبِيبُ
وقال : ورأيت جارية لبعض الهاشميين ، يقال لها عَرَبٌ ، عليها قميص موشح بالذهب ، مكتوب في وشاحه :

وَأَنَّى لِأَهْوَاهِ مُسَيِّئًا وَأَقْضَى عَلَى قَلْبِي لَهُ بِالَّذِي يَقْضَى

فحتى متى روحُ الرضا لا يثالي وحتى متى أليمُ سُخْطُكَ لا تمنى
وكتبن على المصائب ، ومشاة الطّرر والنوائب ، والزناير والنذاليل
والوسائد والبسط والأسرة والكلال والعمال والخفاف ، وبالحناء على الأقدام
والراح^(١) .

ونجح هؤلاء الجوارى في إشمارِ الناس بالطّرف ، والتزام حدوده ، حتى
أصبح للظرفاء عرف خاص في الزى والنظر ، والطعام والشراب ، وما إلى ذلك .
وحتى أخذ « الوشّاء » هذا العرف وذوّنه قانوناً للظرفاء في كتابه « اللوئى » .
ولسنا نرجع الفضل في ذلك كله للجوارى فإن لمواليهم أيضاً أثر لا ينكر ،
فإبراهيم الموصلى وأمثلة من اللغيف هم الذين علّموا الجوارى غناءهم ،
ولقنوهن أصواتهم ، والطبقة الراقية هي التي أوجت إلى الجوارى ضروب
الظرفاء ، ولكن مما لا شك فيه أنه قد كان للجوارى الفضل في نشر هذه
الفنون الجميلة بين طبقات الشعب المختلفة ، لأنهم كانوا أكثر ولوعاً بهن ،
وأشدّ تقليداً لهن ، وأميل للتخلق بما يستحسن .

وكان للجوارى فضل آخر : وهو أنهن من أمم مختلفة كما رأيت :
فهنديات وتركيات وروميات وغير ذلك ، وقد كان كل صنف يجلبُ وقته
تكونت عاداته أو كادت . فالروميات تحملن عادات قومهن في الغناء وضروب
الظرفاء وهكذا بقية الأمم ثم أتت المملكة الإسلامية فتشربن عاداتهن ،
ووقعت أبصارهن على عادات غيرهن ، فنفض ذلك كله لقانون الانتخاب ،
ومن أجل ذلك كان الغناء غناءً متنوعاً ، وهذا ما يفسر النزاع الشديد الذي
حكاه الأغاني من طائفة تنصب للقديم ، وأخرى تنصب للجديد ، وما
الجديد إلا ما أدخل عليه من نغمات فارسية ورومية ، وكذلك سائر الفنون .

(١) تجد كثيراً من ذلك في كتاب اللوئى .

وفن آخر كان للجوارى أثر كبير فيه ، كآثرهن في سائر الفنون الجميلة .
ذلك هو « الأدب » ونرى أن المرأة في كل أمة ، وفي كل عصر فضلا
على الأدب من ناحيتين « الأولى » ما تثيره في نفوس الرجال من عاطفة قوية
تجيش في صدورهم ، فتخرج على ألسنتهم شعراً رقيقاً وأدباً ممتعاً ، « الثانية »
مشاركة المرأة الرجل في إخراج القطع الفنية والأدبية في المواضيع التي تمس
شعورهن ، ومن عليها أقدر !

كان هذا هو الشأن في العصر العباسي ، ويظهر لنا أن « الجوارى »
كن أنشط من « الحرائر » في النوعين ممّا ، أعنى في ناحية الإنشاء الأدبي ،
وفي ناحية الإيحاء إلى الشعراء . ويرجع السبب في ذلك إلى النظام الاجتماعي
إذ ذلك ، فقد كان الناس — كما قلنا قبل عن الجاحظ — ينفرون على الحرائر
أكثر مما ينفرون على الجوارى ، ويحبسون الحرة ويشلدون في تحجيرها ،
وإذا أراد أحد أن يتزوجها بث « بخاطبة » تنظر إليها ، وتصف للرجل بحاسنها
وعيوبها ، أما هو فلا يراها إلا بعد الزواج . ولكن الجارية شأنها غير ذلك .
فهو لا يعير بها كما يعير بقرينته الحرة ، ثم هي سافرة إلى حد بعيد بحكم أنها في
كل وقت عرضة لأن تباع وتشترى ، وهي تقضى للرجل حوائجها ، وإذا أراد
أحد من عامة الناس أن يستمع لفناء ، أو يلهو بالقيينات في بيوت القينين فهن
اللاتى يفتنّ منهن ميله إلى السماع ، ورغبتة في اللهو ، وهن — بحكم سفورهن —
اللاتى يقع عليهن نظر الناس ، أما الحرائر فلا يقع عليهن إلا نظر أقاربهن ،
لذلك كان طبيعياً أن الأدباء والشعراء يفتنون أدبهم وشعرهم بالجوارى
أكثر مما يفتنونه بالحرائر — ومن ناحية أخرى . فقد عنى الرجال بتعليم
الجوارى — كما يظهر — أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر ، ودعاهم إلى ذلك :
الناحية التجارية ، فقد رأيت أن علم الجارية وأدبها كان يقوم في سوق الرقيق
بأكثر مما يقوم بدنّها ، وأن الجارية إذا قُومت بمائتي دينار جاهلة قُومت

بأضعاف ذلك مغنيةً أو أدبية ، وللمال في كل عصر هو قوام الحركات الاجتماعية ، أما الحرائر فلم يكن يُعنى بتعليمهن وتربيتهن إلا طبقة قليلة ، وهي طبقة الأشراف ومن في حكمهم وقليل مادم .. وسبب آخر : وهو أن الناس كانوا يرون أن الجوارى من ملهى الرجال . فغالو القائمون بأموهرن أن يرقوا هذه الملامى بكل ما يتطلبه اللاهون ، ورأوا أن الجارية إذا كانت مغنية أدبية موسيقية شاعرة كان ذلك أفعلى في قلوب الرجال ، فلم يألوا جهداً في تحقيق مطالبهم .

نم نجد كثيراً من الحرائر اشتغلن ببعض العلوم ، ولكن أكثر ما اشتغلن به كان الباعث عليه دينياً ككثير من المحدثات والمتصوفات . ولكن هذا ليس موضوعنا هنا ، إنما موضوعنا الاشتغال بالفنون ، والجوارى — من غير شك — في هذا الباب كن أكثر وأظهر .

مصدق ذلك أنا نجد — من الناحية الإنشائية — كثيراً من الجوارى أدبيات متفنات ، لا يدانين في ذلك الحرائر . فيقول الأغاني في عريب : « كانت مغنية محسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام ، ونهاية في الحسن والجمال ، والظرف وحسن الصورة ، وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار ، والرواية للشعر والأدب »^(١) . ويقول في « مُتَمِّم » : « كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت وتأديت وغنت ، وأخذت عن « إسحاق الموصلى » وعن أبيه من قبله . وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدبا ، وكانت تقول الشعر ليس مما يستجاد ولكنه يستحسن من مثلاً »^(٢) ويقول في « دنانير » — جارية يعيى ابن خالد البرمكى — : « كانت من أحسن الناس وجهاً ، وأظرفهم وأكلمهم ، وأحسنهم أدباً وأكثرهم رواية للفناء والشعر » ..

(٢) أغاني ، ٧ ، ٣١

(١) أغاني ، ١٨ ، ١٧٥ .

ومن الناحية الأخرى — كان الجوارى أكثر إيماء للشعراء بمغنى الشعر لسبب الذى يبتا ، فيشار بمشق جارية يقال لها « فاطمة » سمها تنفى فهوئها ، وقال فيها الشعر ، كما قال الشعر فى جارية له سوداء . وحياة دِعِيل الخزائى ، ومُسلم بن الوليد — صريح الفوائى — مملوءة بما حدث لم مع الجوارى والشعر فيهن ، وأبو نُوَاس كان يهوى جارية اسمها « جِئَان » وهى جارية لآل عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى ، وكانت جميلة أدبية تعرف الأخبار وتروى الأشعار ، يقال : إن أبا نواس لم يصدق فى حبّه امرأة غيرها . وقد أكثر فيها من بدائع شعره . وشغف العباس بن الأحنف بفؤز ، وكانت جارية لعمد بن منصور ، فأنى فى شعره فيها بالمتع .

هذا قليل من كثير مما ملئت به كتب الأدب من شعر وقصص ، ومما كان بين الفتيان والشعراء والأدباء وبين الجوارى فى ذلك العصر .

ولئن اغتبط الأدباء بما أنتجته هذه الحالة الاجتماعية من شعر رقيق ، وفن بديع ؛ فإن رجال الدين والخلق ساءم ما نتج عن ذلك من ملو خليع ، واستهتار شنيع . وأخذ الأولون يحثون الناس على الاستمتاع بهذه الحياة ونجى ثمارها ، وأخذ الآخرون ينعون على الناس لموم وفجورهم ، ثم يفرون من هذا كله إلى الزهد فى الحياة ، والحرب من لذائذها ، كما سنعرض ذلك فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

حياة اللهو وحياة الجلد

هل كان الناس يعيشون في ذلك العصر عيشة ترف ونعيم ، ولهو ومجون ، أو عيشة جد وعفة ؟ وهل كان الخلفاء العباسيون الأولون يصحرون أو اسر الدين ويتقيدون بها ، ولا ينعمون إلا بما أحل الله كما يصورهم بعض المؤرخين ، أو هم تحللوا من كثير من القيود وأسرفوا في اللهو كما يصوره آخرون ؟ وهل كانت حالة الشعب رخيّة سعيدة ، أو بائسة شقية ؟ وما أثر ذلك كله في العلم والفن والأدب !

ذلك ما نحاول الإجابة عنه في هذا الفصل .

* * *

إذا نحن نظرنا نظرة عامة لنقارن بين الحياة الأموية ، والحياة العباسية وجدنا الأولى أقل تكلفاً ، وأكثر سذاجة ، وأحلّ على القوق العربي البدوي البسيط . وأكبر ظاهرة تراها أن سيطرة المنصر العربي في العهد الأموي صبغته بهذه الصبغة ، وجعلته إذا أراد الترف والنعيم وتخيّر من ترف الأمم الأخرى ونعيمها ، ولم يأخذ كما هو محذافه ، ثم هو يعدّل فيه حسب ذوقه وميوله ويجعله شيئاً آخر عربياً لا فارسياً صرفاً ، ولا رومياً صرفاً ، وأما الموائد الفارسية ، وأدخل الخلفاء والأشراف على موائدهم نوعاً من التحسين . ولكن لم يكن العربي البدوي إذا دخل على معاوية أو عبد الملك يشعر بأنه في جرّ آخر بعيد كل البعد عما يعرفه .

روى ابن خلدون : « أن الحاج أؤلّم في اختان بعض ولده ، فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم القرس ، وقال : أخبرني بأعظم صنيع

شهادته . فقال له : نعم أيها الأمير ، شهدتُ بعضَ مَرَازِيَةِ كَسْرَى ، وقد صنع لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه حِصاف الذهب على أُخْرِيَةِ الفِضة — أرباعاً على كل واحد — وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا أتبعوا أربعةم للثالثة بصحائفها ، ووصائفها . فقال الحجاج : يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس ! ^(١) كأنه كره ذلك واستعظمه ، ونبا عن ذوقه العربي ، وعده نغضة كاذبة ، وأبهة لا يَسْتَسِيغها ، ففر من ذلك إلى عادات قومه ! وكذلك شأنهم في النواوين ، وضروب الحضارة الأخرى . وعلى الجملة ، فالنوق العربي واضح كل الوضوح في العهد الأموي ، والعلاقة بين دمشق ومكة وللمدينة — وأغنى من الناحية الاجتماعية لا السياسية — علاقة متينة . يتفاهمون كل الفهم ، ويتذاقون كل النوق . والإبلاط مفهوم لديهم في بساطته وتقاليده على نحو أحسن مما فهم به في العصر العباسي .

أما العباسيون فلم يكن شأنهم كذلك ، لأن كان الأمويون ينقلون إليهم بعض العادات مع صبغها بصبغتهم ، فالعباسيون كانوا هم الذين ينقلون بمخالفهم إلى العادات الجديدة ، والتقاليد الجديدة ، خذ لذلك مثلاً « النيروز » كان عيداً للفرس قديماً ، ولم نسمع في العهد الأموي أن كان له شأن ذو بال ، ولكن العباسيين اتخذوه عيداً قومياً يَحْفَلُونَ به حَفْلَهُمْ بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالهدايا والقصائد ، ويجلس فيه الخلفاء للتهنئة . وقل مثل ذلك في الأزياء فانتشرت القلنسوة الطويلة ، وضروب الأزياء الفارسية . اتخذ القضاء القلائس العظام ، واتخذ الخلفاء المهائم على القلائس ، وتفننوا في العمامة ونوعوها تبعاً للطبقات كما كان يفعل الفرس ؛ فلخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللبنّائين عمة ، وللأعراب عمة . ولكل قوم زِيٍّ ؛ فللقضاء زِيٌّ ، ولأصحاب القضاء زِيٌّ ، وللشُرط زِيٌّ . وأصحاب السلطان على مراتب ، ولكل مرتبة زِيٌّ ؛ فمنهم من

(١) ابن خلدون ١ : ١٤٥ .

يلبس المَبْطَنَة ، ومنهم من يلبس الشَّرَاعَة ، ومنهم من يلبس « البازيكند »
— وكانت الشعراء تلبس الوشي والمَقَطَّعات ، والأردية السود — وقد كان
شاعر في هذا العصر يترى بزي الماضي فجاء بمض الشعراء^(١) .

والخلفاء الأمويون إذا وهبوا فإنما كانت أكثر جوائزهم الإبل ، أخذوا
بمذاهب العرب وبدأوتهم . أما في دولة بني العباس فجوائزهم كانت أحمال
للأل وتمخوت الثياب ، والليل بمرأى كبرها^(٢) . وعلى الجملة فقد انتقل الناس في
العهد العباسي إلى عادات الأمم الأخرى وتقاليدهم ، وأفرطوا في ذلك كل
الإفراط — على العكس من العهد الأموي — ومن ثم اقطعت الصلات
الاجتماعية والشاكلات بين المسلمين في العراق والمسلمين في جزيرة العرب
أو كادت . ويحدثنا الأغاني حديثاً طريفاً عن ناهض بن ثومة ، وهو شاعر
بدوي جاف ، من الشعراء في العهد العباسي ، شهد حفلة عرس في حلب
فدار عقله واختبل فكره مما رأى مما لا عهد له به في البادية ، حجب وأفرط في
العجب من الاحتفاء بالمروس ، ومن ألوان اللباس ، ومن ألوان الأطعمة
والشراب ، ومن آلات الفناء الفارسية ، حتى أمتع الناس في الضحك من إيمانه
في الفعلة !^(٣) ولقد كان يُجَنّ حقاً لو شهد حفلة العرس هذه في بغداد .



أفرط قوم من الناس في هذا العصر في اللذائذ يتجرؤون بها ، ويتفننون في
الاستمتاع بها ، وكلما متوا نوحا ابتكروا نوحا ، وإذا أخذوا يهدمون نشط
الدعاة يستحثونهم على الإغراق فيها ، والأخذ بأكبر حظ منها . ونحن إذا
تبينا تاريخ الدولة العباسية في هذا الباب وجدنا أن الدولة كانت تسير

(١) انظر الكلام على الزي وأنواعه في البيان والتبيين ٣ : ٦٥ وما بعدها .

(٢) ابن جلدون ١ : ٣٦ .

(٣) اقرأ القصة بتمامها في الأغاني ١٢ : ٣٦ .

خطوات متدرجة إلى هذه القاية ، وأن كل خليفة كان يعلو — غالباً — درجة في سلم الترف والنعيم عن قبله . وأننا لو خططنا رسماً بيانياً لآتيه صاعداً باستمرار في عصر كل خليفة تقريباً . والناس في كل عصر — وخاصة في هذه العصور — تبع لإمامهم .

بدأت الدولة العباسية ، وحوماً أعداء كثيرون من أمويين وصنائعهم ، ولما اختير للخلافة السفاح ثم المنصور غضب كثيرون من البيت العباسي نفسه ، وغضب شيعه عليّ ، فكان لا بد لقيام الدولة من خلفاء جادين غير لاهين ، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة ، واصطناع اللوالبين ، وكبح جماح الثائرين ، وسفك دم الخارجين . حتى إذا انتهى هذا الدور ، ومهدت الأمور ، وقتل الخارجون ، واستكان أمثالهم ، بدأت الدولة . فكان أمام الخليفة الذي يأتي بعده ؛ وقت من الفراغ والمهلوه يحد فيه متسعاً لشيء من اللهو والترف والنعيم ، ولكن ليس يحد كل وقته ، فعليه تنظيم داخل المملكة بعد أن كان أكثرهم من قبله موجهاً إلى تنظيم الأمور الخارجية ، حتى إذا استتب الخارج والداخل جاء خلفاء ؛ وقد جرت الأمور في نصابها وسارت على الأسس التي شيد الأولون بنيانها ، ورأى هؤلاء الخلفاء اللال الكثير يبغي إليهم في سعة ، من جرّاء ما وضع الأولون من حماية للخارج ، وتنظيم للداخل ، فنعيموا وأسرفوا في النعيم ، وكان من وقتهم متسع لتلك كله !

كان يمثل هذه الأدوار تماماً الخلفاء العباسيون ، وتاريخهم شاهد على ما نقول ؛ فأبو العباس السفاح — أولهم — كان يؤثر الجذوالم ، على ضرب اللهو بقول : « إنما العجب بمن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ! فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال يترك مجالسة مثلك وأمثال أمحايك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ، وروى قصصاً ! » ولما تزوج أم سلمة حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرّى ،

وحاول بعض القرين إلبه خلافته أن يوسوس إليه ، ويشير ملاذّه وشهواته
بذكر الجوارى وأتواعهن فلم يقلع^(١) . وكانت حياته حياة سفك للدماء^(٢) .
وقضاء على المعارضين .

ووليه المنصور وهو رجل الدولة المباسية ومؤسس بنياتها ، والذي قضى
على أعدائه وأعدائها من أهل بيته ، ومن غيرهم ، فلم يكن له في اللهو مجال .
روى الطبري : عن يحيى بن سليم قال : « لم ير في دار المنصور لهو قط . ولا شيء
يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً ، فإننا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز
(توفي وهو حدث) قد خرج على الناس متكبكاً قوساً متعباً بهامة ، متردياً
برداء ، في هيئة غلام أعرابي ، راكباً على قنود ، بين جوارقين فيها مقل
ونعال ، ومساويك وما يهديه الأعراب ، فعجب الناس من ذلك وأنكروه فغير
الغلام الجسر ، وأتى المهدي بالرفافة فأهدى إليه ذلك ، قبل المهدي ما في
الجوارقين وملأها دراهم ، وانصرف الغلام ، فعلم أنه ضرب من عبث
الملوك^(٣) » وترى من هذا أن الناس أنكروا العمل ، على بساطته ولطافته لأنهم
لم يأتوا شيئاً من اللهو — وسمع المنصور جلبة في داره . فقال : ما هذا ؟ قالوا :
خادم جلس بين الجوارى ، وهو يضرب لمن بالطنبور ، وهن يضحكن . فقام
حتى أشرف عليهم فرآهم فلما بصروا به تفرقوا ، فأمر فضرب رأس الخادم
بالطنبور حتى تكسر الطنبور ، ثم أمر بالخادم فبيع^(٤) . وكان حازماً لهو
له ، يشعر بالثبته ، ويضطلع بها . ولما سمع شعر طريف بن تميم المنبري :
إِنْ قَبَانِي لَنْبَعٌ لَا يُؤَيِّسُهَا عَمَزُ الثَّقَافِ وَلَا دُهْنٌ وَلَا نَارُ
مَتَى أُجِرْ خَائِطًا تَأْمَنُ مَسَارِيحُهُ وَإِنْ أُخِفَ آمِنًا تَقْلُقُ بِهِ الدَّارُ

(١) انظر المسعودي ٢ : ١٧٠ وما بعدها .

(٢) مسعودي ٢ : ٤٠٠ .

(٣) طبري ٩ : ٢٩٤ .

(٤) طبري ٩ : ٢٩٤ .

إِن الْأُمُورَ إِذَا أَوْرَدَتْهَا صَدَرَتْ إِن الْأُمُورَ لَهَا وَرْدٌ وَإِضْدَارٌ
قال : أنا أحق ببيتيه منه ، وأنا الذي وصف لاهو وكانت لا تزال به بقية
من بدواة ، وميل إلى البساطة — بلغه أن عبد الله بن مصعب بن الزبير قد
اصطبغ مع جارية تغنيه بشعر له فيه غزل ، وفيه استهتار . فقال المنصور :
لكن الذي يعجبني أن يخلو بي الحادى الليلة بشعر طريف العنبرى فهو آلف
وأحرى أن يختاره أهل العقل ، فدعا حاديا يحذوله ، وألقى عليه شعراً في
الفخر بمكارم الأخلاق فغداه به فقال المنصور : هذا والله أحث على الروء ،
وأشبه بأهل الأدب ، ثم دعا الربيع وقال أعطه درهما ! فقال : يا أمير المؤمنين
حطوت بهشام بن عبد الملك فأمرنى بمشرين ألف درهم ؛ وتأمر لى أنت بدرهم !
فقال : إنا لله ، ذكرت ما لم نحب أن تذكره ، وصفت رجلاً ظالماً أخذ مال الله
من غير حله ، وأنفقه في غير حقه ، ياربيع اشد يدبك به حتى يرد المال ،
فما زال الحادى يبكى ويتشفع حتى كف عنه^(١) .

وهو كذلك لا يحب الشراب ، ولا يُشربُ على مائدته شراب ، ولما
قدم بختيشوع الطيب عليه أمر المنصور بطعام يتغذى به فلما وضعت المائدة
بين يديه طلب شراباً فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين فقال :
لا آكل طعاماً ليس معه شراب ، فأخبر المنصور بذلك فقال : دعوه^(٢) .

ثم هو لا يسرف في عطاء الحادى ولا لشاعر ولا لمادح ، ويؤنب أولاده
إذا أسرفوا في العطاء ، ولا يتغالى في ثوب يلبسه ، ولا مائدة تمد إليه ، إنما هو
مقتصد في كل ضروب الحياة ، مقتصد حتى فيما أحل الله ، وربما غلاني
الاقتصاد غلو من بمله في الإسراف — لقد زعموا : أن أمه المغربية لما حلت
به رأت أنها وضعت أسداً سجدت له الأسد والحق أنه لولا أن له همة أسد
يعاف الصغائر ، ولا يشغله لهو عن تدبير ، ما استطاع أن يؤسس هذه المملكة

(١) الحكاية بطولها في الأغاني ١٣ : ١١٦ . (٢) طبري ٩ : ٣٠٩ .

وغيظها لمن أتى بعده مضبوطة محكمة ، لا تحتاج منه إلا أن يحفظ ماورث .
أسلم المنصور البلاد ، وهي وحدة لم يشذ عنها إلا الأندلس ، وهي هادئة
مطمئنة لا تؤذن بقتل ذات بال ، والخزائن مملوءة بالمال ، والعرب من
سكان المملكة آخون في الانكماش ، قد ضعف سلطانهم ونفوذهم ، وللموالى
يطاردونهم ليحصروهم في جزيرة العرب بدوا كما كانوا في الجاهلية ، ويحلون
محل العادات العربية عادات فارسية ، ومحل البساطة في العيش العربي التعقّد
في العيش الحضري . وعلى الجملة فقد طرأ دور آخر يجد فيه الخليفة والناس
على أثره وقتا للفراغ والجدة ، ومصدراً خصباً للترف والنعيم .

أخذ الناس يشعرون بعد موت المنصور بشيء من الراحة ، وقد أجهدوا
أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس دولة من مشقة ، وتذليل صعوبات جمة ،
وملأوا الإفراس في الجدد والاقتصاد اللذين انصف بهما للمنصور ، وتطلّعوا
لحياة فيها سعة في المال ، وطرف من النعيم ، فوجدوا ذلك في الخليفة
« المهدي » ؛ وفي الحق أن السنوات العشر التي حكمها كانت جسراً بين حياة
الجد والجفاف والعمل في عصر المنصور ؛ وحياة الترف والنعيم في عصر
الرشيد ، ومن بعده .

كان المهدي سخياً كريماً فتنفّس الناس من شح المنصور . لقد خلف
للمنصور أربعة عشر مليون ديناراً وستائة مليون درهما^(١) ، ففرقها المهدي في
الناس ، سوي ما جبي في أيامه . وكثرة المال — في كل جيل وفي كل عصر —
داعية الترف والنعيم ، واللهو واللعب ، ومن ثم أخذ الناس يقدّرون فضيلة
الكرم تقديراً أعلى مما كانوا يقدّرونه في عصر المنصور ، وأخذوا يذمون
البخل ذمّاً شديداً ، ويقصّون على البخلاء قصصاً فكهة لاذعة ، ربما كان من
آثارها وضع الجاحظ لكتاب « البخلاء » .

(١) المسعودي ٢ : ١٩٦ .

اجتمع في المهدي حب للفنون الجميلة ، وميل شديد إلى الكرم ، فجری الناس على أثره ، وأثقفوا الأموال على الفنانين فرق الفن ، وبدأ ينتشر بين طبقات الشعب ، أخذ المهدي يجلس للغنّين ، ويسمع غنائهم بعد أن كان أبوه المنصور يستلذ الحِداء . فيحدثنا « الأغاني » « أن المهدي كان يسمع الغنّين جميعاً ، ومحضرون مجلسه فيغنونه من وراء الستارة لا يرون له وجهاً » إلا فليح بن أبي العوراء « قد سأله في بيتين أن ينادمه فأحضره مجلسه بين أهله ومواليه ، فكان فليح أول من عاين وجهه في مجلسهم »^(١) ويقول صاحب كتاب أخلاق الملوك « كان المهدي في أول أمره يحجب عن النساء متشبهاً بالمنصور نحواً من سفة ، ثم ظهر لهم فأشار عليه « أبو عون » بأن يحجب عنهم ، فقال « المهدي » : إليك عني يا جاهل إنما اللذة في مشاهدة السرور ، وفي الدنو عن سرّي ، فأما من وراءه وراه فما خيرها ولذتها ؟ »^(٢) وأتاب على ذلك الأمور الكثيرة ، على عكس أبيه « فقد كان المنصور لا يثيب أحداً من نendantsه وغيرهم درهماً ، فيكون له رسماً في ديوان ، ولم يُقَطِّعْ أحداً ممن كان يضاف إلى ملهية أو ضحك أو هزل ، موضع قدم من الأرض — أما المهدي فكان كثير العطايا ، يوارها ، قل من حضره إلا أغناه »^(٣) وحسبك بالمهدي أنه تخرج في قصره ولداه زينة الدنيا ، وبهجة عصرها في الظرف والنفاء : إبراهيم بن المهدي وعُليّة بنت المهدي .

وكان كذلك يحب القيان ، ويحب الحديث عن النساء في غير دعارة ، ذكر الجاحظ : « أن المهدي كان يحب القيان وسماع الغناء وكان محباً بمجارية ، يقال لها « جوهر » كان اشتراها من مروان الشامي وله فيها شعر »^(٤) . وقد اتفق صاحب الأغاني والطبري على أنه لم يكن يشرب النبيذ ، ولكنه

(٢) أخلاق الملوك ص ٣٤ .

(١) أغاني ٤ : ٩٩ .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٢٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ٣٤ ، ٣٥ .

في هذا أيضاً خطأ خطوة أخرى وراء أبي جعفر ، فقد رأينا المنصور لا يشربه ولا يسمح لأحد أن يشربه على مائدته ، أما المهدي فيذكر الطبري : أنه ما كان يشربه ولكن لا تمر جابل كان لا يشتهي ، وكان أصحابه يشربون عنده بحيث يراهم ، وكان وزيره يعقوب بن داود يعظه في ذلك ، ويلح عليه في حسنه عن المماع ، وإساقاته النبذ ، ويهدده بالتخل عن منصبه ، والمهدي محتج بأن عبد الله ابن جعفر كان يسمع^(١) .

كذلك كان المهدي مترفاً في ملبسه ومأكله ، يُحمل إليه التلج إلى مكة وهو يحج ! وكان أول خليفة فعل ذلك .

والحق أن المهدي — على ما يظهر — كان معتدلاً في لهوه وترفه ، ولكن ما كاد يُرعى للناس العنان في هذا السبيل حتى استطابوه ، وأفرط فيه المستهترون ، ولم يقفوا عند حد . لم يمرؤوا في عهد المنصور أن يستهتروا لأنه ضرب لهم مثلاً من نفسه بالجد والحزم ، فلما رأوا المهدي يخطو خطوة جرواحم وقهزوا ، وُلى الناس في عهده يشار يث فيهم غزله المكشوف ، ويفتضم بشعره الداعر ، ويملا البلاد بالحث على المفاظة ، حتى ضج الأشراف إلى المهدي من شعره مثل يزيد بن منصور خال المهدي ، وطلبوا إليه أن يقف هذا التيار لما خافوا على نساتهم وبناتهم ، فتدخل المهدي حينئذ ، ونهى بشارا عن الغزل فيقول :

قد عشتُ بين الریحان والراح والـمـزهر في ظلّ مجلس حسن
وقد ملأتُ البلاد ما بين فُففور إلى القيروان فالـمـين^(٢)
شعراً تصلّ له العوائق والثيبُ صلاة العواقر للوكن

(٢) فففور : تلك الصين .

(١) أخاف : هـ والطبري ١٠ : ٦ .

ثم نهاني للهدى فانصرفت
فالحمد لله لا شريك له
نفسى صنيع اللوقى اللعين
ليس يبق شي على الزمن

ومع هذا ظلّ في خبث يفتزل من طريق خفر ، ويحتجى بنهى المهدي
فيقول : يا مَنْظَرًا حسنًا رأيته من وجه جارية فديته

بعثت إلى تسومني نوب الشيب وقد طويته
والله رب عمدي ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنه ورتما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبي وإذا أبي شيئًا أبيته
ونهاى لللك الهما ثم عن النساء فما عصيته
بل قد وقيت ، ولم أضع عهدًا ، ولا وآيا وأيته^(١)

وأنا للطل على الصلى وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل في أنس النديم من الحياء وما اشتيته
ويشوقني بيت الحبيب إذا غدوت وأين بيته
حال الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته

ويقول :

دفت الهوى حيا فليست بزائر سلى ولا صفراء ما قرقر القمرى
تركت ليهدي الأنام وصالحا وراعت عهدًا بيننا ليس بالخير^(٢)
ولولا أمير المؤمنين عمدي لقبلت قاهأ أو لكان بها فطرى
لتمرى لقد أقررت نفسى خطيئة فما أنا بالزرداد وقرأ على وقرى

ثم يبلغ للهدى حسن صوت إبراهيم الموصلى فيقرّبه إليه ، ويكون هو

(٢) الخمر : القدر والخدمة .

(١) الولى : الوعد والعهدة .

أول من يعلى شأنه ، ثم يعلم أن الموصلى يشرب ويستتر فيريده على ملازمته ، وترك الاستهتار ، فلا يستطيع الموصلى ذلك فيضربه ويحبسه — يقول إبراهيم الموصلى : إن المهدي دعاني يوما فصاتيني على شربي في منازل الناس ، والتبدل معهم فقلت يا أمير المؤمنين إنما تطلعت هذه الصناعة للذوق وعشرتي لإخواني ، ولو أمكنتني تركها لتركها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل . فغضب المهدي غضبا شديداً ، وقال : لا تدخل على موسى وهرون ألبتة فوالله لن أدخلت عليهما لأفعلن ولأفعلن ! فقلت : نعم . ثم بلغه أني دخلت عليهما ، وشربت معهما وكانا مستهترين بالبئيد فضربني ثلاثاً سوط ثم قيدني وحسني^(١) .

في الحقيقة أن المهدي فتح للناس باب اللهو ، ورسم لهم حداً يقفون عنده فنضطروهم ، وحاول أن يقفهم عند الحد الذي رسمه بإيقاع العقوبة على من تجاوزوه فلم ينجح .



انتقل الناس قلة أخرى من حيث السرف في الترف في عهد الرشيد ، ويرجع ذلك إلى أسباب : منها ما كان من النشوء الطبيعي للأمة فكان من انضباط أمورهما ما زاد ثروتها ، ومكنتها من أن تعيش عيشة ناعمة ، فقد حكى ابن خلدون : أن دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قطاراً^(٢) والقطار في حاسبه عشرة آلاف دينار ، فيكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومائة وخمسين ألف دينار . وهي ميزانية ضخمة ، تدلناهما بولغ فيها على غنى الدولة ، وتمسكها من حياة النعم .

والسبب الثاني : عظم سلطان القرس في عصره وعلى رأسهم البرامكة ، والقرس من قديم يعرفون بالليل إلى اللهو والسرور ، والإفراط في حب

(١) أخاف : . . .

(٢) المقيمة من ١٥١ .

النبيد ، وقد كانت الديانة الزرادشتية تبيح شرب النبيذ بل تجعله من شعائرها ، ولا يزال النبيذ كما يقول الأستاذ « براون » إلى اليوم ظاهرة قوية في الحياة اليومية للفرس الزرادشتية — كان الفرس قديما يفرطون في شرب النبيذ ، وكانوا يفرطون في سماع الغناء ، وكانوا يفرطون في فنون كثيرة من اللهو الطيب ، واللهو الخليث . فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية ، وخاصة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكسرة ، وما كان فيها من حشادة ولمو وعبت — قتلوا جدم من نظم سياسية ونحوها ، وقتلوا لهوم من فييد و مجالس غناء وغزل ، وما إلى ذلك .

وسبب ثالث : يرجع إلى طبيعة « الرشيد » نفسه وتربيته ، فيظهر لي أنه كان شاباً حاذقاً العاطفة ؛ ولكن ليس من هذا النوع الذي يستسلم كل الاستسلام لشهوته ، بل هو مع ذلك قوى النفس ، جندى بالفرزة والبرية ، طالما قاد الجيوش وشرق وغرب — هذه الحدة في العاطفة ، وقوة النفس ونضارة الشباب أظهرته بمظاهر مختلفة ، يُوعظ فيتأثر بالموعظة إلى أن يجش بالبكاء ، ويسمع الغناء فيطرب له كل الطرب ، يسمع إبراهيم اللوصلي يغنى ، ويرصو صوماً يزمر ، وزكراً لا يضرب بالدف ، فيدعوه الطرب أن يتكلم بكلمة فيها شيء من عدم التورع الديني ، يقول : يا آدم لو رأيت من يحضرنى من وملك اليوم لتسرك ، ثم يندم على قوله فيستغفر الله^(١) — تمت عنده العاطفة الدينية ، و تمت بمجانبتها أيضاً عاطفة الفنون ؛ فهو يصلى ، ويكثر من الصلاة ، وهو يسمع الغناء فيستجيده ، والشعر فيطرب له ، تنجعه عواطفه إلى جهات مختلفة فيصل فيها إلى نهايتها ، يسمع قول أبى العتاهية :

خانك الطرف الطموحُ أيها القلب الجموحُ
ليوأي الطير والشجر دُنُوً وتروحُ

هل المطلوب بذنب توبة منه نصوح ؟
 كيف إصلاح قلوب إيتا من قروح !
 أحسن الله بئسا أن الخطايا لا تقوح
 سيصير الله يوما جندا ما فيه روح
 بين عيني كل حي علم للوت يلوح
 كلنا في غفلة وال موت يفلو وروح
 لبني الدنيا من الدن يا عبوق وضوح
 رحن في الوشي وأض يحن عليهم السوح
 كل نطاح من الدهر - له يوم نطوح
 نح كل نفسك يا ميت كين إن كنت تنوح
 لتموتن وإن عم رت ماعمر نوح !

فيكي وينتجب^(١). ويرضى عن البرامكة : فيجب بهم كل الإعجاب ،
 ويقربهم كل القرب ، ثم يفض عليهم ويستغفر الحساد عواطفه عليهم ، فينكل
 بهم كل التنكيل ، ويعجبه الفناء فيقرب إبراهيم للوصلي تقريره للعلماء والقضاة ،
 ولا يسأل عن مال ينفقه متى استطاع الملقى أو الشاعر أن يصل إلى موضع
 يثير منه إعجابه ، تعجبنى جملة لصاحب الأغاني يصف بها الرشيد ، تمثل خير
 تمثيل قوة عاطفته إذ يقول : « كان الرشيد من أغزر الناس دموعا في وقت
 الموعظة ، وأشددم عسفا في وقت النضب والغلظة »^(٢) من أجل ذلك لا يجب
 أن تراه متدينا شديد الدين ، يصل في اليوم مائة ركعة ، وأن تراه حينما
 غضوبا يسفك الدم لشيء لا يستحق سفك دم ، وطروبا يملك الطرب عليه
 نفسه ومشاعره ، وهذه صفات من السهل أن تتصور اجتماعها في شخص واحد .

(١) أغاني ٣ : ١٧٨ . (٢) المصدر نفسه .

قرأ كتاب الأغاني فخرج منه في كثير من الأحيان على صورة الرشيد
يُحْيِي إِلَيْكَ مَا أَكَفَ عَلَى الْعَوِّ والطرب ، لا عمل له إلا أن يسمع
الفناء ، ويحافظ النعماء ، ويثيب الشعراء ، وله المذرف في ذلك ، لأنه لم يؤلف كتابه
تاريخاً يصف فيه أعمال الخلفاء المختلفة ، ويقومهم بما أتوا من حسنات وسيئات ؛
إنما ألف كتابه في الفناء ، فمن الطيبى أن يقصر قوله على هذا الضرب وما إليه ؛
كما يقصر كتب طبقات النحاة والتفويين كلامها على العلماء من الناحية النحوية
والتفوية ، وإذا كان هناك خطأ فمن ناحية من يفهم أن الفناء وحده يمثل حياة
الرجل المختلفة للزاعات .

وقرأ ابن خلدون فيقصر تصويره على الناحية الجذبة والدينية ، ويذهب
إلى أن الرشيد لم يكن يعاقر الخمر لأنه كان يصحب العلماء والأولياء ، ويحافظ
على الصلوات والعبادات ، ويصل الصبح في وقته ، وينزو عاماً ويحج عاماً ، ولم
يستدل أيضاً بأنه كان من العلم والسذاجة بمكان ، تقرب عهده من سلفه ، ولم
يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن « وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ
التمر على مذهب أهل العراق ، وقلوبهم فيها معروفة ، وأما الخمر الصرفة فلا
سبيل إلى اتهامه بها ، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها ، فلم يكن الرجل بحيث
يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل اللغة ، ولقد كان أولئك القوم كلهم
بمحنة من ارتكاب السرف والترف في ملابسه وزيتهم ، وسائر متناولاتهم
لما كانوا عليه من خشونة البداوة ، وسذاجة الدين التي لم يفارقوها ! »^(١) .
ونحن مع اتفاقنا في الرأي مع ابن خلدون في أن الرشيد لم يشرب الخمر ؛
إنما المعروف عنه أنه شرب النبيذ ، فلسنا نتفق معه على ما يستخلص من قوله
من أنه كان بمحنة من السرف والترف ، وأنه كان يعيش عيشة ساذجة ، وأنه
لم يواقع محرماً ، فهذا أيضاً إفراط في التقديس لا تدل عليه سيرة الرشيد ،

(١) انظر هذا البحث في الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون : ١ : ١٤ .

خصوصاً وأن أدلته في هذا النوع أدلة خطائية ؛ فقرب عهده من للنصور لا يستوجب أن يعيش عيشته ، وقد صرح هو صراحة بأن الترف والنعيم في عصر الرشيد كان أكثر منه في عصر للنصور ، ولو كان قرب العهد يكفي في الاستدلال ؛ لما رأينا الأمين — وهو قريب العهد من الرشيد — يسير سيرته .

والعجب أنه عقد فصولاً طويلة يتعرض فيها لوصف الحضارة والنعيم والترف في أيام الرشيد والمأمون وتفننهم في اللطيم والشرب والملبس ، وهو هو الذي وافق « المسعودي » و « الطبري » على ما حكياه في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن ، وأن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع المنبر في كل واحدة مائة من^(١) وبسط لها فرشاً كان الحصيد منها منسوجاً بالذهب ، مكللاً بالتر والياقوت الخ الخ^(٢) .

هل هذا ليس سرفاً في الترف ؟ وهل قرب عهد المأمون من الرشيد كقرب عهد الرشيد من للنصور جعلت الناس يمشون عيشة السذاجة كما يقول ؟ الحق أن ابن خلدون مخطئ في وصفه عصر الرشيد بالسذاجة ، وأنه وقومه كانوا بمنجاة من السرف والترف ، والحق أيضاً أن ابن خلدون صور جانباً صحيحاً من جوانب الرشيد في صلاته وتقواه ، ولكن هذا كل جوانبه فله جانب هو الذي وصفه الأغاني ، وإن عذرتنا الأغاني لما يتناقلنا نمنر ابن خلدون ، وهو مؤرخ عليه أن يذكر نواحي الرجل المختلفة !

وكان ابن خلدون فهم أن الذي يصلى مائة ركعة ، ويمجالس الفضيل بن عياض لا يتأق منه أن يجلس مجالس لمو يسمع فيها الفناء ، ويظهر فيها مظاهر الترف على آتم وجوها . إن كان فهم ذلك كان خطأ ، والطبيعة الإنسانية لا تأباه . وفي رأينا أن الرشيد كان يمد قيسن في الجلد ، ثم يلهو فيمن في اللهو خضوعاً لحدة العاطفة مع الميول المختلفة .

(١) المن زنة رطلين . (٢) تاريخ ابن خلدون ١ : ١٤٥ .

قال أبو البختري وهب بن وهب القاضي : كنت عند الرشيد يوماً واستدعى
 ماء مبرداً بالتلج ، فلم يوجد في الخزانة تلج ، فاعتذر إليه بذلك ، وأحضر إليه
 ملا غير مثلوج فضرب وجه الغلام بالكوز ، واستشاط غضباً . فقامت له : أقول
 يا أمير المؤمنين وأنا آمن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان
 من الغير بالأمس — يعني زوال دولة بني أمية — والدنيا غير دائمة ولا ماثرة
 بها ، والحزم ألا تعود نفسك الترفه والنعمة ، بل تأكل اللين والجشَب ، وتابس
 الناعم والخشن . وتشرب الحار والبارد . فنفضني يده وقال : لا والله لا أذهب
 إلى ما تذهب إليه بل ألبس النعمة ما لبستني فإذا نابتنى نوبة الدهر عدت إلى
 نصائي غير حوار ^(١) .

* * *

جاء الأمين فزاد في اللهو نشمة بل نفات — ومهما قال محققو المؤرخين
 من أن كثيراً من الأخبار وضعت في عهد المأمون لتشيويه سمعة الأمين ، والخطأ
 من شأنه ، وتبرير ما فعل به . فإن ميله إلى الإفراط في اللهو والشراب والغلمان
 مما لا يسهل إنكاره .

روى الطبري قال : لما ملك محمد (الأمين) ... طلب الخصيان ، وابتاعهم
 وغالى بهم ، وصيرهم تلجوت في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ...
 ورفض النساء الحرائر والإماء ، حتى رعى بهم ^(٢) في ذلك يقول بعضهم :
 لهم من عُمره شَطْرٌ ، وشَطْرٌ يباعرُ فيه شربَ اتلندريس
 وما للغانيات لديه حِطٌّ سوى التَّقْطِيبِ بالوجه العبوس !
 إذا كان الرئيس كذا سقياً فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟
 فلو عليم المقيم بدار طوس لعز على المقيم بدار طوس ^(٣)

(١) شرح التلج لابن أبي الحديد ١ : ١٢٢ وفي الأصل عدت إلى نصاي غير حوار .

(٢) في الأصل بين . (٣) الطبري ١٠ : ٢١٥ ويصنف بالمقيم بطوس أباه الرشيد .

وروى أيضاً : أنه لما مُلك وجه إلى جميع البلدان في طلب المؤمنين ، وشتمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فُرْهِ الدواب ، وأخذ الوحوش والسمك والطير ، وغير ذلك . واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده ، واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال ، وما يحضرته من الجوهر في خصيانته وجلسائه ومحدثيه . . . وأمر ببناء مجالس لمتزاهاته ، ومواضع خلوته ولهو ولعبة . . . وأمر بعمل خمس حرافات في دجلة على خلفة الأسد والفيل والقطب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيماً وفيها قال أبو نواس مدائح^(١) — ويصفه وزيره الفضل بن الربيع فيقول : « ينام نوم الظربان^(٢) ، لا يفكر في زوال نعمة ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة . قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحه ، فهو يجرى في لهوه ، والأيام نضرع في هلاكه ، قد شتم عبد الله (المأمون) له عن ساقه ، وفوق له أصيب أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحنف النافذ ، والموت القاصد ، قد عي له الناي على متون الخيل ، وناط له البلاء في أسنة الرماح ، وشقار السيوف^(٣) .

حاء المأمون بعد الأمين ولكن لم تكن شهوات المأمون وملاهيته كشهوات الأمين وملاهيته . لهو الأمين لهو شاب غر رأى سلطاناً ومالا ، وليس له عقل ناضج فأنفق كل وقته في إرواء شهوته . وأما المأمون فرجل حنكته التجارب ، وعلمه — ما قلبي من الأحوال في الحروب وما تحتاجه المملكة من خلق جديد — الحزم والبصر بالأمور ، ثم كان له ملاذ عقلية تشغل وقته ، فهو يحب الكتب ويحب الفلسفة ، ويحب الجدل في المسائل الدينية والفقهية ، وحوله العلماء من كل نوع يباحثهم ويجادلهم ، وهو مع ذلك يلهو لهواً خفيفاً فيشرب النبيذ^(٤) ، ويقم بعد قنومه بقداد عشرين شهراً لا يسع

(١) طبري ١٠ : ٢١٥ . (٢) الطربان : دويبة كالغرة منتنة . -

(٣) طبري ١٠ : ١٥٧ . (٤) لجري ١٠ : ٢٥٦ وطينور ١ : ٣٢٠ .

ثم يسمع^(١) ، وكان يزين مجلسه ويفتبه إسحق الموصلي ، كما كان أبوه إبراهيم الموصلي يزين مجلس أبيه الرشيد ، قربه للأمين وأعلى شأنه ، وكذلك قرب إليه عمه إبراهيم بن المهدي وكان مُبدعا في غناؤه .

وكان الناس قد تجمروا غصص البؤس أيام الفتن بين الأمين والمأمون ، وخربت بغداد ، وعم البؤس والشقاء فما عادت السكينة حتى شعروا أنهم في حاجة أن يعوضوا ما فقدوا ، فلهوا وأفرطوا .

هذه ناحية من نواحي القصور شرحناها لما كان لها من أثر كبير في الفن والأدب . ولها نواح أخرى مختلفة . فناحية سياسية ليست تهتمنا في موضوعنا ، وناحية علمية من تشجيع للعلم ، وإتفاق المال في سبيله ، وعقد مجالس للجدل والمناظرات ، وبذل الجهد في تحصيل الكتب ، وإنشاء دورها والعمل على ترجمتها ، وكان من أعظم الخلفاء أثرا في ذلك المنصور والرشيد والمأمون ، وهذه الناحية سنوضحها عند الكلام في الحركة العلمية .

* * *

وإذ كثر القول في الشراب ، وروينا ما قال ابن خلدون من أن بعض الخلفاء كانوا يشربون النبيذ لا الخمر ، وشاع أن قهواء العراق يرون حلا النبيذ ، وكان لهذا القول أثر في الأدب ؛ كان لا بد لنا من كلمة في الشراب .

كثر الشراب عند العرب ، وتعددت أنواعه ، وقد كانوا يأخذون عن جاورم من الأمم الأخرى أنواعا من الشراب ، وألوانا من عاداته فقد أخذ أهل الشام عن الروم نوعا من الخمر ممزوجا بالعسل ، وقلوا اسمه الرومي وهو « الرَسَاطُون Rosatum » ولم يكن يعرفه عرب الحجاز^(٢) كما أخذ بعض الأمويين عن الفرس شرابا اسمه « المفعجة » كانوا يشربونه سبعة أسابيع في

(١) أخاف : ١٠٦ : (٢) انظر لسان العرب في مادة رسط .

بعض منازل القمر فشربه الوليد بن يزيد كذلك^(١) :

وهكذا كان للأمم أشربة وعادات في الشراب أخذت تتسرب إلى المسلمين ، فلما جاء العباسيون تفتنوا في أنواعه ، وفي مجالسه والتالمة عليه .

وقف الإسلام بحارب الخمر ، ومحرم السكر ، ونزلت الآية « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْعَمَلَةِ قَهْلَ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

ومع هذا فترى أن أسئلة أثارت حول هذه الآية الكريمة : ما المراد بالخمر أي عصير العنب وحده ، أم كل مسكر خمر ؟ وما هو القدر المحرم ؟ أكل نوع ما يسكر كثيره قليله حرام ، أم بعض الأنواع يحل قليله ؟ وظهرت في عالم الفقه مسألة النبيذ هل يحل أو لا يحل ، وما القدر الذي يحل ؟ وظهر هذا الخلاف من عهد الصحابة فمن بعدهم ، ورأينا عمر بن عبد العزيز في العهد الأموي يشعر بخاطر هذا الخلاف في النبيذ وضرره ، فيصدر كتابا إلى الأمصار يحرم فيه النبيذ^(٢) إلى أن كان عصر الأئمة فكان بينهم الخلاف السابق ، فذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى سد الباب بتاتا ، ففسروا الخمر في الآية السابقة بما يشمل جميع الأنبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها وقالوا : كلها تسمى خمرأ ، وكلها محرمة . أما الإمام أبو حنيفة ففسر الخمر في الآية بعصير العنب مستندا إلى المعنى اللغوي لكلمة الخمر وأحاديث أخرى ، وأداه اجتهداه إلى تحليل بعض أنواع من الأنبذة كنبيذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخ وشرب منه قدر لا يُسكر ، وكنوع يسمى « الخليطين » وهو أن يأخذ قدرا من تمر ومثله من زبيب فيضعهما في إناء ثم يصب عليهما الماء

(١) أخافى ٦ : ١٣٠ . (٢) ورد كتاب عمر في العهد الفريد ٣ : ٤١١ .

ويتركها زماناً . وكذلك نبيذ العسل والتين ، والبر والعلس^(١) ويظهر أن الإمام أبا حنيفة في هذا كان يبيع الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ؛ فقد علمت من قبل^(٢) أن ابن مسعود كان إمام مدرسة العراق ، وعلمت مقدار الارتباط بين فقد أبي حنيفة وابن مسعود ، ودليلاً على ذلك : ما رواه صاحب العقد عن ابن مسعود من أنه : كان يرى حل النبيذ . حتى كثرت الروايات عنه ، وشُهرت وأذيت واتبه عامة التابعين من الكوفيين ، وجعلوه أعظم حججهم ، وقال في ذلك شاعرهم :

مَنْ ذَا يَحْرُمُ ماءَ الزَّنْ خَالِطَةً فِي جَوْفِ خَايَةِ ماءِ العنَاقِيدِ ؟
إِنِّي لَا كَرُهُ تَشْدِيدَ الرواةِ لَنَا فِيهِ ، وَيُعْجِبُنِي قولُ ابنِ مسعودِ^(٣) .
على كل حال كان هناك جدال شديد بين الفقهاء في النبيذ كالذي كان بينهم في الفناء ؛ فابن أبي ليلى يحرم النبيذ ويجادل فيه أبا حنيفة ؛ وأبو حنيفة يرد عليه ، وعبدُ الله بن إدريس كان الوحيد بين فقهاء الكوفة يحرم النبيذ فيرد عليهم ويردون عليه إلخ^(٤) . ولما كان كثير من فقهاء العراق يرون حل النبيذ اشتهر العراقيون بحل النبيذ فقال شاعرهم :

رَأَيْهِ فِي السَّماعِ رَأْيٌ حِجَازِيٌّ م وَفِي الشَّرَابِ رَأْيٌ أَهْلِ العِراقِ
وانتقل هذا الجدل إلى الأدباء والشعراء ، وأخذوا يتلاعبون بهذه الآراء ، فقال بعضهم « أباح أهل الحرمين الفناء وحرّموا النبيذ ، وأباح أهل العراق

(١) ونحن في هذه الأحكام إلى شرح النووي على مسلم ٤ : ٣٦٢ والزَيْلَعِيُّ ٦ : ٤٥ وما بعدها . (٢) فجر الإسلام ص ٧٢٠ . (٣) للعقد ٣ : ٤١٥ .
(٤) انظر العقد وكتاب الأشربة لابن قتيبة وقد نشر في مجلة المقتبس ونقل صاحب العقد طرفاً منه .

(٥) ومع أن كثيراً من فقهاء العراق كانوا يرون حل النبيذ كانوا يتورعون من شربه وفي ذلك يقول بعضهم « لأن أتول في النبيذ مراراً كثيرة هو حلال خير من أن أقول فيه مرة واحدة هو حرام - ولأن آخر من السماء فتشظى الرياح خير لي من أن أشرب منه قطرة » -
الفتي ١ : ٤١٢ .

البيذ وحرّموا الفناء فأونجلونا في الرخصة فيهما عند لخلّاهما إلى أن يقع الاتفاق^(١) » وقال ابن الرومي :

أَبَاحَ الْعِرَاقِيُّ النَّبِيذَ وَشَرِبَهُ وَقَالَ : حَرَامَانِ الْمَدَامَةُ ، وَالشُّكْرُ
وَقَالَ الْحِجَازِيُّ : الشَّرَابَانِ وَاحِدٌ فَحَلَّ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلَيْهِمَا الْحَمْرُ
سَاخِذٌ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا وَأَشْرَبُهَا لَا فَارِقَ الْوَازِرَ الْوِزْرُ^(٢)
وعلى الجملة فإن كثيراً اتخّنوا هذه الآراء تكأة يصلون بها إلى أغراضهم ،
ولم تكن هي الباعث على شربهم ؛ فإنهم لم يبقوا عند النوع الذي حلّوه ،
ولا القدر الذي أباحوه ، فليس من قهيه أباح أي نوع من النبيذ إلى حد الإسكار ،
ولكنها خلاعة الأدباء ، وتظرف الشعراء .

أما أبو نواس وشيعته ؛ فلم يركنوا إلى هذا الضرب من الخيل بل جاهدوا
بها مع الإقرار بتعريمها ، وقال زعيمهم (أبو نواس) :

فَلَيْتَ قَالُوا حَرَامٌ قُلْ حَرَامٌ وَلَكِنَّ اللَّذَائِذَ فِي الْحَرَامِ
وَقَالَ : أَلَا فَاسْتَقْنِي خَمْرًا ، وَقُلْ لِي مِنَ الْحَمْرِ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا امْكَنَ الْجَهْرُ

* * *

قدّ الأغنياء والخاصة قصور الخلفاء ، وعاشوا عيشة بذخ وترف ، بل
زادوا في ملوهم ، لما تقتضيه طبيعة مجالس الخلفاء من حشمة ووقار لا يلتزمها
غيرهم من الأغنياء .

قدّ كثر أولاد الخلفاء وأقاربهم ، وأخصى ولّد العباس من رجال ونساء
وصغار وكبار ، فكان عددهم أيام المأمون ثلاثة وثلاثين ألفاً^(٣) وكانوا ممتازين
في رقتهم وجمالهم « كان يقال : انتهى جمال ولد الخلافة إلى أولاد الرشيد
ومن أولاد الرشيد إلى محمد وأبي عيسى ، وكان أبو عيسى إذا عزم على

(١) محاضرات الأدباء ١ : ٤١٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) للمعصومي ٢ : ٢٥٩ .

الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما يجلسون للخلفاء»^(١). وقد أولع كثير من أفراد هذا البيت بالفناء والفنون الجميلة ؛ ففَلَيْتَ بنت المهدي كانت « من أحسن الناس وأغزهم ، تقول الشعرَ الجيد ، وصوغ فيه الألحان الحسنة »^(٢) وأخوها إبراهيم بن المهدي « كان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات وأطعمهم في الفناء ، وأحسنهم صوتاً »^(٣) ثم أبو عيسى ابن هرون الرشيد المشهور — كما أسلفنا — بحاله « كان أحسن الناس وجهاً ومجالسة وعشرة ، وأجهم وأحدم نادرة وأشدهم عبثاً »^(٤) وسبب موته : أنه كان يحب صيد الخنازير فوقع عن دابته فلم يسلم دماغه »^(٥).

وتبعهم في ذلك أولادُ الخليفة ؛ فقد كان حفيد الفضل بن الربيع — وزير الرشيد — وهو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع متنبياً ماهراً ، وماجناً مستهتراً^(٦) يصطبغ في حدائق النرجس ، ويعيش عيشة لهو وخلاعة . وأمثالهم كثيرون يطول ذكرهم وسرت العدوى من أولاد الأغنياء إلى الطبقة الوسطى فكانوا يحتنون حذوهم ، ويسرون على منهاجهم .

تفتنوا في فن العبارة ، وأجادوا تشييد القصور ، ووصفها ابن الجهم فقال :

صُبُحُونَ تَسَافَرُ فِيهَا الْعِيُونُ وَتُخَيَّرُ عَنْ بُعْدِ أَقْطَارِهَا .
وَقَبْلَهُ مُلْكٌ كَانَ النَّجْوَى مَ تَصْنَعِي إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا
وَفَوَازَةٌ تَأْرُهَا فِي السَّمَاءِ فَلَيْسَتْ تَقْصُرُ عَنْ تَأْرِهَا
إِذَا أُوقِدَتْ نَارُهَا بِالْمَرَاثِ أَضَاءَ الْحِجَارَ سَنَا نَارِهَا
تَرُدُّ عَلَى الْمِزْنِ مَا أَنْزَلَتْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَوْبِ أَقْطَارِهَا
لَهَا شُرُفَاتٌ كَأَنَّ الرِّبْعَ كَسَاهَا الرِّيَاضَ بِأَنْوَارِهَا

ويصف أحدهم شيئاً من قصر الواثق فيقول : « لم يزل الخلد يُلْهَوَنِي

(١) أغاني ٩ : ٩٦ . (٢) أغاني ٩ : ٨٣ . (٣) أغاني ٩ : ٣٥ .
(٤) أغاني ٩ : ٩٦ . (٥) أغاني ٩ : ٩٧ .
(٦) انظر ترجمته في الأغاني ١٧ : ١٢٧ .

من خدم إلى خدم ، حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ، مُلبَّسة الحيطان
بالوشى المنسوج بالذهب ، ثم أفضيتُ إلى رواق أرضه وحيطانه مُلبَّسة بمثل
ذلك ، وإذا الواثق في صدره ، على سرير مرصع بالجوهر ، وعليه ثياب منسوجة
بالذهب ، وإلى جانبه « فريدة » جاريته ، عليها مثلُ ثيابه ، وفي حجرها
عود . الخ ^(١) .

وبالنوافى الموائد وتنسيقها وألوان طُومها ، فوصف المماني الشاعرُ ما أكل
على مائدة محمد بن سليمان بن علي . قال :

جاءوا يفرقني لهم ملبوسين بات يسقى خالص السمون ^(٢)
مُصَوِّمِ أَكْرَمِ ذِي غُضُونٍ قد حُصِيَتْ بالشكر المطحون
وَلَوْ نَوا مَا شِئْتَ مِنْ تَلَوِينِ مِنْ بَارِدِ الطَّعامِ وَالسَّخِينِ
وَمِنْ شَرَّاسِيْفٍ وَمِنْ طُرْدِينِ وَمِنْ هَلَامٍ وَمَصِيصِ جَوْنِ ^(٣)
وَمِنْ أَوْزٍ فَاتِي تَمِيصِينَ وَمِنْ دَجَاجٍ فَتَّ بِالْعَجِينِ
فَالشَّحْمُ فِي الظُّهُورِ وَالْبَطُونِ وَأَتَبَعُوا ذَلِكَ بِالْجُوزِينِ
وَبِالْخَبِيصِ الرَّطْبِ وَاللُّوزِ وَفَكَّهُوا بِمَنْبٍ وَتَيْنِ
وَالرَّطَبِ الْأَزَافِ وَالْهَيُونِ ^(٤)

ويقول أبو العتاهية : دُعيتُ إلى بيت مُتَخَارِقٍ (أحد الفنين) فاجتته ، فأدخلني
بيتاً نظيفاً فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سَمِيدٌ ، وخل وبقل وملح ،
وجدى مشوى فأكلنا منه ، ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ،
ثم دعا بمجلاء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا وجامونا بفاكهة وريحان ، وألوان .

(١) أغاني ٣ : ١٨٤ .

(٢) الفرق : خبز جوانبه مقسومة إلى وسطه يشوى ثم يروى سمناً ولبناً وسكراً .
(٣) الشراسيف أطراف الأضلاع المشرقة على البطن ، والطردين : نوع من الأطعمة
الأكراد . الهلام : طعام من لحم عجل يجلاء أو مرق السكاج المبرد المصن . والمصوص لحم
يقطع في الخل يمد فسخه والجون المائلة إلى السواد .
(٤) الأزاد والخيرون : نوعان من التمر .

من الأبنزة فقال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت «^(١) وكان ذلك قبل أن يتردد .

وقل ما شئت في مجالس اللهو والشراب ، وما كان يجري فيها من خلعة ومجون امتلاً بوصفها كتاب الأغاني ، ودواوين الشعراء مثل بشار ، وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد^(٢) .

أولعوا بالفناء وتفتنوا فيه ، وأبدعوا في مجالسه من مُلح وتنادر وشراب ، وغير ذلك ، وذهبوا فيه مذهبتين جديد وقديم ، وتعصب كل فريق لمذهب^(٣) . ولعبوا بالنرد والشطرنج وغلوا فيهما^(٤) . وعُنُوا بترية الحمام ، وتغالوا في أمثاله^(٥) . وتهارشوا بالذيوك والكلاب^(٦) . ولعب أبو نواس بالكلاب زماناً حتى عَرَفَ منها ما لا تعرفه الأعراب^(٧) . وانتشر القمار حتى في حانات الفقراء^(٨) . وأولعوا بالنقش والتصوير فكثُر رسم الصور على الكأس كما في شعر بشار وأبي نواس ، ورثى أبو الشبل مسرجة له مصورة تصويراً بديعاً كسرها كبش له^(٩) . وأغربوا في الهدايا يوم النيروز يبدعون فيها نقشا وتصويراً . ورقصوا فكان إسحق بن إبراهيم الموصلي يجيد الرقص ، واشتهر في عصره بالرقص جماعة^(١٠) . وأحبوا البساتين وأكثروا الخروج إليها ، والأزهار يزنبون بها مواعدهم ، ويفتزلون في لونها وعبقها^(١١) إلى كثير من أمثال ذلك .

(١) أغاني ٣ : ١٨٠ .

(٢) انظر وصف أشجع لمجالس شراب - أغاني ١٧ : ٢٤ وبيت ابن رامين ١٠ : ١٣٦ وما بعدها ٥ : ١١٢ الخ . (٣) أغاني ٧ : ٢٥ . (٤) المسعودي ٢ : ٤٠٦ . (٥) الحيوان ٣ : ٩١ . (٦) أغاني ٦ : ٧٥ . (٧) حيوان ٢ : ١٠ . (٨) حيوان ٥ : ١١٥ . (٩) أغاني ١٣ : ٢٧ وانظر زهر الآداب ٣ : ٣٦ . (١٠) أغاني جزء ٥ في ترجمة إسحق . (١١) أغاني ٦٣ : ١٣٠ .

كثير النعيم ، وكثير العنصر الفارسي العريق في المدنية ، المُنعم في الترف ، وكثير الجوارى يُجلبن من الأصقاع المختلفة ، وكثير الجمال وسَعَر ، إذ لم تكن عاملة الإمام يَطْلَبْنَ بِحِجَاب ؛ فقويت النزعة إلى اللهو والخلعة والمجون التي وصفنا ، وشعر قوم من الشعراء بهذه النزعة من الناس أمثال بشار وصريع الغواني وأبي نواس ؛ فقادوا زمامها وألهبوها ، وسهلوا السبيل لها .

إن سكر القوم وشعروا بالحاجة إلى آيات من الشعر تُروى عاطفتهم ، وتزين لهم علمهم ، وتحملهم على المضي في شربهم ؛ رأوا في شعر هؤلاء إرواء لفتهم ، وإن تشبَّهوا في فتاه أو غير فتاه ؛ فشِعْرُ الشعراء كقيل أن يجدوا فيه بفتيتهم في صريح من القول غير كناية ، وبشار يختص يومين في الأسبوع للمتظرفات من النساء يأخذن عنه شعره المالح ، وينشره في الناس !

فلا عجب إن رأينا الحياة لاهية لاعبة ، ورأينا شعر الشعراء في ذلك العصر إلا القليل منهم داعماً فاجراً .

وهنا ظاهرة واضحة ، وهو أن هذا العراق الذي كان في العصر الأموي جلدًا إذا قيس بعيره من الشام والحجاز^(١) أصبح الآن في العصر العباسي لاهيا ، بل هو محط أنظار اللاهين ، وسائر الأمصار إنما تقتبس من لهوه ! والسبب في ذلك أمور أهمها — على ما يظهر — شيان :

(الأول). المال : فالعراق كان مصبَّ أموال المملكة الإسلامية الفنية — بحكم أنه مركز الخلافة — والمال كل شيء في اللهو يتبعه حيث كان . فالرقيق والشراب والفناء وما إلى ذلك إنما تكون حيث يكون الترف ، وإنما يكون الترف حيث يكون المال ، والعراق أكثر البلدان مالا ، وأعزها جاها ، وكل نانغ في فن — ومنه الأدب — إنما يتفق سوقه في العراق ، ومن بنغ في غيره ولم يرحل إليه حَمَلٌ ذَكَرُهُ ، وضاع فنه . فأى مغن مشهور لم يكن في العراق ؟

(١) فجر الإسلام ص ٢١٥ .

وأى نائبة في الشعر لم يكن في العراق؟ وأية جارية امتازت بجمال أو غناء لم تكن في العراق؟

والسبب (الثاني) أن العراق كان أكثر بلاد الله خليطاً ، فقديمًا تماقت عليه أمم مختلفة ، ومدينيات متتابعة ، وفي العصر العباسي كان حاضرة الخلافة ، وكان مقصد الأمم . وكان مسكن المنصر الأرستقراطي من الفرس ، وكان تحطُّ الراحلين من الهند والروم وغيرهم . وكان يجلب إليه أحسن الرقيق من كل جنس ، ولهُؤلاء جميعاً تاريخ في اللهو ، وإمعان في الحضارة ، وتفنن في الترف .. فلما حلوا بالعراق ، ووجدوا السبل مهيأة ، عرَّضَتْ كُلُّ أمة فنَّها ، وأنواع حضارتها ، فكان من ذلك معرض عام أخذ العراق من كل شيء منه بحظ وافر ، وأخذت البلدان الأخرى من العراق بقبَس .

* * *

ولكن من الحق أن قول : إن هذا الوصف الذي وصفنا ليس حالَّ الناس جميعهم ، فإنا كانوا كلُّهم أغنياء ولا كلُّهم هازلين ، وما كان ذلك لأمة من الأمم في أى عصر من العصور ، وما كان العالم الإسلامي كله هو العراق وملاهيه ، ولا كان العراق كله يحيا هذه الحياة — فإن أنت قرأت كتاب الأغاني ، وتقلت في صحفه من ضرب من اللهو إلى ضرب ، أو قرأت ديوان أبي نواس فرأيت أكثره خمرًا ومجونًا ؛ فلا تظن أن ذلك يمثل حياة العصر بأكمله ، إنما هو يمثل ناحية واحدة من نواحيها المتعددة ، ووجوهها المختلفة ، وعذر الأغاني أنه ألف في طبقات الفنانين ، والمثقفين في كل عصر موطن اللهو وبيئة الجون .

على أننا نريد أن ننتبه على أسر فطن له ابن خلدون وهو : وضع الأخبار الكاذبة في الملاذ تقرباً إلى الكبراء ، فكانوا يبالغون في أخبار الملاهي ليفروم عليها ، وليكسبوا هم من وراء ذلك مالا أو جاها أو نحوها .

حُورٌ وَلَذَانٌ وَمِنْ كُلِّ مَا تَطْلُبُهُ فِيهَا سِوَى النَّاسِ !
 ويقول آخر: أَدُمُ بَغْدَادَ وَالْمَقَامَ بِهَا
 ما عند سُكَّانِهَا لِمُخْتَبِطٍ
 من بَعْدِ مَا خَبِرَ وَتَجَرَّبَ
 يحتاجُ بِأَغْيِ الْمَقَامِ بَيْنَهُمُو
 خَيْرٌ وَلَا فَرْجَةَ لِمَكْرُوبٍ^(١)
 كَنُوزُ قَارُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ
 إلى ثَلَاثٍ مِنْ بَعْدِ تَقَرُّبِ
 وَعُمَرُ نُوحٍ وَصَبْرُ أَيُّوبِ
 كما كرهها جماعة من أهل الورع والصلاح وعلمهم في
 الكراهية ما عاينوا بها من الفجور والظلم والسف وكان بعض الصالحين
 إذا ذكرت عنده بغداد يتمثل :

قل لمن أظهر التَّنَشُّكَ في النِّا س وأمسى يُعَدُّ في الزَّهَادِ
 الزِّمِ التَّنَفَرَ والتَّوَضُّعَ فِيهِ ليس بَغْدَادُ مَنْزِلَ الْعِبَادِ
 إن بَغْدَادَ لِلْمُلُوكِ مَحَلٌّ وَمُتَنَحٍّ لِلْقَارِيءِ الصَّيَّادِ^(٢)
 ويقول بشر بن الحارث « بغداد ضيقة على المتقين ، لا ينبي لمؤمن أن
 يقيم بها »^(٣).

كانت كثرة الأموال بالعراق ووفرة ما يحمل إليها من خراج الأقطار ،
 سبباً في ارتفاع الأسعار ، وذلك إن احتمله الأغنياء فإنه يُبَنَسُ الفقراء ، وقد
 شكوا أبو الغتاهية ذلك ، وصوره تصويراً دقيقاً فقال :

مَنْ مَبْلَغَ عَنَى الْإِمَامِ نَصَاحًا مَتَوَالِيَةً
 إِنِّي أَرَى الْأَشْيَاءَ لَرَّ أَسْوَارِ الرَّعِيَّةِ عَالِيَةً

(١) المختلط : من يستجلى الناس من غير معرفة . (٢) معجم ياقوت في مادة بغداد .
 (٣) تاريخ بغداد ١ : ٥ وقد دوى الخطيب أسباباً أخرى لكراهية العلماء لها ، منها أن
 بعضهم كان يرى أن أرضها منسوبة ، ومنها أن منهم من كان لا يحب سكانها . لأحاديث
 سوردت في ضحها .

لم تكن أموال الدولة موزعة توزيعاً متقارباً ، ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقا طفيفة ، إنما كان هناك هَوَات سحيقة بين الطبقات ، فكثير من مال الدولة يتفق على قصور الخلافة والأمراء ورؤساء الأجناد ، وعمال الدولة . وهم يتفقون منه جُزْأاً على المترين من أدباء وعلماء ومغنيين وجَوَّارٍ وأتباع ، وطبقة تجار ومن إليهم . وهؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى . وعامة الشعب يمشو فيهم الفقر واليأس .

كانت بغداد تحجب أرباب الأموال لما يجدون فيها من عيش رَغْدٍ وهناءة ونعيم .

أَعَانَيْتُ فِي طُولٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْضِ
كَبَدَادَ دَاراً إِنَّمَا جَنَّةُ الْأَرْضِ ؟
صَفَا الْعَيْشُ فِي بَغْدَادَ وَاخْضَرَ عُودُهُ
وَعَيْشُ سِوَاهَا غَيْرُ صَافٍ وَلَا غَضَّ
تَطْلُو بِهَا الْأَعْمَارُ إِنِّ غَدَاةَهَا

مَرَى « وَبَعْضُ الْأَرْضِ أَمْرٌ مِنْ بَعْضٍ »^(١)
فأما الفقراء وذوو الحاجة فضاعت عليهم بغداد بما رحبت ، ولم يستطيعوا العيش فيها ولا المقام بها :

بَغْدَادُ دَارٌ طَيِّبُهَا آخِذٌ نَسِيْمُهَا مِئِي بِأَنْفَاسِ
تَصْلُحُ لِلْمَوْبِرِ لَا لِالْمَرْيِ بَيْتٌ فِي فَقْرٍ وَإِفْلَاسِ
لَوْ حَلَّهَا قَارُونُ رَبُّ النَّبِيِّ أَصْبَحَ ذَا هَمٍّ وَوَسْوَاسِ
هِيَ الَّتِي نُوْعِدُ لَكِنَّهَا طَاجِلَةٌ لِلطَّاعِمِ الْكَاسِ

(١) تاريخ بغداد ١ : ٦٨ .

وأرى للكسب نَزْرَةً وأرى الضَّرُورَةَ فاشية
وأرى عُيُومَ الدَّهْرِ رَاغِبَةً تَمُرُّ وَغَالِيَةً
وأرى اليتامى والأرامل في البيوت الخالية
من يَتِيمٍ راجٍ لم يزل يسمو إليك وراجيه
يشكون مُجْهِدَةً بِأَصْوَاتٍ ضَعِيفَةٍ عَالِيَةٍ
يرجئون رِفْدَكَ كِي يَرَوْا مِمَّا قُوَّةُ الْعَاقِبَةِ
من يَرْتَجِي لِلنَّاسِ غَيْرُكَ لِلْعَيُونِ الْبَاكِهَةِ
مِنْ مُصِيبَاتِ جُوعٍ تَمْسِي وَتَصْبِحُ طَالِيَةً
مَنْ يُرْتَجَى لِمَنْعِ كَرْبٍ مُلْمَةٍ هِيَ مَاهِيَةٍ
من للبطون الجائعات للجسوم العارية
يا ابنَ الْخُلَافِ لَا قَدْرَ تَ وَلَا عَدِمَتَ الْعَاقِبَةِ
إِنَّ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ لَهَا فُرُوعٌ زَاكِهَةٍ
أَقْبَتُ أَخْبَاراً إِلَيْكَ مِنَ الرَّعِيَةِ شَافِيَةٍ^(١)

* * *

كان المال عرضة أن يأتي في طرفة عين ، ويذهب في طرفة عين ، ذلك
لأن عطاء الخلفاء والأمراء والولاة إذا ذاك ؛ كان لا يقف عند حد ، ومصادرتهم
للأموال لا تقف كذلك عند حد ، قد يجلب أحدهم نَفْمةَ الفنى ، أو يبت
البشر أو الكلمة الطيبة ، أو الجواب الحسن فيَهْبُ الألوْفُ ، وقد يكره ذلك
فيهدر الدم ، ويصادر الليل !

وصف العتاي هذه الحالة في عصره قد سئل : لم لا تقترب بأدبك

(١) ديوان أبي التمايم ص ٣٠٤ .

إلى السلطان ؟ فقال : « لأنى رأيته يعطى عشرة آلاف في غير شيء ، ويرى من الشور في غير شيء . ولا أدرى أى الرجلين أكون ! »^(١) . والفصل الضئى يدعو رسول المهدي ؛ فيخاف ويتم السعاية به ، ثم يطهر ويلبس ثوبين استعداداً للموت فإذا مثل بين يديه سلم فرد عليه ، فلما سكن جأشه سأله عن أى بيت قالته العرب أنغر ؟ ثم سأله مسائل أخرى ، فلما أحسن الجواب سأله عن حاله فشكا إليه دَيْنَه فأمر لم بثلاثين ألف درهم^(٢) . وحكى الجاحظ في كتابه الحيوان : أن أبا أيوب المورياني وزير المنصور بينما هو جالس في أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبي جعفر فامتقع لونه ، وطارت عصافير رأسه ، ودُعيَ دُعيّاً فقبض حبوته ، واستطار فؤاده ، ثم عاد طلق الوجه ، فتمجبنا من حاله ! وقلنا له : إنك لطيف الخاصة ، قريب الهزلة ، فلم ذهب بك النعر واستغزك الوجل ؟ فقال : سأضرب لكم مثلاً من أمثال الناس ؛ زعموا أن البازي قال للديك : ما في الأرض شيء أقل وفاء منك ! قال : كيف ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فغضنوك ، ثم خرجت على أيديهم ، فأطعموك على أكفهم ، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا ! وضجبت وصحت ، وأخذت أنا من الجبال فعلموني ، ألقوني ، ثم يُخلى عني فأخذ صيدى في الهواء فأجىء به إلى صاحبي ! فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم مثل ما رأيت من الديوك ، لكنت أقرّ مني . ولكنكم أتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوف مع ما ترون من تمكّن حالي »^(٣) . ولما قتل المأمون الفضل بن سهل عرضت الوزارة على أحمد بن أبي خالد فأبى وقال : لم أر أحداً تعرض للوزارة وسلت حاله^(٤) .

« وكانوا يرفعون الأخبار إلى المأمون ولو لم تصح بالعدل ، ويقول

(١) المستطرف : ١ : ١١٢ . (٢) القصة المذكورة بطولها في الأغاني ١١٦ : ١٤ . وما بعدها .

(٣) الحيوان ٢ : ١٤٢ . (٤) ملهونور ٢١٥ .

صاحب الخبر : لو لم نرفع إلا ما يثبت بالمدلول لم يتبها ذلك في السنة إلا مرة أو مرتين ^(١) .

ودُعي محمد بن الحرث بن بُسْخُرٍ إلى الواثق في يوم لم يكن يُدعى فيه فقال : داخلني فزع شديد وخفت أن يكون ساعٍ قد سعى بي ، أو بلية قد حدثت في رأي الخليفة عليّ ، فقلعت بما أردت ^(٢) الخ ، وكانت النتيجة أن غناه فأمر له بعشرة آلاف درهم ونحو ^(٣)

ووثى رجل يقال له « الفضيل بن عمران » إلى أبي جعفر المنصور ، وكان المنصور جملة كاتب ابنه جعفر وولى أمره ؛ وثى به أنه يعيث بجعفر ، فبعث المنصور برجلين ، وأمرهما أن يقتلا الفضيل حيث وجداه ، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به وقال : لا تلغما الكتاب إلى جعفر حتى تفرغا من قتله ، فضربا عنقه . وكان الفضيل رجلا عفيفا ديناً ! فقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرأ الناس مما رمى به ، وقد مجلت عليه . فوجه رسولا رجلا له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ! فقدم الرسول قبل أن يحف دمه ، وقد استنكر ذلك جعفر وقال لمولاه سويد « ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف دين مسلم بلا جرم ولا جناية ؟ » فقال سويد : « هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو أعلم بما يصنع » الخ ^(٤) .

أنتجت هذه الحياة التي وصفنا من رفاحية قوم وبؤس آخرين ، ولمو قوم وجد آخرين ؛ حركتين ظاهرتين في تاريخ هذا العصر :

(أولاً) ظهور فرقة المتطوعة للنكير على الفساد ببغداد ، يقول الطبري في سبب ظهورهم : إن فساق الحريرية ^(١) والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ

(١) طيفور ٦٨ (٢) أغاف ٣ : ١٨٤ (٣) انظر الحكاية بطولها في الطبري ٩ : ٣١٧

(٤) الحريرية محلة في الجانب الغربي من مدينة بغداد نسبت إلى حرب بن عبد الله صاحب

حرس المنصور .

أَفْوًا للناس أذى شديداً وأظهروا الفسق ، وقطع الطريق ، وأخذ القلنان والنساء من الطرق ... لا سلطان يمنعهم ، ولا يَقْدَرُ على ذلك منهم ، لأن السلطان كان يعتزّ بهم ، وكانوا بَطَانَتُهُ فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه . فلما رأى الناس ذلك ، وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغي وقطع الطريق ، وأن السلطان لا يغير عليهم قام صلحاء كل ربض ، وكل درب فحشوا بعضهم إلى بعض « الخ .

وكان لهذه الحركة زعيمان ، لكل زعيم برنامج ، فأما أحدهما : وهو خالد الدريوش فبرنامجه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يثور على السلطان ، فهو يطلب الإصلاح ، ويتولاه في حدود الطاعة للحكومة ، والزعيم الآخر : سهل بن سلامة الأنصاري ، برنامجه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر كذلك ، والعمل بكتاب الله وسنته ، ومقاتلة من خالفه ، كأننا من كان ، سلطاناً أو غيره . ويقول الطبري : إنه تبهما خلق كثير وكان كل من أجاب سهلاً هذا عمل على باب داره برجا بمحصن وأجرّ ونصب عليه السلاح والمصاحف — وكان ذلك سنة ٢٠١ هـ ، سنة ٢٠٢ هـ وقد انتهى أمرهما بالقبض عليهما وحبسهما^(١) .

وظاهر أن الذي دعا إلى هذه الحركة كما يقول ابن خلدون « توافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكفّ عَادِيَتِهِمْ » وقد استمرت هذه الحركة تبدو حيناً وتُخمد حيناً ، فقد جاء بعدهم فرقة الجلبالة تدعو كذلك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يطول ذكره .

(ثانيتهما) حركة الزهد — ذلك أن قوما يتسوا من الفنى ، ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للتقرب من ذوى الجاه ، أو حاولوا ذلك فحشوا فليجشوا إلى القناعة يروضون أنفسهم عليها ، وقالوا : إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون !

(١) انظر الكلام عليهم في الطبري جزء ١٠ ص ٢٤١ و٢٤٨ ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٤ .

وقوماً عافت نفوسهم ما زأت من شهوات لا حذ لها ، ورأوا أن النفس
إذا نالت ما طمعت فتفتحت أمامها شهوات وشهوات ، وللوصول إلى كل شهوة
متاعب وعقبات ، ففضلوا أن يجمعوها ، وقالوا مع القائل :
وما النفس إلا حيث يجمعها الفتى فإن أهملت تأقت وإلا استتركت
أو مع الآخر :

والنفس راغبة إذا رَغِبَتْهَا . وإذا تَرَدُّ إلى قليل تَفْنَعُ
وقوماً يسوا من حب ، أو صُلِمُوا صدمة عنيفة في منصب أو جاه أو مال ؛
فلم يمحوا إلا الزهد يركنون إليه ويأمنون به ، ويتسلون به عما فقدوا .

وكثيراً زهلوا تدبينا لما في الزهد من خفة للثؤنة ، وسهولة الحساب ،
يقولون كما قال محمد بن واسع : « يعجبني أن يصبح الرجل وليس عنده غداء ،
ويسمى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راض عن الله » صرفوا نفوسهم عن
الشهوات ، وأكثروا من ذكر الموت والقبور ، وعدوا أنفسهم في الموتى ،
وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ورفضوا أن يملوا أيديهم لأخذ عطاء من خليفة
أو وال ، وقنعوا بالقليل ، كالذي فعل إبراهيم بن إسحق الحرابي ؛ عاش أكثر
عمره على كسر يابسة وملح ، وربما عدم الملح ، ورفض أن يأخذ ألف دينار
بعث بها إليه المعتضد ، وأنفق مرة في شهر رمضان كله درهما وأربعة دنانير
ونصفاً^(١) .

كل هذه الأصناف ؛ كان منها في العصر الذي توارخه . وكما كان بشار
وأبونواس وأضرابهما يمثلون نزعة اللهو ، ويضرمون نارها ؛ كان أبو العتاهية
يعتبر عن نزعة الزهد ، ويروى غلة الزاهدين . فإن قال أبو نواس في الدعوة
إلى اللهو :

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت جزء ١ .

جَرَيْتَ مَعَ الْمَوَى طَلَقَ الْجُحُوحَ وَهَلَفَ عَلَى مَا نُورُ الْقَبِيحِ
وَجَدْتُ أَلَدَّ عَارِيَةِ الْإِلَالَى قِرَانَ النِّعَمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ
وَمُسِمَّةً مَتَى مَا شِئْتُ غَنَتْ مَتَى كَانَ الْخِلَامُ بِذِي طُلُوحِ
تَمَتَّعَ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَسْقَى وَصَلَ بِمَرَى الْفَبُوقِ عَزَى الصَّبُوحِ
قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ : رَغِيضُ خَبِيزٍ يَابِسٍ تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ
وَكُوزُ مَاءٍ بَارِدٍ تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ
وَعَرْفَةٌ ضَمِيْقَةٌ نَفْسُكَ فِيهَا خَالِيَةٌ
أَوْ مَجْدٌ بِمَزَلٍ عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيَةٍ
تَدْرُسُ فِيهِ دِفْقَرًا مُسْتَدَلًّا بِسَارِيَةٍ
مُعْتَبِرًا بِمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ
خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي فِيهِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ
تُقَقِّبُهَا عَقُوبَةٌ تُصَلِّيُ بِنَارِ حَامِيَةٍ
فَهَذِهِ وَصِيْقِي تُخْبِرُهُ بِحَالِيَةٍ
طَوْبَى لِمَنْ يَسْتَمُهَا تِلْكَ لَعَمْرَى كَافِيَةٍ
فَأَسْمِعْ لِنُصْحِ مَشْفِقٍ يُدْعِي أَبَا الْعَتَاهِيَةِ

والناس يتنازعون أيهما أشعر ، أبو نواس أم أبو العتاهية ، وليسوا يفضلون أحدهما في الحقيقة استناداً على الناحية الفنية ؛ وإنما كلاهما يمثل نزعة خاصة ، وكل فريق يفضل من عبّر عن نفسه ، وجلى نزعته .

* * *

كان للحالة الاجتماعية التي ألمنا بها نتائج علمية وأدبية وفنية . من ذلك : أن غزارة الأموال في يد الخلفاء والولاة ومن إليهم ، ووفرة

عطائهم وقلة الأموال في يد سوام ؛ جعلت الفنون الجميلة ومنها الشعر ؛ لا تزهر إلا في أحضان الخلفاء ومن إليهم ، وتذبل في غير جوامعهم — قد كان من المقول أن يفيض شعور الرجل وتبجج عواطفه ، وتغلي نفسه ؛ فينطق بالشعر يهذي من شعوره ، ويخفق من غليانه ، لا يرجو من ذلك إلا إرواء لمعطته الفنية ، وهذا هو كل مطمح في الثواب ! وكان من المقول ؛ أن يحميد الفنان إشباعا لهنه الفني ، في قهر أو غنى ، ورخاء أو شقاء ؛ ولكن يظهر أن قليلا كان عندهم هذا السمو الفني ، وأكثرهم رأى أن قليلا من الفن وأبياتا من الشعر إذا لوحظ فيها ذوق المدوح — لا ذوق الفن — تدّر عليه من الأموال ما لا يحلم به ، وهو إذا أرضى عاطفته وفنه وعاش عيشة كفاف . فاندفع يطلب هوى الخليفة أو الأمير ، وسال السيل وجرى التيار كله ؛ إلا القليل النادر — نحو القصور ، يقفون بأبوابها الأيام والشهور ، حتى يؤذن لهم ، وأصبح الشراء والفتان أداة من أدوات الزينة ، وطرفة جملة تحلّ بها البور والقصور ، ولم في ذلك بعض العذر . فمن هؤلاء يرى من هو أقل منه — شعرا وفنا — يعمل بيتين أو ثلاثة في مدح أمير فينال عشرة آلاف درهم ، ثم تقوى نفسه وتسمو همته ويطرف عن أن يسلك مسلكه ويمرّ بجراه ؟ كذلك الشأن في الغناء ، يقول الأصمغاني : إن مجموع ما أخذ إبراهيم الموصلي من الرشيد كان أكثر من مائتي ألف دينار^(١) ، ولا تكاد تقرأ صفحة من الأغاني حتى تجد فيها شاعرا يمدح ، وألوا فتشج ! ومهما كان في هذه القصص من اللبالة فالأساس صحيح .

كان من نتائج هذا ؛ أن أصبح أكبر مجرى يصب فيه الشعر هو المدح ، وهو باب أبعد ما يكون — في نظرنا — عن الشعر الصحيح ، وتماقّب الشعراء يصوغون معانيه السائنة وغير السائنة ، حتى ارتشفوا آخر قطعة منها ، ينالوا

(١) أغاني ٥ : ٢٠ .

الأبواب الأخرى من وصف عاطفة سامية ، وتحليل لشعور بحال الطبيعة
وجمال الزهور ، وبحو ذلك لم تمس إلا مساً رقيقاً .

وكان من نتائج هذا أيضاً ؛ أن مؤرخ الأدب والقرن في هذا العصر يكاد
لا يؤرخ إلا العراق ، فأما مصر والشام والحجاز فأدبها أدب خفيف ، وقفها
لا يكاد يؤيده له ، وكل نايف في شعر أو فن لا يجد مشتقاً لسلفته إلا العراق .

ونرى أن الأدب أصبح يمثل هاتين النزعتين البارزتين خير تمثيل ؛ نزعة
اللهو ، ونزعة الزهد . فأما نزعة اللهو فما قيل في الخمر والنسب وما إليهما
وتجد ذلك في دواوين الشعراء أمثال أبي نواس ومسلم بن الوليد وفي كتاب
الأغاني . وأما نزعة الزهد ؛ فما قيل في اللوت والبخت والحساب ، وما قيل في
حياة الزهاد وما تورق قوالم وفعلهم . وعقدت الفصول الطوال تشرح
فضيلتهم وتروى حِكَمهم ؛ فرى الجاحظ في الجزء الثالث من كتاب
البيان والتبيين يضع كتاباً يُعَنتونه « كتاب الزهد » يقول في أوله ؛ « بُدَأَ
باسم الله وعونه بشيء من كلام التساك في الزهد ، وبشيء من ذكر أخلاقهم
ومواعظهم » وصارت هذه الأقوال والقصاص تغدّي هذا الطريق من الناس
الذين زهدوا في الحياة ، وأصبحنا نرى المؤلفين في الأدب بعده ينسجون على
منواله ، ويحطون باب الزهد رُكناً من أركان الأدب ؛ فابن قتيبة يُخصّص
« كذلك باباً للزهد في كتابه عيون الأخبار » وابن عبد ربّه في العقد الفريد
وعكذا . وتقرأ هذه الفصول فقراتها تمثل حياة هي على التقيض من اللهو .

أما العلم ، فقد كان هناك علمان : علم ديني ، وعلم دنيوي — إن صح هذا
التصنيف — فأما العلم الدنيوي من فلسفة وطب ورياضة وفلك ، فقد نما كذلك
في كتف الخلفاء والأمراء والأغنياء ، وقيل « أن تجد عالماً في ذلك العصر في علم
من هذه العلوم إلا كان له أمير أو غني يُؤيده بمعونه ، ولذلك كانوا — نسبياً —
في سعة من العيش .

أما العلم الديني : فقد كان الباعثُ عليه أخروياً غالباً ، فمما أزهَرَ خارج القصور أيضاً ، كعلم التفسير والحديث ، ومن أجل هذا أيضاً لم يكن نمو هذا النوع من العلم وإزهاره قاصراً على العراق ، بل تجده حيث الباعث الديني ، في كل قطر وكل إقليم ، فإذا أنت أرختَ لعلوم القرآن وعلوم الحديث ؛ أو علوم اللغة ، أرختَ لمصر والشام والحجاز كما أرختَ للعراق ، وتقرأ تراجم هؤلاء العلماء فترى في أكثرهم قفراً مدقماً ، وبؤساً واضحاً ، ورضى بالقليل ، وأمثلة ذلك لا تحصى .

وسياتى عند الكلام في الحركة العلمية وصف ما كان لهؤلاء العلماء من جدٍّ في طلب ، واحتمال نصّب ، وسفر بعيد ، في فقر شديد ، مما يدعو إلى الإعجاب ، ويعد التلّ الأعلّى للحياة العلمية .

الفصل السادس

حياة الزندقة وحياة الإيمان

كما قد رأينا في الفصل السابق ، حياة فيها لهو ومجون ، ونعيم ورفاء ، وحياة فيها جد وزهد وبؤس وشقاء ، نرى في هذا الفصل ألواناً أخرى من الحياة ، هي حياة القلب والمقل ، والماطفة والدين ، فنرى صراعاً بين الشك والزندقة والإلحاد ، وبين الإيمان الخالص والاعتقاد الصادق . ومحمّل إلينا ونحن نقرأ تاريخ هاتين الحركتين أننا في موقف قتال مُستحير ، ونُستخدم فيه كل وسائل الحروب ، فنخدع ومكايده ووسائل سرية أحياناً ، ولجوء إلى السيف وسفك للدماء أحياناً ، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحياناً ، ثم الحرب سجالاً ، يوم ينتصر فيه للحدود بما يثيرون من شكوك وأوهام ، وبما يضلّون من ناشئة وشبان . فإن عجزوا ظاهراً استعملوا طريق الفوارة سرا ، تحت مظهر

للتشيع ، أو النيرة على الإسلام أو نحو ذلك ، ويومّ ينتصر فيه المؤمنون فينكحون بالمعدين تنكيلا ، ويوقعون بهم قتلا وتشريداً ، ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ، ويبطالون حججهم .

ولكن لم يمتن المؤرخون في تسجيل هذه الحرب ووفائهما كما عنوا بتسجيل الحروب السياسية . إنما يعثر الباحث في ثنايا الكتب على تنف مبصرة ، قد يستطيع — في عناء — أن يؤلف منها وحدة ، ويكون منها سلسلة متصلة الحلقات . [الزندقة — : نلاحظ في هذا العصر الذي نؤرخه تردد كلمة « الزندقة » على الألسنة ، وكثرة اتهام الناس بها حقاً وباطلاً ، وتنبه الرأي العام إلى هذا المعنى تنبهاً دقيقاً ، فهم يسمعون شعر الشاعر فسرّعان ما ياتفتون إلى شيء فيه يهتمونه من أجله بالزندقة ، أو يرون فعلاً صدر من إنسان ، أو كلمة قالها جذاً أو هزلاً ، أو إشارة أشار بها فيرمونه بالزندقة^(١) .

ونحن إذا قارنا بين انتشار هذه الكلمة في العصر الأموي ، والعصر العباسي ، وجدنا استعمال الكلمة في العصر الأموي قليلاً نادراً ، وفي العصر العباسي فاشياً شائعاً ، فمثلاً اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة في العصر الأموي ، واتهم الوليد بن يزيد كذلك ، ولكن هذا قليل نادر ، أما في العصر العباسي فالأخبار بالزندقة مستفيضة ، وللتهمون بها كثيرون .

والسبب في ذلك : أن الزندقة في بعض معانيها — وهو الشك أو الإلحاد — إنما تترن عادة بالبحث العلمي ، وهو في العصر العباسي أبين وأظهر . ذلك أن العلم الذي كان شائعاً في العصر الأموي ، كان العلم الديني من تجميع للحديث ، وتفسير للقرآن الكريم ؛ واستنباط الأحكام الشرعية منها . وهذه لا تثير في النفوس شكوكاً تبعث على الزندقة ، إنما الذي قد يثير هذه الشكوك مذاهب

(١) بينا في فجر الإسلام الأقوال المختلفة في اشتقاق كلمة الزندقة فانظره ص ١٢٨ .

الكلام ، والمجدال الدني حول المسائل الأساسية في الأديان ، والبحث الفلسفي على النحو الذي يبعثه أرسطو وأفلاطون في السادة والصورة ، والجزء الذي لا يتجزأ والجوهر والعرض ، وما إلى ذلك . وهذه الأشياء كانت قليلة في العصر الأموي ، وهي وفيرة جداً في العصر العباسي .

وسبب ثان هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم ، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية إلى يد أخرى هي يد العباسيين . ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها . ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمكن ، وخفية إذا لم يمكن ، فكان من ذلك فسو الزندقة .

يضاف إلى ذلك أن الدولة الأموية — كما قدمنا — كانت دولة العرب فالحكم في أيديهم وللكلمة لهم ، وولايتهم ورجالهم عرب والموالي أذلاء مضطهدون . والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً ولا تميل إليها ، فهم مطمئنون إلى ملكهم وإلى دينهم . فلما أتت الدولة العباسية انتعش للموالي وخاصة الفرس ، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم ، وغلبوا على العرب ، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعها لما اعتنقوا الإسلام ، وكانوا لا يجرمون في الحكم الأموي أن ينسوا بكلمة ، وكان همهم الأول أن يتحرروا سياسياً لا دينياً . فكانت دعواتهم السرية واجتماعاتهم وتداييمهم للسياسة لا للدين . والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة ، فلما نجحوا وطمانوا وغلبوا بدأت تلعب في رموسهم الديانات القديمة والجديدة فكانت الزندقة .

نرى اسم الزنادقة مقروناً بالمُجَان في عهد أبي جعفر المنصور ، فيذكر الطبري : « أن للنصور وجه مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمجان ، فكان فيهم حماد عجرد ، فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون ، وإنما أراد بذلك أن

يَبْتَغِضُهُ إِلَى النَّاسِ»^(١). وكان محمد بن أبي العباس مرشحاً للخلافة، فأراد من إحاطته بالزنادقة والجان أن يكرهه الناس، فيتسنى له أن يرشح ابنه المهدي، ولعل ذلك كان سبباً في لفت نظر المهدي إلى الزنادقة، فقد كان قريباً محمد ابن أبي العباس منهم مُبْعِداً له عن الخلافة، فليَتَقَرَّبْ هو إلى الله وإلى الناس باضطهادهم!

على كل حال لم يعرف عن المنصور إسماعيل في اضطهادهم، وكانت سياسته — على ما يظهر — قمع الفتن الظاهرة فقط. فلما جاء المهدي كان من أظهر المسائل في تاريخه؛ تفككه بالزنادقة والفحوص عنهم، فقد عَيَّن رجلاً وَكَّلَ إليه أمرهم سماه «صاحب الزنادقة» يقول في الأغاني: «لما نزل المهدي البصرة كان معه حدو به صاحب الزنادقة فدفع إليه بشاراً، وقال: اضربه ضرب التلف»^(٢).

وقال في موضع آخر: «أمر المهدي (عبد الجبار) صاحب الزنادقة فضرب بشاراً»^(٣) وهذه أول مرة نسمع فيها بتعيين رجل خاص يعهد إليه أمرهم، يبحث عنهم، وينسكل بهم. ويقول الطبري في حوادث سنة ١٦٧: «وفيها جدّ المهدي في طلب الزنادقة، والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم، وولى أمرهم «عمر الكلواذي»»^(٤).

ويقول المسعودي في المهدي: «إنه أَمِنَ في قتل الملحدين والمداهنيين. عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لِمَا انتشر من كتب ماني، وابن ديسان»^(٥) ومرتقون، مما نقله عبد الله بن القنق وغيره، وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء^(٦) وحماد عمرد، ويحيى بن زياد، ومطيع ابن إلياس من تأييد المذاهب المانوية

(١) طبري ٩ : ٣٠٨ (٢) أغاني ٣ : ٧٣ (٣) أغاني ٣ : ٧٢
(٤) طبري ١٠ : ٩ (٥) في الأصل ابن دميان (٦) في الأصل ابن العرجاء.

والديصانية^(١) والمرقونية . فكثير بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجذليين من أهل البحث من التكتلين بتصنيف الكتب (في الرد) على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على الماندين ، وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين^(٢) .
 إذن قام المهدي بعملين نحو الزنادقة ، إنشاد إدارة للبحث عنهم ومحاسنتهم ، وإنشاء هيئة علمية لمناظرتهم ، وتأليف الكتب للرد عليهم .

وعلى الجملة ، فقد كان المهدي شديد الاهتمام بهذه الفئة ، حتى لم ينس أن ينصح ابنه إذا قُذِّ الأُمر أن يتكلم بهم ، فالطبري يذكر : « أن المهدي قال لموسى — (هو ابنه الهادي) يوماً وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه — : يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعني أصحاب ماني — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهرين حسن كاجتناب الفواحش ، والزهدي في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الحوام تحرجاً وتحوبا ، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاعتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فأرفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأسرها إلى الله لا شريك له ؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدي بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين » فقال موسى — بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر — : أما والله لئن عشت لأقتل هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عيلاً تطرف . ويقال إنه أمر أن يُهتَبَأَ له ألفُ جذع . فقال هذا في شهر كذا ، ومات بعد شهرين^(٣) .

وقد أنفذ الهادي وصية أبيه ، فكان يقتل الزنادقة . وروى الطبري في

(١) في الأصل الديصانية . (٢) المسمى ٢ : ٤٠١ (٣) طبري ١٠ : ٤٢ .

حوادث سنة ١٦٩ : أن الهادي اشتد هذه السنة في طلب الزنادقة ، فقتل منهم فيها جماعة ، فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه علي بن يقطين من أهل التهروان . ذكر عنه أنه حج ففطر إلى الناس يهرولون في الطواف فقال : ما أشبههم إلا بيقر تدوس في البئير . وله يقول الغلاء ابن الخدّاد الأعمى :

أيا أمينَ الله في خلقه ووارثَ الكعبةِ واللبز
ماذا ترى في رجلٍ كافرٍ يشبهُ الكعبةَ بالبئير^(١)
ويحملُ الناسَ إذا ما سقوا حُمراً تلوسُ البرَّ والدَّوسرَ^(٢)
فقتله موسى ثم صلبه^(٣) .

ولما ولي هرون الرشيد ، سلك سبيل من قبله من الخلفاء في تعقب الزنادقة فيحدثنا الطبري في حوادث سنة ١٧١ : أن الرشيد في هذه السنة آمن من كان هارباً أو مستخفياً ، غير نفر من الزنادقة منهم يونس بن فروة ، ويزيد ابن الفيض^(٤) .

حتى للمأمون بلغه خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة ، يذهبون إلى قول « ماني » ويقولون بالنور والظلمة ، فأمر بحملهم إليه بعد أن سُئِمُوا واحداً واحداً ، فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيختبرونه بالإسلام فيمتحنهم بأن يُظهر لهم صورة ماني ، ويأمرهم أن يتفلقوا عليها ، ويتبرعوا منها ويأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرج ، وقد أبوا ذلك فقتلهم^(٥) .

وفي عهد المتعصم ؛ كانت حادثة عظمى في تاريخ الزندقة . وهي محاكمة « الأفتشين » (قائد جيوش المتعصم) فإنه لما شق عصا الطاعة اتهم بالزندقة

(١) ييدر الطعام كومة والبئير موشه التي يداس فيه .

(٢) الدوسر فبت حبه الزوان التي في الحنطة .

(٣) طبري ١٠ : ٢٣ . (٤) طبري ١٠ : ٥ . (٥) المسعودي ٢ : ٢٤٩ .

وأُلفت محكمة لحاكمته كان من أعضائها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحد بن أبي دواد وقد اتهم الأفشين بجملة تهم :

١ — أنه عمد إلى رجلين كانا قد وَجِدَا بيتًا فيه أصنام — في اشروسنة — فأخرجها الأصنام منه ، وحولاه مسجداً ، وصار أحدهما إماماً للمسجد والآخر مؤذناً ، فضربهما الأفشين كلًّا ألف سوط حتى عريت ظهورهما من اللحم .

وقد دافع عن نفسه ، بأنه كان بينه وبين ملوك السُّنْد عهد أن يترك كل قوم على دينهم ، فكان عملُ الإمام واللُّؤُن تمدّياً على ما التزمه من حرية الأديان .

٢ — واتهم كذلك بأنه عُثِرَ في بيته على كتاب قد زين بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله .

وردّ على هذه التهمة بالإقرار بها ، وأنه ورث الكتاب عن آبائه ، والكتاب فيه أدب من آداب الحج ؛ وفيه كفر ، فانتفع بما فيه من أدب وترك ما فيه من كفر ، ولم يكن بحاجة إلى مال حتى يجرّد الكتاب من حيثته ، وليس شأن الكتاب بعد ذلك إلا شأن كتاب كلبية ودمغة وكتاب مزدك . وما في منازل القضاة ، لم يعترض عليهما معترض !

٣ — واتهم أيضاً بأنه كان يأكل الخنوقة ، ويَزعم أنها أرطب لحا من المذبوحة ، وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء ، يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفها ويأكل كل لحما .

وقد ردّ على هذا بأن من شهد عليه بهذه الشهادة ، يعترف خصومه بأنه ليس ثقة ولا مُعَدِّلاً ، وليس بين منزل الشاهد ومنزل الأفشين باب أو سكوّة يطلع عليه منها ويعترف أخباره .

٤ — واتهم بأن أهل مملكته كانوا يكتبون إليه باللغة الأشروسنية ما تفسره بالمرية إلى إله الألهة ، مِنْ عَبْدِهِ فلان بن فلان : فإذا أبقى بعدُ لقرعون إذ يقول « أنا ربُّكم الأعلى ! » .

وقد أجاب بأن هؤلاء القوم كانوا يكتبون لأبى وجدى كذلك ، ولى قبل أن أدخل فى الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم ، فتفسد على طاعتهم .

٥ — واتهم — خامسا — أن أخاه كتب إلى « قوهيار » إنه ليس من ينصر هذا الدين الأبيض (يريد المجوسية) إلا أنا وأنت وبأبك — فأما بابك فقد قتل نفسه بحمقه ، فإن خالقت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل الصلدة والباس ، فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب ، والمغاربة ، والآثراك . والعرب بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة ، ثم أضرب رأسه بالذؤوس . وهؤلاء الذباب يعنى للمغاربة إتمام أكلة رأس ، وأولاد الشياطين — يعنى الآثراك — فإتماهى ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول عليهم الخيل جولة ، فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم .

وخلاصة هذه التهمة العظمى محاولته قلب المملكة الإسلامية ، وبحو الخلافة ، وعمر الدين الإسلامى ، وإعادة المملكة العجمية كما كانت ، بلفتها ودينها وسلطانها .

وقد أنكر هذا الكتاب وقال إن عمل أخيه لا يلزمه ولو صح لكانت هذه حيلة منى أريد أن أستميله حتى يثق بى ، ثم آتى به الخليفة لأحظى به عنده .
٦ — واتهم أيضا بتهمة ترك الاختتان .

قال إنه خاف أن يقطع ذلك من جسده فيموت ، وما علم أن فى ترك الاختتان الخروج من الإسلام .

فرّد إلى الحبس ، ومنع عنه الطعام والشراب إلى أن مات ، ثم صلب ، وأحرق بالنار^(١) . وقد مدحه أبو تمام أولاً بمدائح كثير منها :

(١) انظر محاكمته فى الطبرى ١٠ : ٢٦٤ وابن الأثير ٦ : ١٩٠ وتاريخ ابن خلدون .

قد لبس الأفشين قسطة الوغي محشاً يتصل السيف غير مؤاكل^(١)
وجرد من آرائه حين أضمرت به الحرب حذاً مثل حذ الناصل
وسارت به بين القنابلي والقنا عزائم كانت كالتقا والتقابل^(٢)
وقد ظللت عينان أعلامه ضحى يعقبان طير في الدماء نواهل
ترأه إلى الهيجا أول راكب وتحص صبير اللوت أول نازل^(٣)

فلما صلب وأحرق عاد فذمه في قصيدة طويلة منها :

قد كانت بوائه الخليفة جانباً من قلبه حرماً على الأقدار
فاذا ابن كافرة يسره بكفره وجداً كوجد قزذتي بنوار

ومنها :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اضطلق سير الزناد الواري
ناراً يساور جسده من حرها لهب كما عصفت شق لزار
طارت لها شعل يهدم لقعها أركانها هدماً بغير غبار
فصلن منه كل تجمع مفصل وقطن فاقرة بكل قمار^(٤)
مشوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوئها للشاري
صلى لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الفجار
يا مشهداً صدرت بفرحتي إلى أمصارها للقوى بنو الأمصار
رمقوا أعالي جذعه فكانما وجدوا الهلال عشية الإفطار

(١) المحش : الحديدة تحش بها النار أي تحرك ، ويقال هو محش حرب أي شجاع .

(٢) القنابل : جمع قنبل ، اللوائف من الناس ومن الخيل (٣) السير : السحاب المتراكم .

(٤) الفاقرة : الداحية ، والفقار جمع قنطرة ، وهي عقدة الظهر .

ويقول التبريزي : « لم يكن الأفشين كافراً ولا منافقاً ، وإنما كان رجلاً من الفرس اصطفاه المعتصم لحسن جلأته وخدمته ، واعتمد عليه في مهام أموره ، حتى وَكَّلَ إليه مقاتلة بآبِكَ أَنْطَرْمِشٍ فضى إليه في ألوف وأسر . . . غير أن الحساد أفسدوا ما بينهما ، فذكروا للمعتصم : أنه منطو على خلافك وقالوا للأفشين : إن المعتصم قد عزم على القبض عليك ، فانقبض عنه خذراً من القبض عليه ؛ فتحقق المعتصم — باقياضه — ما كان أخبر به عنه ، فأخذه وأحرقه وصلبه . وقيل إن السبب في ذلك هو ابن أبي دُوَادٍ لأمر جرى بينهما . وليس هنا موضع تحقيق ما اتهم به الأفشين فحل ذلك البحث التاريخي . وإنما يهنا هنا منظر الزندقة ، وما وَجَّه إليه من التهم وطريقة محاكمته .

* * *

وبعد ، فإذا كان يفهم من كلمة « الزندقة » في هذا العصر الذى نؤرخه ، وماذا يمتنون عند ما يتهمون رجلاً بالزندقة ، وماذا كان الباعث عليها ؟ الحق أن كلمة « الزندقة » لم يكن معناها واحداً عند الناس على السواء . فمنها في أذهان الخاصة والعامة ؛ غير معناها في أذهان العامة .

فأما العامة وأشباههم فكأنوا يطلقون على المستهتر الماخن « زندقاً » فإبراهيم بن سَيَّابة الشاعر كان يرى بالزندقة ، ولم يكن يعرف عنه قول في الدين ، إنما كان يعرف عنه أنه كان خليعاً ماجناً . طيب النادرة ، يحب الغلمان ويحبه المَجان^(١) ، وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز ؛ اتهم بالزندقة لأنه كان خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب ، يشرب الخمر فيفرط في شربها ، وتجري على لسانه — وهو سكران — أبيات فيها تمسّاس بالدين ، كأن يقول :

(١) النظر الأغانى جز ١١ ص ٧ .

اسقنى واسقى خليلي في مَدَى الليل الطويل
 لَوْنُهَا أَصْفَرُ صَافٍ وَهِيَ كَالسَّكِّ الْقَتِيلِ
 فِي لِسَانِ الْمَرْءِ مِنْهَا مِثْلُ طَعْمِ الزَّنْبِيلِ
 رِيحُهَا يَنْفَحُ مِنْهَا سَاطِعًا مِنْ رَأْسِ مِيلِ
 مَنْ يَتَلَّ مِنْهَا ثَلَاثًا يَنْتَسِ مِنْهَا جَ السَّيْلِ
 فَتَقَى مَا نَالَ نَحْسًا تَرَكَهُ كَالْقَتِيلِ
 لَيْسَ يَدْرِي حِينَ ذَاكَ مَا دَعِيْرٌ مِنْ قَبِيلِ
 إِنْ سَمِعَ عَنْ كَلَامِ السَّلَامِيِّ فِيهَا الثَّقِيلِ
 لَشَدِيدُ الْوَقْرِ إِيَّايَ غَيْرُ مِطْوَاعِ ذَلِيلِ
 قُلْ لِمَنْ يَلْحَاكَ فِيهَا مِنْ قَعِيهِ أَوْ نَبِيلِ
 أَنْتَ، دَعَهَا وَارْجُ أُخْرَى مِنْ رَحِيْقِ السَّائِلِ
 تَعَطَّشَ الْيَوْمَ وَتَشْقَى فِي غَدْنَتِ الطَّوْلِ
 وَكَانَ يَقُولُ: اسقنى واسقى غصينًا لَا تَبِيعَ بِالْقَدِّ دَيْنًا
 اسقنيها مُرَّةَ الطَّسْمِ تَرِكَ الشَّيْنِ زَيْنًا

ومن أجل ذالِ شُرْبِهِمْ بِالزُّنْدَقَةِ ، فَيُلْخِذُهُ لِلْهَدْيِ وَيَضْرِبُهُ ثَلَاثَةَ سَوَاطِلَ
 أَنْ يَقْرَ بِالزُّنْدَقَةِ فَيَقُولُ : وَاللَّهِ مَا أَشْرَكْتُ بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَمَتَى رَأَيْتَ قَرْشِيَا
 تَزُنْدَقُ ؟ وَلَكِنَّهُ طَرَبٌ غَلَبَنِي وَشِعْرٌ طَفَحَ عَلَى قَلْبِي ، أَنَا فَنِي مِنْ خَتِيَانِ
 قَرِيشَ ، وَأَشْرَبُ النَّبِيذِ ، وَأَقُولُ مَا خَلْتُ عَلَى سَبِيلِ الْخُجُونِ ، ثُمَّ هَرَجَ الشَّرْبِ
 وَالْخُجُونِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرَى الشَّرْبَ ^(١) وَالشَّرَابَ وَيَقُولُ :
 شَرِبْتُ فَلَمَّا قِيلَ لَيْسَ بِنَزَاعٍ نَزَعْتُ وَتَوْبَى مِنْ أَذَى اللُّؤْمِ طَاهِرًا ^(٢)
 فَتَرَى أَنَّ « آدَمَ » لَمْ يَتَزُنْدَقْ زُنْدَقَةً عِلْمِيَّةً ، وَإِنَّمَا غَلَبَهُ الشَّرْبُ فَتَطْلُقُ بِقَوْلِ
 فِيهِ هُجْرٌ ، فَاتَّهَمَهُمُ بِالزُّنْدَقَةِ ، عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْعَامِي الشَّائِعِ .

(١) الشرب يفتح الشين : القوم يشربون . (٢) انظر الأغانى ١٤ : ٦٠ و ٦١ .

والواقع أن كثيراً من الشعراء في ذلك العصر أفرطوا في دعوة الناس إلى
التفجور والإباحة ، وخلهم على الاستهتار . ولم يكتفوا أن يدعوا إلى ما يدعون
إليه من غير تعرض للدين ، بل تعرضوا له أحياناً ، وأخذوا يمجرون بأقوال
فيها تهكم ، وفيها سخرية . فيسخرّون من يقول بتعزيم الخمر ، ويسخرّون ممن
يخوف بالنار ، وممن يذكر يوم البعث وما فيه من حساب ، فيقول بشار :
لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِنْ كُنَّا كَذَا أَبَدًا لَا نَلْتَقَى وَسَيِلُّ اللَّتَقَى نَهْجُ
قَالُوا : حَرَامٌ تَلَاقِينَا ! فَقُلْتُ لَهُمْ مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةِ حَرْجٍ !
وبدأ هذا النوع خفياً ، ثم أخذ يشتد حتى وصل إلى ضرب من الإلحاد ،
وكان من أشدّم في ذلك أبو نواس كأن يقول :

وَمُلِحَّةٌ بِالْقَوْمِ تَحْسِبُ أَتَقَى بِالْجَلِّ أَوْزُرُ صُجْبَةَ الشُّطَارِ
بَكَرْتُ عَلَى تَلَوْنِي فَأَجِبْتُهَا إِنِّي لَأَعْرِفُ مَذْهَبَ الْأَبْرَارِ
فَدَعَى التَّلَامُ فَقَدْ أَطْعَمْتُ غَوَائِي وَصَرَفْتُ مَعْرِفِي إِلَى الْإِنْكَارِ
وَرَأَيْتُ اثْنَانِ الذَّاذَةَ وَالْمُحَوِّ وَتَعَجَّلَا مِنْ طَيْبِ هَذِي الدَّارِ
أُخْرَى وَأَحْزَمَ مِنْ تَنْظُرِ آجِلٍ عَلَيَّ بِهِ رَجْمٌ مِنَ الْأَخْبَارِ
مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخَبِّرُ أَنَّهُ فِي جَنَّةٍ مَنْ مَاتَ أَوْ فِي النَّارِ !
ويقول :

يَا نَظْرًا فِي الدِّينِ مَا الْأَمْرُ لَا قَدَرُ صَحَّ وَلَا جَبْرُ ؟
مَا صَحَّ عِنْدِي مِنْ جَمِيعِ الَّذِي تَذَكَّرُ إِلَّا لِلْوُتِّ وَالْقَبْرِ
ويقول :

قُلْتُ وَالْكَأْسُ عَلَى كَفِّي تَهْوِي لِأَنْثَى
أَنَا لَا أَعْرِفُ ذَلِكَ الْيَوْمَ فِي ذَلِكَ الزَّحَامِ^(١)
على أن بعض هؤلاء الشعراء الذين تردّ على لسانهم هذه الأقوال

(١) نقلت هذه الأبيات من الموشح ص ٢٧٧ وما بعدها ، والرواية بين التثنية وعصومه
لقناني عبد العزيز الجرجاني ص ٥٧ وما بعدها ، ويجد فيها أسئلة كثيرة من هذا النوع .

وأمثالها ؛ كانوا يقولونها وهم مطمئنون إلى دينهم ، ولكن غلبهم الطرب ، وجرى الشعر على لسانهم فحزرك بمثل هذا ، وذلك مثل الذى ورد من شعر آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .

والذين كانوا يستمعون لهذا القول ؛ يختلفون فيما بينهم ، فطائفة تستخط لمثل هذا ، وتحكم على فائله بالإلحاد والخروج من الدين ، وطائفة لا ترى هذا جدًّا من القول ؛ وإنما هو نوع من أنواع التملح ، لم يُقَلْ إلَّا على سبيل الفكاهة والمجون ، وعلى هذا الأساس الأخير شاع فى ذلك العصر وصف الزنديق بالظرف . فأبو نواس يصف العباس بن الفضل بن الربيع فيقول :

نَدِيمُ كَأْسٍ مَحْدَثُ مَلِكٍ تَبِيَهُ مُعْنٍ وَظَرْفُ زِنْدِيقٍ

بل شاع اتهام بعض الناس بأنه لا يتزندق عن عقيدة ، وإنما يتزندق ليشتهر بالظرف ، فى الأغاني : أن محمد بن زياد كان يظهر الزندقة تظاهراً ، فقال فيه ابن مَنَازِر :

يَا ابْنَ زِيَادٍ ، يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَظْهَرْتَ دِينًا غَيْرَ مَا تُخْفِي
مَزْنَدَقَ الظَّاهِرِ بِاللَّفْظِ فِي بَاطِنٍ إِسْلَامٍ فَقَى عَفًى
لَسْتَ بِزِنْدِيقٍ وَلَكِنَّا أَرَدْتَ أَنْ تُوسَمَ بِالظَّرْفِ أ^(١)

وقال غيره :

تَزْنَدَقُ مُمَلِّكًا لِيَقُولَ قَوْمٌ إِذَا ذَكَّرُوهُ زِنْدِيقُ ظَرِيفٌ
قَدْ بَقِيَ الزَّنْدَقُ فِيهِ وَسَمًا وَمَاقِيلُ الظَّرِيفُ وَلَا اللَّطِيفُ أ

(١) أغاني جزء ١٧ : ١٥ .

وعلى الجملة فالزندقة بهذا المعنى — معنى التهتك ، ثم التدرّج فيه إلى الخروج عن الدين أحياناً بألفاظ ماسة ، ثم المغالاة في ذلك إلى أقوال فيها معنى الإلحاد لا عن نظر وتفكير . كل هذا كان شائعاً فاشياً ، وكل هذا كان معنى « الزندقة » في أذهان العامة وأشباههم ، وعلى هذا المعنى قالوا : « إن علامة الزندقة شرب الخمر ، والرشا في الحكم ، ومهر البغي »^(١) .

وهناك معنى آخر للزندقة ، كان يفهمه الخاصة وأشباههم . ويؤمنون به اعتناق الإسلام ظاهراً ، والتدينّ بدين الفرس القديم باطناً ، وخاصة مذهب ماني . ذلك أنه كان في ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالإسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورأت أن لا سبيل لتئيل الجاه والسلطان والمال إلا بالإسلام فاعتنقته ظاهراً ، وظلّت تخليص لدينها القديم ، وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا ؛ إذ رأوا أنهم لا يستطيعون إفساد العقيدة الإسلامية إلا بالاتساق إليها أولاً حتى يؤمن بجانبهم ، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد ينفقون تعاليمهم على أشكال مختلفة ؛ طوراً في العلم والدين ، وطوراً في الأدب ، وطوراً في وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يُعثر على بعضهم فينكّلُ بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحياناً يعملون أفراداً ، وأحياناً يعملون جماعات ، وعصرنا الذي نؤرخه مملوء بهذه الأمثال ، فبعد الكرم بن أبي العوجاء يتّهم بالزندقة ، ويفسد أحاديث رسول الله بما يضع فيها ، ويقرّ حين يقتله المنصور ، بأنه وضع أربعة آلاف حديث مكنوب مصنوع^(٢) ، وحماد الراوية يفسد اللغة والأدب بما يعمل من شعر يضيفه إلى الشعراء المتقدمين ، ويدسه في أشعارهم « حتى أن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حماد الشعر لأنه كان رجلاً يتقدّر على صنمته فيدس في شعر كل

(١) المقد الفريد ١ : ١٨٧ (٢) أمالي المرتضى ١ : ٨٩ .

رجل ما يشاكل طريقته»^(١)، وصالح بن عبد القدوس يدس في الأشعار معاني زندقة، ويونس بن أبي فروة يعمل كتاباً في مثالب العرب، وعيون الإسلام بزعمه، ويصير به إلى ملك الروم فيأخذ منه مالا^(٢).

هؤلاء وأمثالهم كانوا يتزندقون تزندقاً علمياً؛ فهم يدينون بماني أو مزدك، ويؤمنون بالنور والظلمة، وبعبارة عامة يدينون بدين الجحوس عن علم، ثم يتظاهرون بالإسلام تقيّة، أو توسلاً إلى إضلال الناس. ويدل على هذا المعنى الخاص ما رواه الأغاني أن بشاراً هاجم حماد مجرد فقال:

يا ابن نهجى، رأس على قهيل واحتمل الرأسين أسراً جليل
فادع غيرى إلى عبادة ريتني فإني بواحد مشغول
فقال حماد: ما يفيظني من بشار إلا تجاهله بالزندقة، يوم الناس أنه يظن
أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرضها، لأن هذا قول تقوله العامة
لا حقيقة له، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني^(٣)

ويقول أبو نواس: كنت أتوهم حماد مجرد إنما يرى بالزندقة لجونه في شعره
حتى حبست في حبس الزنادقة، فإذا حماد مجرد إمام من أئمتهم، وإذا له شعر
مزاج بيتين بيتين، يقرءون به في صلاتهم^(٤).

اشتهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون، منهم الحمادون الثلاثة: حماد مجرد،
وحامد الراوية، وحامد بن الزبيرقان، وبشار بن برد، وابن القنق، ويونس
ابن أبي فروة، ومطيع بن إياس، وعبد الكريم بن أبي الموجه، وصالح بن
عبد القدوس، وعلي بن الخليل، وابن منذر. ونجد في ترجمتهم في الأغاني

(١) المصدر نفسه ١ : ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ٩٠ .

(٣) أغاني ١٣ : ٧٦ .

(٤) أغاني ١٣ : ٧٤ .

وغيره ضرويا من القصص توضح زندقته ، وكان بين بعض هؤلاء وبعض صداقة ووداً أحيانا ، وهو وتنازراً أحيانا .

والذي تلاحظه أن أكثر من ذكرنا موالٍ من الفرس ، وذلك طبعى ، فإن الزندقة بهذا المعنى تستر وراءها ديانة مجوسية من ديانات الفرس ، فطبعى أن يزرع إليها من كان أصلهم مجوساً . ومع هذا فإننا نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة ، مثل الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ^(١) . وكالذى روى الطبرى من أن المهدي أتى بداود بن على ، ويعقوب بن الفضل ابن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ؛ وقد اتهما بالزندقة فأقرأ له بها ^(٢) . ولكن كانت الزندقة فى العرب على العموم نادرة ، وأكثر من اتهم بها كانت زندقته بالمعنى الأول ، وهو التهلك والفجور ، أو كان اتهامهم شركا من الشرك التى تنصب من أجل خصومة سياسية .

وقد اشتهر بهذا النوع من الزندقة طائفة من الكتاب ، كان أكثرهم كذلك من أصل فارسى ، وقد أخذوا من كل علم بطرف ، ولم يعمقوا فى علم ، وأمعنوا فى الغرور بأنفسهم فكثرت زندقته . ويقول الجاحظ : « والناسى منهم (من الكتاب) إذا حفظ من الكلام فتية ^(٣) ، ومن العلم ملحة ، ورؤى لئزر جهر أمثاله ، ولا ردشير عهده ولعبد الحيد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مذكّر معدن علمه ، ودقتر كليله ودمنة كنز حكته « توتم » أنه القصاروق الأكبر فى التدبير ، وابن عباس فى العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وعلى بن أبى طالب فى المرأة على القضاء

(١) انظر زندقتهما فى الألفاظ ١١ : ٧٥ وما بعدها .

(٢) طبرى ١٠ : ٢٢ -

(٣) الفتيق . الجزل البين .

والأحكام ، وأبو الهذيل المَلّاف في الجر والطفرة ، وإبراهيم بن ستيار
النظام في الكُمانات والمجانسات ، وحسين النجار في العبادات والقول
بالإثبات والأصمى وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب . فيكون
أول بُدْوَه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ؛ ثم يُظهر فيه
ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، فإن استرجع أحد أصحاب
الرسول قتل عند ذكرهم شِدْقَه ، ولوى عن محاسنهم كَشَحَه ، وإن ذكر
شُرّج جرحه ، وإن نُمت له الحسن استغفله ، وإذا وُصف له الشعبي استعصمه ،
ثم يقطع ذلك من مجاسه بَسِياسة أردشير بابكان ، وتديير أنوشروان ،
واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حذر العيون ، وتفقد السامون ، رجع
بذكر السنن إلى المعقول ، ومُحكم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى ما لا يُدرك بالعيان ،
وشبه بالشاهد الغائب ، لا يرتضى من الكتب إلا المطلق هذا هو
للسهور من أفعالهم والوصوف من أخلاقهم ^(١) .

وأحياناً تطلق كلمة الزنادقة على أتباع ديانة الفرس ، من غير أن يفتحلوا
الإسلام . ونرى هذا الاستعمال أحياناً في كتاب الحيوان للجاحظ فهو يقول :
وكان لهؤلاء الزنادقة كتب أجود ما تكون ورقاً ، يكتب عليه بالخبر
الأسود البراق ، ويستجاد له الخط ^(٢) . « وأن كتبهم لا تفيد علماً ولا حكمة ،
وليس فيها مثل سائر ، ولا خبر ظريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة
ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية . . . وجل ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح
الشياطين ، وتسافد الغفاريات ، وذكر الصنديد ، والتهويل بممود الصبح » ثم يذم
كتبهم ، ويستخِفُّ بمعانيها ^(٣) .

ويقول : إن هؤلاء الزنادقة أثروا في بعض الناس ، وخاصة في ناس من

(١) ثلاث رسائل الجاحظ ص ٤٢ . (٢) حيوان ١ : ٢٨ . (٣) حيوان ١ : ٢٩

الصوفية والنصارى ؛ فكانوا يرفضون الذبائح ، ويُبغضون إراقة الدماء ،
 ويزهنون في أكل اللحوم . ويقول : إن قوما ممن ينتحل الإسلام يظهرون
 التقدر من الصيد ، ويرون أن ذلك من القسوة ، وأنه يُسلم إلى التهاون بدماء
 الناس . والرحمة شكل واحد ، ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الظبي . ومن لم
 يرحم الظبي لم يرحم الجدى ، ومن لم يرحم المصفور لم يرحم الصبي . وصغار
 الأمور تؤدي إلى كبارها ، يضاهون في ذلك سبيل الزنادقة^(١) .

وهناك معنى آخر للزندقة يستعمله الجاحظ وغيره أحياناً ، يطلقونه على قوم
 جحدوا الأديان كلها عن نظر ، ففى بهذا المعنى مرادفة للدهرية والإلحاد قال
 أبو العلاء في رسالة الففران : « والزنادقة هم الذين يُسمّون الدهرية لا يقولون
 بنبوّة ولا كتاب » .

وعلى هذا المعنى يروى الجاحظ : « أن الزندقة فشت في النصارى »^(٢)
 والظاهر أنه يريد بذلك الشك ونحوه .

من هذا كله يظهر أن كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد ؛ وإنما كانت
 تطلق على معان أربعة :

١ — التهلك والاستهتار والفجور مع تبجح في القول ، يصل أحياناً إلى
 ما يمس الدين ؛ ولكن قائله لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون .

٢ — اتباع دين الجبوس . وخاصة دين ماني مع التظاهر بالإسلام ؛ كالذي
 اتهم به الأفسشين ، والذي اتهم به بشار وحجاد وابن المقفع .

٣ — اتباع دين الجبوس ، وخاصة « ماني » من غير تظاهر بالإسلام ، كالذي
 يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة .

٤ — ملحدون لا دين لهم ؛ كالذي يحكيه للمري ، ولكن يظهر أن الكلمة
 — أكثر ما كانت — تطلق على من اعتنق المانوية باطنياً والإسلام ظاهراً ، ثم

(١) حيوان ٤ : ١٣٦ ، ١٣٧ . (٢) ثلاث رسائل الجاحظ ص ١٧ .

توسموا في معناها فأطاعوها على الإباحي ، ولللحد الذي لا دين له .

* * *

على كل حال فشت الزندقة بمعانيها المختلفة في هذا العصر ، وقد عدّ أبو العلاء من الزنادقة في رسالته الغفران : « الوليد بن يزيد الخليفة الأموي ، ودعبل الشاعر ، وبشاراً ، وأبا نواس ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبا مسلم النخعاساني مؤسس الدولة العباسية ، وبابك ، والأفشين ، والحلاج الصوفي ، وغيرهم . فيقول في دعبل : « وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ؛ وإنما غرضه التكسب ، ولا أرتاب في أن دعبل كان على رأى الحكيم » « أبي نواس » وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ، ومن ديارهم ناشية » . ويقول : « وقد اختلف في أبي نواس ادّعى له التأله ، وأنه كان يقضى صلوات نهاره في ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه » .

وكان من الطبيعي أن يكون في هذا العصر زنادقة دعاهم إليها دواع مختلفة ؛ فقوم دعاهم إليها دين ألفوه قديماً وهو دين المجوسية ، وكان لهم فيه آباء عديدون وكانت لهم عادات وتقاليد أخذها انخلف من الساف ، ولكنهم رأوا جاهاً عريضاً ، ومناصب عزيزة لا يستطيعون الوصول إليها إلا أن يسلموا فأسلموا « وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ » واتخذوا الإسلام ثياباً ظاهرية ، يخلمونها إذا خَلَوْا إلى أهليهم ، وهم — إذا أمكنتهم الفرصة — كادوا للإسلام وللعرب ، ودعوا للشعوبية وللذاهب الدينية . وقوم دعاهم إلى الزندقة شك في الأديان ، والقولُ بسلطان العقل إلى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا بما يرون بأعينهم ، ويحكمون العقل حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فبنوا الأديان جملة ، ودعوا إلى الإلحاد . وآخرون إنما كانوا همهم في الحياة شهواتهم ، فما الحياة إلا آخر وما إليها ، لا يرضون أن يجهدوا عقولهم

في تفكير في دين ، إنما يفضيرون على الدين وقت أن يتعارض مع شهواتهم ، ويحد من لذاتهم ، حينذاك ينطقون بالكلمة تَأَوَّ الكلمة وهم سكارى يتضحكون فيها على الدين — كل هذه الأصناف كانت في العصر العباسي ، وكان جمهور المؤمنين يكرهها ويحاربها .

ولكن من الحق أن نقول أيضا : إن الاتهام بالزندقة لم يقف في ذلك العصر عند حد ، فالشاعر يكون صديق الشاعر وصفي نفسه ، ثم تكون بينهما جفوة فأول ما يرميه به أنه زنديق ، كالهجاء بين بشار وحاد ، وكالذي يقول خَلَاد الأرقط : ذُكِرَ ابْنُ مُنَازِرٍ فِي حَلَقَةِ يُونُسَ ؛ فَقَدَحَ فِيهِ أَكْثَرُ أَهْلِ الْحَلَقَةِ حَتَّى نَسِيَهُ إِلَى الزَّنْدَقَةِ ، فلما حشرت في السقيفة التي في مقدم المسجد سمعت قراءة قريبة من حائط القبلة ، فدنوت فإذا ابن مناذر قائم يصلي فرجعت إلى الحلقة فقلت لأهلها : قلم في الرجل ما قلمت وهاهو ذا قائم يصلي حيث لا يراه إلا الله !^(١) . ثم هم يسرعون في الاتهام ، فيحكمون على أبي العتاهية بالزندقة لقوله : كَأَنَّ عِقَابَهُ مِنْ حُسْنِهَا دَمِيئُهُ قَسْرَ فَتَنَتْ قَسْهَا !
يَا رَبِّ لَوْ أَنْسَيْتَنِيهَا بِمَا فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ لَمْ أَنْسَهَا !
ولقوله : إِنَّ لِلْمَلِكِ رَأْيَ أَحْسَنَ خَلْقِهِ وَرَأْيَ جَمَالِكُ
لَخَذَا بِقُدْرَةِ نَفْسِهِ حُورَ الْجِنَانِ عَلَى مِثَالِكِ^(٢)
بل أكثر من هذا يرون أبا العتاهية يذكر الموت ، فيقولون : إنه زنديق لأنه يذكر الموت ، ولا يذكر الجنة والنار^(٣) .

كل هذا وأمثاله يدلنا على أن الناس في ذلك العصر أفرطوا في الرمي بالزندقة ، مع خطر الاتهام . يقول أبو الملاء في رسالة الغفران : « وذكر صاحب كتاب « الورقة » جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن قبله ،

(٢) أغاني ٣ : ١٥١ .

(١) أغاني ١٧ : ٢٩ .

(٣) أغاني ٣ : ١٤٢ .

ووصفهم بالزندقة : وسراثر الناس مُتَقَبِّية ، وإنما يعلم بها علام الغيوب » .
وكما كانت الخصومة الأدبية سبباً في الرمي بالزندقة ؛ كذلك كانت
الخصومة الدينية والسياسية ، يقول صاحب الأغاني : « كان مُحمَّد بن سَعِيد
وجهاً من وجوه المعتزلة ، غالف أحمد بن أبي حوادة في بعض مذهبه ، فأغرى
للمتصم بأنه شعوبي زنديق » ^(١) ، وظل الأحمى يقرب إلى البرامكة ، ويمدحهم
فلما نكبوا قال فيهم :

إذا ذُكر الشُّركُ في مجلس أضاءت وُجوهُ بني برمك .
وإن تُبليت عندم آية أتوا بالأحاديث عن مَزْدَك !
ثم ، أليس عجيباً أن ترى بشاراً يظل طول حياته يقول الشعر للماجن الخليع ،
ويتعرض للدين من قريب أو بعيد ، ويظل في ذلك ثمانين عاماً أو نحوها ؛ فلا
يتعرض له أحد ، إلا ما نهى الخليفة عن النزول ! بل نرى المهدي — وهو
أكبر من اضطلع بالزندقة — يحميه ويتأول له الفقهاء ^(٢) . فلما بلغ الثمانين
أو جاوزها هاجم يعقوب بن داود وزير المهدي بقوله :

بني أمية هَبُوا طالَ نومُكم إنَّ الخليفة يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فانتظروا خليفة الله بين الزقِّ والعودِ
وهما المهديّ نفسه فأغش ، فمعد ذلك — فقط — عوقب بشار على زندقته
فصُرب بالسياط حتى مات — وكذلك كان الشأن في ابن القفج ؛ خاصمه للنصور
سليسياً ، وخاصمه سفيان بن معاوية بن يزيد بن الهلب قتيلاً ورمياه بالزندقة ! .
الحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء
في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء . وأخشى أن يكون قدرى بها
أناس كثيرون صحت عقيلتهم ولكن كانت لهم حرية رأى في بعض المسائل

(١) أغاني ١ : ١٧ . (٢) انظر الأغاني ٣ : ٥٧ .

خالقوا فيها جمهور العلماء فشهروا بهم .

ونجد الحكم الفقهي في الزنادقة عند الحنفية العراقيين أشد منه عند الشافعية فكثير من الحنفية يرى أن المرتد إذا تاب قبلت توبته ولم يقتل ، وأما الزنديق فإذا تاب لم تقبل توبته وقتل ، وخالفهم في ذلك الشافعية فقالوا لا يقتل من أظهر التوبة من الزنادقة^(١) .

على كل حال كانت حركة الزندقة في عصرنا الذي نؤرخه حركة عنيفة ؛ كان من ضحاياها كثيرون بالحق أحياناً ، وبالباطل أحياناً .

الإيمان — يقابل حركة الزندقة والشك هذه ، حركة إيمان صادق من جانب آخر . وإذا كنا نريد أن نفهم جوانب الحياة في هذا العصر ، وجب علينا أن نصور جانب الإيمان كما صورنا جانب الزندقة . والذي يظهر لي أن جانب الإيمان في ذلك العصر كان الأعم الأشهر ، والزندقة — بمعنى الشك أو الإلحاد — كانت حظاً قليل من المفكرين إذا قيس بالعدد العديد من المؤمنين . ولذلك استطاع المؤرخون ، وكتاب القالات الدينية أن يسموا الزنادقة على شكهم في زندقة بعضهم ، ولكن كان من المسير أن يسموا المؤمنين لأن الإيمان هو الأساس ، والزندقة ليست إلا شذوذاً في اتجاه التيار العام . والذي زاد في عدد الزنادقة ، أنهم أطلقوا الكلمة على المجان والمستهترين ، ولو لم يصل الشك في الدين إلى نفوسهم ، وإن شئت فقل : إنهم لم يفكروا في الدين تفكيراً إيجابياً ولا سلبياً ، وإن كثيرين حُسروا مع الزنادقة سياسة لا ديناً كما قدمنا ، وإن كثيرين من الزنادقة كانت زندقته في الواقع ليست كراهية للإسلام من حيث هو دين له تعاليم خاصة لا توافق عقولهم ، ولكن من ناحية وطنية قومية . وأكثر ما كان ذلك في قوم من الفرس ، رأوا أن ضياع ملكهم إنما كان على يد العرب ، ولم يكن يتأتى للعرب ذلك لولا دينهم الجديد ، وهو الإسلام .

(١) انظر في ذلك « الأم » ٩ : ١٥٦ ، وقد حكى صاحب فتح القدير في الزنديق روايتين من الحنفية : رواية لا تقبل توبته كقول مالك وأحمد ، ورواية تقبل كقول الشافعي ٤ : ٣٨٧ .

فكرهوا العرب ، وكرهوا الإسلام لهذا السبب ، فأما الزندقة بمعنى البحث في الأديان بحثاً علمياً عقيقاً يُسلم أحياناً إلى شك أو إنكار فذلك كان قليلاً نادراً .

* * *

اشتهر جماعة كثيرة في ذلك ، كانوا للثل الأعلى في الإيمان أمثال عبد الله ابن المبارك ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، وداود الطائي ، والفضيل ابن عياض الخ^(١) تقرأ ترجمتهم ، فتتبين فيهم ورعاً وتقوى ، وإيماناً صادقاً ، وهبوباً من الاتصال بوالٍ أو أمير ، ورفض أي منصب يعرضه عليهم العباسيون . ولعل خير ما يمثل هذا النوع من الحياة ما رواه ابن قتيبة في رثاء ابن التياك لداود الطائي ، قال : « إن داود رحمه الله نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته ، فأعشى بصر القلب بصر العين . فكان كأنه لا ينظر إلى ما إليه تنظرون ، وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه ينظر ! فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يجب ! فلما رأيكم راغبين مذهبين مغرورين ، قد أذهلت الدنيا عقولكم ، وأماتت بحبها قلوبكم ، اسوحوش منكم ، فكنت إذا نظرت نظرت إلى حيرة وسط أموات ! يا داود ما أعجب شأنك بين أهل زمانك ! أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، أخشنت للطمع وإنما تريد طيبته ، وأخشنت لللبس وإنما تريد لينه ، ثم أمت نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها ولما تعذب ، وأغنيتها عن الدنيا لكيلا تذكر ، رغبت نفسك عن الدنيا فلم ترها لك قلداً إلى الآخرة . فما أظنك إلا وقد ظفرت بما طالبت ، كان سياتك في شرك ، ولم يكن سياتك في علانيتك ، بققمت في دينك ، وتركك الناس يُفنون . وسمعت الحديث ، وتركتم يحذرون . وخَرَشْتَ عن القول ، وتركتم ينطقون . لا تحصد الأخيار ؛ ولا تعيب الأشرار ؛ ولا تقبل من السلطان عطية ؛ ولا من الإخوان هدية . آنسُ

(١) انظر تراجمهم في وفيات الأعيان وطبقات ابن سعد وتراجم المحدثين .

ما تكون إذا كنت بالله خاليا ، وأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس .
 فمن سمع بذلك وصبر صبرك وعزم عزمك ؟ لا أحسبك إلا وقد أنتبت العابدين
 بمالك . سجت نفسك في بيتك فلا تحدث لك ، ولا تجلس معك ولا فراش
 تحتك ، ولا ستر على بابك ، ولا قلة يُبرَد فيها ماؤك ، ولا صحفة يكون فيها
 غداؤك وعشاؤك . مطهرتك قلبك ، وقصصتك نورك^(١) .

داود ! ما كنت تشتهي من الماء بارد ولا من الطعام طيب ، ولا من
 اللباس لينة : بلى ! ولكن زهدت فيه لما بين يديك . فما أصغر ما بذلت ! وما
 أحر ما تركت في جنب ما أملت ؟ فلما مت شهرك ربك بموتك ، وألبسك
 رداء علك ، وأكثر كبتك ، فلورأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك
 وشرفك ، فلتتكم اليوم عشرينك بكل ألسنتها ، قد أوضح ربك فضلك .
 وسفيان الثوري ، كان مع صلاحه وورعه وعلمه يعيش من تجارته ، ويرفض
 عطاء الولاء ، ورفض أن يكون قاضيا على الكوفة للعباسيين ، فيطلب ويظل
 دهرًا من حياته يهرب من العراق إلى اليمن ، ومن اليمن إلى مكة ، خشية من
 العباسيين . وتوفي سنة ١٦١ متواردا من السلطان .

* * *

وكما صوّرت حياة اللهو والمجون في كتاب الأغاني ودواوين الشعراء ،
 صوّرت حياة الإيمان في تراجم العلماء أمثال طبقات ابن سعد ، وطبقات
 الحديثين . فإذا أنت قرأت الأغاني ظننت أن الحياة كلها هو ومجون وإباحة ،
 وإذا قرأت طبقات الحديثين والتصوفة خلت أن الحياة كلها دين وورع
 وتهوى ، وتنصف إن أنت اعتدلت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان ،
 وأن للدينة العباسية كانت ككل الدنيات ، مسجد وحانة ، وقارى وزامر ،
 ومتبجد يرتب القجر ، ومصطبح في الحدائق ، وساهر في تهجد ، وساهر في

(١) التور إلاء صغير يتوقأ به .

طرب . وتُخَصُّ من غنى ، ومسكنة من إِملاق . وشك في دين ، وإيمان في يقين . كل هذا كان في العصر المباسي ، وكل هذا كان كثيراً .

* * *

هذا النوع من المؤمنين الذين سميتهم كسفيان وداود ، لم يدخلوا في مُفترَك
لجهد مع الشاكين وللتزندقين . بل كانوا يُعْتَنُونَ بِإِيمَانِهِمْ ، ولا يَأْبَهُونَ لِإِلْحَاد
غيرهم . إنما المؤمنون الذين تصدّوا للرد على الملحدين هم معتزلة ذلك العصر
أمنال واصل بن عطاء ، وأبي الهذيل العلاف ، وبشر بن المعتير ، وإبراهيم
النظام ، فهؤلاء أخذوا يَسْتَعْرِضُونَ ما تقوله الزنادقة ، ويناقشونهم ويردّون
عليهم ، ويلزمونهم الحجّة ، وقد حكّت لنا الكتب كثيراً من هذا الجدل ،
نعرض له عند الكلام على المعتزلة إن شاء الله .

—

الباب الثاني

الثقافات في ذلك العصر

تمهيد

كان من أثر اختلاف السكان في المملكة الإسلامية ، واتساعهم — من حيث أضولهم إلى أم مختلفة كما بينّا في الباب الأول — وامتزاج بعضهم ببعض في السكنى والتزواج وما إلى ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمم المختلفة في الإسلام ، ونمو الحضارة نموّاً يستدعى علماً واسعاً بكثير من شئون الحياة ، من هندسة وطب ونجوم ، ونظام حكم وفقه . ولغة وأدب ، كان من أثر ذلك كله أن انتشرت في المملكة الإسلامية ثقافات مختلفة لأمم مختلفة ، وكان هناك رجال بارزون يحملون لكل ثقافة علمها ، ويبدلون جهدهم في الدعوة لها ، والترويج لمبادئها ، وتحييها إلى الناس ، وإفهامهم أنها خير أنواع الثقافات . وكان من مظاهر هذا : أن كل ثقافة أخذت تشق لنفسها جدولاً تسير فيه وحدها ، وكلما غزرت وزاد مددها ، وسعت مجراها ، وتمهدهت بالإصلاح ، وحافظت إلى حليم ما على استقلاله ، ثم نرى — بعد ذلك — أن هذه الجداول المستقلة — تقريباً — أخذت تلتقي ويتكوّن منها نهر عظيم ، تُصب فيه مياه

مختلفة . ورأينا أن ما حصل في الأجناس البشرية ، حصل نظيره في الثقافات العلمية . وقد كان في الأجناس امتزاج وتزاوج وتوليد ؛ فكان في الثقافات العلمية امتزاج وتزاوج وتوليد ، وقد كان في الأجناس ميزات مختلفة ، كل جنس له مزاياه وله عيوبه ، وكانت عملية التوليد تنشأ من تلقيح دم بدم ، فينشأ جنس جديد له مزايا الجنسَيْن ، وعيوب الدَّمَيْن ، وله خصائص أخرى ليست في الجنسَيْن ، فكان كذلك الشأن في الثقافات . كان هناك لقاح بين الثقافات ، ونشأ من هذا اللقاح ثقافات جديدة ، تحمل صفات من هذه وتلك ، وصفات جديدة لم تكن في هذه ولا في تلك ، وأصبح لما طابع خاص يميزها عما سواها . وكما كان في المملكة الإسلامية أمم مختلفة ، اشتهرت كل أمة بميزة ، كذلك امتازت الأمم المختلفة بميزات في العقلية ، تبعها ميزات في الثقافة .

فما هي أشهر الثقافات في ذلك العصر ؟ وما ميزة كل ثقافة ؟ وماذا كانت طبيعة جدولها قبل أن تصب في النهر الأعظم ؟

ثم بعد أن صبّت في ذلك النهر ، ماذا كانت طبيعة مائه ، وأى العناصر غلب عليه ؟ وما مظاهر تلك العناصر في مياه النهر ؟

ذلك ما نريد أن نبعث عنه في هذا الباب .

قد انتشرت في هذا العصر أربع ثقافات ، كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس وأغنى بها : الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، والثقافة العربية . كما كان هناك ثقافات دينية أهمها اليهودية والنصرانية والإسلام . فلنتكلم كلمة في كل منها ، ولنتختر لكل ثقافة من يمثلها — ما أمكن — ثم لنتختر مثلاً ممن كان يمثل الثقافات كلها بعد امتزاجها .

الفصل الأول الثقافة الفارسية

انتشرت الثقافة الفارسية — في العصر العباسي الأول — انتشاراً عظيماً ،
وساعد على ذلك أمران :

الأول — إنشاء منصب الوزارة ، وإسناده غالباً إلى الفرس .

والثاني — انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ، وبعبارة أخرى
من الشام إلى العراق .

الوزارة : كانت كلمة « وزير » معروفة للعرب قبل الفتح الإسلامي ، ففي
القرآن الكريم على لسان موسى « وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي »
وفي حديث السقيفة « نَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَتَمُّ الْوُزَرَاءِ » وفي طبقات « ابن سعد »
أن أبا بكر كان وزيراً للنبي صلى الله عليه وسلم « وفي طبقات الشعراء لابن
قتيبة » أن أبا ذؤيب الهذلي — وهو شاعر جاهلي إسلامي — خان في امرأة ابن
عم له ، ثم خانه خالد بن زهير فيها . فقال خالد يخاطب أبا ذؤيب :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ بِيَرَّتَيْهَا وَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا
وَكُنْتُ إِمَامًا لِلْمَشِيرَةِ تَنْتَعِي إِلَيْكَ إِذَا ضَاقتْ بِأَمْرِ صُدُورُهَا
أَلَمْ تَنْفَقْهَا مِنْ ابْنِ سُوَيْمِرٍ وَأَنْتَ صُنِّي نَفْسِهِ وَوَزِيرُهَا !
وفي النبوة الأموية كان اللفظ مستعملاً ، يقول الطبري : « إن زياداً كان
يسمى وزير معاوية » .

ولكن الكلمة في كل المواضع التي ذكرنا ، لم تستعمل في المعنى
الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير ؛ وإنما هي بمعنى اللوازر المناصر .

قال ابن خلكان : « وقد اختلف أربابُ اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوزر وهو الخيل ، فكان الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة — . والثاني أنها من الوزر ، وهو الجبل الذي يعتصم به لئلا ينحى به من المللك ، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة ، أو السلطان ، ويلتجئ إلى رأيه . وهو قول أبي إسحاق الزجاج » .
ونحن نرجح هذا — وهو أن أصل الكلمة عربي — على ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فلولى مأخوذ من فيشيرا Vi-chira ومعناه الأمر أو التقرير .

لم تكن كلمة وزير بدءاً في العصر العباسي ؛ إنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب ، وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية ، وتلقيه بهذا الاسم ، وهذا المنصب فارسي ، ولم يكن معروفاً قبل العباسيين — قال ابن خلكان في ترجمة أبي سلمة الخلال : « إن أباسلة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول »^(١)

ويقول الفخري : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون من طبعة شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام . ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والوزارة لا تتمهد قواعدها . وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد . ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجي والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررَت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً . وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

(١) وفيات الأعيان جزء ١ : ٢٢٩ .

وقد كان الوزراء الظاهريون في هذا العصر موالى فرساً ، فأبو سلمة الخلال — أول وزير عباسي — مولى فارسي ، وأبو أيوب التوراني وزير للنصور فارسي من «موريان» قرية من قرى الأهواز، ويعقوب بن داود وزير للهدى مولى كذلك ، وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، واستوزر للأمون بني سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس ، ومن صنائع البرامكة ، واستوزر للأمون الفضل بن سهل ، ثم الحسن بن سهل ، ولما دالت دولة بني سهل استوزر للأمون أحمد بن يوسف ، وهو مولى لبني العجل^(١) . ثم استوزر ثابت بن يحيى بن يسار الرازي وهكذا .

فترى من هذا أن أكثر الوزراء في هذا العصر الذي توارخه كانوا فرساً ، وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في كل الشؤون . فينظر في الشؤون الحربية ، وفي الشؤون المالية ، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة ، ويوقع على ما يُرفع إليه من أوراق ، ولم يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال ، فيجعل للعرب وزير ، وللمال وزير وهكذا . وإنما كان تعدد الوزراء بتعدد الأعمال ، من نظام الأندلسيين « فقد قَسَمُوا خُطَّةَ الوزارة أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحُساب المال وزيراً ، وللتُرسل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً »^(٢) وعلى العكس من ذلك العباسيون ؛ فقد جمعوا له بين خُطَّي السيف والقلم .

وهذا الذي ذكرنا من أن الوزير كان يجمع إلى الإدارة الحربية والمالية خطة القلم — وأعنى بها إغاذا الرسائل إلى الجهات ، والتوقيع على ما يُعرض عليه من مطالب ورسائل — جعل من شروط الوزير أن يكون عالماً مطاعاً ، كاتباً بليغاً . وكذلك كان أكثر الوزراء في العصر « حكى أن للأمون كتب في اختيار وزير : إني التمت لأُموري رجلاً جامعاً لخصال

(١) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٠٦ . (٢) مقلة ابن خلّون : ١٩٩ .

الخير ، ذاعفة في خلاصته ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أؤتمن على الأسرار فام بها ، وإن قُبلت مهمات الأمور نهض فيها . يُسكته الحلم ، وينطقه العلم . ونكفيه اللحظة ، وتُفنيه السحرة . له صورة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . إن أحسن إليه شكر ، وإن بُغِيَ بالإساءة صبر . لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه^(١) ، وتاريخ الوزراء ، يدنس على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة ، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار ، والأشعار والسير والجلد ، والبراعة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والآداب . والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياضة السيف ورياسة القلم . . الخ .

وهذه القدرة الكتابية التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير ، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس — غالباً — فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية . ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان ، فقالوا : رجل لسين إذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشقوا مثل ذلك من الكتابة .

والحق أن القدرة الكتابية كانت عند الفرس أرباب منها عند العرب ، وحتى في الدولة الأموية كان أغلب الكتاب الفتيين من الفرس ، أمثال عبد الحميد الكاتب ، وسالم مولى هشام . وكان العربي يفخر بالسيف واللسان لا بالقلم . قال يزيد بن معاوية بعدد فضل بيته على زياد بن أبيه : « لقد هلكناك من ولاد ثقيف إلى عز قریش ، ومن عبید إلى أبي سفیان ، ومن القلم إلى المنابر ! » ولم تزل العرب تفضل السيف على القلم ، وفي ذلك يقول سليط ابن جرير النخعي :

(١) الأحكام السلطانية : ٢١ .

أَتَمِيزُنِي وَلَسْتَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَتَذُنِي الْأَصْغَرَيْنِ مِنَ الْخِلَائِنِ ؟
جَاهِذْهُ وَكُتَابًا وَلِيسُوا بَفُرْطَانِ الصَّكْبَةِ وَالطَّمَانِ
سَتَقْرَفُنِي وَتَذَكُرُنِي إِذَا مَا تَلَقَى الْخَلِيقَتَانِ مِنَ الْبَطَانِ^(١)

* * *

هؤلاء الوزراء كان لهم — من هذه الناحية التي تمينا الآن وهي ناحية
أنهم أرباب ألقام — أعوان يسمون الكتّاب ، فقد كان لكل وزير كاتب ،
بل كتاب يمينونه . ولولاة الأقاليم ، ورجال الدولة كتاب . فكان حماد مجرد
مثلا : كاتباً ليحيى بن محمد بن سُؤل بالموصل ، وكان ابن المقفع يكتب لداود
ابن عمر بن هُبَيْرَةَ والي كَرْمان^(٢) ، وكان عمرو بن مُسْعِدَةَ يكتب للامون ،
وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة ، وكان يكتب ليحيى بن خالد
البرمكي عبد الله بن سوار بن ميمون وهكذا .

وكانت هذه الطائفة — طائفة الكتّاب — تؤلف وحدة على رأسها الوزير ،
بل وتندرج في الرق إلى الوزارة ، معتمدة على كفايتها وبلاغتها . وقد وقع
جمرو بن مسعدة على ورقة رُفعت إلى جعفر بن يحيى ، فأعجب جعفر بتوقيع
عمرو ، فضرب يحيى بيده على ظهر عمرو وقال : « أي وزير في جلدك ! »^(٣) . وكان
بين أفراد هذه الكتلة صلات ولولم يتعارفوا « حضر ديوان الخراج في
أيام الرشيد شيخ من قدماء الكتّاب ، ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين
عليه ، فمَنَى الكتّاب به ، وزجّوا كتابه ، فقال لهم : احفظوا عني ثلاثا
الجوارئ نسب ، واللودة نسب ، والصناعة نسب »^(٤) وقبل ذلك كانت نصيحة
عبد الحميد الكاتب لمعشر الكتّاب ، دليلا على أنهم كانوا يؤثفون وحدة في
آخر عهد الدولة الأموية .

(١) الوزراء والكتّاب للبهشياري : ٢٤ والبطان حزام ذو حلقتين يشد حل بطون الخيل ويبنى
بتلحيهما الاستعداد للحرب . (٢) المصدر نفسه (٣) انظر مقالة الأستاذ كزاد في هذا الموضوع
في مجلة المجمع العلمي والبلاغة سبيل الوزارة « جز ٥ و ٦ سنة ٢٧ (٤) البهشياري : ٢٤٣

كان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً كالوزراء ، يمتحنون حنواً جدام من الفرس — حتى في مظاهرهم الخارجية — يروى الجهمشيارى : « أن الفضل بن سهل ابن زاذا نفروخ — ذا الرياستين — كان يجلس على كرسى مُجْتَنَح ، ويَحْتَمِل فيه إذا أراد الدخول على للأمون ، فلا يزال يُحْمَل حتى تقع عين للأمون عليه ، فإذا وقعت وُضِع الكرسي ونزل عنه فحشى ، وُجِل الكرسي حتى يوضع بين يدي للأمون ، ثم يَسَلَّم ذو الرياستين ويعودُ فيقعد عليه . . . وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة ، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ، ويقعد بين أيديها عليه ، ويتولى حمله اثنا عشر رجلاً من أولاد الملوك »^(١) .

بل إن تَكُون الكتاب كطبقة ، ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي ، فالجهمشيارى يقول : « كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد من غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عَرَفَ بلبسته صناعته ، والطبقة التي هو فيها ، فكان الكتاب في الحضرة يلبسون لبستهم المهودة . . . وكانت ملوك الفرس تسمى كتاب الرسائل ترجمة الملوك »^(٢) .

كان هؤلاء الكتاب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم — بحكم مناصبهم — مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ طرقاً ، لأن كثيراً من مواقفهم يحتاج إلى ذلك ، وقد تعرّض للخليفة أو الوالي مسائل من هذا القبيل ، يضطرُّ الكاتب لإزائها أن يكون

(١) الجهمشيارى : ٤٠١ و ٤٠٢ . (٢) المصدر نفسه : ٣٠٣ .

مُلماً بجميع ذلك . إذ هم الذين كانوا يقرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحرمون ما يصدر منهم . ويوضح ذلك إذا نحن قارنا بين معارف الكاتب ، ومعرفة الحدّث أو الفقيه في ذلك العصر . فالحدّث أو الفقيه معارفه محدودة ، ودائرة حوّل فتنه ، فإنّ توسّع في شيء فإنما يتوسّع في المسائل التي تُتَدّ وسائل لفتنه كاللغة والنحو والصرف . أما الكاتب فدائرته أوسع من ذلك . وحسبنا دليلاً على هذا ما ألف للكاتب من الكتب .

فأول ما نعرفه من ذلك « أدب الكاتب لابن قتيبة » قد جمعه على تأليفه كما ذكر في مقدمته : أنه رأى طائفة من الكتاب « قد شُفّت بالنظر في النجوم والملك والفسلفة ، وعُرِفَت الكون والفساد . ومع الكيان والكيفية والسكينة ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم إلخ » . وأهلوا النظر في اللغة وما إليها فوضع لهم كتابه في ذلك ، فهو خاص بما يلزم الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء . وألف بعده أبو بكر الصّولي كتابه « أدب الكتاب » ففَمَزَ ابن قتيبة بالتصغير في كتابه ، وتوسّع هو في مسائل لم يعرض لها ابن قتيبة ، فتكلم في حسن الخط وقبحه ، والدواة والقلم وما إليهما ، وترتيب الكتاب ومطيه ، والدماء في المكاتبات — والداوين وتحويلها إلى العربية ، ووجوه الأموال التي تحمل إلى بيت المال ، وشيء من قواعد الإملاء . وألف ابن دُرُسْتُوْيه للتوفى سنة ٣٤٦ كتاب « الكتّاب » وأكثره في قواعد الإملاء ، وفي آخره باب في افتتاح الكتاب ، وفي التاريخ ، وما يذكّر منه وما يؤثّر ، وما يفرد ويجمع ثم في برزى القلم وسنّه وقطعه ، والدواة وما إليها إلخ . وتوسّع من جاء بعدهم — من المؤلفين للكتّاب — حتى ختمت بكتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » فتمرّص فيه — تقريباً — لكل المعلومات البشرية في عصره ، من تاريخ وجغرافيا وفلك ، وما يحتاج إليه الكتّاب عملياً في صناعته من خط ونحو ، ومصطلح

المكاتبات ، وكيفية المقود ، والبريد ، ومطارات حمام الرسائل ، والنفارات الخ .
فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس ، وكيف
كانوا يتطلبون منهم المعارف الواسعة في الموضوعات المختلفة ، وأن هذه الطبقة
كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة .

بل يظهر لي أن هذا الموقف ، هو الذي جعل الناس يقولون : إن الأدب
هو الأخذ من كل شيء بطرف ، فقد نرى أن كلمة الأدب في صدر الإسلام
كانت تطلق على التهذيب الخلقى ، ثم كانت تطلق على العلم باللغة والشعر ، وأيام
العرب وتاريخها وما إلى ذلك . واستعملت بهذا المعنى في العهد الأموى . فلما
جاء هؤلاء الكتاب واتسمت الثقافة ، وصاروا يتطلبون من الكاتب أن يعرف
الثقافة العربية والفارسية اتسع معنى الأدب ، وقالوا : « إن الأدب الأخذ من
كل شيء بطرف » .

بل جموله يشمل معرفة شيء من الألعاب ، قال الحسن بن سهل ، وهو أحد
الوزراء والكتاب في عصرنا العباسى : « الآداب عشرة : فثلاثة شهرجانية
وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية
فغزرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب الصراج . وأما النوشروانية فالطب ،
والهندسة ، والفروسية ، وأما العربية فالشعر ، والنسب ، وأيام الناس . وأما الواحدة
التي أربت عليهن فمقطعات الحديث ، والسر ، وما يلتقاه الناس في المجالس ^(١) .
بل يظهر لي — أيضاً — أن هذا كان أحد الأسباب في فوضى الكتب
الأدبية المؤلفة في ذلك العصر . كاليبيان والتبيين ، والكامل ، وعيون الأخبار .
قد قصدوا فيها إلى جمع ما يفيد ، وتكويمه ببعضه فوق بعض ، فاهمين الأدب
بمعناه الواسع الذى ذكرنا ، فحكمة بجانها بيتان من النزل ، إلى نادرة لطيفة إلى
خطبة بليغة ، إلى قصص في البخل ، إلى أخبار الخوارج .

(١) زهر الآداب جزء ١ : ١٤٢ .

والجالحظ — في كتابه الحيوان — تكلم في الخصاص بعد كلامه في فائدة الكتاب ، إلى غير ذلك . لأن الفرض عندهم أن يلم الأديب من كل شيء بطرف ، ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها ، وتفرق مجتمعا ، وتجمع متفرقا ، وتزيد ما استحدثت من الطرف الأدبية .

هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة ، وضموها إلى الآداب العربية والآداب الفارسية ، فأصبح مما يتطلبه الأدب ؛ أن تعرف حكم بزجرهم كما تعرف حكم أكنم بن صيفي ، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب ، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبروز وموبدئان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين ، فقد جاء في نصيحة عبد الحميد الكاتب إلى البكتاب : فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقهاوا في الدين ، وابدعوا في كتب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإتقاناً ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وازودوا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب ، والعجم وأحاديثها وسيرها ؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهمكم ، ولا يضمنن نظركم في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم . وقال الرشيد للكسائي معلم أولاده : « يا علي بن حمزة ، قد أحللتك الحل الذي لم تكن تبلغه . همتك ، فزودنا من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لحاسن الأخلاق . وذاكرنا بأدب الفرس والهند ، ولا تسرع علينا الرد في ملأ ، ولا تترك تنقيفاً في خلاء » (١) .

السبب الثاني — في نشر الثقافة الفارسية — انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى العراق . وكان من أكبر بواعث المباسيين على هذا الانتقال أن دمشق كانت عاصمة الأمويين ، وكانت ضلَّع الشام مع بني أمية من عهد الخلفاء بين علي ومعاوية ، وكان الشاميون هم الجند المخلص لبني أمية ، وهم مثال

(١) ابن أبي الحديد ٤ : ١٢٧ .

الطاعة للدولة فمن حزم العباسيين ألا تكون عاصمة الدولة الجديدة بين الشاميين وتحت رحمتهم، وفوق ذلك، فدمشق بعيدة جداً عن خراسان، منبع الثورة، ومصدر الدعوة، وذخيرة العباسيين وعيادهم.

وسبب آخر هو: أن دمشق مُنتجحة ناحية الغرب، وليست في الوسط، ولا قريبة من وسط المملكة التي تمتد من البحر الأبيض إلى الهند. والعراق يحقق هذه الأغراض فبغداد قريبة من خراسان، قريبة من الشرق، بعيدة عن الروم، كثيرة الخيرات، صالحة لأن تكون نقطة اتصال بين الفرس والأمم السامية. وقد كره العباسيون أن يتخذوا البصرة أو الكوفة مقراً لهم لأن تاريخهما — وخصوصاً البصرة — سلسلة ثورات متصلة، ولأن فيها عدداً كبيراً ينشع لعلى وأولاده، وهذا التشيع جُرم يؤخذ عليه العباسيون، كما كان يؤخذ عليه الأمويون — لذلك اتخذ السفاح مدينة الهاشمية قرب الأنبار. فلما جاء أبو جعفر المنصور اختار موقع بغداد، وقد وفق في اختياره، فجانبها الأراضي الخصبة بين دجلة والفرات، وهي كما قال بعض النصارى للمنصور: «يا أمير المؤمنين، تكون على الصّرة بين دجلة مع الفرات، فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثم إن لليرة تأتيك — في دجلة من ديار بكر تارة، ومن البحر والهند والصين والبصرة، — وفي الفرات — من الرقة والشام، وتحيثك الميرة أيضاً من خراسان وبلاد العجم في نهر تامتراً، وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهارك لا يصل عدوك إليك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»^(١).

والذي يهمنا هنا أن بغداد كانت في العراق حيث عواصم الممالك القديمة مثل بابل واللدائن.

لهذا كله ، أصبحت بغداد — بعد قليل — أم مركز الحضارة والثقافة في المملكة الإسلامية بل في العالم كله — ونحن إذا استثنينا أوقات الفتن والاضطرابات أمكننا أن نقول : إنها ظلت في رقي واتساع وعظمة إلى نهاية القرن الخامس الهجري .

كان لهذا الانتقال من الشام إلى العراق أثر كبير — من الناحية العقلية — فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة . وتداولت عليه دول خلقت فيه مدينتها وثقافتها ، وكان يسكنه قبيل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل الكلدان والسريان وهم الذين يلقبون بالآراميين ، وكان يسكنه العرب من إباد وربيعة ، وكان يقيم به للناذرة الذين استسوا ملك الحيرة ، وكانت مَدِينَةُ الْفُرس غالباً عليه لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس ، وظل في أيديهم زمناً طويلاً ، إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر ، وكانت فيه « للدائن » عاصمة الساسانيين . كل هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطفاً بالفارسية فلما كان المباسيون ، وكان الفرس هم الذين أعانهم ، كان من هذا وذاك نفوذ للفرس عظيم في المناصب وفي الثقافة .

والآن نريد أن نبحث النواحي التي كان فيها للثقافة الفارسية أثر في الثقافة الإسلامية .

فأول ذلك الألفاظ اللغوية : ذلك أن العرب لما تحضروا بعد البداوة وجعلوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة ، ليس في ألفاظهم ما يدل عليها ، وكان ذلك في جميع مرافق الحياة ، من أدوات الزينة ، وأنواع المأكل والملبس ، وآلات الفناء ، والدواوين ونظامها ونحو ذلك ، فسلخوا خير طريق يسلك لذلك . وهو : أن يتوسعوا في مدلولات الكلمات العربية أحياناً ، يأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحياناً ، ومصقولة بما يتفق ولسانهم أحياناً . وكانت اللغة الفارسية منبعاً كبيراً من اللغاب التي تستمد منه اللغة العربية وتوسع به مادتها — حكى الصولي قال : « حدثنا

على ابن المتبحر قال : سمعت الحسن بن رجاء يقول : ناظر فارسي عرياً بين يدي يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي : ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية ، ولقد ملكتم فاستغفرتنا في أعمالكم ولا فتكم ، حتى طيغكم وأشربكم ودواويكم وما فيها على ما سمينا ، ما غيرتموه ، كالإسفنداج والسكباج والثوغباج ، وأمثاله كثيرة ، وكالتكنجين والخلجين والبلاب وأمثاله كثيرة ؛ وكالروزنامج والأشكدار والفراونك وإن كان رومياً — ومثله كثير — فسكت عنه العربي . فقال له يحيى بن خالد قل له : اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة ، بعد ألف سنة كانت قبلها لا تحتاج إليكم ، ولا إلى شيء كان لكم^(١) .

ويقول الجاحظ : « ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألقاهاهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخربز » ... وكذا أهل الكوفة فإنهم يسمون للشحاة « بال » و « بال » بالفارسية ... وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مربةً ويسمونها أهل الكوفة « بالجارسو » والجارسو فارسية ويسمون السوق أو السوق « وازار » والوازار فارسية . ويسمون القناء خياراً ، والخييار فارسية الخ^(٢) .

من قديم تسربت ألفاظ فارسية إلى اللغة العربية ، وكان ذلك بطريق التجارة أو الاختلاط . ولكنها تعدّ قليلة إذا قيست بالألفاظ التي دخلت في العصر العباسي للسبب الذي ذكرنا ، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً بأسباب الحضارة في العصر العباسي ، فكانوا أشدّ احتياجاً للاقتباس من الفرس ، ولأن اللغة العربية لم تمتد ملكاً للعرب وحدهم ؛ بل كانت ملكاً للعالم الإسلامي جميعه ، والعالم الإسلامي لا يتعصب للغة العربية تعصب العرب ، فهو يُفسح صدره للغات الأخرى ما دعا داع إليها .

ثانياً : قد كان للفرس — من قديم — علم وأدب يتناسبان مع ضخامة

(١) أدب الكتاب لصلوى : ١٩٣ . (٢) البيان والتبيين جزء ١ ص ١٠٧ .

ملكهم وعظم سلطانهم ، فلما جاءت الثورة العباسية ، وكثير من دعيها فرس ، لم زعة وطنية ، وميول قومية ، أخذ للثقفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم ، وما حفظته العصور إلى عهدهم .

كانت لهم كتب في التنجيم والمهندسة والجغرافية ، وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم . ولكن كانت مدنيتهم في حياة وعظمة ، فكانت تسرد مجدها بتأليف كتب جديدة تسير عظمتهم . وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الإسكندر الأكبر لبلادهم ، وقد تلف في هذا الحرب كثير من خزائن كتبهم فلما جاءت الساسانية (٢٢٦ — ٦٥٢ م) استعادوا أدبهم وعلمهم . وأظهر ملوكهم في الليل إلى العلم ، وتشجيع الترجمة والتأليف أردشير بابك (٢٢٦ — ٢٤١ م) فقد بمت في طلب الكتب من الهند والروم والصين ، وكذلك كان الشأن في عهد ابنه سابور ، وعهد كسرى أنوشروان .

وقد دامت الثورة الساسانية نحو أربعة قرون ، خلفت فيها علماء كثيرًا ، وأدباء وفيرًا . وأكثر ما نقل إلينا في العصر العباسي — من الأدب والعلم ، والأساطير والتاريخ — إنما يرجع إلى هذه الأسرة ، قال حمزة الأصفهاني : « فأما تواريخ من كان قبل الساسانية من ملوك الأشغانية ، فلم أشتغل بها للآفات المعترضة فيها — كانت — في أزمنة أولئك الملوك ، وذلك أن الإسكندر لما استولى على أرض بابل وقهر أهلها ، حسدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التي لم تجمع قط لأمة من الأمم مثلها ، فأحرق من كتبهم ما نالته يده ، ثم قصد إلى قتل الموابزة والمرابذة والعلماء والحكماء ، ومن كان يحفظ عليهم في أثناء^(١) علومهم تواريخهم ، حتى أتى على عامتهم — هذا — بعد أن نقل ما احتاج إليه من علومهم إلى لسان اليونانيين »^(٢) .

(١) هكذا في الأصلين المطبوعين والأوروي . (٢) تواريخ سني ملوك الأرمين والنباهة لحمزة الأصفهاني ص ٢٢ والبحث الحديث لا يؤيد كل ذلك .

فلما نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي ، أخذ طائفة من محيّدون اللسانين — الفارسي والعربي — ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية ، وقد عقد ابن النديم في كتابه الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسي إلى العربي ، ذكر منهم :

(١) عبد الله بن المقفع (٢) آل نَوْبخت (٣) موسى ويوسف ابني خالد (٤) أبا الحسن علي بن زياد التميمي (٥) الحسن بن سهل (٦) البلاذري (٧) جبلة بن سالم (٨) إسحق بن يزيد (٩) محمد بن الجهم البرمكي (١٠) هشام بن القاسم (١١) موسى بن عيسى الكردى (١٢) زادويه ابن شاهويه الأصفهاني (١٣) محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني (١٤) بهرام ابن مردان شاه (١٥) عمر بن الفَرخَان (١).

وقد ترجم عبد الله بن المقفع « كتاب خداينامه » وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم ، وقد سماه ابن المقفع « تاريخ ملوك الفرس » والظاهر أن الطبري اعتمد عليه في كتابه تاريخ الأمم والملوك عند كلامه على « الساسانيين » وترجم كذلك كتاب « آيين نامه » ومعنى الآيين النظم والمعادات ، والعرف والشرائع . فالكتاب وصف لنظم الفرس ، وتقاليدهم وعرفهم . وقد ذكر المسعودي : أنه كتاب كبير ، يقع في آلاف من الصفحات . كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية « كليله ودمنة » وكتاب « مزدك » وهو يتضمن سيرة مزدك الزعيم الديني الفارسي المشهور ، وكتاب « التاج » في سيرة أنوشروان ، وكتاب « الأدب الكبير » و« الأدب الصغير » وكتاب « القيمة » (٢) . وقد ذكر المسعودي : أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه كتاب « الكيكيين » من الفارسية الأولى إلى العربية — وهذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه . من خبر أسلافهم وسير ملوكهم (٣) .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨

(١) ابن النديم ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٣) مروج الذهب جزء ١ : ١٠٩ .

وقد عُنيَ المترجمون فترجوا كتباً عديدة من تاريخ الفرس ، يقول حمزة الأصبهاني : « اتفق لي ثمان نسخ — من تاريخ الفرس — وهي كتاب سير ملوك الفرس من قل ابن القنق ، وكتاب سير ملوك الفرس من قل محمد بن الجهم البرمكي ، وكتاب تاريخ ملوك الفرس للمستخرج من خزانة المأمون ، وكتاب سير ملوك الفرس من قل زادويه بن شاهويه الأصفهاني ، وكتاب سير ملوك الفرس من قل أبو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني ، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من قل أبو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني ، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه مُوبَذ « كورة شابور » من بلاد فارس ، فلما اجتمعت لي هذه النسخ ضربت بعضها ببعض حتى استوفيت منها حق هذا الباب »^(١) .

وقال المسعودي : « ورأيت بمدينة اضطرخ من أرض فارس في سنة ٣٠٣ عند بعض أهل البيوتات المشرقة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم ، وأخبار ملوكهم وأبيتهم وسياستهم ، لم أجدها في شيء من كتب الفرس ؛ ككتابنا ، وأينامه ، وكهنامه وغيرها ، مصور فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً ، منهم خمسة وعشرون رجلاً وإمرأتان^(٢) . وترجم جبلة بن سالم « كتاب رستم واسفنديار » و « كتاب بهرام شوس » وهما في السير^(٣) .

وقد ترجم من الكتب الدينية كتاب زرادشت المسمى « أشتا » وما عليه من شروح ، ويُقَالُ عنه حمزة الأصفهاني^(٤) . ويقول المسعودي : « كانوا يقولون إن رجلاً يسحستان بعد الثمانمائة مُستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال »^(٥)

(١) حمزة الأصفهاني ص ٩٨ كلها بالأصل وهي كما ترى سبع نسخ لا ثمان .

(٢) كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي : ١٠٦ . (٣) ابن النديم ص ٣٠٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٦٤ . (٥) مروج الذهب جز ١ : ١١٠ .

وفي الأدب؛ ترجوا عن القرس أشياء كثيرة، منها ما ذكرنا قبل من كليلية ودمنة، والينيمة، والأدب الكبير، والصغير، ومنها كتاب «هزار أفسانه» ومعناه ألف خرافة، وهو أصل من أصول «ألف ليلة وليلة» وكثير غيره من كتب القصص؛ ككتاب بوشفاس، وكتاب خرافة ونزعة، وكتاب الدب والثعلب، وكتاب رُوزبه الينيم، وكتاب نمرود، الخ. كما ترجوا في الأدب عهداً أردشير، وهو محفوظ بالعربية إلى عهدنا، وكتاب موبد موبدان، وكتاب أردشير في التدبير، وتوقعات كسرى. وكتاب أدب الحرب، الخ^(١).

هذا الذي ذكرنا كان ترجمة ونقلًا من اللسان الفارسي إلى العربي، وشيء آخر لا يقل عنه شأنًا، وهو: أنه كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسية والعربية معاً، فكفروا على قراءة الكتب الفارسية يتتقنون بها، ويُرثقون أفكارهم وعقولهم، ثم هم يخرجون باللغة العربية أدباً وشعراً وعلمًا، وليس ما يخرجونه حلاً تاماً لكلام فارسي ولكنه منبعث عنه، ومتولد منه، كالعربي اليوم يتتقن ثقافة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية، ثم هو بعد ذلك يخرج أدباً جديداً بانته العربية لا يسمى أدباً أوربياً، ولكنه نتاجه ومتأثر به، وسائر على أثره.

كان كثير من القرس على هذا النحو، حذقوا الفارسية والعربية، وتتقنوا التفاهين، وأتتجوا في الأدب العربي نتاجاً جديداً كالفضل بن سهل، وسهل ابن هارون، وابن اللقنع، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري — أحد القصاص — كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجامع المشهور به، فيفقد العرب عن يمينه والقرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى القرس فيفسرها لهم بالفارسية. فلا يُدرى بأى لسان هو

(١) الطرف هذا مقالة كتبت في مجلة Islamic Culture ١ : ٦٢٤ .

أَبَيَّن . والفتن إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضم على صاحبها ، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأُسُولِي ^(١) .

بل نرى قومًا من العرب تعلموا الفارسية ، ووجدوا فيها من الفناء ما لم يجدوه في العربية ، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها ، ثم يخرجون بعد أدبٍ حريصٍ فيه معاني القرس ، وبلاغة العرب . نذكر مثلاً على ذلك « العتّابي » الشاعر الباسي المشهور . وهو عربي من تَلَبَّ اسمُه كُلُّثُومُ ابن عمرو بن أيوب ، تتقف بالثقافة الفارسية ، وأعجب بها . يحدّثنا طيفور فيقول : « قال يحيى بن الحسن : إني بالركة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على يزكة إذ دعوت بفلام له فكلّمته بالفارسية ، فدخل العتّابي — وكان حاضراً في كلامنا — فتكلّم معي بالفارسية ، فقلت له : أبا عمرو ! مالك وهذه الرطانة ؟ قال فقال لي : قدمت بلدكم هذه ثلاث قَدَمَات ، وكتبت كتب العجم التي في الخزائن بِرَوِّ — وكانت الكتب سقطت إلى ما هناك مع يزدجرد فعي قاتمة إلى الساعة — فقال : كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجُرّنها بمشر فراسخ إلى قرية يقال لها ذَوْدَر ، فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه ، فرجعت إلى مرو فأقت أشهراً ، قال : قلت أبا عمرو لِمَ كتبت كتب العجم ؟ فقال لي : وهل الماني إلا في كتب العجم ، والبلاغة : اللغة لنا والماني لم اثم كان يذاكرني ويحدّثني بالفارسية كثيراً » ^(٢) .

كان العتّابي إذا متقناً ثقافة فارسية ، وأنت إذا قرأت شعره ونثره تبيّنت منه أنه كان أديباً ممتازاً ، غزير الماني ، على حين أن كثيراً من الشعراء أشعارهم جَوْهَاء . نقرأ له مثلاً في المقد الفريد ، قطعاً نثرية غزُرَت معانيها ، ودقّ أسلوبها ، ونقرأ له شعراً مطبوعاً في فنون مختلفة من فنون الشعر — فتنشر بروح غير مألوف ، كأن يقول :

(١) البيان والتمهيد ١ : ١٢٩ . (٢) طيفور الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

فَلَوْ كَانَ لِلشَّكْرِ شَخْصٌ بَيِّنٌ إِذَا مَا تَأْتِيهِ . النَّاظِرُ
لَتَمَثَّلْتُ بِهِ لَكَ خَشْيَ تَرَاهُ لَتَقْلَمُ أَنِّي أَمْرٌ شَاكِرٌ
فَيُفَتِّحَنَّ بِهِ النَّاسُ ، وَيَفْتَنُونَ بِهِ زَمَنًا طَوِيلًا^(١) ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

مَا جَفَّ لِلْعَيْنَيْنِ بَدٌّ سَدَّكَ يَا قَرِيرَ الْعَيْنِ تَجْرِي
إِنِّ الصَّبَابَةَ لَمْ تَدَّغْ مَتَى سَوَى عَظْمٍ مُبْرَى
وَمَدَامِجَ عَصْبِي عَلَى كَيْدٍ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَمِي

وله حكم تشبه حكم ابن المقفع ، كأن يقول : الأقدام مطايا النطن .
قَرِيبُكَ مِنْ قُرْبٍ مِنْكَ خَيْرُهُ ، وَابْنُ عَمِّكَ مِنْ عَمِّكَ نَفْسُهُ ، وَعَشِيرُكَ
مِنْ أَحْسَنِ عَشِيرَتِكَ ، وَأَهْدَى النَّاسِ إِلَى مَوْدَتِكَ مَنْ أَهْدَى بَرَّهُ إِلَيْكَ »
وكتب يوصي بشخص فقال : « موصل كتابي إليك أنا : فكن له أنا » وعلى
الجملة فالعتابي شخصية نادرة ، لم تقدّر قدرها اللائق بها . قليل اللفظ ، غزير
المعنى ، يدل نثره وشعره على ثقافة واسعة ، قد اجتمع له من الإجادة في النظم
والنثر ما ندر أن يجتمع لنثريه ، وقد أدركنا سبب ذلك مما علمنا من ثقافته .

هؤلاء الفرس الذين ترمّوا ، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظّ من
الثقافة الفارسية ؛ ملأوا الدنيا في هذا العصر المباهي علماً وحكمة وشعراً ونثراً ،
فيها العنصر الفارسي واضح جلي . ومن حظ العربية وتقدّك أنها سادت اللغة
الفارسية وغلبتها على أمرها ، فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة ؛ إما هو
باللغة العربية لا الفارسية ، شعرُ الشاعر منهم عربي كبشار ، وأدب الأديب
منهم كابن المقفع ، وناليف المؤلف منهم عربي كابن قتيبة والطبري الخ .

ثالثاً — أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي . وقد كان ذلك من جملة

وجوه :

(١) أغاني ١٢ : ٢ .

١ — أن الأدب — في كل عصر — ظل الحياة الاجتماعية . وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة ، أظهر لون فيها اللون الفارسي .

وبيان ذلك : أن الماديات الفارسية تغفلت في الناس في ذلك العصر ، كان مظهرها واضحاً جلياً . فالناس يتخذون يوم النيروز عيداً لهم كالفرس قديماً ، والقضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس ، ومجالس الفناء واللهو والشراب هي مجالس الفرس . والفضل بن سهل وزير المأمون — وهو فارسي — يحال حتى يُنفع للمأمون بتغيير السواد بالخضرة ، ويكتب إلى جميع العمال أن يعملوا أعلامهم وقلانسهم خضراً ، والخضرة هي لباس كسرى والجوس^(١) . ونظام الحرب وإدارة الدولة ، اتبعت — في أغلب الأحيان — نظام الفرس في حروبهم وإدارتهم ، إلى كثير من أمثال ذلك .

والفرس من قديم يتألون إلى الإفراط في الشراب ، والإفراط في الفناء . حتى وصفهم « هيرودوت » بالإيمان في ذلك ، والفنوة فيه وتصريفهم شؤون الدولة وهم سكارى .

وبروي حمزة الأصفهاني أن « بهرام جور » أمر الناس أن يعملوا من كل يوم نصفه ، ثم يستريحوا ويتوافروا على الأكل والشراب واللهو ، وأن يشربوا على سماع الفناء فمزّ الفنون . . . ومن يقوم بشربون على غير ملهين (مفتين) قال : أليس قد نهيتكم عن الفعلة عن الملاهي ؟ فقالوا : طلبناه زيادة على مائة درهم فلم نقدر عليه ! فكتب إلى ملك الهند يستدعي منه ملهين ، فبعث إليه اثني عشر ألف رجل منهم ، فقرعهم على بلدان مملكته ففتنساوا بها . فما أن قرئت الدولة العباسية ، حتى عاد الفرس إلى سيرتهم الأولى . فلأوا الجوع غناء ونبيذاً ولهاً وترقاً ، ورأينا رجالهم في كل فن من هذه الفنون هم

(١) الجعشاري ٣٩٦ وما بعدها .

قادة الناس في ذلك . فإبراهيم للوصول وابنه إسحاق ، ينشران اللهو الطريف
والفناء الخلو ، ويعلمان الجوارى ، ويقدمان للناس المثل في حياة السرف
والإتلاف في تحصيل الذائد وكانا مع حسن صوتهما — وخاصة إسحق —
عاليتين أديبين شاعرين . وقد وضع إسحق علم للوسيقى في الدولة العباسية وألف
فيه وأوسع الناس بنائهما وقلوبهما في قنهما ولحومها ، ولما مات إبراهيم رثاه
الشعراء بما يدل على أثره فيهم ، فمن قائل :

تَوَلَّى التَّوَصُّلُ قَدْ تَوَلَّتْ بَشَائِشُ الزَّاهِرِ وَالْتِيَانِ
وَأُمُّ بَشَائِشِ بَيْتٍ فَتَبَقَى حَيَاةُ لِلْوَصْلِ عَلَى الزَّمَانِ !
سَبَّحِيهِ لِلزَّاهِرِ وَاللَّاهِي وَتُسَمِّدُهُنَّ عَاتِقَةُ الدَّانِ (١)

ومن قائل :

سَبَّحِيهِ أَشْرَافُ لِلْوَكِّ إِذَا رَأَوْا تَحَلَّ التَّمَايُ قَدْ خَلَا مِنْهُ جَانِبُهُ
وَيَسْكِيهِ أَهْلُ الظَّرْفِ طَرًّا كَأَبْكِي عَلَيْهِ أُمِيرُ لِلزُّمَيْنِ وَحَاجِبُهُ !

ومن قائل :

أَصْبَحَ اللَّهُوْ تَحْتَ عَفْرِ التُّرَابِ قُلُوبًا فِي حَيْلَةِ الْأَحْيَابِ
إِذْ تَوَلَّى التَّوَصُّلُ فَأَقْرَضَ اللَّهُوْ بَخِيرَ الْإِخْوَانِ وَالْأَحْيَابِ
بَكَتِ لِلْسُّمُوعِ حَزُنًا عَلَيْهِ وَيَكَاهُ اللَّهُوْ وَصَقُّ الشَّرَابِ
وَبَكَتِ آلَةُ الْجَالِسِ حَتَّى وَجِمَ الْعُودُ دَمْعَةَ الْمَضْرَابِ (٢)

ويشار بن بُرد الفارسي كان إمام المحدثين ، والتأج لم باب التهنيت
على مضرأعيه ، سار شعره في العراق فلا غزل ولا غزلة إلا يروى من شعره ،
ولا نائحة ولا مغنية إلا تنكسب به ، ويأتيه النساء في بيته فيأخذن عنه شعره .

(١) تسمة : تعين حل البكاء ، ويعنى يماثلة للفتان الحمر . (٢) أغاني ٥ : ٧ وما يبعها .

ويقول سَوار بن عبد الله ومالك بن دينار : « ما شيء أذعى لأهل هذه المدينة (البصرة) إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ! » وكان واصل بن عطاء يقول : إن من أذع حَبائل الشيطان وأغواها لَكَلِيَّاتِ هذا الأعمى للحداد ! ^(١) ويقول بشار : « عُسْرُ النَّسَاءِ إِلَى مُبَاسَرَةٍ » فيشجع الفتيان على الإيمان في المفاصلة والإحلاح في الطلب ^(٢) . فلما فتح هذا الباب لج فيه من أتى على أثره ، سواء في ذلك العربي والعجمي : كمطيع بن إياس ، وأبي نواس . وكان لنا من هؤلاء جميعاً أدب داعر ، لا يتعفف عن الغث بالغلان ، ولا يسكنى عن غش ، إن ملَّح من ناحيته الفنية ، فالنوق النبيل لا يستسيغه .

نعم ؛ في الأدب الجاهلي خمر تراه في مثل شعر طرفة ، وفُضُّ تراه في مثل امرئ القيس « تَقُولُ وَقَدْ مَالَ النَّبِيْطُ بِنَا مَعَا » و « أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البالي » وكان في الأدب الأموي خمر كالتي في شعر الأخطل . وكان غزل مكشوف كغزل عُمر بن أبي ربيعة . ولكن أين هذا كله من شعر بشار وصريع النَوَّانِي ومُطِيع بن إياس ، وأبي نواس ! قد كان فجور الأولين ساذجا بسيطاً في أنفاظه وممانيه كميشتهم ، وكان فجور الآخرين مركباً مُمِناً في الوصف ، شاملاً لكل المظاهر ، ومشاعر الشهوة ، يصير أقيح اللفظ لأقيح المعنى .

قد تقول ، إن هذا نتيجة طبيعية لسير المدنية ، فلما تقدّمت بالناس حياتهم الاجتماعية ، وما يتبعها من ترف تقدم الشعر والأدب يُسايران عيشة الترف والنعم . فما للفرس ولهذا ؟!

وقد يكون في هذا القول كثير من الصحة ، ولكنني أظن أن الأمر ما كان يصل إلى هذا الحد لولا الفرس ، فهم الذين دفعوا الناس إلى حياة ترف

(١) أغانى ٣ : ٣١ .

(٢) انظر قسمته في ذلك في الأغانى ٣ : ٥٢ .

أَفْهَواهم وآبَآؤُهم عن عهد الأكَسَرة.. وعلوم كيف يكون الإفراط في طلب اللال من طرق فَنِيَّة أَكسبتهم إِيَّاهَا حضارتهم القديمة — لا من طريق سادَج كالذي يعرفه العرب — هل كان يعرف العرب مجالس الفناء المتقنة ، ومجالس الشراب المترفة ، وحيَاة النعيم الناعمة لولا القرس ؟ فعضاء القرس كالبرامكة وأمثالهم أُرشدوا الناس إليها ، وقناتوم كإبراهيم الموصلى غتوم عليها ، وشعراهم كبشار بن بُزْد كانوا لسانهم الناطق بها ، الحدّث عنها ! ولو كانت الحياة الأموية امتدّت وظلت السيادة العربية ، ما رأيت تشبيهاً بفلان ، ولا هذا السيل الجارف من القيان ، ولما رأيت نعيماً وترفاً وفيراً ! » ألم تر الشام ومصر والأندلس في هذا العصر نفس — لم تنفس في الترف كما انفسست العراق وفارس ، ولم يكن أديباً ناعماً داعراً كالذي كان في العراق . قد تكون كثرة المال يُصَبّ في حاضرة الخلافة سبباً للترف في الحياة ، والترف في الأدب . ولكنّ اللال وحده لا يكفي لولا المنصر الفارسي الذي كان ينظم كيف يستخدم اللال في هذه السبيل .

من الحق أن تقول : إن هذه النزعة إلى اللهو والترف لم تكن نزعةً عامة شاملة للفرس ، بل كان هناك نزعات أخرى يمانها ، أظهرها ما كان يقابلها من نزعة الزهد . وكان زعيم هذه النزعة في الأدب أبا العتاهية الفارسي أيضاً .

قد كان قبل أبي العتاهية حياة زهد في الجاهلية وفي العصر الإسلامي ، وكان قبل أبي العتاهية شعر زاهد . ولكنّ أبا العتاهية أتى في هذا الباب بما لم يُسبق إليه ، وزاد في معانيه زيادة بَشَّار وأبي نواس في أدب اللهو والمجون . وأصبح تعبير في ذلك أن تقول إنه قَلَسَف الزهد ، وملاً الأدب العربي — في عصره — بالموت والتخوف منه وبما بعده ، واحتقار اللذة ، والجد في الحرب منها .

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ^(١)
لَيْتَ نَبِيٍّ وَنَحْنُ إِلَى تَرَابٍ نَصِيرُ كَمَا خَلَقْنَا مِنْ تَرَابٍ ؟
أَلَا يَا مَوْتُ لَمْ أَرْ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ وَمَا تَحِيْفُ وَمَا تُحَايِي !



طَلَبْتُكَ يَا دُنْيَا فَأَعَذَرْتُ فِي الطَّلَبِ فَمَا نِلْتُ إِلَّا الْمَهْمَ وَالنِّقَمَ وَالنَّصَبَ
فَلَسَا بَدَا لِي أَتَقَى لَسْتُ وَاصِلًا إِلَى الدِّقَةِ إِلَّا بِأَضْعَافِهَا تَعَبٌ
وَأَسْرَعَتْ فِي دِينِي وَلَمْ أَقْضِ بُقِيَّتِي هَرَبْتُ بِدِينِي مِنْكَ إِنْ شَغَّ الْحَرْبُ
وَشَغَرَ لِمَجُورِ النَّاسِ لَا لِلْخَاصَةِ ، وَقَالَ : « إِنْ الزَّهْدَ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ
الْمُلُوكِ ، وَلَا مِنْ مَذَاهِبِ رُؤَاةِ الشُّرَهِبِ ، وَلَا مَلَائِبِ الْفَرِيبِ . وَهُوَ مَذْهَبُ
أَشَقَفِ النَّاسِ بِهَ الزَّهَادُ ، وَأَهْجَابِ الْحَدِيثِ ، وَالْفَقَهَاءِ ، وَالْعَامَةِ ، وَأَعْجَبِ
الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِمْ مَا فُهِمَوه^(٢) . وَقَالَ لِلْبُرْدَةِ : « كَانَ يُخْرِجُ الْقَوْلَ مِنْهُ كَمَا تُخْرِجُ النَّفْسُ
قُوَّةً وَسَهْلَةً وَاقْتِدَارًا » .

وَقَدْ كَانَ لَشَرْهِه صِبْغَةٌ عِلْمِيَّةٌ دِينِيَّةٌ فِلَسُفِيَّةٌ ، قَالَ الثَّوَلِيُّ : « كَانَ مَذْهَبُ
أَبِي الْعَتَاهِيَةِ الْقَوْلُ بِالتَّوْحِيدِ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ جَوْهَرَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ لَا مِنْ شَيْءٍ ،
ثُمَّ إِنَّهُ بَنَى الْعَالَمَ هَذِهِ الْبَيْنِيَّةَ مِنْهُمَا ، وَأَنَّ الْعَالَمَ حَدِيثُ الْعَيْنِ وَالصَّنْعَةُ لَا مُخْدَتِ
لَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ سَيَّرَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى الْجَوْهَرَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ قَبْلَ
أَنْ تَقْفَى الْأَعْيَانُ جَمِيعًا ، وَكَانَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ لِلْعَارِفِ وَاقِعَةً بِقَدْرِ الْفِكْرِ
وَالِاسْتِدْلَالِ وَالبَحْثِ طَبَاعًا^(٣) . وَكَانَ يَقُولُ بِالْوَعِيدِ ، وَبِتَحْرِيمِ الْمَكْسَبِ ،
يَتَشَبَّهُ بِمَذْهَبِ الزُّنَيْدِيَّةِ الْبُيْهَرِيَّةِ اللَّيْثِيَّةِ لَا يَنْتَقِصُ أَحَدًا ، وَلَا يَرَى مَعَ ذَلِكَ
الْمُخْرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَكَانَ مَجِيْرًا^(٤) . »

(١) العِيَابُ : الْقِسَادُ وَالْخَلَاكُ . (٢) دِيَوَانُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ص ٢٥ . (٣) فِي ذَلِكَ يَقُولُ :

وَإِنَّمَا الْقَسَمُ مِنْ قِيَاسٍ وَمِنْ حِيلٍ وَمِنْ سَبَاحٍ

(٤) الْأَعْيَانُ ٣ : ١٢٨

وعلى الجلة فالشعر الدينى الذى كان يحمل لواءه — فى ذلك العصر — صالح ابن عبد القدوس وأبو العتاهية ؛ فيه نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديما ، وسنرى عند الكلام فى التصوف أثر الفرس فى حياة الزهد ، ولكن يمكننا أن نقول الآن : إنه إن كان فى نزعة بشار الإياحية عنصر مزدكى ، فى نزعة أبى العتاهية الزاهدة عنصر مانوى .

وقد كان للفرس أثر كبير فى الأدب غير هذا الذى ذكرناه ، فقد كانت كتبهم فى القصص التى نقلت من الفارسية إلى العربية ، ككلىة ودمنة وهزار إفسانه أساسا من الأسس التى بنت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربى . فابن النديم يروى أن محمد بن عبدوس الجمشيارى صاحب كتاب الوزراء « ابتدا بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يملق بغيره ، وأحضر للسامعين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما يحلها بنفسه ، وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك أربعائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ، وأقل وأكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تميمه ألف سمر » (١) .

وضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير ، وهو باب « التوقيعات » ذلك أن الفرس — قبل الإسلام — كانوا يُننون بالبلاغة عناية كبرى ، وكان لهم فيها تأليف كما حكى الجاحظ . وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة والحكم التوقيعات . قد كان الفرس — ككل الشعوب — يرفعون إلى ولاة أمورهم أوراقا تتضمن طلبا لشيء أو شكوى من شيء ، نسميها نحن الآن « عرائض » وكانت تسمى عند العرب « قِصصا » سميت كذلك على سبيل المجاز ، لأن

(١) ابن النديم ص ٣٠٤ .

القصة اسم المحكى في الورقة ، فسميت الورقة قِصْبًا « قصة » وكانت تسمى كذلك رِقَاعًا ، لصغر حجمها تشبيهاً لها برقعة الثوب .

كانت هذه القصة ترفع إلى الملك ، أو من يليه تبعاً لموضوعها ، وتبعاً للمتظلم وقدره . وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بمباراة بليغة ، أو حكمة حكيمة . يُتَخَذُ لها أحسن اللفظ ، وأجود المعنى . وتُنَاقَلُ أثرًا من الآثار القيمة ، كما ينقل للتلُّ الجيد . وقد ظل لهذه أدبنا العربي الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس ؛ من ذلك ، أن رجلاً رفع إلى كسرى بن قُبَادِ رُقعة يخبره فيها أن جماعة من بطانته قد فسدت ثيابهم ، وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان ، فَوَقَّعَ في أسفل كتابه ؛ إنما أملك ظاهراً الأجسام لا النيات ، وأحكم بالمدل لا بالمعوى ، وأخس عن الأعمال لا عن السرائر ! .. ووقع أنوشروان في قصة محبوبس : من ركب ما نهي عنه حيل ما بينه وبين ما يشتهي ! ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قُبَادِ بِمدحٍ أُطْلِبَ فيه وأسهب ، وذهب كل مذهب ، وكان المدح في رقعة فَوَقَّعَ فيها كسرى « إِنِّي للمدح مستصير ؛ لعلى بأشياء قد مُدِّحَتْ ، وكانت بأن تَذمَّ محقوقة » الخ . الخ . ولما تحضر العرب وانتشرت بينهم الكتابة ، وحرروا مظلالمهم على رِقَاع — بعد أن كانوا يُشَاهِون بها أسراءهم — كان لهم توقيع . وقد شلت توقيعات في أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، أخشى أن يكون كثير منها كان شفهيًا فُجِّرَ إلى توقيع . ولكن قد سال سيل التوقيعات في عهد بنى العباس ، وكان أكثر الكتاب والوزراء فرساً فساروا فيها على سَنِّ آبائهم . وكثر ذلك حتى أنشوا فيما بعد ديواناً أُمَموه « ديوان التوقيع » .

هذا إلى أنه كانت للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وأدب كثير ، وُضِعَ تحت أعين العرب . قال أبو هلال العسكري في رسالته « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » : « للفرس أشعار لا تُضْبَطُ كثرةً ، ولليونانيين

أشعار دوت الفرس» ويقول في موضع آخر : « سمعت أبا بكر بن دُرَيْدٍ يقول : اجتمع في ديوان صالح بن عبد القدوس — وهو رجل من شعرائهم — ألفٌ مَثَلٌ للرَبِّ ، وألفٌ مَثَلٌ للمعجم »^(١) وترجعت بعضُ أمثال المعجم إلى العربية ، مثل : عَفُوُ الْمَلِكِ أَبْقَى لِلْمَلِكِ ، خَاطَرَ من استغنى برأيه ، الأسد يفترس الأرنب إذا أعياه التَّيَرُ ، الفِرَارُ في وقته ظَفَرٌ ، امْنَعْ أخاك من أكلٍ الخبيث فإن أبي فأعطيه ملقة ، من أوقد نار الفتنة احترق بها ، لا تستبعد غداً وما بعده ، هو يطلب الثمر بلا شوك^(٢) .

وكانت هذه المعاني الفارسية تُسرق وتنظم أو تحتذى ، يقول بُرْزُجِيمِرُ :
« إذا أقبلت عليك الدنيا فأفلق فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأفلق فإنها لا تبقى » فيقول الشاعر :

فَأَفْلِقْ — إذا أفلقت — إن كنت موسراً
وأفلق — على ما خيلت — حين تُفسِرُ
فلا الجود يُفنى المالَ والبدُّ مقبِلٌ
ولا البخلُ يُبقي المالَ والجِدُّ مُذِيرٌ^(٣)

ويخطب أردشير لما استوثق له الملكُ يحرّض الناس على الألفة والطاعة ، ويقوم بين يديه خطيب فيقول له : « قد أشرق علينا من ضياء نورك ما عشنا عوَمَ ضياء الشمس ، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم ، فجمعت الأيدي بعد افتراقها ، والكلمة بعد اختلاها ، وألقت بين القلوب بعد تباعضها ، وأذهبت الإحْسَنَ والحسائِكَ بعد استعمار نهراتها » فيقول خالد بن صفوان مثل هذا المعنى يخاطب والياً : « قَدَمْتُ

(١) مجموعة رسائل طبع الجوارب ص ٢١٧ . (٢) انظر كتاب بحاص الفصالي ص ١١ وما بعدها . (٣) ميون الأخبار ٢ : ١٧٩ .

فأعطيت كلا يشغله من نظرك ومجاسك وصلاتك وعدلك ، حتى كأنك من كل أحد أو كأنك لست من أحد ! »^(١) .

وقيل لابن القفّح ، لم لا تطلب الأمور العظام ؟ قال : رأيت العالي مشوبة بالكمّاره ، فاقصرت على الخمول ضناً بالمافية ، فأخذت المتأبى وقال :

دَعَيْتُ تَجَنُّيَ مِيتَى مُطْمَئِنَّةٍ وَلَمْ أَتَجَسَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْوَارِدِ
فَإِنْ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةٌ بِمَسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ^(٢)

وينصح طاهر بن الحسين الفارسي ابنه عبد الله — لما ولّاه للأمون والرفقة ومصر — بكتابه للشهور ، ويوصيه فيه بجميع ما يحتاج إليه في دولته من الآداب الدينية والخلقية والسياسة والشرعية واللوكية ؛ فطلع فيه شيئاً كبيراً بينه وبين ما نُهل إلينا من عهد أردشير^(٣) .

ويكتب أبو مسلم الخراساني للمنصور حين أمره بالقدوم عليه : « أما بعد ؛ فإنه مما حفظناه من وصايا القرس » أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت اللهام^(٤) .



وشيء آخر كان له أثر كبير في الثقافة الإسلامية ذلك ما انتبه إليه ابن خلدون من « أن سحكة العلم في الملة الإسلامية أكثر من المعجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية^(٥) » إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبته

(١) ميون الأخبار ١ : ٩٧ (٢) محاضرات الأدباء للأصفهاني ١ : ٢٧٧ والأسود : الحيات العظيمة . (٣) انظر كتاب طاهر بن الحسين في مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٤ وانظر عهد أردشير في كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه ١ : ٨٩ وما بعدها (٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥ (٥) هذا تمييز يستعمله ابن خلدون كثيراً يريده به سواه في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية .

فهو عجبي في لفته وعزّاه ومشيجته ^(١) . ويمثل ذلك بأن العلوم من جملة الصناعات، والصناعات من خصائص الحضرة، والعرب كانوا بدواً فكانت العلوم من نتاج الحضرة . والحضر في ذلك العدم العجم، ومن في معنهم من اللوالب . ويقول : « فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ، والفارسي من بعده ، والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما رثوا في اللسان العربي فاكسبوه بالمرثي ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وقتاً لمن بعدهم . وكذا جملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم ، أو مستجمعون باللغة والمرثي ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا جملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق يحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلق العلم بأكتاف السماء لئلا قوم من أهل فارس » ^(٢) .

ونحن نعتقد أن ابن خلدون — مع دقة ملاحظته — قد غالى فيها غلوّاً كبيراً وبحس العرب نصيبهم في المشاركة . فلئن كان أبو حنيفة النعمان فارسياً قالك والشافعي وأحمد بن حنبل عرب ، ولئن كان سيبويه فارسياً فشيخه الخليل ابن أحمد عربي . وليس كل علماء أصول الفقه عجم كما يقول ؛ فواضحه وأول مؤلف فيه الشافعي وهو عربي ، وغلو أن يدعى أن هؤلاء العلماء العرب هم عجم بالمرثي ، فإن الترتبي كان مزيجاً من عرب وعجم .

ولكن مما لا شك فيه أن العجم — وخاصة الفرس — كانوا في جملةهم أقدر على التدوين والتأليف للسبب الذي ذكره ابن خلدون ، وهو تعمقهم في الحضارة ، ولأنهم مرتّون من قديم على التأليف بلغتهم وآبائهم ، فلما دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية كانت تأليفهم بالعربية سهلاً يسيراً ، لأنه ليس إلا احتذاء المنهج ، وإن اختلف الموضوع واللغة .

(١) مقالة ص ٤٧٧ .

(٢) ابن خلدون مقالة ص ٤٨٧ .

— إذن — لا يجب من أن نرى في عصرنا الذي نؤرخه كثيراً من الفرس ،
كانوا من السابقين الأولين في تدوين العلوم المختلفة .
فالإمام أبو حنيفة النعمان إمام المذهب ، وجماد الراوية جامع المثلقات
العشر ، وراوى كثير من الشعر الجاهلى ، وبشار بن بُرْد أحد المحدثين من
الشعراء ، وسيبويه الإمام المقدم فى النحو وتدوينه ، والكيسانى أحد الأئمة
الأعلام فى النحو واللغة والقراءات ، وهو أحد القراء السبعة ، والقراء أربع
الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وأبو عبيدة مقرر بن المثنى العالم
باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامها ، وذو النزعة الشعموية ، أبو العتاهية شاعر
الزهد ، وابن قتيبة المؤرخ الأديب ، صاحب التآليف الكثيرة ككتاب المعارف
وعيون الأخبار . كل هؤلاء — وغيرهم ممن لم نذكرهم — كانوا فرساً وكان لهم
أثر كبير فى الثقافة العربية الإسلامية .

قد كان وراء هذه الثقافة الفارسية ، وهؤلاء العلماء الفرس قوًى تحمينا
وتدفعها . هذه القوًى ظاهرة أحياناً وخفية أحياناً ، وتعلو على نية خير أحياناً
ونية سوء أحياناً . منهم من يريد خدمة العلم ، والعمل على نشره ، لا يريد بذلك
إلا وجه الله والعلم ، ومنهم من يريد أن يشيد بالقومية الفارسية ، والخط من
القومية العربية ، بل منهم من يريد الكيد للإسلام وأهله . ومنهم من يرى
أن الحكمة ضالة المؤمن يشدّها حيث وجدها ، ويعمل على إذاعتها . ومنهم
من ينشر شعوبية ، ومنهم من ينشر زندقة ، ومنهم من يفلو فى التشيع لأهل
البيت ، وهو يصير السوء للمسلمين . كل هذا انخير وكل هذا الشر كان فى
الزعات الفارسية ، وسيأتى توضيح لبعض ذلك فى أبوابه .

يقول الجاحظ فى وصف الفرس : « واعلم أن هذه الأحاديث من
أحاديث الفرس ، وهم أصحاب نفع وتزيد ^(١) ، ولا سيما فى كل شيء مما يدخل

(١) النفع : التفخر والكبر ، والتزيد المبالاة والكذاب .

في باب العصبية ، ويزيد في أُنذار الأَكاسرة ^(١) . وقد كان من أعظم من يحصى الثقافة الفارسية ، وينشرها « البرامكة » الفُرس ، ومالهم من مال وفير ، وكرم واسع ، يحقق رجاءهم ، ويسقط خوزهم . روي الجاحظ عن ثُمّامة ، قال كان أصحابنا يقولون : لم يكن يُرى لجليس خالد (البرمكي) دارٌ إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمّه إن كانت أُمّة ، أو أدّى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حملها عليها إما من تتاجه أو من غير تتاجه ^(٢) . وهم مع هذا وذاك متقنون ثقافة واسعة ، وفي الغاية من العلم والأدب والفصاحة ؛ يقول سهل بن هارون في وصف يحيى بن خالد البرمكي ، وجعفر بن يحيى : « لو كان كلام يُتصوّر دُرّاً ، أو يحمله المنطق السرى جوهرًا لكان كلامهما ، وللتقى من لفظهما ! » ويحيى بن خالد ينشئ السكتائب للأُتُيَام ^(٣) ، ويتحبّب إلى الناس ، ويحبّب الناس أولاده . ويقول لولده : « لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلة الناس ؛ فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهي بهم أحسن ، وللمعروف عندم أشهر ، والشكر منهم أكثر ! » ^(٤) .

ما لقينا من جود « فضل بن يحيى » تركَ الناسَ كلَّهم شعراء ! كان هؤلاء البرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثقافة الفارسية ، فالفضل ابن سهل الفارسي ، الملقب — فيما بعد — بذي الرياستين ، ينقل كتابًا من الفارسية إلى العربية ليحصى البرمكي ، فيعجب بفهمه وبمجودة عبارته ، فيدعوه يحيى إلى الإسلام لينال المناصب ^(٥) . وهو بعد أن أصبح ذا الرياستين يبعث بمولاه ، وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ، ويقول لهم تعلموا منه الحكمة ، ثم

(١) الحيوان ٧ : ٥٦ (٢) الجهمياري ١٧٣ وتاريخ بغداد ٤ : ١٥٤ .

(٣) انظر الجهمياري ص ٢١٢ . (٤) المصدر نفسه ص ٢١٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٨٧ .

يعرضون ما يعلمهم الشيخ على الفضل بن سهل ، فيتبين فيها الأثر الفارسي ^(١) . وقد عُرف عن البرامكة إيوائهم لكثير من عُرفوا بحرية الرأي ، أو أشبهوا بالزندقة . فكانت البرامكة تحسن إلى محمد بن الليث الخطيب ، وتقدمه وكان ممن يرى بالزندقة ^(٢) . وكان هشام بن الحكم الرافض متقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي . وكان التميمي يجالس كلامه ونظيره ، وقد أُلّف كتباً كثيرة في الخلافة ، ومسائل علم الكلام ^(٣) .

ومن الحق أن نذكر أن البرامكة لم يشجعوا الثقافة الفارسية وحدها ، بل شجعوا كل ثقافة . فابن النديم يروي عند الكلام على كتاب الجسعي في الهيئة ، أن أول من عُنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية ، يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره له جماعة فلم يقتنوه ، ولم يرض ذلك فندب لتفسيره أبا حسان ، وسليماً — صاحب بيت الحكمة — فأقتناه واجتهدا في تصحيحه ^(٤) . كما أنه أمر بتفسير كتاب في الطب ، لكنه الهندي ^(٥) ، وبعث يحيى أيضاً رجلاً إلى الهند ليأتيه بمقايير موجودة في بلادهم ، وأن يكتب له أدبياتهم ، فكتب له هذا الكتاب ^(٦) .

فهؤلاء البرامكة ، وإن عُنوا بالثقافة الفارسية ؛ فقد عُنوا بجانبها كذلك بالثقافة اليونانية والهندية والعربية .

والآن نستطيع أن نختار رجلاً يمثل الثقافة الفارسية خير تمثيل وليكن « ابن المقفع » ،

(١) زهر الآداب حل هاشم المقه ٣ : ٢٦٩ . (٢) ابن النديم ص ١٢٠ .
(٣) انظر ابن النديم ص ١٧٥ . (٤) ابن النديم ص ٢٦٨ .
(٥) المصنف نفسه . (٦) ابن النديم ص ٤٣٥ .

ابن المقفع

لسنا نريد أن نبحث في ابن المقفع بحثاً تحليلياً ، في مولده وأسرته ، ومناصبه التي تولاها ، وعلاقته بالولاة والأمراء . ولا أن نبحث طويلاً في مقدراته البلاغية وأسلوبه ، وأثره في أسلوب عصره ومن أتى بعده ، فذلك بالناحية الأدبية أشبه . وإنما نريد أن نبحث فيه من ناحية ثقافته الواسعة ، وآثاره الخالدة ، ومن ناحية أنه نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة ، لَقِيَتْ بعدُ بِلِقَاحِ عربي ، فكان من هذا وذاك أدبٌ جَمٌّ ، مَدِينٌ في أكثر معانيه للفرس ، وفي أكثر ألفاظه وأساليبه للعربية .



ابن المقفع ، فارسي الأصل اسمه « رُوزْبِيَه بن دَاؤِيَه » كان أبوه من قرية اسمها « جور »^(١) ، من إقليم فارس ونشأ ابن المقفع بالبصرة في ولاء « آل الأئمة » وهم معروفون بالفصاحة واللسن ، وخالط الأعراب وأخذ عنهم . وكان أبوه يدين بمذهب زرادشت ، ونشأ ابن المقفع — كأبيه — زرادشتياً وتقلد الكتابة لكثيرين ، فكتب ليُزَيْد بن عمر بن هُبَيْرَة ، وكان يُزَيْد والياً على العراق لمَرْوان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ثم كتب لأخيه داود بن عمر بن هُبَيْرَة ، ثم اتصل بعباس بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور ، وكان — إلى هذا المهد — لا يزال مجوسياً ، فأسلم على يديه وكتب له ، ثم قتل لتشده — على ما يقول كثير من المؤرخين — في كتابة صيغة الأمان التي وضعها ابن المقفع ليوثق عليها أبو جعفر المنصور أماناً لعبد الله بن علي فأفرط ابن المقفع في الاحتياط فيها ، حتى لا يجد المنصور منفذاً

(١) ورد في النهرست « جوز » خطأ وورد الاسم صحيحاً في الجهشيارى .

فيها للإخلال بعده^(١) ، ففاظ المنصور ذلك فأوغر بقتله .

ولم نجد للمؤرخين سبباً آخر لقتله ، إلا ما حكاه الجاحظ : من أن ابن المقفع كان أغرى عبد الله بن علي بالمنصور فقتل له وقتل^(٢) . وكان قتله سنة ١٤٢ هـ أو ١٤٣ هـ أو ١٤٥ هـ على خلاف في ذلك^(٣) .

نستطيع أن نستنتج من هذا نتيجتين هامتين :

(الأولى) أنه لم يقض من حياته في العصر العباسي إلا نحو عشر سنوات ، أما بقية حياته فقد قضاها في العصر الأموي ، وشهد اضطهاد العرب للموالى ، وشاركهم في محنتهم وبزيمهم — أيام الأمويين — ولم يكن مسلماً يلطف دينه من كرهه للعرب — كما كان شأن المتدينين — فلا بد أن يكون قد أقسم بكره العرب ، وشاهد الدعوة العباسية ، واشتراك الفرس فيها ، وتمنى كما تمنوا أن يرفع عنهم نير الأمويين ، وسر كما سروا باستيلاء العباسيين .

(الثانية) أنه نشأ مجوسياً زرادشتياً ، وقضى زهرة شبابه في أحضان المجوسية ، متفقاً بثقافتها ، ولم يُسلم إلا قبل قتله ببضع سنوات ، بعد أن تكون ونضج ، وتقلد الكتابة للكثيرين . وكان قبل إسلامه مستمسكاً بدينه ، فلما أراد أن يسلم قال له عيسى بن علي عم المنصور : ليكن ذلك بمحض من القواد ، ووجوه الناس ، فإذا كان الغد فاحضر . ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس يأكل ويزمزم — على عادة المجوس — فقال له عيسى : أترزمم وأنت على عزم الإسلام ؟ فقال أكره أن أبيت على غير ديني ! فلما أصبح أسلم على يده فسقى ببعد الله ، وستعرض لهذا الموضوع عند الكلام في زندقته .

(١) انظر الجعفي ص ١١٠ .

(٢) انظر ثلاث رسائل الجاحظ ص ٤٧ .

(٣) لم نر فيما بين أيدينا من الكتب القديمة تاريخاً لمولاه ابن المقفع وقد ذكر بعض الباحثين أنه ولد سنة ١٠٦ هـ وإن صح فيكون قد قتل وهو شاب لم يتجاوز الأربعين .

وابن اللقّع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي ، قوى في خلقه ، قوى في عقله وسعة علمه ، قوى في لسانه .

أما خلقه فنبيل وكرم ، وتمهّد لنوى الحاجات يواسيهم ، وتقدير دقيق للصدّاقة ، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجلر والأنبل ، ورغبة شديدة في إصلاح الراعي والرعية — خلقياً واجتماعياً — إلى ظرف الخاصة ، والتمسك بأداب اللياقة ، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه النوق .

نستنتج هذا مما قصه علينا المؤرخون ، ومما تلصّحه في كتبه التي بين أيدينا . قال سعيد بن سلم : قصّدت الكوفة ، فرأيت ابن اللقّع فرحّب بي ، وقال : ما تصنع هنا ؟ قلت ركبتي دين . قال : هل رأيت أحداً ؟ قلت رأيت ابن شجرمة فوعدني أن أكون مربّياً لبعض أولاد الخاصة . فقال : أف أيمهلك مؤدّباً في آخر حرك . أين منزلك ؟ فمرّفته ، فأتاني في اليوم الثاني ، وأنا مشغول بقوم يقرءون عليّ — فوضع بين يدي منديلاً فإذا فيه أسورة مكسورة ، ودرهم متفرقة مقدار أربعة آلاف درهم ، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعملت به^(١) . ويقول الجهشيارى فيه : « كان سرّاً سخياً ، يعلم الطعام ويتّسع على كل من احتاج إليه ، وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالاً ، فكان يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسة إلى الألفين في كل شهر »^(٢) . ثم هو صديق لعبد الحميد الكاتب ، فيطلب عبد الحميد ليقّتل ، وهو معه ، فيقول الذين دخلوا عليهما أيكما عبد الحميد ؟ فيقول كلّ واحد منهما « أنا ! » خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن اللقّع فقال : « ترقّوا فإنّ في علامات ، ووكلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك الملامات ففعل ذلك »^(٣) .

(١) محاضرة الأدباء : ٢٩ . (٢) الجهشيارى ١١٧ . (٣) الجهشيارى ٧٩ .

ويصفه الجاحظ فيقول : « كان جواداً فارساً جليلاً ، ويدعوه عيسى بن على للغداء ، فيقول : أعز الله الأمير ! لست اليوم للكرام أكيلاً . قال : ولم ؟ قال : لأنني مزكوم ، والزكوة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار . ويُسَجَّب الناس بأدبه ، فيسألونه من أذك بك ؟ فيقول : نفسي ! إذا رأيت من غيري حسناً أتيتته ، وإن رأيت قبيحاً أتيتته . ويدل الباقي من كتبه على باقى ما وُصفنا من خلقه .

ثم هو واسع الاطلاع ، مضطلع باللسانين العربى والفارسى ، قل خير ما رأى باللغة الفهلوية ، إلى اللسان العربى . وهو غزير المعانى إذا كتب ، ليست كتابته جوفاء — ككثير من كتابات الناس — يَمَعِنُ فى اختيار المعنى ، ثم يَمَعِنُ فى اختيار اللفظ له ، قالوا : « كان قلم ابن المقفع يقف ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الكلام يزدحم فى صدرى ، فيقف قلبي لتخيره »^(١) . ويقول محمد بن سلام « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى الصم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع »^(٢) وقال جعفر بن يحيى : « عبد الحميد أصل ، وسهل بن هرون فرع . وابن المقفع ثمر . وأحمد بن يوسف زهر »^(٣) .

وستبين غزارة معانيه ، وقوة تفكيره مما يأتى .

(١) زهر الآداب ٢ : ١٠٤ (٢) رسائل البغاء نقلًا عن الزهر (٣) رسائل البغاء

آثاره الأدبية

ذكرنا فيما سبق ما ترجم من الفارسية إلى العربية ، وما نقله منها ابن المقفع . والآن نذكر آثاره الباقية في أيدينا ، وتعرض لها بشيء من الصلحيل وهي :

- | | |
|---------------------|-------------------------------|
| (١) الأدب الصغير | (٢) الأدب الكبير أو اليتيمة |
| (٣) رسالة الصحابة | (٤) كتيبة ودمعة . |



الأدب الصغير والأدب الكبير — كلمة الصغير والكبير وصف للكتاب وقد شاع استعمال هذا التعبير في ذلك العصر ، فقالوا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، وأحياناً يحذفون كلمة « كتاب » ويقولون « السيرة الكبير » والسيرة الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني « ومن هذا ؛ الأدب الصغير والأدب الكبير . فليس الصغير والكبير وصفين للأدب ، ولكن للكتاب المفهوم ضمناً .

والقارئ لمباراة ابن النديم يفهم أن الأدب الصغير ، والأدب الكبير غير كتاب اليتيمة فهي كتب ثلاثة ، ولكن كثيراً من الأدباء أطلقوا على الأدب الكبير اسم اليتيمة ، أو اليتيمة . كذلك يفهم من ابن النديم : أن هذه الكتب الثلاثة ترجعها ابن المقفع ، والمعروف بين الأدباء ، والظاهر من تسميته أنه ألفها . ونحن نرجح أن الأدب الكبير ليس هو اليتيمة ، وأنها كتابان مختلفان لابن المقفع . ودليلنا على ذلك :

١ — أن ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار ، يورد هذين الاسمين في مواضع مختلفة ، فيقول أحياناً « قرأت في اليتيمة » وأحياناً « في الأدب الكبير »

وما يقله عن اليقظة ليس موجوداً في الذي بين أيدينا مما يسمى اليقظة^(١) .

٢ — وردت فصول من اليقظة في كتاب للنثور والمنظوم لابن طيفور ،

لا نجد فيها بين أيدينا من الأدب الكبير الذي سمي اليقظة .

٣ — قال البقلاوي في إيجاز القرآن : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع

عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليقظة ، وما كتابان أحدهما يتضمن حكما

منقولة توجد عند حكماء كل أمة والآخر في شيء من الديانات » واليقظة

التي بين أيدينا ليس فيها فصول عن الديانات . فالراجح أن الذي بقي لنا هو

الأدب الكبير ، أطلق عليه خطأ اسم الدرة اليقظة .

وأما المسألة الثانية : وهي هل هما مؤلفان أو مترجمان ؟ فنفس الكتابين

يدلان على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً ؛ كأنهم من معنى الترجمة ، وإن كان

اعتمد في كثير من المعاني الأقدمين . قال في الأدب الصغير : « قد

وَصُمِتَ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَوْنٌ على عِمارة

القلوب وصِقَالُهَا ، وتَجَلِيَةُ أَبْصَارِهَا ، وإِحْيَاءُ للتفكير ، وإِقَامَةُ للتدبير ، ودليلٌ

على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » وقال في الأدب الكبير المسمى بالدرة

اليقظة : « إنا لم نجد — أي الأولين — غادروا شيئاً ، يحدُّ واصف بليغ في

صفته له مقالاً لم يسبقوه إليه ، لا في تعظيم الله عز وجل ، وترغيب فيما عنده .

ولا في تصغير الدنيا ، وتزهيد فيها . ولا في تحرير صنوف العلم ، وتقسيم أقسامها ،

وتجزئة أجزائها ، وتوضيح سُبُلها ، وتبيين مآخذها . ولا في وجوه الأدب وضروب

الأخلاق . فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بدم مقال ، وقد بقيت أشياء

من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حكم الأولين

وقولهم . ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي

يحتاج إليها الناس » .

(١) انظر عيون الأخبار جزء ١ ص ٣ وجزء ٢ ص ٣٥٥ منه .

وكلمة الأدب في الكتابين ليس معناها ما نستعمله الآن فيما يقابل العلم ، وإنما يطلقها ابن القفيع على معنى تهذيب النفس وانخلاق .

والأدب الصغير — عبارة عن كلمات حكيمة في الأخلاق ، لا تحلل النفس وانخلاق تحليلًا دقيقًا واسعًا مستوفى ، ولا تذكر الخلق فتبسط القول فيه ، وتذكر وصفه ، والسبيل إلى اكتسابه ، فذلك بالعقل اليوناني أشبه . ولكها عبارة عن جل موجزة أشبه بالأمثال . وهي خطرات ، نتيجة تجارب قد صيغت في إيجاز ، وفي عبارة رشيقة رقيقة . مثل : « أربعة أشياء لا يُستغل منها القليل : النار ، والمرض ، والملو ، والدين » .

ومثل « لا تمدّ الغنم غنما إذا ساق غرماً ، ولا الغرَمَ غرماً إذا ساق غنماً ، ولا تمتدّ من الحياة ما كان في فراق الأحبة ، إلخ .

ونلاحظ في الأدب الصغير أن ليس — في كثير من مواضعه — ارتباط بين حكمه . فهي أشبه برجل أخذ يرصد تجاربَ مختلفة في حالات مختلفة . فكلمة عثر على تجربة وضما ، وإن كانت إحدى التجارب الاقتصادية ، والأخرى دينية ، والثالثة نفسية . أو كرجل يقرأ في كتب مختلفة فكلمة وجد كلمة أعجبه دونها ، لذلك ترى كلمة في مجاسبة النفس ، وبجانبها كلمة في الصديق ، ثم كلمة في معاملة الناس بحسب طبقاتهم ، ثم في تعادى الرأي والموى ، ثم بعد كثير من الصفحات تجد كلمة أخرى في الصديق ، قد كان يحسن أن تكون بجانب الأولى ، وهكذا . ثم هو مختلف في طريقة التأليف ؛ فأحياناً ينشئ الشيء من غير إسناد ، وأحياناً يقول : وقالت الحكماء ، وأحياناً تجد قبل الحكمة كلمة « وقال » ؛ مما يدل على أنه لم يضعها هو في هذا الوضع .

أما الأدب الكبير — أو ما سماه الكتّاب بالدرّة اليثيمة ، فكلمات كذلك ولكنها في مجموعها أطول ، وهي مرتبة غالباً ، ألقت الكلمات المتعاقبة بموضوع واحد في موضع واحد تقريباً ، يدور أغلبها على موضوعين قد استوفى

الكلامَ فيها استيفاءً حسناً ، فأولها : الكلام على السلطان والولاء ، ومن يتصل بهما . وقد كان هذا الموضوع يشغل نفسه كثيراً ، يتجلى ذلك في أكثر ما كتب ، لأن حياته كانت متصلة به ، فقد كتب للولاء ، واتصل بهم ، وصادقهم وعادهم . وقد اتصل بالخلاف بين النصور وأعمامه ، وكان ركناً من أركان هذا الخلاف ومحوراً لوقائمه ، ومستشاراً في أمره ، ومنغمساً فيه ، وقارئاً لمثل هذه الأحداث في سير الفرس ، ومتربحاً لها . فلا عجب إذا أكثر الكتابة فيه ، ولا عجب إذا أجاد ؛ وقد جمع فيه مآثور الأولين ، وتجارب الآخرين ، إلى ما منحه الله من دقة نظر ، وحسن أداء . وقد استغرق هذا الموضوع القسم الأول من الكتاب . والموضوع الثاني : الصداقة والصديق . وقد كان ابن المقفع يقدّر هذا تقديرًا دقيقًا ، ويرى في الأصدقاء عماد الحياة ، ومرآة النفس ، يفضى إليهم وحدهم بينات صدره ، ودخائل نفسه ، ويضع عندهم وحدهم مكنونات سرّه ، ويضع عنه مؤونة الخذر والتحفظ . أما غيرهم فإيس لم لباساً آخر ، لا ياتهام إلا متحفظاً متشددًا متحرّزاً . ولأجل ذلك أثقل في شروط الصديق ، ونصح بالدقة التامة في اختياره « لأنّ ذا الرأي لا يَدْخُلُ أحداً من نفسه هذا الدّخْلَ إلا بعد الاختبار والسّبر ، والثقة بصدق النصيحة ، ووفاء العقل » وتدلل سيرته على أنه آمن بما كتب ، ودان به ، وسار في حياته على ما كتب من قوانين الصداقة ؛ بذل دمه لصديقه عبد الحميد ، وبذل ماله لأصدقائه بل لمعارفه ، كما فعل مع سعيد بن سَلَم ، ومثل ابن المقفع في علاقته الدقيقة بين الولاء والأمراء ، وما يلاقى في سبيل ذلك من مشكلات وصعاب ، وفي عقله البَحْثُ ، وانتقاله من دين إلى دين ، وما يعرض — عادة — في ذلك من شكوك وارتباب . وفي نزعته إلى الإصلاح الاجتماعي ، وما يرى حوله من عيوب تتصل أحياناً بالولاء وأحياناً بالخلفاء يرى أحياناً وجوب الجهر بالنصيحة ، والإرشاد إلى مواطن الضعف وطرق

الملاج . مثلُ ابن المقفع في هذه اللواقف يحتاج إلى الصديق الذي يصفه ، وإلى الشروط التي يشترطها له ، يفضي إليه بدخائل نفسه ، وفيما يرى من دولة تنهار ودولة تقام ، وأسس توضع لا بد أن يشترك في وضعها ، ويبيِّن عيب القديم والحديث ، وما يطمح إليه من إصلاح ، وإليه يُفزع في عوامل تضطرم في نفسه بين دين نشأ عليه ، وتمسَّك في أعماق نفسه ، ثم هو يريد أن يتخلَّى عنه إلى دين جديد له شعارٌ يخالف شعار دينه القديم ، وله تماثيل تتعارض مع ما ألف ، هناك يتنازع العقل والشعور ، وهناك تتعارب العواطف ، وهناك يحارب بين علم المنطق الذي ترجمه ، والتقاليد التي ربي في أحضانها ، فما أحوجُه في كل ذلك إلى « الصديق » ! وقد أشار فيما كتب إلى كل ذلك ، أشار إلى العيوب الاجتماعية ، وإلى ظلم الولاة في عصره ، وإلى ما يلحق العامة ، وإلى النزاع بين الدين والرأى — وقد جرَّه الكلام في الصديق إلى الكلام في العدو ، وكيف يكون داهياً في حربه وبخفي دهاؤه . وكيف يعمل في هلاك عدوِّه أو البعد عنه ، وفي جار السوء وكيف يصبر عليه ، وفي آخر الكتاب يعود إلى جمع حكم متفرقة لا يربطها موضوع .

في الكتاتين أثر كبير من الثقافة الفارسية ، ففيهما حكم كثيرة من حكم الفرس ، وفيهما بعض نظم الساسانيين في الحكم ، وكثيراً ما يقول : « احفظ قول الحكيم » و « قالت الحكماء » وهو يقصد حكماء الفرس . وفيها بعض وصايا مأخوذة من عهد أردشير ، كالنظام للمتابع بولس العهد . وفيها من حكم كلية ودمنة ، إلى غير ذلك . نعم ! هناك أثر يوناني في هذه الحكم مثل قوله : « إن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ، فيعلم أن أحقَّ ذلك بالطلب إن كان مما يحب ، وأحقه بالانقضاء إن كان مما يكره ؛ أطوله وأدومه وأبقاه ، فإذا هو قد أبصر ؛ فضَّل الآخرة على الدنيا ، وفضَّل سرور المروءة على لذة الموى ، وفضَّل الرأى الجامع العام — الذي تصالح به الأنفس والأعقاب — على حاضر

الرأى الذى يستمتع به قليلا ثم يضمحل ، وفضل الأكلات على الأكلة ،
والساعات على الساعات « فإنك تلح فى ثنائيا هذا رأى أبيقور ، وهو أنه
يجب أن يراعى — فى تفضيل لذة على لذة — الشدة واللذة ، وتفضيل اللذائذ
العقلية والروحية على اللذائذ البدنية ، إلخ . ولكن ابن القفيع إنما قل عن
الفرس ، وإن كانوا قد تأثروا — فيما تأثروا به — بالمذاهب اليونانية . كذلك
تلح فى بعض حكمه أشياء إسلامية كقوله : « والدنيا دولٌ فما كان منها لك
أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوةك » فهو قريب فى لفظه
من حديث مشهور ، ورى وجوه شبه عديدة فى بعض الحكم بين ما ورد
فى كتب ابن القفيع ، وما ورد عن الإمام على فى كتاب نهج البلاغة . ولكننا
يعترينا الشك فى كثير مما نسب فى نهج البلاغة إلى الإمام على . وقد أثبتنا
ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ونرجح أنها نسبت إليه بعد ابن القفيع
فى عهد الشريف الرضى ومن قبله . فيمكننا أن نقول إن أغلب استمداد
ابن القفيع فى كتبه من الثقافة الفارسية ، وقليلا منها من الثقافة العربية
الإسلامية . وأوضح دليل على ذلك : أن الروح الدينية فى حكم ابن القفيع
نادرة جداً قل أن تلمسها ، على عكس ما ينسب مثلا إلى الحسن البصرى ، وما
صح من أقوال على رضى الله عنه . فهى مغمورة بالشعور الدينى الإسلامى ،
أما ابن القفيع فحكمه مستمدة من تجارب دنيوية ، حتى ما يتصل منها بالدين .

رسالة الصحابة

ولابن المقفع رسالة سميت بالصحابة ، وليس يعنى صحابة رسول الله — كما هو المشهور في استعمال الكلمة — وإنما عني صحابة الولاة والخلفاء ، وهم من يقربهم الأئمة أو الخلفاء وينادونهم ، ويعملونهم موضع السر منهم ، ويستشيرونهم في أمورهم . وقد عرض في هذه الرسالة لهذا الموضوع فسميت الرسالة به^(١) .

وللرسالة قيمة كبرى فلإنها تقرير في نقد نظام الحكم — إذ ذاك — ووجوه إصلاحه ، رفعه إلى أمير المؤمنين ولم يسمه ، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرت ، ويذكر أمير المؤمنين ، وقد أهلك الله عدوه وشق غليله ، ومكن له في الأرض ، وآتاه خزائنها . ويذكر أبا العباس (السفاح) ويترحم عليه . وإذا علمنا أن ابن المقفع قتل في عهد المنصور ، صح لنا أن نستنتج — من ذلك كله — أن الرسالة إنما كتبت للمنصور .

بدأها بمدح أمير المؤمنين بأنه جمع إلى ما عنده من علم الرغبة في السؤال ، والاستماع لنصيحة الناصح ، وفي هذا ما يشجع ذا الرأي على أن يدل برأيه .

ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن يتولى أبو جعفر المنصور ، فوال لا يهتم بالإصلاح ، وإن اهتم به فليس له رأى يهديه ، أو له رأى ولكن ليس له عزم يُنفى به ما يبتغيه ، وأعوان ليسوا على الخير بأعوان ، ولم من المكانة والنفوذ ما يمنع الخليفة من إقصائهم والنيل منهم ، وأئمة إن أخذت بالشدّة

(١) أورد جله الرسالة ابن طيغور في كتابه المنثور والمنظوم المخطوط في دار الكتب المصرية ونشرت في مجموعة رسائل البغداد - واستعمل كلمة الصحابة في هذا المعنى . مروي في ذلك المصركا يدل عليه ما ورد في أوائل كتاب الخطيب البغدادي .

حميت ، وإن أخذت باللين طفت ، وأبان أن أمير المؤمنين وفقه الله لمداواته هذه العيوب ، واتتلاع هذه الشرور ، ثم بدأ بقريره الذى وضعه .

فأول ما بدأ به شرح حال « الجند » وإذا علمنا أن الدولة فى عهد هذا التقرير دولة ناشئة ، ولها أعداء كثيرون ، وذوو أطباع عديديون ، ثم هى واسعة الأطراف ، مترامية الأنحاء لا يخلو فيها يوم من فتنة . أدركنا ما للجند من عظيم شأن ، وعرفنا السبب فى أن جزءاً كبيراً من التقرير كان يدور حول هذا الموضوع . وإذا كان عماد الجند هم الجند الخراسانية ، وكانوا هم القائمين بحماية الدولة ، وكانوا أفرساً ، وكان ابن المقفع فارسياً ، كان محور كلامه الجند الخراسانية .

مدح جند خراسان بأنه لم ير مثاهم فى الإسلام ، يمتازون عن غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف ، والكف عن الفساد ، والنزك للولاة . ثم شكوا من أمور : أولها أنه لا بد أن تنظم أنكارهم ، ولا بد لذلك من أن يكون لهم دستور أو قانون ، يحيط بكل شئ . يجب أن يعرفوه ، يبين لهم ما يفعلونه وما يصبغونه ، يحفظه رؤسائهم ، ويقودون به عامتهم . فأما ترك الأمر من غير قانون ، لا يعرفون به ما يجب وما يحرم ، فدافع إلى الفوضى . وشكوا من أن هذا جرّ قوماً إلى اللغالة فى الأمر بالطاعة لأمير المؤمنين ، ووجد فى القواد من يقول : إن أمير المؤمنين لو أمر أن تستدير القبلة بالصلاة لسمعنا وأطعنا ! وهذا له أثر سيئ فى النفوس ، وقد ساقه هذا القول إلى بحث أوامر أمير المؤمنين وما يطاع منها وما لا يطاع ، وذكر المبدأ المشهور « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخلاق » وقال : إن قوماً فسروا هذا المبدأ تفسيراً معوجاً . والذى رآه ابن المقفع : أن الخليفة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره . ويبان ذلك : أن هناك فرائض وحدوداً بينها الله ، وفى هذا لا يطاع أمير المؤمنين لو أمر أمراً يخالفها . وهناك أشياء كثيرة من شؤون الناس لم يأت فيها نص ، بل

تركت لعقل الناس واجتهادهم . وهذه متى اجتهد فيها ولادة الأمر ورأوا فيها رأياً وجبت طاعتهم ، وليس للناس في هذا إلا الإشارة عند المشورة ، والإجابة عند الدعوة والنصيحة لهم — فرأى ابن اللقمع إذن — أن هناك نصوحاً دينية يجب على الناس والولادة أن يطيعوها ، وليس لولادة الأمر أن يخالفوا . وهناك مسائل كثيرة لم يرد فيها نص ، كإعلان حرب واسترداد جيش وشروط صلح ، وتنظيم أمور الدولة حسب الزمان والمكان . وهذه كذلك لا تترك فوضى ولكن للناس أن يسيروا بأرائهم ، وعلى أولى الأمر أن يفكروا ويتدبروا ، فإذا رأوا رأياً وجب على الناس إطاعته ، وإن رأوا فيه قصصاً أو عيباً أو خطأ نصحوا ولادة الأمور بأرائهم .

ثانياً — مما نصح به أمير المؤمنين في شأن الجند ، أن يحول بين الجنود وبين إدارة الشؤون المالية . وقد دعاه إلى ذلك الرأي أن الخليفة كان يولى بعض قواده خراج بعض الأقطار فيؤلى قائداً خراج مصر ، وآخر خراج خراسان . وبذلك تصبح مالية هذا القطر في يده يحاسب الناس عليهما ، ويحاسبه الوالى كذلك . وقد عال ابن اللقمع رأيه هذا « بأن ولاية الخراج مفسدة للعقاية » . وهو نظر صائب فإن كثيرين من هؤلاء القواد اعتزوا بسلاطنتهم وجنودهم ، فظلموا الناس . فلما أخذوا على ظلمهم اعتزوا بما في أيديهم من مال ، وما تحت طاعتهم من جند . فخرجوا على الدولة ، وكانوا سبباً لمصائب لا تحصى .

ثالثاً — مراعاة الكفاية في القيادة ، فقد لفت نظر الخليفة — في لطف — إلى أن يعيد النظر في الرؤساء ومرؤسيهم ، فكثير من المرؤسين أكفأ من رؤسائهم فلو ولى القيادة خيارهم ، ووضع الجند في منازلهم ، حسب كفايتهم لكان من ذلك خير عظيم .

رابعاً — تثقيف الجند ثقافة علمية وخطابية ، فيعنى بتعليمهم الكتابة والتفقه

في الدين ، كما يعنى بتمويلهم الأمانة والعفة والتواضع ، واجتناب الترف في الزمى والطير واللباس ، وما إلى ذلك .

خامساً — تعيين وقت محدد للجند يقبضون فيه أرزاقهم فإن ذلك أدمى لعلماً بينهم ، وأمنع للشكوى والاستبطاء .

سادساً وأخيراً — أن يتقصى أحوال الجند ويعرف أخبارهم وحالاتهم ، وباطن أمرهم ، حيث كانوا وأن يمين لذلك الثقات الذين يخاصون له ، ولا يكتمون عنه شيئاً ، ولا يستكثر ما ينطق في هذا السبيل ، وإن عظم فإن في ذلك الحزم واستئصال الشر قبل استفحاله .

هذه خلاصة موجزة لوجوه الإصلاح التي اقترحها للجند .

ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل العراق عامة ، وأهل البصرة والكوفة خاصة وأنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومُعينيه ، ولأهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة ما ليس في سواهم ، ورجاء في العناية بهم والاعتناء عليهم ، وقال : إنه أرزى بأهل العراق : أن ولاية العراق — فيما مضى — كانوا أشرار الولاية ، وأعوانهم كانوا أشرار الأعوان . فسادت سمعة العراق من أجل هذه الفئة الضالة ، واستغل أهل الشام ذلك ، فشتعوا على أهل العراق عامة بما صنعت هذه الفئة . ولما جاءت دولتكم لم تجد أمامها — من أهل العراق — إلا هؤلاء الظاهرين من لا يصح الاعتماد عليهم ، فلو نجي هؤلاء وأمثالهم ، واستقصى الناس وعرف أهل الفضل ، فأسندت الأمور إلى الأكفاء غير المتصنعين لظهر فضل العراق وأهله .

ثم عرّض ابن المقفع في تقريره إلى موضوع من أهم الموضوعات وأعقها أثراً في حياة المسلمين ، وهو « فوضى القضاء » ، فذكر أن القضاء فوضى ، لا يرجع فيه إلى قانون معروف ، وإنما هو متروك لرأى القضاء واجتهادهم . ونشأ من ذلك صدور الأحكام المتناقضة ، حتى في البداة الواحدة ،

فستحلّ دماء وفروج وأموال في ناحية من نواحي الكوفة ، وتُحرّم في ناحية أخرى — تبعاً لحكم القاضي — وكل ذلك نافذ على المسلمين . والقضاء نوعان : نوع يزعم أنه يلتزم الشنّة (يعني بذلك النص على العموم) وقد تنال فيما سماه سنّة فكثيراً ما يَسِفُكُ دَمًا من غير بيّنة ولا حجة ، ويزعم أنه هو السنّة ، فإذا قيل له : إن مثل هذا الأمر لم يُرَقْ فيه دم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أئمة الهدى من بعده ! قال : فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، أو أمير من بعض أولئك الأمراء . ونوع يزعم أنه من أهل الرأي فيبلغ به الاعتدالُ برأيه « أن يقول في الأمر الجسيم — من أمر المسلمين — قولاً لا يوافق عليه أحد ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك ، وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقرّ أنَّهُ رأى منه لا يَحْتَجُّ بكتاب ولا سنّة » هذه هي الفوضى — كما شرّحها ابن المقفع — ثم اقترح لها علاجاً ، وهو أن يُرْفَعَ إلى أمير المؤمنين كل الأفضية والمسائل التي يحدث فيها الخلاف ، ويذكر ما يَحْتَجُّ به كل فريق من المخالفين من نص أو رأى ، فيُعَيِّدُ أمير المؤمنين إلى هذه الحجج والبراهين ، ويختار ما يراه صواباً ، ثم يدوّن ذلك في كتاب ، وتعمل منه نسخ ترسل إلى الأمصار ، ويلتزم القضاء بالحكم به ، فإذا جدّت حوادث سير فيها هذا السير ، ووجب على كل إمام يأتي بعد أن يدخل على هذا القانون ما يجد وما تدعو إليه الحاجة ، وهكذا إلى آخر الدهر .

ويرى « ابن المقفع » أن ولاة الأمور يجب أن يرجعوا في المسائل المختلف فيها إلى العدل ومصلحة الناس . وليس هناك ما يمنع من ذلك ، لأن الأحكام المختلفة ؛ إمّا أن يكون اختلاف القضاء فيها ناشئاً من استفهام على سنن مأثورة مختلفة ، وهذا الاختلاف في التنن دليل على أنها ليست مقبولة بإجماع ، إما لسندها وإما لأنها مجال لتأويلات مختلفة . وحينئذ يكون الرجوع إلى العدالة أولى . وإما أن يكون الاختلاف ناشئاً من مراعاة القياس ،

وقد أفرط الفقهاء في مراعاة القياس الشكلي ، والزموا به فوقوا في ورطات
 وأتى ابن المقفع بمثل يهزئ به قياستهم فقال : لو أنك سألت أحدهم أتأمرني
 أن أصدق فلا أكذب كذبة أبداً ؟ لكان جوابهم نعم ! فلو سألت : ما تقول
 في رجل هارب أراد ظالم أن يقتله فسألني عن مكانه وأنا أعرفه ، أصدق أم
 لا ؟ فلو ساروا على قياسهم الذي وضعوه لأجابوا بالزام الصدق مع أن
 المصلحة والعدالة في غير ذلك ، ثم قرر مبدأ قتيماً وهو أن القياس ليس إلا
 وسيلة لتحقيق العدالة ، وطريقاً من الطرق الوصول إليه ، فتي رؤيت العدالة
 في غير القياس يجب أن يضحى بالقياس .

فجعل رأى ابن المقفع في إصلاح القضاء ؛ وضع قانون رسمي تجري عليه
 الملكية الإسلامية في جميع أنحاءها ، وهذا القانون يُرجع فيه إلى ما يُرشد
 إليه العقل في معنى العدالة . وهذا فيما عدا ما ورد فيه نص يجمع عليه — من
 كتاب أو سنة — فأما ما ورد فيه نص مختلف فيه أو ما كان مبنياً على قياس ،
 فيجب أن يترك إلى ولاية الأمور ينظرون فيه باعتبار واحد وهو المصلحة
 العامة . والفقهاء ليس لهم وضع قوانين وإنما عليهم أن يجتهدوا في المسائل من
 الناحية العملية النظرية ، ثم يؤولون بآرائهم إلى ولي الأمر ، وهو المقنن وحده .
 وهو رأى له قيمته ووجاهته ، وهو يتفق في كثير من نواحيه والآراء
 الحديثة في التشريع ، ولو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير في الحالة
 الاجتماعية وخاصة من الناحية القضائية .

ولم تذهب دعوة ابن المقفع سُدى ، فابن سعد في الطبقات يروي عن
 مالك بن أنس أنه قال : لما حجَّ المنصورُ قال لي : قد غرمتُ على أن آمرَ
 بكتيبك هذه التي وضعتها فتتسخ ، ثم أيسرَ إلى كل مصر من أمصار المسلمين
 منها نسخة ، وأمرهم أن يعمدوا بما فيها ولا يعمدوه إلى غيره ، فقلت يا أمير
 المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أطويل ، وسموا أحاديث

وروداً روايات ، وأخذ كلُّ قوم بما سبق إليهم ، ودانوا به فدفع الناس ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم .

فلما أتى هارون الرشيد عاودته الفكرة ، فرؤى في كتاب الحلية عن مالك بن أنس قال : « شاورني هارون الرشيد في أن يعلّق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان وكلُّ مصيب . »

ولم يكن في هذه المحاولة تحقيقٌ لكل فكرة ابن المقفع ، فقد كان أكثر حرية مما قصد إليه المنصور والرشيد ، ولكن كانت خطوة من الخطوات المرسومة لم تُحقق !

ولسنا نجزم أن هذه المحاولات نشأت عن تقرير ابن المقفع ، فقد تكون تبلوراً لفكرة عمر بن عبد العزيز في جمع الحديث ، فقد كان يرى هذا الرأي . فبمقدّم الزمان رؤى جمع الحديث وجعله قانوناً . وقد تكون فكرة المنصور والرشيد نتيجة العاصمين معاً — فكرة جمع الحديث التي ارتأها عمر بن عبد العزيز ، وفكرة تقنين القوانين التي ارتأها ابن المقفع — وهو الذي تميل إليه .



ثم انتقل بعد ذلك إلى تعطيف المنصور على أهل الشام ، وقد كان العباسيون ينظرون إليهم نظرة عداوة ومقت ، لأنهم كانوا أعوان الأمويين وجنّدهم المطيع ، فاعترف بأن أهل الشام يكرهون العباسيين ولكن ينبغي ألا يؤاخذهم الخليفة بذلك ، وألا يطمع منهم في الودة ، فعداوتهم طبيعية . فقد كانت الدولة دولتهم والملك لهم ، ولكن هذا لا يمنع الخليفة أن يصطّيع خيارهم ، فهو لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهرى ؛ ويتبعهم غيرهم ، فتتسع دائرة المحبة للعباسيين والتودّد لهم . كما نصّحه ألا يبتخل بالمال

عليهم ، وأن يُنفق عليهم ما يُجمع من بلادهم — بعد استطلاع الحقوق العامة — « إنه إن فعل ذلك رَجَوْتُ ألا يكون منهم نَزَوَاتٌ ولا وَثَبَاتٌ على الدولة ، فإن فعلوا رَجَوْتُ أن تكون الدَّائِرَةُ لِأُمير المؤمنين عليهم إلى آخر الدهر ، وقد علمنا التاريخ أن الثَّلكَ إذا خرج من قوم بَقِيَتْ فيهم بَقِيَّةٌ يَحْتَوِنُون إلى مجدهم القديم ، فيثورون وتكون ثورُهم سببَ استئصالهم وتدويخهم .

بعد هذا تكلم في صحابة الخليفة أو ما نسميه نحن الآن « بتميمته » ورجال دولته والمقرين إليه ، وقد كرر شكواه من أن هؤلاء كانوا — قبل خلافة أمير المؤمنين — عملوا أعمالاً مُفْرِطَةً القبح ، مُفْسِدَةً للحسب والنسب والسياسة ، داعية للأشرار طاردة للأخيار . ذلك أن الخليفة كان يقرب أو غاذا الناس وسفلتهم ، فهرب الخيلار من التقرب للولاة خَشِيَ أن قومًا من صلحاء البصرة ، — وفيهم ابن المقفع — أتوا دار الخلافة أيام السَّفاح ، فأبوا أن يزوروا الخليفة ، لما يعلمون من بطائنه وسوء سيرتهم . وقد سمعنا الناس يقولون : « ما رأينا أُنْجَبَةً قط أحب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور » . ونزعة ابن المقفع في اختيار الصحابة نزعة أرسطقراطية فارسية ، فهو يراعى في اختيار الصحابة من وزراء وكتّاب وغيرهم أمرين : أسماً وجيهاً معقولاً ، وهو أن يكونوا ذَوِي رَأْيٍ أَمْناء عدولا . ولكنه لا يشدد في هذا تشدده في الأمر الثاني ، وهو أن يكونوا ذَوِي حَسَبٍ ونسب ويتفزع كلُّ الفرع أن يرى هؤلاء الصحابة — غير المعروفين بنسب — يؤخذ لهم على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين ، وأهل بيوتات العرب . وهو يرى أن الخليفة لا يصح أن يقرب إليه ويحمل من خاصته إلا رجلاً أُنْجَبَةً بِمَكْرُمَةٍ عظيمة ، أو رجلاً له ميزة من قرابة أو حُسْنِ بلاء ، أو رجلاً له من الشرف وجودة الرأي والعمل ما يؤهله لذلك ، أو رجلاً ذا تَجَدُّدٍ ولكن

يجب أن يجمع إلى نجبته حسباً وعفافاً ، أو رجلاً قتيماً مصلحاً يفتنع الناس بفقهه وإصلاحه . فأما من يتخذون الشفاعات وسيلة للقرب من السلطان ، فيجب ألا تمكنهم شفاعتهم من هذه للناسب . ثم إذا اختير الحائزون على الشروط التي ذكرنا ، يجب أن يعين لكل منهم اختصاص في عمله لا يتعداه . فلا يكون للكاتب أمر في رفع رزق ولا وضعه ، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخير .

انتقل بعد هذا إلى الكلام في الخراج ، وهو عماد مالية الدولة ، ويعنى بالخراج المال المفروض على الأراضى ، وقد شكنا من القوضى فيه كما شكنا قبل من فوضى القضاء ، شكنا أن الأراضى — مع اختلافها جودة — ليس مقرراً على كل « وحدة » منها مبلغ معين ، ولا سُجِّلَ ذلك في دفاتر يحفظ أصلها ويَحْتَسَلُ بمقتضاها . واقترح للإصلاح أن تسمع الأرض ، وغرض عليها المال للناسب ، ويعرف كل مالك ما عليه ويدون ذلك في سجلات تحفظ أصولها في دواوين الدولة . ففي هذا « صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسن لأبواب الخيانة وغش العمال » وشعر بصعوبة هذا العمل مع ضرورته فقال : « إن مؤوته شديدة ، ورجاله قليل ، وقعه متأخر ، وختم مطالبته في إصلاح الخراج بتخير الذين يتولون هذا العمل ، وشدة الرقابة عليهم ، والاستبدال بهم عند ظهور خيانة عليهم .

وقد رأينا — بعد عصر ابن المقفع — أبا يوسف يقول : في كتابه « الخراج » « إن أمير المؤمنين (يعنى هرون الرشيد) سألنى أن أضع له كتاباً جامعاً ، يعمل به في جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالى^(١) وغير ذلك — مما يجب عليه النظر فيه والعمل به — وإنما أراد بذلك زحف الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم . . . وطلب أن أبين له ما سألنى عنه

(١) يريد بالجوالى الجزية التي تؤخذ من أهل الامة .

حما يريد العمل به ، وأفتره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته «^(١) .
 فهل كان هذا العمل تحقيقاً لمطالب ابن المقفع ؟ قد يكون ذلك ، ولكن
 مما لا شك فيه أن ابن المقفع عبّر عن أهم المسائل التي تشغل العقلاء في عصره .
 فلا عجب أن نرى الكلام فيها كثيراً ، وأن نرى كبارهم يضمون العلاج
 لتلافيها . كذلك نرى فرقاً كبيراً بين معالجة ابن المقفع لمسائله وخاصة الخراج ،
 ومعالجة أبي يوسف . فابن المقفع يعالجها من الناحية العقلية المحضة ، وأما أبو يوسف
 فيعالجها من الناحية الدينية ، فهو لا يخطو خطوة إلا يدعها بستند من كتاب
 أو سنة أو أثر ، وأحياناً بقياس أو استحسان ، وهذا يرجع إلى الفرق بين ابن
 المقفع وأبي يوسف في المنشأ والربى والنصب .

* * *

ثم انتقل ابن المقفع إلى الكلام في جزيرة العرب من الحجاز واليمن
 واليمامة وغيرها ، وقد كانت موضع قيمة المنصور إذ خرجت عليه ، فطلب إليه ؛
 أن يُعنى بها عناية خاصة ، فيتخير لولايتها الخيار من أهل بيته ، وأن تسخو
 نفسه عن أموالها : وكان ابن المقفع نظري هذين الأمرين إلى أن جزيرة العرب
 منبع النبوة ، ومصدر الإسلام ، وقبلة المسلمين ، وقد تولاهم ولادة سوء انتهكوا
 حرمتها ، فكانت حاجتها إلى خير الولاة أمس وأوجب . وهي فقيرة ليس
 فيها خصب العراق ، ولا غنى الأمصار . فإذا كانت الأمصار الأخرى تحمل
 ما زاد من ثروتها إلى دار الخلافة ، تغير للخليفة ألا يتبع هذه الشئنة في جزيرة
 العرب فيترك لها مالها إن لم يُبدّها بمال من عنده .

وختم « ابن المقفع » تقريره ببيان ما للخليفة من أثر عظيم إذا صلح ، ذلك
 أن العائنة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة ، والخاصة لا تصلح إلا بصلاح
 إمامها ، سلسلة يأخذ بعضها بحجز بعض . لأن العامة تقلد خاصتها في شؤونها
 (١) أول كتاب الخراج لأبي يوسف .

وتتبعها في سيرها ، فإذا كان الخواص من ذوى الدين والعقل كان في ذلك صلاح للعامة ، وموقف الخلاصة من الإمام موقف العامة من الخلاصة « ففسأله أن يعزم لأمر المؤمنين على المرشد ، ويحصنه بالحفظ والنبات » .

* * *

هذه خلاصة وتحليل لرسالة الصحابة ، وإن شئت قل إنها ترجمة لما فيها من أفكار ، فقد اعترأها من فساد النسخ والتحريف والغموض ما جعل إدراك مراميها بعيد النال .

ومنها نرى أن ابن المقفع كان ناضج العقل في رسالته قوى الفكر ، شاعراً بوجوه الضعف في الدولة ، ميالاً إلى إصلاحها ، ولو عرفنا أنه قتل ولثا يتجاوز الأربعين من عمره ؛ عرفنا قدر نبوغه ، وعرفنا أى عقل كبير كان يشغل رأسه .

لم يعالج ابن المقفع ما عالجته من الناحية الدينية ، كما عالجها أبو يوسف مثلاً . فإن تربيته لم تكن دينية بل لم يُسلم إلا قريباً ، كما ساعده على هذا النوع من التفكير أنه كان فارسياً ، وكان واسع العلم بالتاريخ الفارسي ، وترجم بعض كتب التاريخ إلى اللغة العربية ، فهو يعلم تمام العلم نظم الفرس في الجلد والقضاء والصحابة والخراج . وقد مرت هذه الدولة بأدوار كثيرة . وجربت تجارب عديدة ، واستقر نظامها عهداً طويلاً ، وعالجها مصلحون قبله — بأقوالهم وأعمالهم — فكان ابن المقفع ينظر إلى الملكية الإسلامية ، وما فيها من نظم ناقصة في بعض نواحيها ، وينقل عقله — بسرعة — إلى قومه الفرس ، فيقارن بين ما يرى أمامه ، وما أرشده إليه التاريخ الفارسي ، فتوحى إليه هذه المقارنة مقترحات الإصلاح وتصطدم هذه المقترحات أحياناً بنظرات رجال الدين ، كالذي رأينا من مخالفة رأى الإمام مالك لمقترحات ابن المقفع في تنظيم التشريع والقضاء . ذلك لأن ابن المقفع ؛ يزرع تقنين قانون يمم أنحاء

الدولة ، كما كان الشأن في فارس ، وأن يُحكَم العدالة والمصلحة العامة — فيما لم يرد فيه نص مجمع عليه — وهو أقرب ما يكون إلى النظام الفارسي ، والإمام مالك ، يرى أن أهل كل مصر وصلت إليهم أحاديث يرون سميتها فيزسم العمل بها ، وليس من الحق ولا من الدين أن يلزمهم برأى عقلى يخالف ما لديهم من حديث صحيح ، أو — على الأقل — صحيح في نظرهم ، وابن المقفع ، يتكلم في انخراج بمثل ما قلنا عن الأكاسرة ، وأبو يوسف يتكلم فيه بالآثار التي سمعت عنده . وانخلفاء يرون ألا يلجئوا إلى ابن المقفع ، والبرامكة وأمنائهم . وإنما يلجئون إلى رجال الدين أمثال الإمام مالك وأبي يوسف .

كليلة ودمنة

ليس من قصدنا أن نبعث هنا في كتاب « كليلة ودمنة » ونعرض لأبحاث المستشرقين في أصل الكتاب أمثال « ده ساسي » و « شوفان » و « بيكل » و « فالكونر » و « هرتل » و « نولديكه » و « جويدي » و « برؤكلان » و « رايت » وغيرهم ، فلو استقصينا ما قالوا ، وعمدنا إلى مناقشة آرائهم لاحتاج ذلك إلى كتاب بأكمله . ولكننا نوجز القول هنا ، فيما يتعلق بموضوعنا ، وهو الثقافة الفارسية وآثارها ، وابن المقفع وأعماله .

يقول ابن المقفع : إنه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية ، وقد نقل في أيام كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية ، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل Hertel على بعض الأصول الهندية الأولى ، كتبت باللغة السنسكريتية القديمة ، كما عثر غيره على بعض أبواب من الكتاب مفرقة . فعثروا في كتاب على باب « الأسد والثور » و « الحماة المطوقة » و « البوم والفران » و « القرد والتيلم » و « الناسك وابن عرس » ، وعثروا في كتاب آخر على باب « الجرذ والسنور » و « الملك والطائرة فزة »

و « الأسد وابن آوى » ، كما عثروا فى كتاب ثالث على باب « ملك الفيران » ، و عثروا أيضاً على باب « ايلاذ وبلاذ وايراخت » و باب « السائح والصائح » و « ابن الملك ورقائه » فجميع هذه القصص هندية الأصل . ولكنهم لم يعثروا إلى الآن — فيما أعلم — على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى كليلة ودمنة ، أو أى اسم آخر . فهل كان هناك كتاب هندى حوى كل هذه القصص ، ألّفه مؤلف واحد ، ونقله الفرس إلى لغتهم ؟ أو أن الفرس نقلوا هذه القصص المتفرقة فى الكتب إلى لغتهم ، وحوّلوها فى كتاب وأسندوها إلى مؤلف واحد ؟ هذا مجال خلاف لا يزال بين الباحثين .

ويرجعون أن باب « بعثة يروزيه » و باب ملك الجردان من زيادات الفرس أنفسهم .

كما يرجعون أن هناك فصولاً برمتها من زيادات ابن المقفع نفسه ، وهى باب « غرض الكتاب » و باب « الفحص عن أمر دمنة » و باب « الناسك والضعيف » و باب « البطة ومالك الحزين » .

وكما يذهب بعضهم إلى أن الباب الأول — وهو مقدمة الكتاب — لعل ابن الشاه الفارسى وضع بعد ابن المقفع ، ويذهب « ده ساسى » ويوافقه « نولدكه » إلى أن بهنود بن سحوان أو على ابن الشاه هو « أبو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى » الذى يقول عنه صاحب القهرست « إنه من نسل الشاه بن ميكال وكان أديباً طيباً مفاكهاً فى نهاية الظروف والنظافة »^(١) . وقد توفى سنة ٣٠٢ هجرية . ولم أدلة على كل ما ذكرنا يطول شرحها ، ويخرج بنا عن الغرض الذى إليه قصدنا .

وقد كان الباحث لابن المقفع على ترجمته — على ما يظهر — ما عهدناه فيه من ميل إلى الإصلاح الاجتماعى ، شاهدناه فى الأدب الكبير والصغير ،

(١) الفهرست ص ١٥٣ .

ورسالة الصعابة . وكتاب كلية ودمنة يشرح بعض هذه النواحي شرحاً وافياً ، فهو يتعرض للنصح بعدم الإصغاء إلى الحاسد والتتام ، ويبين أن هناك جزءاً طبيعياً ؛ فعاقة الخير خير ، وعاقبة الشر شر . وينصح بأخذ الخير من العدو ، والاعتماد على الصداقة ، الخ .

ويظهر أن تعلق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية أذاه إلى استنكار كثير من الأمور ، ورأى أن معظمها يرجع إلى أحكام عصره ، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة في زمنه ، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبنطائه نقداً صريحاً . وقد عاش ابن المقفع وقت نضوج فكره في زمن أبي جعفر المنصور ، وهو شديد البطش قوى المنة^(١) سريع إلى إهمال السيف . وهو — كان — مؤسس الدولة العباسية وواضع نظمها ومحضنها ، وكان يرى ألا يمكن تثبيت قواعدها إلا بإخضاع كل حركة تُضيق من شأن الدولة ، أو يتوهم فيها ذلك ، ويقطع رأس كل مخالف . وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظنّة ، ونذر في قتلهم بالانتهام بالزندقة أو نحو ذلك ، وكان ابن المقفع نفسه أحد هذه الضحايا ! .

لعل ابن المقفع رأى أن موقفه مع المنصور موقف يبديها مع دبشليم ؛ فقد جاء في مقدمة الكتاب : « فلما استوثق له (لدبشليم) الأمر ، واستقر له الملك طغى وبغى ، وتجبر وتكبر ، وجعل يفزو من حوله من الملوك ، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً ، فهابته الرعية . فلما رأى ما هو عليه من الملك والبطوة ؛ عبث بالرعية واستنصر أمرهم ، وأساء السيرة فيهم ، وكان لا يرتقى حاله إلا ازداد عتواً . فكث على ذلك برهة من دهره . وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة ، فاضل حكيم يعرف بقضله ، ويُرجح في الأمور إلى قوله يقال له « يبديا » فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية ، فكثّر

(١) المنة : القوة .

في وجه الحيلة في صَرفه عما هو عليه ، وَرَدَّه إلى العدل والإنصاف الخ .
فلعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه « المنصور » بأكثر مما واجهه به
في رسالة الصحابة ، وقد مزج قدَّه بكثير من اللدح للخليفة والثناء عليه ، ونسب
أكثر الشدة التي يراها إلى غيره . ولكن هذا لم يَشْفِ غُلته ، فرأى أن أسلمَ
طريقة ؛ أن يترجم هذا الكتاب ويزيد فيه ليعمل الكتاب في الخلفاء والرعية ؛
ما فعله كلية ودمنة في الهند وفارس ، ولعل هذا هو الغرض الرابع الذي أخفاه
في مقدمة الكتاب ولم يصرح به . فقد جاء فيها « ينبغي لناظر في هذا الكتاب ،
أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة
البهائم غير الناطقة ؛ ليسارع إلى قراءته أهل المنزل من الشبان . . . والثاني
إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون أنسا لقلوب
الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشدَّ للزينة في تلك الصور . والثالث أن يكون
على هذه الصورة فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ،
لينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً . والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص
بالقياسوف خاصة » وسكت عن هذا الغرض الرابع ولم يبينه وهو — من غير
شك — غرض ابن المقفع من ترجمته . والظاهر أن هذا الغرض يمكن تلخيصه :
في أنه النصيح للخلفاء حتى لا يخذلوا عن طريق الصواب ، وتفتيح أعين الرعية
حتى يعرفوا الظلم من العدل ، وحتى يطالبوا بتحقيق العدل . ولم يوضحه ابن المقفع
لأن في إيضاحه خطراً عليه من المنصور ، ولعل هذه النزعة فيه كانت من
الأسباب في الإيعاز بقتله ! .

وتدل المقارنة بين ما عثر عليه من الفصول الهندية ، والترجمة السريانية
القديمة — التي ترجمت من اللغة الفهلوية القديمة نحو سنة ٥٧٠ م ، والتي وجدت
في دير في « ماردين » ونشرت سنة ١٨٧٦ م — على أن ابن المقفع لم يترجم
الكتاب ترجمة حرفية بل حوَّر كثيراً في جملة ومعانيه وترتيبه ، حتى يتفق

والذوق العربي الإسلامي ، وذوق المتأدبين في عصره . بل أضاف فصولا من عنده — كما أشرنا قبل — كتاب الفحص عن أمر دمنة ، ففيه نغمة إسلامية ظاهرة مثل : « ومن يَجْزِي بالخير خيراً ، وبالإحسان إحساناً إلا الله ! » « ومن طلب الجزاء على الخير من الناس كان حقيقاً أن يحظى بالحرمان ، إذ يحظى بالصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى ، وطلب الجزاء من الناس ! » ومثل « لَأَن تَعَذَّبَ في الدنيا يَجْزِمَكَ ؛ خير من أن تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم ! » ومثل « والعلماء قد قالوا — في شأن الصالحين — إنهم يُعْرَفُونَ بسيماهم » ، « وقالت العلماء : مَنْ كَتَمَ حُجَّةً مَيِّتَ أخطأ حُجَّتَهُ يومَ القيامة » ، « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً » ، إلخ . وقد أثبت البحث أن ابن المقفع كان يحدف جملة من الأصول الفهلوية ، ويضع مكانها جملة أخرى توافق مزاج عصره . وقد يضع فصلاً كاملاً . ولعل هذا هو السبب فيما حكاه ابن خلكان من أن الكتاب تَخْتَلَفَ فيه هل هو ترجمة ابن المقفع أو تأليف له .

وترجمة ابن المقفع نفسها قد دخل عليها كثير من التغيير على توالى العصور بدليل (١) اختلاف النسخ التي بين أيدينا اختلافاً كبيراً (٢) ولإنا نجد ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار ينقل بمض قطع من كتيبة ودمنة ، وهي تخالف في عباراتها ما بين أيدينا من الكتاب (٣) ونرى في النسخ التي وصلت إلينا من كتاب « نتائج الفطنة » في نظم كتيبة ودمنة « لابن الهيثمية اختلاف في ترتيب الأبواب ، وليس فيه « باب الحماسة ، ومالك الحزين » وسمى فيه « باب إيلاذ وبلاذ » و « هيلار وبيلاز » مع اختلاف في سياق للثل ، إلخ .

وقد كان لكتاب كتيبة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي ، وفي غيره من الآداب . وعنى الناس به عناية كبرى ، وحنوا حنوه . من ذلك أن كثيرين نظموه ، نعرف منهم أبا ناسٍ اللّاحقي ، ولكن لم يصل إلينا من نظمه إلا القليل . ثم نظم ابن الهيثمية في كتابه « نتائج الفطنة » ويذكر ابن الهيثمية في

ترجمته أنها خير من ترجمة أبان^(١) . وله نظم ثالث اسمه « در الحكم في أمثال المنود والعجم » أكله عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني^(٢) .

وحذا حذوه كتاب كثيرون ، فابن المباركة ألف على منواله كتاب « الصلاح والباغم »^(٣) . وكذلك ألف على منواله كتاب « سلوان المطاع في عدوان الطبايع » لأبي عبد الله محمد بن أبي قاسم القرشي المعروف بابن ظفر للتوفي سنة ٩٨٠هـ صنفه لبعض القواد بصقلية^(٤) . وكذلك ألف على هذا النسق ابن عَرَبْشَاه كتابه « فاكهة الخلفاء ، ومناظرة الفُرَقاء »^(٥) . وكتابه « سرزبان نامه » الذي ترجمه من الفارسية^(٦) .

ويذكر « كشف الظنون » أن أبا العلاء المرعي ألف كتاباً اسمه « القائف » على مثال كلیلة ودمنة وهو في ستين كراسة ولم يتم ، وأن له كتاب « منار القائف » يتضمن تفسيره في عشرة كراريس^(٧) .

وفي رسائل « إخوان الصفا » رسالة في المناظرة بين الحيوان والإنسان لا تخلو من لون من كلیلة ودمنة ، بل يظن « جولنزيهير » أن اسم « إخوان الصفا » مقتبس من كلیلة ودمنة إذ ورد الاسم في أول فصل « الحماة المطوقة » .

وعلى كل حال قد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربي القصص على ألسنة الحيوانات — نعم كان للعرب قبله شيء من ذلك كالذي ورد من أمثالهم ، أن الأرنب التعلت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها ، فأنطلقا إلى الضب ، فقالت الأرنب يا أبا الحصين ! قال سميماً دعوت ، قالت أتيناك لنخضع إليك ، قال عادلاً حكماً . قالت اخرج إلينا ، قال في بيته يؤتى الحكم . قالت إني وجدت

(١) طبع نظم ابن المباركة في المتمدن وبيروت . (٢) وهو في مكتبة فيينا .

(٣) طبع في بيروت ومصر . (٤) وقد طبع في تونس وبيروت .

(٥) انظر كلیلة ودمنة في دائرة المعارف الإسلامية ، وحيون الأخبار ، وكشف الظنون ، ونولده .

(٦) طبع في مصر . (٧) جزء ٢ : ١٦٠ .

ثمرة ، قال حلوة فكلوها . قالت فاخترلسها منى الثعلب ، قال لنفسه بَقِيَ الخير .
 قالت فلعلته ، قال بمحكك أخذت . قالت فلعلنى ، قال حر اقتصر . قالت
 فاتص بيننا ، قال قد قضيت ! وورد فى القرآن الكريم : « قَالَتْ ثَلَاثَةٌ
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا مَسَاجِدَكُمْ » وقال فى المدهد « قَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ
 تُحِطُ بِهِ » ولكن كان لكتاب كلية ، أثر من ناحية تفصيل القصص على
 ألسنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً ، ووضع الحكم والأمثال والعظة على
 ألسنتها ، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع فى عصور الاستبداد . يوم
 كان الملوك والحكام يرضون على الناس أنفسهم ، فلا يستطيع ناقد أن
 ينفذ أعمالهم ، ولا واعظ أن يرمي بالوعظة الحسناء إليهم . ففشا هذا
 الضرب من القول والقصص ، يقصون فيه إلى نصيح الحكام بالعدل وكأنهم
 يقولون : إذا كانت الحيوانات تمتع الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الإنسان !
 وإذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالإثم ، ويستعظمون أن يصرح لهم
 بنصح أو نقد ، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم ! وإذا كان فى
 التصريح تريض الحياة للخطر ، ففى التلميح نجات من الضرر .

ولما ذكرنا كتاب كلية ودمنة ، وما كان له من أثر فى الثقافة الفارسية ،
 ولم نذكره فيما يأتى من الثقافة الهندية لسبيين :

(١) أن اللغة العربية إنما تلتقت الكتاب من الأصل الفهلوى الفارسى
 ولم تلتقه من الأصل الهندى ، ومترجمه الذى كساه حلة من البلاغة العربية
 حبيته إلى الناس ، هو ابن المقفع الفارسى .

(٢) أن الفرس — وخاصة ابن المقفع — زادوا فيه زيادات كثيرة — كما
 أثبتنا من قبل — وإن كان من الحق أن قرر هنا ما للهند فى هذا الكتاب من
 فضل ، هو فضل واضح الأساس وصاحب الفكرة .

زندقة ابن المقفع

اشتهر رثى ابن المقفع بالزندقة ، ومن أقدم النصوص في ذلك ما حكى عن الجاحظ : « أن ابن المقفع وشطيط بن إبّاس وعجى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم » ويروون أن المهدي قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع »^(١) ويروى الجعفي أن سفيان بن معاوية لما أراد قتله — لما بينهما من عداوة شخصية وبإيعاز المنصور — قال له : « والله يا ابن الزندقة لأحرقك بئار الدنيا قبل الآخرة ! »^(٢) ثم تناقل الناس هذا القول وزادوا فيه . وأصبح من السلم لديهم زندقته ، وكلهم يتداولون الحكاية المشهورة أنه مر بيت من بيوت النار ، فتمثل بقول الأحوص :

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي انْتَزَلَ حَذَرَ الْعِدَى وَبِهِ الْفَوَاقِدُ مُوَكَّلٌ
إِنِّي لَأَمْتَحِكُ الصُّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لَأَمِيلُ
وزاد من أتى بعد كالباقلائي ، والقاضي عياض اتهامه بمعارضته القرآن الكريم ! .

ونحن نعلم من حياة ابن المقفع أنه قضى أكثر حياته ، وهو مجوسى ظاهراً وباطناً ، ولم يسل إلا وهو كاتب عيسى بن علي ، ولم يقتر بعد إلا سنين قليلة ، وهو من غير شك لا يؤاخذ على زندقته ، وما ألف فيها — إن كان قد ألف — قبل أن يسل . وإنما يؤاخذ على ما ألف أو قال بعد إسلامه ، فالإسلام يَجِبُ ما قبله . ولم ينص هؤلاء الرواة على أنه قال ، أو ألف كتاباً في الزندقة بعد إسلامه إلا عبارة سفيان بن معاوية . وهو متهم لما بينهما من عداوة شخصية ، سببه أن ابن المقفع كان يحضره ويزدره ، وإلا ما روى من تمثله ببيت الأحوص .

(٢) الجعفي ١١٤ .

(١) ابن خلكان ١ : ٢١١ .

وقد بالنوا في الفحص عما يشتم منه زندقته ، ورموه بها حتى فيما ليس فيه زندقه .
فقد روى أبو تمام في ديوان الحماصة لابن المقفع أبياتاً له في الرثاء وهي :

رُزْنَا أبا عمرٍ ولا حَيٍّ مِثْلُهُ فَلَهُ رَيْبُ الحَادِثَاتِ بَيْنَ وَقَعٍ
فَإِنْ تَكْ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ذَوِي خَلَّةٍ مَا فِي اسْدَادٍ لَهَا طَمَعٌ
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا قَدُّنَا لَكَ أَنَّنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

فقال ثعلب : « البيت الأخير يدل على ملههم في أن الخير ممزوج بالشر ،
والشر ممزوج بالخير » وأنا أقول لثعلب هلا قرأت قوله تعالى « يسألونك عن
الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » ! الحق
أن ثعلباً وأمثاله تحاملوا عليه كثيراً .

وقد أخرجت « مؤسسة كاثباتي » للأبحاث عن تاريخ الإسلام وحضارته
كتاباً نشره الأستاذ « ميكائيل أنجلو جويدي » سنة ١٩٢٧ عنوانه « كتاب الرد
على الزنديق اللعين ابن المقفع — عليه لمة الله — للقاسم بن إبراهيم ، عليه من
الله أفضل الصلاة والتسليم » .

وهذا القاسم بن إبراهيم كما في « عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب »
هو القاسم بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم النمر بن
الحسن الثاني بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كان يكنى أبا محمد ، وكان يقيم
في جبال الرس ولذا عرف باسم قاسم الرسي » وقد مات القاسم سنة ٢٤٦ هـ
أي بعد ابن المقفع بنحو قرن . وكتاب القاسم كامل ولكن كتاب ابن المقفع
لم يذكر كله بنصه ، وإنما ذكر المؤلف قراً منه تمهيداً للرد عليها . ويقع النص
العربي في خمس وخمسين صفحة ، ثم ترجمه الأستاذ جويدي إلى اللغة الإيطالية ،
وعلق عليها وقدمه بمقدمة تبحث في الكتاب . وهذه الفقرة التي تنسب إلى
ابن المقفع تدلنا على غرض الكتاب ومنحاه ولغته .

ونحن نشك كل الشك في نسبة الأصل لابن المقفع والرد للقاسم
من وجوه :

فأما الشك في نسبة أصل الكتاب لابن المقفع :

(١) من الناحية الفنية : فأسلوب الكتاب غير الأسلوب المعروف لابن المقفع ، والذي تبيّنه من الأدّيين ورسالة الصّحابة وكليّة ودمنة . ففي كل هذه الكتب لا يمد إلى السجع إلا ما جاء عفواً ، أما في هذا الكتاب فيتمتع السجع أحياناً اعتماداً كقوله : « لَأَنْ كُونَ شَيْءَ لَا مِنْ شَيْءٍ لَا يَقُومُ فِي الْوَهْمِ لَهُ مِثَالٌ ، وَمَا لَا يَقُومُ فِي الْوَهْمِ لَهُ مِثَالٌ فَحَالٌ »^(١) هذا إلى أن العبارة نفسها من نوع التعبير الفلسفي ، الذي لم يعرف إلا بعد زمن ابن المقفع .

(٢) يستهزئ هذا المؤلف بالتعبير بأنّ الله يدين ، وبالاتواء على العرش ، وبأنه قاب قوسين أو أدنى ، ويحمل هذه التعبيرات على ظاهرها . ونحن نعلم أن ابن المقفع كان ضليعاً في اللغة العربية ، حتى قال الأصمعي : « قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها خطأ إلا قوله (العلم أكثر من أن يحاط بالكل منه فاحفظوا البمض) »^(٢) وألف ابن المقفع في الكلام — كما حكى الجاحظ — وتعرض للمعترلة ، فمن البعيد جداً أن يفهم ابن المقفع من اليد والوجه والاتواء على العرش المعاني الحقيقية الظاهرة .

(٣) إذا نحن استثنينا أول الرسالة ، وهو قوله « باسم النور الرحمن الرحيم » وجدنا الرسالة كلها ليست تأييداً لمذهب ماني ، ولا لمذهب زرادشت أو مزدك ؛ وإنما هي دعوة إلى الإلحاد المطلق ، فهو يهزأ بملاحة الله بالإنسان ، وكيف اهتلب عليه خلقه وهم عمّل يديه ! وكيف قتل أعداؤه أنبياءه ورسله ! وكيف أمرض خلقه وعذبهم بما عرض من الأسقام لهم ! وكيف بأمره بالإيمان

(١) ص ٤٤ (٢) الزهر ٢ = ٨٦ وموضع المتن في نظر الأصمعي إدخال أن على كل وبعض .

بما لا تعرف ، والتصديق بما لا تعقل ! وكيف صارت الغلبة للشيطان فخبه
الناس إلا أقلمهم ! ، الخ . وهي كما ترى ليست مطاعن في الإسلام وحده ؛ وإنما
هي طعن في كل دين ، ومنها البليانة الثنوية . ونحن نعلم من تاريخ ابن
المقفع ؛ أنه كان يستمسك بدينه ، ولما اعتزم الإسلام أبى أن يبيت ليلة على غير
دين ، وسواء أكان إسلامه حقاً أم ظاهراً فقط فليس من طبيعته الخرص على
دين ما أن يهاجم الأديان كلها بهذه اللغة .

(٤) إنا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب ، وخاصة في الكتب التي
أُلِّفت في العصور الأولى كالسعودي ، وفهرست ابن النديم من نسب لابن
المقفع كتاباً كهذا ، وهو حريٌّ بأن يُنص عليه ، لأنه يهيج شعور المسلمين ،
ويجملهم على الرد عليه ، ودفع مطاعنه .

وأما شكنا في نسبة الرد للقاسم بن إبراهيم فن وجه كذلك :
أولها — من الناحية الفنية ، فقد علمنا أن القاسم في النصف الأول من
القرن الثالث ، والكتاب من أوله إلى آخره كله مسجوع ، متكلف السجع .
ونحن نعلم أن هذا العصر « عصر الجاحظ » لم يتكلف فيه سجع ، ولم تؤلف
فيه كتب مسجوعة كلها ، وإن تكلف فيه سجع فقيرة أو فقرتان ، فأما كتاب
كله سجع ، فهذا ما لا نعرفه في هذا العصر هذا إلى إسفاف في السجع ، ورداءة
في التعبير كقوله : « فالإنس والخلق ليس بينهما عندكم خلاف ، والأعيان
والأعراض فقد تجمعها الأوصاف »^(١) .

ثانياً — ترجم ابن النديم فهرست للقاسم بن إبراهيم ، وعدد كتبه ،
وهي كتاب الأشربة ، وكتاب الإمامة ، وكتاب الأيمان والنذور ، وكتاب
سياسة النفس ، وكتاب الرد على الرافضة^(٢) وهذه هي كل كتبه التي ذكرها
ولم يذكر منها رداً على ابن المقفع .

هذا يجعلنا نخالف ما ذهب إليه الأستاذ « جويدى » من ترجيحه صحة نسب الكتاب والرد عليه .

* * *

وبعد فالقارىء لكتب ابن اللقّمع وتاريخه ، يخرج منه على أدب مُقف ثقلة واسعة فارسية وعربية ، ينزع نزعة قوية لقومه من الفرس ، ويُحصى أمته بنشر آدابها ، وسياستها وتاريخها ، ويرى عيوب النظم الاجتماعية في عصره فينادى بإصلاحها ، بتطبيق الصالح من النظم الفارسية ، ثم هو نبيل شريف النفس يسترعى بُنْبله وأدبه أنظار الناس . فيروى الأصمى أن ابن اللقّمع سئل « من أدبك ؟ قال نفسى ، إذا رأيتُ من غيرى حسناً أتيتُه وإن رأيتُ قبيحاً أتيتُه » ثم إن بُنْبله وعلوّ خلقه أنيا من طريق الفكر والفلسفة ، لا من طريق الدين ، ورجال الخلق قد يكون خلقهم تدينًا ، وقد يكون خلقهم تفلسفًا . فأخلاق الحسن البصرى العالية — مثلاً — مبعثها الدين ، يتجلى ذلك في حِكْمه وأقواله وسيرته . فهو يَصْدُقُ ويُحْسِنُ ويعمل لأن الله أمر بالصدق والعدل والإحسان . أما ابن اللقّمع فباعثه الخلق فلسفى يصدق لأن فى الصدق شرفًا ورفعة ، ولو لم يأمر به دين لكان فى نفسه حسنًا ! يظهر ذلك فى حِكْمه ، قلّ أن يستند فى قوله إلى آية أو حديث ، وإنما يعلل ذلك تعليلًا عقليًا ، فهو رجل مدنى وعالم مدنى ، لا رجل دين ولا عالم دين . يتجلى فى أقواله إيمان بالله ، وإيمان بدين ؛ لكن لا يتجلى فيها إيمان بتفاصيل دين . فلو سئلنا ما — كانت — منزلة الإسلام من قبله ؟ تغير ألا نحاول الإجابة : فنحن لا نستطيع الحكم — فى هذا — على من هم تحت سمعنا وبصرنا ، فكيف بمن باعدت بيننا وبينه القرون ، وانغمس فى السياسة وأحزابها ، وحارب وحارب بها ! فلتكله إلى الله فافه وحده خير الحاكمين .

* * *

إذاً — كانت الثقافة الفارسية عنصراً قوياً الأثر في ذلك العصر : في الشعر في الأدب ، في الحكم ، في القصص ، في الخرافات والأوهام ، في العادات والتقاليد ، في نظم الحكم ، في دُعاة الإصلاح ، في رجال اللهو والرفاه ، في الديانات ومذاهب للتكلمين ، في رجال العلم والتدوين ، في قصور الخلافة ، في الخاصة والعامة . وكان لهذا العنصر حُمة ودُعاة ، يعملون كثيراً بداعي المصيبة القومية ، وأحياناً بداعي الخير والإصلاح ، وكان لكثير من هؤلاء الدعاة مناصبٌ تمكّنهم من بسط نفوذهم ، وحماية دعوتهم ، سرّاً إذا دعت الحال ، وجرراً إن أمكن الجهر . ولم يكن ابن المقفع إلا زعيماً من زعمائها المديدين ، وأبطالها البارعين . ولم تنتشر دعوتهم في لين وهوادة ، بل قُوِّمت من عناصر أخرى في شدة وعنف ، قاومها العرب إذ أحسّوا الخطر ، وقاومتها الأجناس الأخرى دفاعاً عن قوميتها ، وكان صراع لغوي وديني ، وصراع عادات وتقاليد ، وصراع علني . وكان النصر في بعض الميادين لهذا ، وبعضها لذلك ، كما سنبينه في الكلام على امتزاج الثقافات إن شاء الله .

الفصل الثاني

الثقافة الهندية

قديمًا عَرَفَ العربُ « الهندَ » في جاهليتهم واتصلوا بهم تجاريًا ، وأولعوا بالعود الطيب الذي يجلب من الهند ، فقال عَدِيُّ بْنُ الرَّقَّاعِ :

رُبَّ نَارٍ بَيْتٌ أَرْمَقُهَا تَقْفِيهِمُ الْهِنْدِيُّ وَالْفَارَا

قالوا إنما عَنَى بالهنديِّ العودَ الطيبَ الذي من بلاد الهند . كما أولعوا بالسيوف الهندية ، وسموا السيفَ المطبوعَ من حديدِ الهند ؛ الْمُهَنْدُ ، وقالوا سيفُ مُهَنْدٍ وَهِنْدِيٍّ وَهِنْدُوَانِيٍّ إِذَا حَمَلَ بِيَلَادِ الْهِنْدِ وَأَحْكَمَ حَمْلَهُ ، واشتقوا منه فقالوا : هُنْدَ السِّيفِ إِذَا شَحَذَهُ ، وقال قائلهم : « كَلَّ حَسَامٌ مُخَكَّمُ التَّهْنِيدِ » قال الْأَزْهَرِيُّ : وَالْأَصْلُ فِي التَّهْنِيدِ حَمْلُ الْهِنْدِ^(١) . وسموا كثيرًا من نساءهم « هندًا » كما سموا « هند الهنود » ولا أدري هل أصل التسمية هذه البلاد .

ولما فتح المسلمون فارسَ والعراقَ فكَّروا في الهند ، فيجدُّنا البلاذري : « أَنَّهُ لَمَّا وَلِيَ عُمَانُ بْنُ عِفَّانٍ ، وَوَلَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ بَنَ كَرْيَزَ الْعِرَاقِ كَتَبَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ أَنْ يُوجِّهَهُ إِلَى ثَمَرِ الْهِنْدِ مَنْ يَعْلَمُ عِلْمَهُ وَيَنْصَرِفُ إِلَيْهِ بِخَبْرِهِ ، فَوَجَّهَ حَكِيمَ بْنَ جَبَلَةَ الْقَبْدِيَّ ، فَلَمَّا رَجَعَ أَوْفَدَهُ إِلَى عُمَانَ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِ الْبِلَادِ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَدْ عَرَقْتُهَا وَتَنَحَّرَتْهَا . قَالَ : فَصِفْهَا لِي . قَالَ : مَاؤُهَا وَشَلٌّ ، وَتَمَرُهَا دَقْلٌ^(٢) ، وَلِصُّهَا بَعْلَلٌ . إِنْ قَلَّ الْجَيْشُ فِيهَا ضَاعُوا ، وَإِنْ كَثُرُوا

(١) لسان العرب .

(٢) الوشل : القليل . والبعلل : أردأ التمر .

جاعوا . فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال بل خابر ، فلم يُفْزَها أحدًا ^(١) وتتابع المسلمون يَفْزونها ، ويصيبون منها اللغائم ، حتى وجّه الحجاج محمد بن القاسم التَّمَنِي إلى الهند في أيام الوليد ففتح جزءاً عظيماً منها ، وهو المسمى بالسند سنة ٩١ هـ ، ففتح دَبِيل « Daibul » و « نيرانكوت » المسماة الآن « بمجدر آباد » وسار إلى « رَاوَر » وأخيراً فتح « مُلتان » وكان محمد بن القاسم قائدُ الجيوش وفتح هذه الفتوح فتى شاباً لم يتجاوز العشرين ، قال فيه القائل :
 إِنَّ المروءة والسماحة والنسدى لمحمد بن القاسم بن محمد
 ساسَ الجيوشَ لِسَبْعِ عَشْرَةِ حِجَّةٍ يَا قُرْبَ ذَلِكَ سُودُداً مِنْ مَوْلِدِ
 وقال فيه آخر :

ساسَ الرجالَ لِسَبْعِ عَشْرَةِ حِجَّةٍ وَلِدَانَهُ عَنْ ذَاكَ فِي أَشْغَالِ
 وقد غنموا مغانم كثيرة ، وسبوا سبيّاً كثيراً ، انتشر كشأن السبائا في المملكة الإسلامية ، وأصبح الجيل السندى عنصراً من العناصر المكونة للأمة الإسلامية . حدث الأغاني قال : « بعث الجنيدُ بن عبد الرحمن الرّسى إلى خالد ابن عبد الله القسريّ بسبي من الهند بيض ، فجعل يهب — كما هو — للرجل من قريش ، ومن وجوه الناس ، حتى بقيت جارية منهن جميلة كان يدخرها ، وعليها ثياب أرضها : فوطتان ؛ فقال لأبي النجم هل عندك فيها شيء حاضر وتأخذها الساعة ؟ قال : نعم أصلحك الله ؛ ^(٢) ثم قال فيها رَجَزَهُ للشهور الذي مطلعته » :

عَلِقْتُ خَوَداً مِنْ بَنَاتِ الزُّطِ ^(٣)

وفي عصرنا الذي نؤرخه تبعت السند للعباسيين ، وولى أبو جعفر المنصور

(٢) أغاني ٩ : ٧٩ .

(١) البلاذري ص ٤٣٨ .

(٣) الزط : جيل من الهند مغرب « هبت » ويطلق الآن على سكان إقليم البنجاب .

هشام بن عمرو التغلبي عليها سنة ١٤٢ فتوسع في الفتح شمالا ، ففتح « كابل » و « كشمير » وأصاب سنيّا ورفيقا كثيرا . واتصلت العلاقات التجارية بين السند والمملكة الإسلامية ، فكان يأتي منها العود والسكر ، والغاب الهندي ^(١)

* * *

وما تم الفتح حتى رأينا الحركة العلمية تتبعه ، فكان بعض الفاتحين أنفسهم من العلماء ، فالربيع بن صبيح البصري أشهر المحدثين ، وأولهم ندويّا للحديث ، كان في الجيش الذي سيّره للمهدي سنة ١٥٩ لغزو الهند وبيهامات ^(٢) . وقد ترجم الذهبي لبعض المحدثين في السند في كتابه تذكرة الحفاظ ^(٣) . وهكذا لم يكن الجيش الإسلامي فاتحا فقط ، بل كان — أيضا — ناشرا للدعوة ومعلما .

ومن ناحية أخرى سرعان ما رأينا الموالى الذين جلبوا من الهند ، وغنموا في الحرب ووزّعوا على الجند ؛ ينبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثون . فمن الشعراء كان أبو عطاء السّندي ، وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وكان أبوه سنديّا لا يفصح ، ونشأ ابنه في المسلمين شاعرا كبيرا ، وإن كان في لسانه لُكنة شديدة ولُغّة ، كان يقول في مرجا « مرهبا » وفي جيا كم الله « هيا كم الله » وفي الزّج « الرّز » وفي جرادة « زراة » وفي الشيطان « سيطان » وفي أظن « أزن » حتى اضطر أن يتخذ له غلاما ينشد شعره تحاميا من أن ينشده بلسانه وهو القائل :

أَعُوذُ بِرُؤَاةِ يَا ابْنَ سَلِيمٍ وَأَبَى أَنْ تُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي
وَعَلَا بِالَّذِي أَجْمَعُ صَدْرِي وَجَفَانِي لِمُجْتَنِي سُلْطَانِي ^(٤)

(١) المسالك والممالك لابن عمر طائفة ص ٦٢ (٢) انظر ابن الأثير ٣ : ١٧ .

(٣) جز ٢٠ ص ٦٥ و ٢٥٦ . (٤) المجمعة : إخفاء اللّيه في الصدر .

وَأَزْدَرْنِي الْمَيُونُ إِذْ كَانَ لَوْنِي حَالِكًا مُجْتَوًى مِنَ الْأَلْوَانِ^(١)
 فَصَرَبْتُ الْأُمُورَ ظَهْرًا لِبَطْنِي كَيْفَ أَخْتَالُ حِيلَةً لِلْسَانِي !
 وَتَمَنَيْتُ أَتْنِي مَكْنَتُ بِالشَّعْرِ فَصِيحًا وَبَانَ بَعْضُ بَنَاتِي
 وَلَمَّا أَمْرَ أَبُو جَعْفَرٍ لِلتَّصَوُّرِ النَّاسَ بِلَبْسِ السَّوَادِ قَالَ :

كُتِبْتُ وَلَمْ أَكْفُرْ عَنْ اللَّهِ نِعْمَةً سَوَادًا إِلَى لَوْنِي وَدَنَا مُلْهَوَجًا^(٢)
 وَبَايَعْتُ كُرْهَا بَيْعَةً بَعْدَ بَيْعَةٍ مُبْهَرَجَةً أَنْ كَانَ أَمْرًا مَبْهَرَجًا
 وَقَدْ كَرِهَ الْعَبَّاسِيُّونَ لِأَنَّهُ قَالَ كَثِيرًا فِي مَدْحِ الْأُمَوِيِّينَ ، فَلَمَّا تَحَوَّلَتْ
 الْهَوَلَةُ أَرَادَ أَنْ يَحْوِلَ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، فَكَانَ يَذَمُّهُمْ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ هَذَا ، وَقَوْلُهُ :
 فَلَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَلَيْتَ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ !^(٣)
 وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ شَعْرِهِ كَثِيرٌ حَتَّى نَتَبَيَّنَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ كَسَبَهَا
 مِنْ أَصْلِهِ الْمُهَنْدِي .

وَاشْتَهَرَ مِنَ اللَّغَوِيِّينَ مَنْ أَصْلُهُ هِنْدِي ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ (كَانَ أَبُوهُ زِيَادٌ
 عَبْدًا سِنْدِيًّا) وَكَانَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ اللَّفْظِ وَالْأَدَبِ وَالشَّعْرِ ، أَمَلَى
 عَلَى النَّاسِ مَا يَحْمِلُ عَلَى أَجَالٍ ، وَأَلَّفَ تَأْلِيفَ كَثِيرَةٍ ، وَتَلَمَّذَ لَهُ كَثِيرُونَ
 مِنْ أَشْهُرِهِمْ تَطَلُّبُ وَابْنِ السَّكَيْتِ . وَلَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْ كِتَابِهِ إِلَّا كِتَابُ فِي أَسْمَاءِ
 الْبُزْرِ وَصِفَاتِهَا^(٤) ، وَكِتَابُ فِي أَسْمَاءِ الْخَلِيلِ وَأَنْسَابِهَا^(٥) . وَمِنْ كِتَابِهِ الَّتِي أَلْفَهَا
 كِتَابُ الْأَنْوَاءِ . وَلَوْ وَصَلَ إِلَيْنَا لَعَلَّنَا هَلْ تَأَثَّرَ فِيهَا بِمَعَارِفِ الْمُهَنْدِ أَوْ اقْتَصَرَ

(١) الْمُجْتَوًى : الْبَيْضُ الْمَكْرُوهُ .

(٢) اللَّيْنُ وَالذَّقِيَّةُ : قَلَسُودَةُ الْقَفَاسِي ، وَالْمُلْهَوَجُ : التَّضَكُّكُ خِلَافَ الْحُكْمِ .

(٣) اقْرَأْ تَرْجُمَتَهُ فِي الْأَغَانِي جِزْءَ ١٦ : ٨١ وَمَا يَدَّهَا وَفِي طَبَقَاتِ الشَّعْرِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ .

(٤) نُشَرِّ فِي مَجْلَةِ الْمُتَقَبِّسِ مَجْلَدَ ٦ جِزْءَ ١ (٥) فِي دَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ كُتُبِ الشُّعْرَى .

على معارف العرب ، على النحو الذى أُلّف فيها غيره من علماء العرب .

ومن المحدثين الهندين . أبو معشر تَجِيحُ السندى ، صاحب الغازى سمع نافعا ونقرأ من التابعين ، وكان ألكن يقول حدثنا محمد بن « قسب » يريد كسب ، الخ ، الخ .

هذا نوع يمثل لنا اندماج الهنود فى المسلمين ، واعتناقهم الإسلام وتعلّمهم علماً إسلامياً عربياً ، ونبوغ بعضهم فيه . وقد رأينا قبل فيما قلنا عن الجاحظ ؛ اشتها السنديين بحسن التيام على اللال وتدييره حتى « لا ترى بالبصرة صيرفياً إلا وصاحب كيسه سندى » .

والآن نريد أن نتعرض للجانب الآخر من الموضوع ، وهو تأثير الهنود فى الثقافة الإسلامية .

أثر الهنود فى الثقافة الإسلامية من ناحيتين — ناحية مباشرة — وذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ، ومن طريق الفتح العربى . فإن هذا الفتح صيّر ما فتح من بلاد السند جزءاً من المملكة الإسلامية تخضع لنظامها ، وتجرى عليها أحكامها ، وينتقل المسلمون إليها ، وينتقل الهنود إلى أنحاء العالم الإسلامى المختلفة . وكل من هؤلاء وهؤلاء يحملون ثقافتهم ، ويبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السِّلَع .

وناحية غير مباشرة : وذلك نقل ثقافتهم بواسطة الفرس ، فإن الفرس اتصلوا بالهنود اتصالاً وثيقاً قبل الفتح الإسلامى ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم . وأخذوا كثيراً من الثقافة الهندية ، وأدججوها فى ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافة الفارسية إلى العربية ، كان معنى هذا نقل جزء من الثقافة الهندية فى ثناياها .

وقد عدّ المسلمون الهنود إحدى الأمم الأربع ذات الصفات المتنازة ، وهى : الفرس والهند والروم والصين : وقال الجاحظ فيهم : « اشتهر الهند

بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب، والخرط والتنجيم والتصوير، والصناعات الكثيرة العجيبة»^(١).

وقال المسعودي «ذكر جماعة من أهل العلم والنظر... أن الهند كانت قديم الزمان النُرة التي فيها الصلاح والحكمة... ثم أُلِمَّ بطَرْفٍ من إلهياتهم ورياضتهم وألعابهم إلى أن قال: «والهند في عقولهم وسياستهم وحكمتهم، وألوانهم وصفاتهم، ومحنة أمرجتهم، وصفاء أذهانهم، ودقة نظرم بخلاف سائر السودان»^(٢).

وقال الأصفهاني في محاضرات الأدباء: «إن الهند لهم معرفة الحساب والخط الهندسي، وأسرار الطب وعلاج فاحش الأدوية، والرقى وعلم الأوهام، وخرط التماثيل ونحت الصور، وطبع السيوف، والشطرنج، والخنكلة — وهي وتر واحد يحمل على قرعة فيقوم مقام العود — ولهم ضروب الرقص، والثقافة والسحر والتدخين»^(٣).

وقال القنطري: «إن الأمم الثماني التي عُتبت بالعلوم هم: الهند، والفرس، والكلدانيون، واليونانيون، والروم، وأهل مصر، والعرب، والعبرانيون. وهذه الأمم المذكورة هم الذين اعتنوا بالعلوم واستخرجوا، وباقى الأمم لم تعن بشيء من ذلك ولا ظهر لها شيء منه»^(٤).

وفال في موضع آخر: «والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد نخبة الممالك، قد اعترف لها بالحكمة، وأقر بالتبريز — في فنون المعرفة — كل الملل السالفة... وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لقرط عنايتهم بالعلوم... فكان الهند عند جميع الأمم معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة. ولبعد الهند من بلادنا قلت تأليفهم عندنا فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علماتهم»^(٥).

(١) رسائل الجاحظ ص ٧٣. (٢) مروج الذهب ١ : ٣٥ وما بعدها.

(٣) ص ١ : ٩٣ ولعله التتجيل. (٤) إخبار الحكماء ص ٢٧ (٥) ص ٢٦٦

وكان تأثير المهند من نواح : أهمها الإلهيات ، أو القالات الدينية ، والرياضيات
أو الحساب والنجوم ، والأدب وما يتبعه من فن .

الإلهيات : — كان للمهند فلسفة كالليونان فلسفة ، وقد بحث مؤرخو الفلاسفة
في مبلغ تأثير إحداهما في الأخرى ، وما أخذ اليونان عن الهند ، وما أخذ الهند
عن اليونان — مما لا مجال لبحثه هنا — ولكننا نقول إن للفلسفة الهندية أوصافاً
خاصة تميزها عن الفلسفة اليونانية . ذلك أن الفلسفة الهندية امتزجت امتزاجاً
تاماً بالدين ، واصطبغت صبغة شعرية لا صبغة علمية ، لم تتدرج من المحسوس
إلى المقول ، ورضيت في كثير من مواقفها بالتعبير الشعري ، للملوء بالجازات
والاستعارات والخيالات ، ولم تهج النهج العلمي الذي يتطلب التعبير
بالحقائق لا المجازات . مثال ذلك أن تقول : إن العالم كله مشتق من شيء
واحد أبدى أزلي لا يقبل التغير يسمى « برهمن » ثم إذا تترحت كيف
تخلق هذا العالم من « برهمن » قالت : « كما بتشكل الحديدة الحماة في النار
إلى آلاف من الأشكال ؛ كذلك تتخلق الأشياء من الأزلي الأبدى ثم تعود
إليه » . أو تقول : « كما ينبعث النسيج من العنكبوت ، أو الشرر من النار ؛
كذلك يخرج الحيوانات والعالم وكل شيء ، من ذلك الأصل » .

فأنت ترى أن هذه تشبيهات ترضى الخيال ، ولا ترضى العقل . وهكذا
ملئت الفلسفة الهندية بمثل هذه التعميرات في كثير من شروحا . وقد يكون
لها العذر في أنها تحاول شرح شيء من الصعب إدراكه ، والتعبير عنه تعبيراً
رياضياً ، أو تعبيراً علمياً ، وأنها تنتقل من محسوس يمكن التعبير عنه إلى لا محسوس
يصعب توضيحه . ولكن الفلسفة اليونانية — في مثل هذه المواقف —
لم تسلك هذا السبيل ، وحاولت جهد طاقاتها أن تعبر التعبير العلمي ، وإن
كان في المدرسة الأفلاطونية شيء من الشعر .

كذلك مما تخالف فيه الفلسفة الهندية الفلاسفة اليونانية ؛ أن الأولى حددت

الغرض من الفلسفة بخدمة الإنسان ، بينما الفلسفة اليونانية تتطلب. للعرفة للعرفة . فالباعث الأساسى للفلسفة عند الهنود شوق الإنسان للخلاص من آلام هذا العالم ومصائبه . وعند اليونان الباعث الأول على الفلسفة العجب ، عجب من مظاهر العالم فأراد أن يتعرفها فتفاسف .

* * *

انتشرت فى الهند ديانة البراهمة ثم البوذية ، ومن الإطالة أن نعرض لشرح هاتين الديانتين فى عقائدهما وأصولهما . وقد وصف « التبيرونى » ديانة الهند التى رآها فى القرن الرابع الهجرى ، وكان دقيقاً صادق الوصف ، عالماً باللغة السنسكريتية ، عاش فى الهند زمناً طويلاً ، وخبر أحوال أهلها ، ووضع فى ذلك كتباً أهمها : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة »^(١) وصف فيه عقائدهم ، وعلومهم وآدابهم ، وأحوالهم الاجتماعية . وقد أبان البحث العلمى الحديث ما للبيرونى من تحرر للحق ، وإخلاص للعلم ، وإصابة فى كل ما وصف — إلا فى القليل النادر الذى أوقعه فيه اعتياده على نفسه فى فهم كلمة لغوية لم يكن فيها مصيباً ، وأحياناً نقله عن خطأ فى خبره — وقرب عهد البيرونى من عصرنا الذى نؤرخه يجعلنا نعتقد أن حالة الهند فى عصرنا العباسى الأول تشبه تمام الشبه ما وصفه « التبيرونى » معتمداً على ما شاهد وسمع وقرأ فى كثير من الكتب الهندية باللغة السنسكريتية .

وصف الهنود بالإعجاب بأنفسهم ، والاعتداد بأنهم ، والازدراء بمن عداهم « يعتقدون فى الأرض أنها أرضهم ، وفى الناس أنهم جنسهم ، وفى الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفى الدين إنه نحلتهم ، وفى العلم أنه ما معهم . وفى طبيعتهم الضن بما يعرفونه ، والإفراط فى الصيانة له عن غير أهلهم منهم ، فكيف عن غيرهم ! على أنهم لا يظنون أن فى الأرض غير بلدانهم ، وفى الناس غير

(١) طبع فى ليبك .

سكانها ، وأن للخلق غيرهم علما ، حتى أنهم إذا حُدِّثُوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجلبوا الحنيز ، ولم يصدقوه للآفة المذكورة . ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم ! على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من النفقة فهذا « برهن » أحد فضلائهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول : إن اليونانيين — وهم أنجمناس — لما تخرجوا في العلوم وأنافوا فيها^(١) على غيرهم وجب تعظيمهم^(٢)»

ولما ذكر اعتقادهم في الله ، فرّق بين خاصتهم وعامتهم ، لأن طباع الخاصة تقصّد التحقيق في الأصول ، والمائة تقف عند الحسوس ، ثم شرح عقيدة الخاصة ، فإذا هي توافق عقيدة المسلمين فيه ، فقال : « واعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار في فعله ، القادر الحكيم الخلي المحيي للمدبر للبقى ، الفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لا يشبه شيئا ولا يشبه شيء »^(٣) . ثم استدلل على أن هذا عقيدة الخاصة من المنود بنصوص من كتبهم القديمة ، ثم وصف عقيدة العامة « وأن الأقاويل عندهم اختلفت وربما نتجت ، كما يوجد مثله في سائر الملل وفي الإسلام من التشبيه والإجبار ، ومثل لذلك عند المنود بأن خاصتهم تقول : إنه يحيط بكل شيء حتى لا تخفى عليه خافية ، فيظنّ عاميئهم أن الإحاطة تكون بالبصر ، والبصر بالعين ، فيصف الله بألف عين عبارة عن كمال العلم .

وقد أسال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند ، من الاعتقاد بالله وللوجودات العقلية والحسية ، ونملق النفس بالمادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار ، وكيفية الخلاص من الدنيا ، ومنبع الشئن والنواميس ، والرسل ، وفسخ الشرائع . وقارن في كثير من المواضع بين عقائد الهند والإسلام ، والصوفية والنصرانية ، والفلسفة اليونانية والأفلاطونية

(١) أناف . زاد . (٢) تحقيق ما قلناه من مقولة ص ١١ . (٣) ص ١٣ .

الحديثة ، مما يخرج بنا عن القصد لو شرحناه .

غير أن هنا مسألة هامة لا يد من الإشارة إليها ؛ لأنها خاصة من خواص الهند ، ولما أثر كبير في المسلمين ، تلك هي مسألة « تناسخ الأرواح » . وقد قال فيها البيروني بحق « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والإسبات علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ، ولم يمد من جملتها ! »^(١) .

وشرح نظريتهم في التناسخ : أن الأرواح لا تموت ، ولا تفتن وأنها أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ، ولا ماء يفسدها ولا ريح تفسدها ولكنها تنتقل من بدن إلى بدن ؛ كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، وتترق النفس في الأبدان المختلفة كما يترق الإنسان من طفولة ، إلى شباب ، إلى كهولة ، إلى شيخوخة . ذلك أن النفس طالبة للكمال ، شقيقة إلى العلم بكل شيء ، وهذا يحتاج إلى زمن فيسبح ، وعمر الإنسان وغيره قصير ، فلا بد من تنقل النفس من بدن إلى بدن وفي كل بدن تستفيد تجارب جديدة ، ومعلومات جديدة . فالأرواح الباقية تتردد في الأبدان البالية ، وهي تتردد من الأرحل إلى الأفضل ، دون عكسه ، لتترق النفس في الكمال ، حتى يتحقق شوقها بعلها ما لم تعلم ، واستيقانها شرف ذاتها ، واستفناؤها عن المادة فتعرض عنها « ويتحد العاقل والعقل والمقول ، ويصير واحداً » .

وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ . فقالوا : إن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر ، والعلم من الجهل ، فالأرواح الشريرة تتردد في النبات ، وخشاش الطير ، ومرتزول الهوام ، إلى أن تستحق الثواب فتنتج من الشدة وتتردد فيها هو أرق . وقال بعضهم : « لو لم أكن صائراً إلى آلهة حكماء سادة أخيار ، ثم بعد إلى أناس ماتوا خير من هنا

(١) البيروني ص ٢٤ .

لـ كان تركي الحزنَ على الموت ظلماً ! » ، « وقال بعض من مال إلى التناسخ من للتكلمين ، إنه على أربع مراتب : هي « النسخ » وهي التوالد بين الناس ، بأن ينسخ من شخص إلى آخر ، وضد « المسخ » ويخص الناس بأن يمسخوا قردة وخنازير وفيلة . و « الرسخ » كالنبات ، وهو أشد من النسخ لأنه يرسخ ، ويبقى على الأيام ، ويدوم كالجبال ، وضده « الفسخ » وهو للنبات المقطوف ، والمذبوحات لأنها تتلاشى ولا تعقب »^(١).

وقد لعبت نظرية التناسخ دوراً هاماً في الفلاسفة اليونانية ، وفي الديانة المانوية ، وفي المذاهب الإسلامية ، وفي التصوف ، وفي الصرانية .

فقد قال فيثاغورس بنظرية التناسخ ، ورجح كثيرون من مؤرخي الفلسفة اليونانية أنها مأخوذة — في الأصل — من الفلسفة الهندية ، ثم أخذها عن فيثاغورس ؛ إميدٌ كليس ، وأفلاطون — قد كان فيثاغورس يرى تناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان ، وأن تحرر النفس بترقيها في دورة الحياة . وذلك بالشعائر الدينية ، وبالفكر والتأمل والفلسفة — وأفلاطون ربط رأيه في عالم المثل ، ونظريته في تذكر المعلومات قبل حلول الروح بالجسم بنظرية التناسخ ، وإن اختلفت نظريته في التفاصيل عما حكاه بوذا ، من تذكره أشياء كثيرة ، حدثت له في مواليدته الأولى ، وقد نقض أرسطو رأى فيثاغورس وأفلاطون في التناسخ ، وخاصة في حلول روح إنسان في جسم حيوان ، وذهب إلى أن ما كان وظيفة لشيء لا يمكن أن يكون وظيفة لآخر الخ .

وقد حكى « البيروني » أن « ماني » نفي من بلاد فلوس فدخل أرض الهند ونقل التناسخ منهم إلى نحلته ، وقال : إن الحواريين لما علموا أن النفوس لا تموت ، وأنها مترددة في صور مختلفة ، سألوا للسبح عن عاقبة النفوس التي لم تقبل الحق فقال : أي نفس لم تقبل الحق هالكة .

(١) البيروني ص ٣٢ .

لا راحة لها ، وَعَنَى بهلاكها عذابها لا تلاشيها ^(١) .

أما في الإسلام فكان أثر التناسخ في بعض الفرق الدينية كبيراً ، فقد قال أحمد بن حنبل (وقد كان من المعتزلة ثم تبرعوا منه) وأبو مسلم الخراساني ، والقرامطة ، وعمد بن زكريا الرازي : إن الأرواح تنقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى ، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت . واحتج أحمد بن حنبل بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » وقوله تعالى : « جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ » ^(٢) .

وقد أوضح الشهرستاني قول أحمد بن حنبل في التناسخ فقال : إنه كان يقول إن الله أبدع خلقه أمعاء سالمين عقلاء بالنين في دار سوى هذه الدار التي هم فيها اليوم ، وخلق فيهم معرفته والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمه .. فابتدأهم بتكليف شكره ، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم في جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم في البعض دون البعض ، فمن أطاعه في الكل أقره في دار النعيم التي ابتدأهم فيها ، ومن عصاه في الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب وهي النار ، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أخرجه إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجسام الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضراء على صور مختلفة من صور الناس ، وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم ... ثم لا يزال يكون الحيوان في الدنيا كرة بعد كرة وصورة بعد أخرى ، مادامت معه ذنوبه ^(٣) .

وقبل هؤلاء كان السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ ، فقد رَوَوْا عنه أنه قال لعلي : أنت أنت ! أي أنت الإله . وتبعته فرقته فقالت بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي ^(٤) ، وبمثل ذلك قال الغالية من الشيعة ^(٥) .

(١) البيهقي ٢٧ . (٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم جزء ١ ص ٩٠ و ٩١ وانظر فيه الرد عليهم كذلك . (٣) جزء ١ ص ٧٧ وما بعدها . (٤) الشهرستاني عل هامش ابن حزم جزء ٢ ص ١١ . (٥) الشهرستاني ٢ : ١٠ .

وبعد هؤلاء كان التصيرية يعتقدون أن مرتكبي الآثام يمودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى ، أو مسلمين سُفَّيْن ، أما من لم يؤمن بعلى فيمودون جبالاً أو بنالاً أو حيراً ، أو كلاباً أو نحو ذلك من أصناف الحيوان ، وبمثل ذلك يقول عوام الدروز .

وفي بعض قصص ألف ليلة وليلة ما يشير إلى مذهب التناسخ . وقد رأيت قبل ؛ أن نظرية التناسخ تُسَلِّم إلى مذهب الحلول ، فيتحد العقل والمقال والمقول وبصير كلها شيئاً واحداً . وهذا النظر كان له أثر كبير في مذهب الصوفية ، كما سنشرحه إن شاء الله عند الكلام في التصوف .

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ ، مذهب يسمى « السَمْنِيَّة » نسبة إلى « سومنات » وهو اسم صنم كان في الهند ، أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ٤١٦ كما ذكر الجزري في تاريخه ، وقد ذكر البيروني أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة ، وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام في القدم على دينهم ، إلى أن ظهر زرادشت من أذربيجان ، ودعا ببلخ إلى المجوسية ، وراجت دعوته فأنجملت السمعية منها إلى مشارق بلخ^(١) .

وقد عُرف هذا المذهب **بمذهب المسلمين في العصر الذي نؤرخه له** فيجكي لنا الأغاني : « أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام ، عمرو بن عُبيد ، وواصل ابن عطاء ، وبشار الأعشى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبي التَّوْجاء ، ورجل من الأزد (قال أبو أحمد يعني جرير بن حازم) فكانوا يجتمعون في منزل الأزدى ، ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقي متحيراً مختلطاً ، وأما الأزدى فال إلى قول السَمْنِيَّة ، وهو مذهب من مذاهب الهند وبقي ظاهره على ما كان عليه »^(٢) .

(١) ما لهند من مقولة ص ١٠ . (٢) أغاني ٣ - ٣٤ .

وقد عرّف علماء المسلمين السمنية ، وناقشوه طويلاً — في كتب التوحيد أو علم الكلام — وأكثّر مناقشتهم كانت حول « نظرية المعرفة » ، فيؤخذ من حكاية قول السمنية أنهم كانوا يقولون : إن العلم أو المعرفة لا تحصل إلا من باب الحواس ، فكل علم ليس أسسه الحس لا يكون علماً صحيحاً ، أما النظر المجرد ، غير المؤسس على الحس فلا يفيد علماً . سواء كان ذلك في الإلهيات أو غيرها^(١) ، وقد تلخص صاحب كشاف مصطلحات الفنون مذهبهم في هذا بقوله « إنهم يقولون بأنه لا يفيد العلم إلا الحس » فكانهم بذلك سبقوا « لوك » ومن تبعه ، إذ يقولون : إن أداة للمعرفة الصحيحة هو الإدراك بالحس ، وكل الأفكار الراقية الجليلة التي تفوق السحاب رفعة ، وتملأ علو السماء إنما أصلها الحواس ، يستبح العقل مسافات بعيدة ويفكر ، ويتأمل تأملات رفيعة ، وهو في كل هذا لا يخرج قيد شعرة عما أمذته به الحواس أو التأمل . وهم يعارضون في ذلك نظرية الذهنين أو العقليين ، الذين يرون أن بعض المدركات ليس سببها الحواس ، وإنما سببها الإدراك العقلي المحض كما في الرياضيات والإلهيات .

* * *

أما في الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند ، وأخذوا عنهم قبل أن يتصلوا — اتصالاً وثيقاً — باليونان . فقد ذكروا : « أن وفداً من الهند وفد على أبي جعفر للنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها ، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته ، وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه « براهمسبهيطة هانت » ألفه سنة ٦٢٨ م أو (٦ و ٧) هجرة الفلكي الرياضي « برهمكيت » فكلف للنصور ذلك

(١) انظر حكاية قولهم والرد عليهم في كتاب المرافف جزء ١ ص ١٣٧ وما بعدها والمطالع ص ٦١ .

الهندي بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية ، وباستخراج كتاب منه نتخذه العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب ، وما يتعلق به من الأعمال . فتولى ذلك الفزاري ، وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب ، حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية ^(١) . وقد اقتصر العرب على الجزء الأخير من الاسم السابق وهو « سِذهانت » ثم حرفوه قليلاً وسموه « السند هند » ^(٢) .

وقد أخذ عن هذا الرجل الهندي الذي وفد على المنصور ؛ إبراهيم بن حبيب الفزاري ، ويعقوب بن طارق ^(٣) .

وكما أخذ المسلمون عن الهند كتاب السند هند ، ترجموا كتاباً ثانياً اسمه « الأركند » وثالثاً اسمه « الأزجيهبر » ^(٤) .

وقد قال الأستاذ « نالينو » بعد بحثه العميق « كفت هذه الملاحظات دليلاً على شدة تأثير كتب الهند في أوائل نمو الفلك عند العرب وسنرى فيما بعد ... أن العرب أخذوا طرقاً مهمة كثيرة النفع مجهزة لليونان في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية » ^(٥) وقال في موضع آخر « فأتضح مما بينته أن تأثير علماء الهند والفرس في نشأة ميل العرب إلى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولو بزمان قليل ، ولكن لم تنل العرب ما نالوا من الثقافة والكمال والشهرة في ذلك الفن .. لو قصروا عنايتهم على نقل الكتب الموصوفة إلى الآن لأنها ... مصنفات عملية مقتضرة على منطق القواعد ، وشرح استعمال الجداول ، خالية عن البراهين وبيان العلل » ^(٦) .

(١) الأستاذ نالينو في كتابه التقييم علم الفلك ، تاريخه عند العرب ص ١٤٩ وفيه فصول متعددة عن علم الفلك عند الهنود ، وبلغ ما أخذه العرب عنهم ، وقد اعتمدنا عليه في هذا الموضوع .

(٢) ص ١٥٠ . (٣) انظر المصدر نفسه ص ١٥٦ وما بعدها .

(٤) ص ١٧٢ و ١٧٣ . (٥) ص ١٨٠ . (٦) ص ٢١٤ .

ويؤيد هذا النظر ما قاله البيروني من قبل ، فإنه رأى أن فلسكى المنود لا يبحثون في العلل ، وكان على علم تام بالملك عند اليونان قبل أن يأخذ عن المنود ، قال : « إني كنت أقف من متعجبهم (متعجبى الهند) مقام التليذ من الأستاذ لجمعتي فيما بينهم ، وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم ، فلما اهديت قليلا لما أخذت أوقعهم على العلل ، وأشير إلى شيء من البراهين ، وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات ، فاثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهاقين ... وكادوا ينسبونني إلى السحر »^(١).

وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من المنود ، كلفظة « الجيب » في حساب المثلثات^(٢).

كما اقتبسوا كثيرا من نظريات الهند في الحساب والهندسة مما ليس من موضوعنا الأدبي^(٣) كذلك كان في بغداد أطباء هنود ، يمتثلون الطب الهندي — بجانب الطب اليوناني — اشتهر منهم في عهد الرشيد « صالح بن بهلة الهندي » ، قال جعفر بن يحيى البرمكي لمرون الرشيد — وقد مرض ابن عمه إبراهيم بن صالح ، فوآه جبريل بن بختيشوع ، وأخبر الرشيد بأنه لا أمل في شفائه ، وسيموت في المساء — : يا أمير المؤمنين جبريل طيبه رومي ، وصالح بن بهلة الهندي في العلم بطريقة أهل الهند في الطب ؛ مثل جبريل في العلم بمقالات الرومي ، فلن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره ، ويوجهه إلى إبراهيم بن صالح ليفهمنا عنه فعل .

ويقول الجاحظ : إن يحيى بن خالد جلب أطباء من الهند مثل « منك » و « بازكر » و « فاهقل » و « سندباد »^(٤).

(١) ما الهبت. من مولة ص ١٢ . (٢) تليزو ص ١٦٨ .

(٣) انظر مادي حساب و هندسة في دائرة المعارف الإسلامية قفها لبدعا أهد السلوم من الهبت و ففها إشارة ١ - سمع قمين الباحث في الموضوع .

(٤) أعباد الحكا ص ٢١٥ و فيه أنه رآه و كان نظره أدق من نظير جبريل فلم يحث إبراهيم من مرفه ه ص عكس ما أخبر جبريل . (٥) البيان و التبيين ١ : ٧٨ .

الأدب وما إليه : كان عند الهنود نحو وصرف ، وقالوا في أولية النحو
 إن أحد ملوكهم كان يوماً في حوض مع نسائه فقال لإحداهن « ماود كندى »
 أى لا ترشنى على الماء ، فظننت أنه يقول « مود كندى » أى اجملى حلوى ،
 فذهبت فأقبلت بها فأنكر الملك فعلها فغاشتته في الخطاب ، فاستوحش الملك لذلك ،
 وامتنع عن الطعام كعادتهم ، واحتجب إلى أن جاءه أحد علمائهم وسأله عنه
 بأن وعده بتعليم النحو والصرف ، وذهب إلى « مهاديو » مصلياً مسجاً وصائماً
 متضرعاً إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة ، كما وضعها في العربية أبو الأسود
 الدؤلى ، ووعدته التأييد فيما بعدها من الفروع . فرجع العالم إلى الملك وعلمه
 إياها ، وذلك مبدأ هذا العلم ^(١) .

وأنا أخشى أن تكون حكاية أبى الأسود قد وضعت في العربية على نمط
 الحكاية الهندية ، ولعل مما يرجح هذا الظن ، أن الحكاية العربية مختلفة
 الأشكال ، متعددة الرواية ، فمن قائل إن على بن أبى طالب هو الذى أوعزَ إلى
 أبى الأسود بوضع النحو ، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ، ومن قائل إنه زياد
 ابن أبيه . ثم من قائل إن سبب الوضع ، أن قارئاً قرأ « لا يأكله إلا الخاطئين »
 ومن قائل إن قارئاً قرأ « إِنْ اللَّهُ بَرِيٌّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » ومن قائل إن
 ابنة أبى الأسود قالت « ما أحسنُ السماء » تريد التعجب ، فقال لها : نجومُها ؟
 يظنها تسنفهم — فقالت يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك ! فقال لها : إذن فقولى
 « ما أحسنُ السماء ! » إلى آخر ما قالوا مما يحيل على الشك في القصة ، ثم هناك
 شبه بين ذهاب العالم الهندى إلى « مهاديو » مصلياً مسجاً ، وبين ذهاب أبى
 الأسود إلى على بن أبى طالب يسأله المعونة في وضع النحو ، وهكذا .

وكان للهنود شعر وولع بالشعر والنظم ، حتى شكوا « البيرونى » من نظمهم

(١) البيرونى ص ٦٥ .

لقواعد الرياضة والفلك . لأن ذلك يخرجهم أحياناً عن ضبط القواعد ، وما يستلزمه من دقة في تعبير لا يتسنى في النظم . ووضعوا للشعر بحوراً وأوزاناً ، عكف البيروني على دراستها ، وبينها في كتابه ، ثم قال : « ومن الممكن أن يكون الخليل بن أحمد سمع أن للهند موازين في الأشعار ، كما ظن به بعض الناس » (١) .

وأهم ما استفاد الأدب العربي من الهند أمور ثلاثة :

(١) ألفاظ هندية عُرِّبت ، وقد كان ذلك أيام كان العرب يتاجرون مع الهند ، وينقلون سِلْكاً هندية ، ويحملون مع هذه السلع أسماءها ، وقد حكى السيوطي ألفاظاً هندية عُرِّبت ، ووردت في القرآن الكريم ، مثل : زنجبيل وكافور — وما ورد في اللغة العربية من الألفاظ الهندية الأبنوس والبيضاء والخيزران والفلفل والأهليج وغير ذلك من أسماء النباتات والحيوانات الهندية .

ويضاف إلى ذلك آراء في الأدب والبلاغة نقلت إلينا عنهم ، وقد كان من أتى بغداد من أطباء الهند وغيرهم يحملون معهم كتباً وصحفاً في مواضيع شتى منها الأدب ، حكى الجاخط أن مَعْمَرُ أبا الأشعث قال : قلت لبهلة الهندي — أيام اجْتَلَبَ يحيى بن خالد أطباء الهند — ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أُحْسِنُ ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثقت من نفسى بالقيام بمخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث فقلت بتلك الصحيفة الترجمة فإذا فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابطاً الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يُكَلِّمُ سيد الأمة بكلام الأتمة ، ولا الملوك بكلام الشوكة . ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق للمعانى كل

(١) البيروني ص ٧١ .

التدقيق ، ولا يَنْقُحُ الألفاظ كلَّ التنقيح ، ولا يُصَفِّيهَا كلَّ التصفية ، ولا يَهْذِبُهَا غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادِفَ حَكِيمًا أو فيلسوفًا عَظِيمًا» (١).

إذن كان مع هؤلاء الأطباء المنود صحف في موضوعات غير موضوعاتهم الطبية ، وكان العلماء يخالطونهم ، ويسألونهم في شتى المسائل ، وكان هناك تراجمة يترجمون من الهندية إلى العربية ، وكان هناك شوق لنعلم الناس ما عند كل أمة ليُقَارَنُوا بِهَا ، ويأخذوا أحسبها . وقد قُلت إليهم هذه الجملة الهندية في البلاغة ، فرأيانها نضاغ فيما بعد في كتب البلاغة العربية بما سموه « مقتضى الحال » .
وفارن التَّنُوخِي (٢) بين بلاغة الهند وبلاغة العرب ، بأن الأولى مُطْلَبَةٌ مسهبة ، والثانية مختصرة موجزة ؛ إذ ذكر أن خارجيًا خرج على بعض ملوك الهند فخرج إليه الملك بنفسه ، فقتله الخارجى ، وملك داره ومملكته ، فأحسن السيرة وسلك سبيل اللوك . فلما طال أمره ، وعزّت ذكره وقوى سلطانه ؛ جمع بعض عقلائهم وحكّائهم وسألهم ، هل ترون فيّ عيبًا أو فى سلطاني نقصًا ؟ قالوا : لا إلّا شيئًا واحدًا ! إن أمتنا قلناه ! قال أتم آمنون . قالوا : نرى كلّ شيء لك جديدًا (يُعَرِّضُونَ أَنَّهُ لَا عَرَفَ لَهُ فِي الْمَلِكِ) قال : فما حال مَلِكِكُمْ الذى كان من قبل ؟ قالوا كان ابنَ ملك . قال فأبوه ؟ قالوا : ابن ملك . قال : فأبوه ؟ إلى أن عدّ عشرة أو أكثر وهم يقولون ابن ملك . فأتتهى إلى الأخير . فقالوا كان متغلبًا . قال : فأنا ذلك الملك الأخير ، وإن طالت أيّامى كان للملك بعدى فى ولدى ! قال التَّنُوخِي : هذا نبي قد سبقَتْ إليه العرب فى كلّتين استغنى بهما عن اللؤلؤ الطويل العجى ، فقد رَوّت العربُ أن رجلين منها فاحرا ، فقال أحدهما لصاحبه : نسي منى ابتداء ، ونسبك إليك انتهى .

(٢) القصص الهندى : وقد أولع العرب به ، فقد عدنا قبل أن أصل

(٢) فتاوى المحاضرة ١ : ٥٧ .

(١) البيان والتبيين جزء ١ ص ٧٩

« كلية ودمنة » هندی نقل إلى الفارسية ، ثم نقل من الفارسية إلى العربية ، مع زيادات على الأصل الهندي .

وقصة السندباد ، كما يدل اسمها هندية الأصل نقلت إلى العربية قال ابن النديم « وكتاب سندباد نسختان كبيرة وصغيرة ، وأُخلف فيه مثل الخلف في كلية ودمنة ، والفالب والأقرب إلى الحق أن يكون الهند صنفته »^(١) وقد عُدّ في القهرست كتباً كثيرة للهند في الحرفات والأسماء والأحاديث منها كلية ودمنة والسندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب هابل في الحكمة . وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب ديك الهند في الرجل والمرأة ، وكتاب حدود منطق الهند ، وكتاب ملك الهند القتال والسباح ، وكتاب شانا في التدبير ، وكتاب يبدأ في الحكمة^(٢) .

كما أن في كتاب ألف ليلة وليلة قصصاً دل البحث العلمي على أن أصلها هندی ؛ هذا ، إلى قصص صغيرة نُقِرت في الكتب العربية ، مما نقل عن الهند كالذي قال الجهمشيري : « وما أمتصه من شدة التحرز ما حُكي في كتاب من كتب الهند أنه أهدى إلى بعض ملوكهم حلّ وكسوة ، وبجفرته امرأة تان من نسائه ووزير من وزرائه ، تغير إحدى امرأتيه بين اللباس والحلية ، فنظرت المرأة إلى الوزير كالشيرة له ، ففهمها بإحدى عينيه على أخذ الكسوة . وتلفّه الملك ؛ فعدلت عما أشار به من الكسوة واختارت الحلّ لثلاثين للكنزة ، ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادةٌ وخِلقةٌ »^(٣) .

وفي كتاب للهند « أن فاسكا كان له غسل وسمن في جرة ، ففكر يوماً فقال : أبيع الجرة بعشرة دراهم ، واشترى خمسة أعنز فأولاهن في كل سنة مائة

(١) القهرست ٣٠٥ . (٢) ص ٣٠٥ .

(٣) كتاب الوزراء والكتاب ص ١١ .

ويبلغ النتاج في سِنين مائتين ، وأنتاع بكل أربع بقرة ، إلى آخر القصة المشهورة^(١)
 (٣) أما النوع الذي أخذوا منه عن الهند كثيراً فهو الحكم ، وهو نوع يتفق والذوق العربي ، فهو أشبه نثر بالأمثال العربية ، والجل القصيرة ذوات المعاني الغزيرة التي أولع بها العرب . وهي نتيجة تجارب كثيرة ، تركّز في جملة بليغة . والعقل يميل إليها قبل أن يميل إلى مثل الفلسفة اليونانية المنظمة بأبواب وفصول وموضوعات . فالبحث العميق للفصل للتسلسل ، لا يصل إليه العقل إلا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالظواهر المنثورة ، والحكم الماثورة . وقد اشتهر الهند بهذا ، ومثلت كنب الأدب المؤلفة في هذا العصر بهذا النوع ، يقول ابن قتيبة :

قرأت في كتاب من كتب الهند « شَرُّ المَال ما لا ينفع منه ، وشر الإحوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أُنْثَى »^(٢) وفي كتاب للهند « ثلاثة أشياء لا تنال إلا بارتفاع همة وعظيم خطر . عمل السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو » وفيه أيضاً « ذو الهمة إن حطّ ف نفسه تأبى إلا علواً ؛ كالمسلمة من النار يصوبها صاحبها ، ونأبى إلا ارفعاً »^(٣) .
 وقرأت في كتاب للهند « ليس من خلّة يُمدح بها الفتي إلا ذم بها الفقير . فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان قوفاً قيل ليد ، وإن كان لسيناً قيل مهذار ، وإن كان زيمياً قيل عبي ! »^(٤) .

وفي كتاب للهند « العالم إذا اغترب فعه من علمه كافٍ ، كالأسد معه قوته التي يمشي بها حيث توجه »^(٥) الخ .

وعقد صاحب كتاب « سراج الملوك » فصلاً من حكم « شاناق » الهندي يتضمن نصائحاً للملوك والولاة بالعدل في الرعية ، مع ضرب الأمثال . وقال : إن

(١) عيون الأخبار ١ : ٢٦٣ (٢) عيون الأخبار ١ : ٣ (٣) ١ . ٢٣١

(٤) ١ : ٢٣٩ . والرमित . الوقور الرزين . (٥) ٢ : ١٢١ .

هذا الفصل مأخوذ من كتاب لشاناق اسمه «منتخل الجواهر»^(١).

وبكل هذا تأثر الأدب العربي ، والشعر العربي . جاء في كتاب الهند « لا ينبغي اللجاج في إسقاط ذى الهمة والرأى وإذآله^(٢) ، فإنه إما شرس الطبع كالحيّة إن وطئت فلم تأسع لم يُفترّ بها فيعاد لوطئها . وإما سُججُ الطبع كالصندل البارد إن أفرط في حركه عاد حاراً مؤذياً » تأثر بذلك أبو نواس

فقال : قل لزهير إذا حدّا وشدّا أقبلن وأكثرت فأنت مهذارُ
سُخِنت من شدة البرودة حتّى صيرت عندى كأنك النارُ
لا يعبجّب السامعون من صفتي كذلك الثلج باردٌ حارُ

قال ابن قتيبة : « وهذا الشعر يدل على نظرة في علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً » .

حتى لقد تأثر الشعراء بأقوال المنود في الفلك ، قال أبو نواس في الحمر :
تُخَيِّرَتِ والنُّجُومُ وَهَتْ لم يتمكن بها اللذارُ

« يريد أن الحمر تخيرت حين خلق الله العلك ، وأصحاب الحساب يذكرون : أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة في برج ، ثم سيرها من هناك . وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه ، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم ، والمهند يقول : إنه في زمان نوح اجتمعت في الحوت إلا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقي منهم بقدر ما بقي منها خارجاً عن الحوت »^(٣).

ولسنا ننسى أن المنود — كاذب كثير من الباحثين — هم واضعوا الشطرنج ، وعنه انتشر في العالم ، ومنهم أخذ المسلمون ، وإن اختلفوا هل أخذوه من

(١) سراج الملوك ص ٣٣١ (٢) أذاله : أهانه .

(٣) طبقات الشعراء ص ٥٠٦ .

المند مباشرة أو بواسطة الفرس ، والهند في الشطرنج أشكال من اللعب مختلفة
حكاهما البيروني في كتابه « المند » وهي تختلف من بعض الوجوه ما هو معروف
عندنا اليوم .

انتشرت هذه اللعبة عند المسلمين ، وقد أهدى هرون الرشيد شطرنجا إلى
« شارلمان » واشتهر قوم بلعبه حتى نسبوا إليه مثل : الصولي الشطرنجي ، وأبي
حفص الشطرنجي . وتكون حوله أدب فارسي وأدب عربي ، فالفرحوسي نظم
فيه صفحات في لغة شعرية جميلة ، والعرب نظموا فيه الشعر الكثير الجميل ،
كالذي قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي :

تَهَيَّزُ المَجْمَعُ أَوْحَدِيًّا وَتُلْسِي بِالصَّنَادِيدِ أَيْمًا إِلَوًا
وَتَحْطُ الرِّخَانُ بَعْدَ الْفَرَازِينِ قَنَزَادَ شِدَّةِ اسْتِمْلَاءِ
رَيْبًا هَالِكًا وَحَيْرَةً عَلَى أَهْذَلِ اللَّاعِبِينَ بِالْبَأْسَاءِ .
وَرِضَامُ هُنَاكَ بِالنِّصْفِ وَالرُّبْعِ وَأَذْنَى رِضَاكَ فِي الْإِرْبَاءِ !
وَاحْتِرَاسُ الْأُدْهَاءِ مِنْكَ وَإِعْصَا فَكَّ بِالْأَقْوِيَاءِ وَالضَّعْفَاءِ
عَنْ تَدَايِيرِكَ اللَّطَافِ اللَّوَانِي هُنَّ أَخْفَى مِنْ مُسْتَسْرِ الْهَبَاءِ
بَلْ مِنَ السَّرَفِ فِي ضَمِيرٍ مُحِبِّ أَدَبَتُهُ عَقُوبَةُ الْإِفْشَاءِ
فَأَخَالُ الَّذِي تُدِيرُ عَلَى الْقَوِّ مِمَّ حُرُوبًا دَوَائِرَ الْأَرْحَاءِ
وَأُظُنُّ افْتِرَاسَكَ الْفِرْنَ فَالْقِرْنَ نَ مَنَآيَا وَشَيْكَةِ الْإِرْدَاءِ
وَأَرَى أَنَّ رَقْمَةَ الْأَدَمِ الْأَخْصَرِ أَرْضًا جَلَّتْهَا بِدِمَاءِ
غُلَظِ النَّاسِ ؛ لَسْتُ تَلْعَبُ بِالشُّطْرَنْجِ ! لَكِنْ بَأَنْفُسِ الثُّغَبَاءِ
لَكَ مَكْرٌ بِدَبِّ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى مِنْ دَيِّبِ الْفَنَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ
أَوْ دَيِّبِ اللَّالِ فِي مُسْتَهَا مَنِينَ إِلَى غَايَةِ مِنَ الْبَغْفَاءِ !

أو مسير القضاء في ظلم القيسب إلى من يريدُه بالتواء
تقتل الشاة حيث شئت من الرقة طبا بالفتلة النكراء
غير ما ناظر بعينيك في الدنست ولا مقبل على الرسلأ
بل تراها وأنت مُستذير الظاهر بقلب مُصَوِّر من ذكاء
ما رأينا سواك قرناً يوتى وهو يُزِدِي فوارس التهيجاء
رُبَّ قوم رأوك ريعوا فقالوا هل تكون العيون في الأقفاء ؟
تقرأ الدنست ظاهراً فتؤدَّ به جميعاً كأحفظ القراء !

* * *

وأخيراً كان للهند عادات وتقاليد ، وشعائر ونظم وشرائع . فإماتة الحيوان
في الأصل محظورة عليهم — قالوا — ولكن الناس نبذوا كل أمر ونهى وراء
ظهورهم . ونفذ هذه الأوامر البراهمة لاختصاصهم بالدين ، ومنع الدين إلام عن
اتباع الشهوات^(١) . وربما كانت هذه التعاليم هي التي أثرت في أبي العلاء ،
فحرم على نفسه اللحم وكره ذبح الحيوان ، وكان لم شرائع في الزواج والعدة
وأحكام الجنين والنفاس ، وشرائع في المرافعات وطرق القضاء ، ونظام في
العقوبات والكفارات ، وأحكام في الميراث ، وعادات في أيام الأعياد ، ومقام في
طبقات الناس وتحديد العلاقات بينهم^(٢) .

كل هذه الفلسفة الدينية ، والتعاليم الرياضية ، والتقصص والحكم الأدبية ،
والشعائر والتقاليد الاجتماعية ؛ ذابت في المملكة الإسلامية ، وكانت عنصراً
هاماً من عناصر الآداب العربية .

(١) انظر البيروني في كتابه « ما للهند من مقولة » ص ٢٧٦ .

(٢) شرح ذلك البيروني كله حسب ما رأى في كتابه ص ٢٧٦ وما بعدها .

افصل ثالث

الثقافة اليونانية الرومانية

إذا نحن وصلنا إلى اليونان ، فقد وضعنا أيدينا على كنز لا ينفى ، وثروة لا تقدر ، وغنى عظيم فى كل ما ينتجه العقل والملاحظة والنوق . فى الفلسفة ، والرياضة ، والفلك ، فى علوم الطبيعة والحياة والطب . فى الأدب ، فى التاريخ ، فى السياسة ، فى الفنون الجميلة . لقد فسخوا فى كل ذلك من روحهم ، وغذوا العقول بأرائهم ، وأمدوا العالم بأفكارهم وآدابهم ، وعلمهم وأساطيرهم ، وربوا الذوق بفنهم ، ونحتهم وتصويرهم .

فأفليدس ظل إماما فى المناسة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن التاسع عشر الميلادى . والطب ظل قائما فى العصور القديمة ، والقرون الوسطى ؛ على أساس ما دّون بقراط ، وجالينوس . والفلاسفة إلى اليوم عيال على تعاليم سقراط وأفلاطون . وسياسة أرسطو ، ومن إليهم من فلاسفة اليونان ، وجمهورية أفلاطون . وأرسطو منبع لما جدّ من نظريات فى السياسة ، وهكذا فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والقرن . فلسفة المسلمين أسست على فلسفتهم ، وللمدينة الحديثة بما فيها من علم وأدب نهضت على أكتافهم ، وأول شرارة للنهضة الأوروبية الحديثة إنما انبثت من كتبهم . تمتاز علومهم وفلسفتهم بميزة يكاد مؤرخو الفلسفة يجمعون عليها ، وهى أن اليونان كانوا يبحثون وراء الحق للحق ، على حين أن كثيرا من الأمم كانت تنفلس لما يتبع الفلسفة من فوائد مادية ، أو لتأييد قضايا دينية . ومن ثم لم يشاءوا أن يعدّوا الآراء الهندية أو للصرية أو الصينية الأشورية والبالية فلسفة ، لأنهم شرطوا فى الفاسفة البحث وراء الحقيقة المجردة فى

حرية تامة وسموّ عن اللادة ، ولا عدوا الرومانيين أمثال « ماركوس أوريليوس » و « سنيكا » و « شيشرون » فلاسفة لأنهم لم يقدموا للعالم آراء فلسفية جديدة ، تزيد في ثروة الفلسفة اليونانية .

وليس من غرضنا أن نلم بما وصل إليه اليونان في بحثهم في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن ، فذلك ما لا يحتمله فصل في كتاب^(١) . وإنما غرضنا أن نعرض لبيان ما اقتبس المسلمون من الثقافة اليونانية الرومانية ، ونبحث في إيماز عن أى طريق وصلت هذه الثقافة للمسلمين .

كانت فتوح الإسكندر للقدونى لكثير من بلاد آسيا وأفريقية سبباً كبيراً من أسباب انتشار الثقافة اليونانية في الشرق . فقد كانت مملكته بلاد اليونان ومقدونية في أوروبا ، ومصر وليبيا في أفريقية ، وسوريا وفلسطين . والعراق وما إليه ، وبلاد الفرس ، وتركستان وأفغانستان وبلوخستان ، وقسم من بلاد الهند في آسيا . وكان من سياسته التقريب بين هذه البلاد المفتوحة وبلاد الإغريق ، ومزج الجنس الإغريق بأجناس آسيا وأفريقية في الحضارة والعارة ، ونظم الحكم والثقافة . ولهذا كان يحث اليونانيين على سكى هذه البلاد ، ومخالطة أهلها ، وينظم مدنهم تنظيماً يونانياً ، ويشجع الأدباء والكتاب والعلماء على نشر أدبهم وعلمهم ، فكان من ذلك ، ومن الولاة اليونانيين الذين ورثوا الحكم من الإسكندر في الممالك الشرقية ، أن انتشرت الحضارة اليونانية والثقافة اليونانية من عهد الإسكندر . وكانت البلاد التى بين دجلة والفرات ، تغلب عليها الثقافة الإغريقية ، حتى ليروون أنه لما وصل موت « كراسوس » Crassus إلى أوروديس Orodus الملك البرثي^(٢) كان يطالع مأساة من روايات يوريبديدس Euripides . وظلت هذه الثقافة تنمو وتؤتى ثمرها ، حتى بعد أن

(١) اقرأ في هذا Legacy of Greece .

(٢) والبرث أو الفرث هم الفرس الأولى تكونت مملكتهم من سنة ٢٥٥ ق م إلى ٢٦٦ م

انسحب الجيش اليوناني من هذه الأقطار ، واشتهرت في الشرق قبل الإسلام إلى ما بعده مدن كثيرة كانت منبعاً للثقافة اليونانية ، من أشهرها جنديسابور ، وحرّان ، والإسكندرية .

جنديسابور : مدينة في خوزستان أسسها سابور الأول وإليه تنسب ، واتخذها موطناً لأسرى الروم . ولعل هذا من الأسباب التي جعلتها فيما بعد منبعاً للثقافة اليونانية ، وأسس فيها كسرى أنوشروان مدرسة الطب المشهورة . وكانت تُعلم فيها العلوم اليونانية باللغة الآرامية ، وقد فصّحها المسلمون فيما فتحوا من بلاد الفرس ، وظلت المدرسة قائمة إلى العصر العباسي . ولم يبق من البلد في عهد ياقوت إلا أطلالها ، وقد زالت هذه الأطلال ، ولم يبق منها الآن أثر . وموقعها اليوم أطلال « شاه آباد »^(١) .

كان الذي أنشأه كسرى في جنديسابور بيارستانا ، تعالج فيه المرضى ، ويدرس فيه الطب ، وما إليه . يحكي القفطي : أن المدينة بنيت على شكل القسطنطينية ، وأن أول من علم الطب بها أطباء من الروم « ولما أقاموا بها بدعوا بعلوم أحدائنا من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أئرجة بلدانهم ؛ حتى برزوا في الفضائل » . « وفي سنة عشرين من ملك كسرى ، اجتمع أطباء جنديسابور بأمر الملك ، وجرى بينهم مسائل وأجوبتها ، وأثبتت عنهم ، وكان أحراً مشهوراً — وهذه المسائل والتعريفات إذا تأملها القارى استدل على فضلهم ، وغزارة علمهم »^(٢) وكان أطباء جنديسابور يعتقدون أنهم أهل هذا العلم ، ولا يخبرونه عنهم ، وعن أولادهم وجنسهم . وقد رووا أن الحارث بن كَلْدَةَ الثقفي طبيب العرب ، تعلم قبيل الإسلام في مدرسة جنديسابور ،

(١) دائرة المعارف الإسلامية في مادة جنديسابور .

(٢) المصدر نفسه ١٧٤ .

(٣) أخبار الحكماء ص ١٣٣ .

وعالج بفارس ، وطَبَّ بعض أجلاء الفرس ، فأعطاه مالا وجارية ، مماها الحارث بُنَيَّة ، وهي أم زياد بن أبيه . ومات الحارث في أول الإسلام ولم يصح إسلامه^(١) .

وقد كانت تدرس في مدرسة جنديسابور الثقافة الهندية ، بجانب الثقافة اليونانية ، وكان يشترك بعض الهنود في التدريس باللغة الفهلوية .

وغللت مدرسة جُندِسابور تَوَدَّى عملها في الإسلام ؛ كما كان في عهد الفرس ، وازداد اتصالها بالمسلمين في العهد العباسي ، فإن أبا جعفر المنصور عندما بنى بغداد أصيب بمرض في معدته ، لم يستطع أطباؤه معالجته ، فدلوه على جورجيس بن بختيشوع ، رئيس أطباء جنديسابور^(٢) . ومن ذلك الحين اتصلت قصور الخلفاء بمدرسة جنديسابور ، حتى إن الرشيد أمر جبريل بن بختيشوع أن يحمل بيضداد بيارستانا على نمط بيارستان جنديسابور ، وتقلد رياسته أطباء جنديسابور وتلاميذهم^(٣) .

وقد اشتهر من مدرسة جنديسابور في العصر العباسي ، جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور ، وابنه بختيشوع طبيب الرشيد ، وجبريل بن بختيشوع طبيب للأمن الخ ، وكانوا كلهم نصارى نساطرة .

حَرَان : وأما حَرَان قُدَيْنة في الجزيرة شمالي العراق ، تقع بين الرُّها (أودسا) ورأس العين . وهي مدينة قديمة ، عاصرت اليونان والرومان ، والنصرانية والإسلام ، وفي عهد الإسكندر سكن كثير من القلدونيين هذا الجزء الشمالي للعراق ، وكان من أثر ذلك في حَرَان أن الألهة المعبودة عند الحَرَانيين اتخذت أسماء يونانية — وفي أول عهد النصرانيين كان شمالي العراق

(١) أعيان الحكماء ١٦١ وما بعدها .

(٢) للقفطي ١٥٨ . (٣) ص ٢٨٢ .

ومنه حران يسكنه أهله الأصليون ، وهم السريانيون ، وكثير من القلدونيين ، والإغريقين ، والأرمن ، والعرب . ولما قويت النصرانية ، وأصبحت ديناً ، الرومانيين الرسمي ؛ حاولوا أن يضغطوا على الحرانيين ليتقصدوا فلم ينجحوا . ومن أجل ذلك كان رجال الكنيسة يطلقون على حران مدينة الوثنيين « هيلينوبوليس » Hellenopolis^(١) وظلت حران (مدينة الوثنيين) يهرب إليها الذين لم يشاءوا أن يدخلوا في النصرانية من اليونانيين وغيرهم . ويظهر أن دينهم كان مزيجاً من الديانة البابلية ، واليونانية القديمة ، والأفلاطونية الحديثة ، حتى كان شأنهم كذلك في العصر الإسلامي ، إلى عهد للمأمون ، قسموا — إذ ذاك — بالصائفة ، احتفاء بما يفهم من القرآن الكريم من عد الصابئين من أهل الكتاب ، ولم يكن ذلك الاسم يطلق عليهم من قبل ، إنما كان يطلق على قوم لم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية ، كانوا يسكنون « البطيعة » كما ذكر القفطي (وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة)^(٢) .

روى ابن النديم أن للمأمون اجتاز في آخر أيامه ديار مصر ، يريد بلاد الروم للغزو ، فلتقاء الناس يدعو له ، وفيهم جماعة من الحرانيين (الحرثانيين) . وكان زعيمهم إذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات . . . فأنكر للمأمون زعيمهم ! وقال لهم من أتم من النعمة ؟ فقالوا نحن الحرانيون (الحرثانية) ، فقال أنصاري أتم ؟ قالوا لا ، قال فيهود أتم ؟ قالوا لا ، قال فمجوس أتم ؟ قالوا لا ، قال لم أفلكم كتاب أم نبي ؟ فاجبجسوا في القول . فقال لهم فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان ، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي ، وأنتم حلال دماءكم ، لا ذمة لكم ؛ فقالوا نحن تؤدي الجزية ! فقال لهم إنما تؤخذ الجزية من خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه ، ولم كتاب . فاختاروا أحد أمرين : إما أن تنتحلوا دين الإسلام ، أو ديناً

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية في مادة حران وصائفة (٢) انظر القفطي ص ٣١١

من الأديان التي ذكرها الله في كتابه ، وإلا قتلتمكم عن آخركم ، فإني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه ورحل للأمون يريد بلد الروم ، ففروا زيتهم ، وحلقوا شعورهم ، وتركوا البس الأقيية ، وتنصت كثير منهم ، ولبسوا زناير ، وأسلم منهم طائفة ، وبقي منهم شرذمة بحالم ، وجعلوا يحتالون ويضطربون ، حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه ، فقال لهم قد وجدت شيئاً تنجون به ، وتسلمون من القتل فجعلوا إليه مالا عظيماً فقال لهم إذا رجع للأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون ! فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن ، فاتحوا فأتتم تنجون به ، وقضى أن للأمون توفي في سفرته واتحلوا ذلك الاسم من ذلك الوقت ، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة ، فلما اتصل بهم وفاة الأمون ارتد أكثر من كان تنصرت منهم وطولوا شعورهم ، الخ^(١) ، وأطلق عليهم الصابئة منذ ذلك الحين .



على كل حال كان هؤلاء الحرائيون منبعاً كبيراً من منابع الثقافة اليونانية في العهد الإسلامي ، وقد اتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين بعد اتصال مدرسة جنديسابور ، وبعد العصر الذي توارخه . فأول من اتصل منهم ثابت ابن قرّة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) أوصله بالمتضد بنو موسى بن شاكر الذين ربّاهم الأمون . ومن ذلك الحين قرب الحرائيون من الخلفاء ثم من بني بويه . واشتهر منهم ثابت بن قرّة هذا الرياضي الفلكي ، وابن سنان الطبيب العالم بالفلك والجوية وقد أسلم ، وخفيده إبراهيم بن سنان ، كما اشتهر منهم أسرة هلال ، ومنهم هلال بن إبراهيم ، وكان طبيباً ، وابنه الأديب المشهور إبراهيم أبو إسحاق الصائغ ، صاحب الرسائل . وكان بليغاً وله اليد الطولى في الرياضة

(١) الفهرست ٢٢٠ .

والهندسة والهيئة . كما كان من الحرائين « البتاني » أحد المشهورين برصد الكواكب ، والمتقدمين في علم الهندسة ، وصاحب الزيج المنسوب إليه . ومنهم أبو جعفر الخازن الرياضي ، وابن وحشية المنسوب إليه الفلاحة النبطية الخ . ولئن كانت مدرسة جنديسابور لها الأثر الكبير في نشر الثقافة اليونانية في الطب ، وما إليه من فلسفة ، فمدرسة حران كان أثرها الأكبر في الرياضيات ، وخاصة الهيئة . ولعل ما في ديانتهم من تعظيم الكواكب ، وإقامة الهياكل لها كان باعثاً على نبوغهم في العلوم الرياضية والفلكية .

* * *

وأما الإسكندرية : فعاصمة مصر اليونانية ، وبها ولد مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية هو مذهب الإسكندرانيين ، أو الأفلاطونية الحديثة . مؤسسه مصري هو « أفلوطين » (٢٠٥ — ٢٦٩ م) . وهذا المذهب مدين بأهم أفكاره لفلاسفة اليونان ، فمناصره الأولى مستمدة من آراء أفلاطون ، وأرسطو ، والرواقين^(١) . وقد امتاز بروحانيته وهذه للمذهب المادى ، حتى لقد حكى أفلوطين أنه وصل في روحانيته إلى الاستغراق في الوجدانية أو على التعبير الصوفى « الفناء في الألوهية » بضع مرات في حياته ، ووصل إلى ذلك تلميذه فورفوروريوس Porphyry مرة واحدة . وقد ظل مذهبه هو المذهب الفلسفى السائد في المملكة الرومانية نحو قرنين ونصف قرن — بعد وفاة مؤسسه — حتى أتى الإمبراطور جوستنيان فأمر سنة ٥٢٩ م بإغلاق مدارس أئينا الفلسفية ، وصادر أملاك الفلاسفة ، وغل عقولهم وقيد ألسنتهم .

(١) انظر ما كتب عن هذا المذهب في فجر الإسلام ص ١٥٣ وما بعدها وانظر فيه كذلك الكلام على المريانيين ص ١٥٤ وما بعدها .

بجانب هذه الحركة الفلسفية كانت حركة واسعة في الأدب والعلم والتميز وأطلق على هذه الحركات كلها مدرسة الإسكندرية ، وقد عاشت من سنة ٣٠٦ ق. م — ٦٤٢ ب. م . وكان يفتدى هذه الحركة متحف الإسكندرية ، ومكتبتها المشهورة .

ويقسم مؤرخو هذه المدرسة تاريخها إلى عصرين : العصر الأول ، من قيام دولة البطالسة إلى غلبة الرومان (أعنى من سنة ٣٠٦ ق. م إلى سنة ٣٠ م) وقد عُدَّت الإسكندرية في هذا العصر في مقدمة بلاد العالم في الأدب .

والعصر الثاني : من سنة ٣٠ م إلى سنة ٦٤٢ م وهي سنة فتح العرب للإسكندرية ، وتتنازع في هذا العصر بالذهب الفلسفي الذي أشرنا إليه . وكانت المدرسة في عصرها متصلةً بالعالم حولها تيمُّد بنورها .

انتشرت الديانة النصرانية في الإسكندرية ، في العهد الروماني كما انتشرت في غيرها ، وقامت النصرانية فيها بجانب الفلسفة اليونانية ، واختلقت النصرانية فيها بينهم طوائف وشيخاً ، وتجادلوا في طبيعة المسيح ، وناسوته ، ولاهوته وعلاقة المسيح بالله . فلبثوا إلى الفلسفة يستعينون بما لها من منطق وترتيب في الجدل ، وبما لها من أبحاث وراء السادة . ومن ثمَّ اتصلت النصرانية بالفلسفة اليونانية ، وكانت أول حركة للاتصال في الإسكندرية ، كما اتصلت اليهودية بالفلسفة في الإسكندرية أيضاً — من قبل — على يد فيلون . وكان من أوائل النصارى في ذلك « كليمان الإسكندري » « Clement » ^(١) فزج النصرانية بالأفلاطونية ، ثم من بعده أوريجين « Origen » (١٨٥ — ٢٥٤ م) تلميذ أفلاطون ، واضطهد أوريجين ففر من الإسكندرية . وأنشأ مدرسة على النمط الإسكندري في قيصرية في فلسطين . ثم أسست بعدُ مدرسة على هذا النمط في نصيبين ، وأغلقت مدرسة نصيبين ، فانتقلت إلى الرها . وهكذا

(١) ولا كليمان حول سنة ١٥٠ م من أبوين وثنيين في أثينا .

انتشر النسطُ الإسكندري في مزج النصرانية بالفلسفة في أنحاء الشرق ، وأصبح كثير من رجال الكنيسة يملكون النصرانية مفلسة . أو الفلسفة منصّرة ، وجدّوا في التوفيق بين ما يتعارض بينهما . فثلا : قالت النصرى « إن المسيح ابن الله » والأبوة مقدّمة على البُنُوّة ، تقدّم السبب على السبب ، وإذن كان الله قبل المسيح . وترى الفلسفة أن العلة الأولى ، أو بمباراة أخرى « الله » لا يلحقه تنير فكيف يكون أباً ، وكان قبلُ غير أب ، فيجب أن يفسّر الابن تفسيراً يفتق والفلسفة ، وهكذا .

وكان أغلب القائلين بهذه الحركة النصرى النسطرة ، فبتوا مدارسهم وتعاليمهم في الشرق ، وكانوا يملّون باللغة السريانية ، وينقلون الكتب اليونانية إلى السريانية . وكانت الحرب في ذلك العهد قائمة بين الفرس واليونان في آسيا ، فكان كثير من البلاد يقع حيناً في يد الرومان ، وحيناً في يد الفرس . وأقنع « بَرَسوما » ملك الفرس « فيروز » بأن النسطرة يكرهون الرومانيين ؛ بما اقوا منهم من عتت ، وأنهم يوالون الفرس ، فقبل منهم فيروز ذلك ، وظلوا هم قائمين بما وعدوا^(١) .

* * *

ولعل هذا الذى ذكرنا يلقى ضوءاً على كثير من المسائل الغامضة التى تفترض الباحث : كيف اتصل الفرس بالفلسفة اليونانية ، وكيف عرّفوا « إيساغوجى » وأمثاله من كتب اليونان ؟ وكيف كانت الأديار المبثوثة في الشرق مصدراً للفلسفة اليونانية ؟ وكيف اتصل المسلمون بالفلسفة اليونانية ؟ فظهرت في الجدالات الدينية وغيرها ، وفي مناقشات المتزلة وغيرهم قبل أن تنقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية ، فتلا منتظماً في عهد للمؤمن ومن بعده . ولم كان للترجمون الأولون — من السريانية أو اليونانية إلى العربية — أكثرهم نصارى

Oleary, Arabic Thought (١)

أو وثنيون؟ لعل القارىء يجد طرقاً من الإجابة عن هذه الأسئلة فيما حكينا .

كانت الكنيسة الإسكندرية والمصرية — في الغالب — على مذهب اليعاقبة وكانت لغتها السريانية والقبطية ، وكان إنتاج النساطرة في آسيا في الفلسفة باللغة السريانية ؛ أكثر من إنتاج اليعاقبة في مصر ، لأن الجدل الدينى في آسيا — وخاصة في العراق — بين النصارى بعضهم وبعض ، وبين النصارى وغيرهم من أهل الديانات الأخرى — كان أكثر منه في مصر ، وقد اشتهرت مدرسة الإسكندرية بالطب والكيمياء . والعلوم الطبيعية ، وكانت كذلك عند الفتح العربى ، ولكن أبحاثها إذ ذاك كانت ممزوجة بالسحر والطلاسم والتنجيم . غلب على اليعاقبة في مصر مذهب الأفلاطونية الحديثة ، والميل إلى التصوف ، وحب معيشة الأديار والرهبة ، على حين غلب على النساطرة في آسيا ؛ الميل إلى التفكير الفلسفى ، وحب المنطق من غير إغراق في الروحانية والرهبة ، وإن كانت لم أديار .

وقد اتصل المسلمون بمدرسة الإسكندرية في العهد الأموى ، فترى أن خالد ابن يزيد بن معاوية يترجم له بعض الكتب « اصطفن » ويلقبه القفطى اصطفن الإسكندرانى ، ونرى ابن أبجر — وهو طبيب اسكندرى — يُسلم على يد عمر ابن عبد العزيز ، ويصعبه ويستطبه عمر . ويعتمد عليه في صناعة الطب^(١) .

وفي العصر العباسى ، نرى ذكرًا لبعض تلاميذ المدرسة الإسكندرية . فابن أبى أصيبعة يروى أن « بليطيان » كان طبيباً نصرانياً مشهوراً بديار مصر ، وكان بطريركا على الإسكندرية في أيام المنصور ، فلما ولي الرشيد مرضت له جارية مصرية ، فطلب لها طبيباً مصرية ، لأنه أبصر بعلاجها ، فأرسل إليه « بليطيان » . وبعده كان سعيد بن توفيل طبيب أحد بن طولون ، وهكذا^(٢) .

ولكن مما نلاحظ ، أن مدرسة الإسكندرية لم تتصل بالخلفاء العباسيين اتصال مدرسة جنديسابور وحران وأمثالها ، ولم يكن لها أثر كثرها ،

(١) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة . (٢) عيون الأنباء ٢ : ٨٢ .

ولعل السبب في ذلك ، بُعْد مصر عن العراق ، وقرب حران وجنديسابور ،
وأن مدرسة الإسكندرية — كما أشرنا — انغمست في العزائم ، والرهبة
وللكاشفة . على العكس من مدارس العراق ، فقد كانت أعلم بثئون الدنيا ،
وأكثر اهتماماً بملومها ، وهذا أنسب للدولة ناهضة كاللولة العباسية ، أما
نزعة الإسكندرية هذه فتناسب التصوف ، وسنعرض لذلك عند الكلام في
التصوف إن شاء الله . وسبب آخر ، وهو ضعف مدرسة الإسكندرية قبيل
الإسلام ، واضطهاد أهلها ، وإحراق كتبها . حتى اضطر كثير من معتقيها
إلى التنصر ، أو الفرار من البلاد .

على كل حال ، فسّر التناطورة واليعاقبة كثيراً من كتب اليونان ،
قلوها من هذه اللغة إلى اللغة السريانية ، فلما اتصلوا بالعرب ؛ كانوا هم أيضاً
البادئين بنقل هذه الكتب من السريانية إلى العربية وشرحها ، وتاريخ هذه
الحركة التي قام بها هؤلاء التناطورة واليعاقبة ؛ يدلنا على عيين كثيرين فيها .
(الأول) قلة الابتكار فلم يزيدوا على ما قلوا علماً جديداً ، ولا نظريات
جديدة ، ولا كثيراً من الآراء الجديدة . (والثاني) أنهم حتى في كثير مما
قلوا لم يقلوا في دقة ما كان عند اليونان ، بل غيروا فيه ، وحرّفوا . وكثير
من الأخطاء التي وقع فيها العرب علمياً كان منشؤه هذا الخطأ السرياني .
والحق أن العرب في هذا كانوا أكثر ابتكاراً وأدقّ نظراً . ويكاد مؤرخو
علم المسلمين من طب وجبر وهندسة وكيمياء وفلسفة ؛ يسمون ما وصل إليه
المسلمون قسمين : قسم أخذوه عن اليونان ، وقسم ابتكروه بأنفسهم .

نقل إلى العربية في هذا العصر ، أهم تأليف أرسطو ، وشروح الإسكندرانيين
عليها . وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب جالينوس في الطب ، وعلى الجلة أهم
ما وصل إليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة . ولسنا نريد أن نفصل الكتب التي
ترجموها ، ولكن يمكننا هنا أن نجمل القول بأنه يمكن تقسيم الترجمة إلى أدوار ثلاثة :

الدور الأول : من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ هـ إلى سنة ١٩٣ هـ وفى هذا الدور ترجم كلية ودمنة من الفارسية ، والسند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس فى المنطق وغيره ، وترجم كتاب المحسنى فى الفلك — ومن أشهر المترجمين فى هذا الدور ابن المقفع وقد نقلت ترجمته ، وجورجيس بن جبرائيل ، ويوحنا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً — وفى هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التى ترجمت ، فتجد الأولين منهم كالنظام عَرَفَ أرسطو وعرف بعض كتبه فى الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ، وتكلموا فى الطفرة والجوهر والمرض ، وما إلى ذلك كما سيأتى بيانه ، وكان كلامهم فى هذا قبل المأمون ، مما يدل على اتصالهم بالفلسفة من أول عهد الترجمة .

الدور الثانى : من عهد المأمون من سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠ هـ وأشهر المترجمين فى هذا الدور يوحنا أويحيى البطريق — مولى المأمون — وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، وترجم كثيراً من كتب أرسطو . والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفى عاش سنة ٢١٤ ، وقنسطا بن لوقا البمبلكى عاش سنة ٢٢٠ هـ ، وعبد المسيح بن ناعمة الحنصلى عاش سنة ٢٢٠ ، وحنين بن إسحاق توفى نحو سنة ٢٦٠ ، وابنه إسحاق بن حنين توفى سنة ٢٩٨ ، وعنى بكتب الفلسفة عناية أئيه بالطب ، وثابت بن قزعة توفى سنة ٢٨٨ ، وحيش الأعمى ابن أخت حنين ، وغيرهم . وقد ترجم فى هذا الدور أهم الكتب اليونانية فى كل فن فأعيدت ترجمة المحسنى ، والحكم الذهبية لقيثاغوس ، وجملة مصنفات لبقرات وجالينوس ، وكتاب طبياوس لأفلاطون وكتاب السياسة الدنية لأفلاطون ، وكتاب النواميس له أيضاً ، وكتاب المقولات لأرسطو . كل ذلك على يد حنين بن إسحاق ومدرسته ، وترجمت أغلب كتب أرسطو على يد إسحاق بن حنين .

الدور الثالث : من أتى بعد هؤلاء ، ومن أشهر المتوجين فيه متى بن يونس ، كان في بغداد سنة ٣٢٠ ، وسنان بن ثابت بن قرة مات سنة ٣٩٠ ، وبمجي ابن عدنى سنة ٣٩٤ وابن زُرعة سنة ٣٩٨ ، وأم ما ترجوا الكتب للمنطقية والطبيعية لأرسطو ، وتفسيرها^(١) .

* * *

وقد كان الباعث على هذه الترجمة ، ونشاطها في الدولة العباسية أموراً :
(الاول) أن العهد الأموي كان عهداً بدوياً — في الجلة — ظهرت فيه سيادة العرب على غيرهم من الأمم أوضَح ظهور ، والعرب ، في ذلك العصر لم يتأصل فيهم ميل إلى فلسفة ، إنما كان يسحبهم الأدب العربي ، والتحدث بأيام العرب . ولقد خلفائهم إنما هم في الإصغاء إلى قصيدة عربية ، والاستفسار عن لفظ غامض ، وما إلى ذلك . فلما جاء العصر العباسي ، وأمن المسلمون في الحضارة ، وسادت العناصر غير العربية ؛ رأوا أن حياة الحضارة لا بد أن تستند إلى العلم . فإلية الدولة تحتاج إلى حساب دقيق ، وعيشة الحضارة المركبة تحتاج إلى أدوية مركبة ، وعلاج مركب . ونظي لجأ الناس إلى نوع أو نوعين من العلوم . وأخذوا يعالجونه عن الأمم الأخرى ؛ دعاهم الشغف إلى تعرف ما عند الأمم المختلفة من العلوم جميعها ، ولو لم يكن لهم بها حاجة ماسة مباشرة .

(الثاني) أن الحركة الدينية كانت قد بلغت في آخر الدولة الأموية شأواً بعيداً — كما ذكرنا في فجر الإسلام — وجزم البحث إلى أن يتكلموا في القضاء والقدر ونحوه ، ورجعت عند قوم عقيدة الجبر ، وعند آخرين عقيدة الاختيار ، وتجادل المسلمون فيما بينهم ، ثم تجادل المسلمون والنصارى واليهود : أي

(١) انظر محاضرات الأستاذ سائلا وإذا أردت استيعاب الكتب المترجمة فراجع فهرست ابن التيم وطبقات الألباء لابن أبي أصيبعة وأخبار الحكاه للقفلى وقد نصها الأستاذ جرجي زيدان في كتابه التمدن الإسلام .

الأديان خير ؟ وأى آراء الأديان في المسائل الجزئية أصح ؟ وكان المعتزلة يحملون لواء الدفاع عن الإسلام ، ومقارعة خصومه ، وكان كل من اليهودية والنصرانية تسلك من قبل بالمنطق اليوناني ، والفلسفة اليونانية يستخدمها في الجدل . فأحسن المسلمون أن لا بد من محاربتهم بآلاتهم ، فمكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونها في أغراضهم ، وفيما هم كذلك شعروا بلغة عقلية من دراسة الفلسفة ، فبعد أن كانت تُطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية في نفسها تُطلب لذاتها .

وسبب ثالث : حكاية الأستاذ نلينو وهو أنه « في أواخر مدة الدولة الأموية ، ثبتت سلطة الإسلام على جميع الأمصار والأقطار التي دخلتها أوريته عنوة أو صلحا ، أثناء المغازي المتواصلة والفتوح من أقصى بلاد ما وراء النهر في تركستان ، إلى متعهي المغرب والأندلس . فعمت اللغة العربية الشريفة أهل تلك الولايات والبلدان ، وغلبت على ألسنتهم الأصلية ، فأخذ المسلمون كلهم من أي جنس أو أمة ؛ لا يستخدمون في الإنشاء والتأليف إلا لغة العرب ، فاجتادت وحدة الدين تستوجب أيضا وحدة اللسان والحضارة والعمران . فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يُدخلون علومهم القديمة في التمدن الإسلامي الجديد » (١) .

وسبب رابع ، وهو ميل أفراد من الخلفاء في العصر العباسي إلى العلوم الفلسفية ، والخلفاء عادة أقدر الناس على الترغيب فيما أحبوا . والناس أسرع ما يكون إلى تحقيق أغراضهم ، والركوع بما أولعوا به . وأكثر الخلفاء العباسيين ميلا إلى ذلك في عصرنا ؛ كان المنصور الرشيد والمأمون . ويظهر أنه قد كان لكل منهم أسباب خاصة حملته على ذلك . فالمنصور كان مموذا . ويظهر أن ذلك حمله على العناية بالطب والأطباء ، جاء في الطبري عن علي بن محمد بن

(١) تاريخ علم الفلك عند العرب ١٤١ .

سليمان التوفلي عن أبيه أنه كان يقول : « كان للنصور لا يَسْتَعْرِى طعامه ، ويشكو ذلك إلى الأطباء ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنت . فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمرونه أن يقل من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشنت تهضم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منها عليه . حتى قَدِم عليه طبيب من أطباء الهند . فقال له كما قال له غيره ، فكان يأخذ له سَقَوْكَ جوارشنتاً يابساً فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذ فيهضم طعامه ، فأجده الخ^(١) . وكذلك كان يعتقد في التنجيم كما سيأتي بيانه تقرب إليه المنجمين . والرشد رباه البراسكة على حب العلم ، والمأمون رباه الرشيد والبراسكة ، وقد حذا حذو الخلفاء كثير من أفراد الشعب كبنى موسى بن شاكر .

إذا علمت ذلك ؛ علمت فساد رأى من يَنْسُب ترجمة الكتب اليونانية إلى رؤيا رآها للمأمون أو نحو ذلك ، فقد ذكر صاحب الفهرست « أن أحد الأسباب التي من أجلها كثرت كتب الفلسفة ، وغيرها من العلوم القديمة : أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مُشْرِباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أجلى الرأس أشمل العينين حسن الشمائل ، جالس على سريره ، قال للمأمون : وكأني بين يديه قد مُلِئْتُ له هبة ، فقلت من أنت ؟ فان أنا أرسطاليس ، فسررت به وقلت أيها الحكيم ! أسألك ؟ قال سل ، قلت ما الحسن ؟ قال : ما حَسَنٌ في العقل ، قلت ثم ماذا ؟ قال : ما حسن في الشرع ، قلت ثم ماذا ؟ قال : ما حسن عند الجمهور ، قلت ثم ماذا ؟ قال لا ثم ! وفي رواية أخرى ، قلت : زدني ، قال : من نصحتك في الذهب فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب^(٢) . وروى ابن أبي أصيبعة هذه القصة بشكل آخر ، فقال : إن المأمون رأى في منامه كأن شيئاً بهي الشكل جالس على منبر وهو يخطب ، ويقول : « أنا

(١) جزء ٩ ص ٢٩٢ .

(٢) الفهرست ص ٢٤٣ .

أرسططاليس « فانتبه من منامه ، وسأل عن أرسططاليس فقيل له رجل حكيم من اليونانيين فأحضر حنين بن إسحاق ، إذ لم يجد من يضاهيه في قله ؛ وسأله قل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية ، وبذل له من الأموال والعطايا شيئاً كثيراً .

فهذه القصص وأمثالها لا يصح أن تكون سبباً ، وإنما كانت الترجمة لأسباب طبيعية ، هي التي ذكرنا ورواية ابن أبي أصيبعة أبعد عن الحقيقة ، فمن المستحيل ألا يسمع المأمون باسم أرسطو حتى يأتيه في المنام ويقول له أنا أرسطو وحكاية ابن النديم إن سمعت دلتنا على أن الحُلُم كان انعكاس صورة طبيعية لما كان يفكر فيه المأمون في اليقظة .



قال في طبقات الأمم لصاعد الأندلسي : « كانت العرب في صدر الإسلام لا تُتقن بشيء من العلم إلا بقلتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ؛ حاشا صناعة الطب ، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب ، غير منكرة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طرّاً إليها ، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث عليها حيث يقول : لا يُعْبَدُ اللهُ تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحداً وهو الهرم »

« فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية ، فلما أдал الله تعالى للهاشمية وصرف الملك إليهم نابت المهيم من غفلتها ، وهبت الفطن من سبتها ، فكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور . . . فكان رحمه الله مع براعته في الفقه مقدماً في غلم الفلسفة ، وخاصة في علم صناعة النجوم كلفا بها وبأهلها .

ثم لما أنضت اختلافه إلى الخليفة السابع منهم ، عبد الله المأمون بن الرشيد ابن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور . تم ما بدأ به جدّه المنصور ، فأقبل

على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، فداخَلَ ملوك الروم وأعظمهم بالهدايا الخطيرة ، وسألم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فيبحثوا إليه بما حضرم من كتب أفلاطون وأرسططاليس وأبقراط ، وجالينوس وأقليدس ، وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مَهَرَةً التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفتت سوق العلم في زمانه . وقامت دولة الحكمة في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم لِما كانوا يرون من إحضائه لمتحليها ، واختصاصه بمتقليها . فكان يخلو بهم ، ويأنس بمنابرهم ، ويلتذ بهذا كرتهم ، فينالون عنده للنازل الرفيعة والراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب ، فأثقت جماعة من ذوى الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة . وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ، ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت السولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها ، وزمان اجتماع شملها ^(١)

وقال في موضع آخر : « إن أول علم اعتنى به من علوم الفلسفة ؛ علم المنطق والنجوم ، فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، كاتب أبي جعفر المنصور ، فإنه ترجم كتب أرسططاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق وهي كتاب « فاطاغورياس » وكتاب « باري أرميناس » وكتاب « أنولوطيقا » وذكر أنه لم يكن ترجم منه إلى وقته إلا الكتاب الأول فقط ، وترجم مع ذلك للدخل المعروف « بإيساغوجي لفورفوربوس الصوري » وعبر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة للأخذ

(١) طبقات الأمم ص ٤٧ وما بعدها .

وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة . وهو أول من ترجم
من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية . . .

وأما علم النجوم فأول من عنى به في هذه الدولة محمد بن إبراهيم الفزارى
وذلك أن الحسن بن محمد بن حميد المروف بابن الأدمى ذكر في زيج الكبير
المروف بنظم المقد : أنه قدم على الخليفة للنصور في سنة ١٥٦ رجل من الهند
عالم بالحساب للمروف بالسند هند في حركات النجوم . . . فأمر المنصور
بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب
أصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزارى . . . فكان
أهل ذلك الزمان يعملون به إلى أيام الخليفة للمأمون^(١) .

ونحن إذا استعرضنا ما حكى عن الترجمة ونشأتها أمكننا أن نستنتج منها
التأثير الآتية :

(١) أن أول نقل حدث في الإسلام كان بفضل خالد بن يزيد بن
معاوية ، والذي نقل له هو « اصطفن » وهو من الإسكندرية ، وكان هذا النقل
من اللغة اليونانية والقبطية إلى العربية — وأن خالداً إنما كان أمم ما يعنى به
الصنعة أو الكيمياء ، والفرس بها تحويل المعادن إلى ذهب ، ويظهر أن الذى
دعاه إلى ذلك أنه كان شاباً بطمع في الخلافة إذ كان أبوه (يزيد بن معاوية)
خليفة ، وأخوه (معاوية بن يزيد) خليفة ، ثم نُتِى عن الخلافة ، وغلبه عليها
مروان بن الحكم . فصُدِّم من ذلك صدمة قوية فحول إلى مَلَقَى شريف يلهو
به ويناسب أرسقراطيته ، فكان ذلك هو « الصنعة » رأى أنه إذا استطاع
أن يحول المعادن إلى ذهب استطاع أن يحول الناس إليه ، أو على أقل تقدير كان
له من اللزلة ما يحسده عليها الخلفاء . قال ابن النديم : « كان خالد جواداً ،
يقال إنه قيل له : لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة ! فقال خالد ما أطلب

(١) ص ٤٩ ، ٥٠ .

بذلك إلا أن أغنى أصحابي وإخواني ، إلى طمعت في الخلافة فاختزلت دوني ، فلم أجد منها عرضاً إلا أن أبغ آخر هذه الصناعة ، فلا أحوج أحداً — عرفني يوماً أو عرفته — إلى أن يقف بيباب سلطان ، رغبة أورهة ! ^(١) وقد اشتغل بالنجوم على أنها قد تكون وسيلة تساعد على الوصول إلى « الصنعة » إذ كان علم النجوم ممزوجاً بعلم أحكامها ، وتأثيرها في العالم السفلي ، فلمله أمل فيه عوناً على الوصول إلى بغيته .

(٢) أنه عنى في الدولة الأموية بالطب بمض عناية ، لأن الناس في حاجة مادية إليه ، ولأنه أبعد العلوم الأجنبية عن أن يؤثر في الدين ، ولهذا لم يتخرج من إجازة الترجمة فيه أتقى بنى أمية عمر بن عبد العزيز .

(٣) أن محاولة الترجمة في العهد الأموي كانت محاولات فردية ، تموت بموت الأفراد القائمين بها ، أما في الدولة العباسية فكانت الترجمة عمل أمة لا عمل أفراد ، وإن شئت قل ؛ كان في الدولة العباسية مدرسة كبيرة للترجمة ، لا يضيقها موت فرد أو أفراد منها .

(٤) كانت الترجمة في العهد الأموي مقصورة على العلوم العملية كالصناعة والطب والنجوم (بالمعنى الذي فسرناه) ولم يمتد ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، وما إلى ذلك ، فهذه لم تكن إلا في الدولة العباسية .

(٥) نرى أن المسلمين اتصلوا بالفلسفة اليونانية أول الأمر من طريق الفرس ، فقد ترجم ابن المقفع كتباً من منطق اليونان ، والظاهر أنه شغلها من الفارسية ، إذ لم يعرف عنه أنه يعرف اليونانية ، ثم تولى الترجمة بعد ؛ النصارى من الساسانية واليعاقبة ، من السريانية إلى العربية .

(٦) كانت أول عناية الخلفاء العباسيين موجّهة إلى الطب والتنجيم .

(١) الفهرست ص ٣٥٤ .

والسبب في ذلك الحاجة للسهة إلى ذلك ، فالنصور احتاج إلى الطب لمرضه — كما بينا — واحتاج إلى التنجيم لأنه كان يعتقد أن هناك ارتباطاً بين حركات النجوم وأوضاعها ، وبين ما يحدث في عالمنا من نحس أو سعد . ومن ذلك الحين صار الطب والتنجيم علمين راسخين ، يتولاهما رجال راسمون . فجورجيس ابن جبريل بن بختيشوع الجنديسابوري صار طبيباً للنصور ، ثم لما تدهمت به السن عين النصور مكانه تلميذه عيسى بن شهلانا . وأخذ توثقت الفارسي منجباله ، فلما تمف عين النصور مكانه ابنه أبا سهل بن نوبخت . ولما تولى أخذ المهدي طبيباً عيسى الصيدلاني القصب بأبي قريش ، وأخذ توفيل بن توما النصراني الرهاوي رئيساً لتجنيبه . فلما تولى الرشيد أخذ طبيباً بختيشوع بن جورجيس ، ويوحنا بن ماسويه النصراني . ولما استخلف للأمن كثير في بلاطه الأطباء والتجمنون ، فن منجنيبه حبش الحاسب ، وعبد الله بن سهل بن توثقت ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وما شاء الله اليهودي ، ومن أطبائه سهل بن سابور ، ويوحنا بن ماسويه ، وجورجيس بن بختيشوع ، وعيسى بن الحكم ، وزكريا الطيفوري . فلما آلت الخلافة للمتعم كان طبيباً سلمويه ، ثم يوحنا ابن ماسويه ،^(١) الخ .

فقرى من هذا أن الطب والتنجيم أصبحا صناعتين تحميهما ألقفاء ، وكانت حاجتهم إليهما حاجة عملية . فأمر الطب ظاهر ، والتاريخ مملوء بالحكايات التي هرع فيها ألقفاء إلى التجمين ، فالنصور ابتشار للتجمين في اختيار الوقت الذي يبدأ فيه بناء بغداد ، والمهدي لما هم بالخروج إلى « ماسبدان » استشار توفيل بن توما النصراني المنعم^(٢) ، والمتعم نصحه للتجمن ألا يفرزو « عمورية » إلا في أيام نضج التين والعنب ، فلم يصغ لقولهم وغزاهما وضعا . وقال أبو تمام في ذلك بأبيته المشهورة « السيف أصدق أنبله من الكسب » والواقع لما

(١) ابن البرقي في موقلح مطرقة . (٢) ابن البرقي ص ٢١٩ .

اشتد مرضه ، أحضر النجمين ، منهم الحسن بن سهل بن نوبخت ، فنظروا في مولده فقدّروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم ، فلم يمض بعد قولهم إلا عشرة أيام^(١) . . الخ .

ولسنا ندعى أن الخلفاء لم يشجعوا من علم النجوم إلا هذا الضرب ، فقد كان علم النجوم يشمل ما نطلق عليه علم الهيئة الآن ، ويشمل كذلك البحث عن التغيرات التي تحدث في الأرض بسبب مواقع النجوم وتأثيرها . وكلا الأمرين كان عند اليونان ، وكلا الأمرين عني به العباسيون ، فرصدت الكواكب في عهد المأمون ، وأصلحت آلات الرصد . وإنما الذي نريد أن نذكره ؛ أن الشفّ بمعرفة أحكام النجوم هو الذي جذب الخلفاء أولا إلى تشجيع هذا العلم ، ثم تدرجوا منه إلى تشجيع الفلك الرياضي البحث .

ويظهر لي أن هذين العليين (الطب والنجوم) هما البابان اللذان أوصلا المسلمين إلى ساحة العلوم الفاسفية ، والسبب في ذلك أن التخصص الذي فهمه الآن وزره في دراسة الطب والهيئة لم يكن معروفا في هذا العصر العباسي ، فكان الطيب والنجم يلمان بكثير من المسائل الفلسفية . وتكاد تعد الفلسفة كوحدة ، فروعها : الطب ، والإلهيات ، والحساب ، والنطق ، والموسيقى ، والمهندسة ، والهيئة . فالطيب والنجم يلمان — غالبا — بكل ذلك ، ثم يتبحران في الطب أو التنجيم ، وكانت رغبة الأطباء والتنجمين في إتقان فنونهم تجعلهم على معرفة اللغات الأجنبية ، وخاصة اليونانية . فإذا حدّثوها أقبلوا على الكتب المؤلفة فيها من جميع فروع الفلسفة . وقد نقل إلينا ابن النديم كتابا بأسماء الكتب التي كان يدرسها للتطبييون ، فإذا فيها طب وتشريح ، وما إلى ذلك . ثم فيها منطق وأخلاق وبحث فيا ورواه للذة . وكان مما يقرءون كتاب موضوعه « أن الطيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا »^(٢) . واستمر هذا الحال

(١) ابن الجبري ص ٢٤٥ .

(٢) فهرست ٢٨٩ وما بعدها .

حتى فيمن نبع بمد من الفلاسفة المسلمين ، فيقوب الكِنْدِي — مثلا — « كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق ، وتأليف اللحن والمهندسة ، وطبائع الأعداد والميتة »^(١) وكذلك كان ابن سينا منطقياً طبيباً رياضياً طبيعياً فلكياً ، الخ .

من أجل هذا نرى أن كثيراً من هؤلاء الأطباء والمفكرين الذين كان الحلفاء يُمدُّونهم بالمال ، عُنوا بترجمة كتب غير طبية ولا فلكية ، أو أشرفوا على ترجمتها ؛ فابن العبري يذكر « أن يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الطبيب ولآء الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة . . . وكان له تصانيف جيلة ، وكان يعتقد مجلساً للنظر ، ويمر في فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة »^(٢) ويقول : « إن يوحنا بن البطريق (الطبيب) الترجان مولى المأمون كان أميناً على ترجمة الكتب الحكيمية حسن التأدية المعاني ، ألكن السان في العربية ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب »^(٣) الخ .



كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين ، وما زاد في أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية ، فتسربت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغت صبغة خاصة ، كان لها تأثير كبير في الشكل ، وفي الموضوع . أما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني ، وقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صُبت في قالبه ، ووضعت على منهاجه . إذ كان المنطق كما قال ابن سينا « خادماً للعلوم » — عني به المسلمون من أول عهدهم بالفلسفة ، وقد رأينا أن ابن المقفع ترجم كتب المنطق لأرسطو ، وتتابع المترجمون بعده يترجمون الكتب المنطقية ، وكان المنطق الذي وصل إلى العرب هو منطق

(٣) ص ٢٢٩ .

(٢) ص ٢٢٧ .

(١) القفطي ص ٢٦٨ .

أرسطو مدلاً ومضافاً إليه، ومشروحاً بمنطق الرواقين والإسكندرانيين، ولم يزد العرب فيه شيئاً يذكر. فكل المنطق الذي بين أيدينا هو منطق اليونان، لم يزد عليه إلا بمض الشروح. وقد قلّ قليلاً صحيحاً، لم يدخله قص ولا تهويز؛ كالذي كان في الإلهيات اليونانية. وقد كان منطق أرسطو وشروعه العربية أوسع وأعمق مما بين أيدينا من كتب المنطق اليوم؛ فكان القياس يشغل فيه حيزاً كبيراً. وفيه كتاب واسع في البرهان، وآخر في الجدل وكيف يكون، وكيف تسلك في إخماد الخصم، وكان فيه باب للسفسطة، وباب في الخطابة، وباب في الشعر، وكانت الأبواب الخمسة الأخيرة. وهي البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة تُبحث فيه بحثاً وافياً^(١). ولكن للتأخرين حذفوا هذه الأبواب أو ألوا بها إلماً يسيراً، واقتصروا على الكلام في الكليات الخمس والقضايا والقياس؛ مع أن الذي حذفوا أهم من الذي أبقوا^(٢)، وبذلك أهقلوا المنطق روحه.

على كل حال كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي، وكان من جزاء ذلك أن اصطبغت طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل صبغة غير التي كانت تعرف من قبل. فإن أنت قارنت بين أسلوب القرآن الكريم، وأسلوب المتكلمين؛ وجدت فرقاً كبيراً يمكنك أن تلخصه في أن أساليب المتكلمين جارية على أساليب منطق أرسطو، وليس كذلك أسلوب القرآن. وبحق وضع محمد بن إبراهيم الحنسي البيني الصنعاني كتابه المسمى «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»^(٣) فأسلوب القرآن في إثبات وجود الله تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مِنْ بَيْنِكُمُ السَّمْعُ

(١) انظر في ذلك منطق أرسطو باللغة الإنجليزية، وقد اتبع العرب الأفلوّن شراح أرسطو من اليونان بإضافة الخطابة والشعر.

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ٤١٠.

(٣) الكتاب طبع في مصر بمطبعة المعارف.

وَالْأَبْصَارَ ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ؟ وَمَنْ يَدَبِّرُ الْأُمُورَ ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ! « وقوله تعالى : أَقَلُّ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَلَقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ا » إلى كثير من أمثال ذلك . أما أسلوب المتكلمين فمثل : « العالم حادث ؛ وكل حادث لا بد له من محدث ، فالعالم لا بد له من محدث ، إلى أمثال ذلك ، وما يستنبه من الجوهر والقرص ، والكيفية والكمية ، والعلم الضروري والنظري ، وغير ذلك . مما هو من تعبيرات الفلاسفة اليونانية .

وكذلك الشأن إذا أنت قارنت بين تعبيرات الفقهاء في عصر الخلفاء الراشدين ، والعصر الأموي ، وبين تعبيرات الفقهاء في العصر العباسي — بعد أن عرفوا المنطق — فإنك تجد التعبير الأول عربياً بحتاً ، وتجد الثاني أرسطوالياً بحتاً فتتلا تقرأ الباب في موطأ الإمام مالك فتجده يذكر الحكم ، ثم يحكي ما يدل عليه من حديث أو أثر . ثم لا تجد فيه أثراً لعلم المنطق ، وتقرأ في كتاب الهداية مثلاً التذليل للقعي ، وخاصة في للسائل الخلافية بين أبي حنيفة والشافعي ؛ فتري أن قواعد الجدل التي وضعا أرسطو ، وقواعد البرهان مطبقة في دقة تامة ، فقدمة صغرى ، ومقدمة كبرى ، ونتيجة . وأشكال القياس مستوفاة شروطها .

وتقرأ كتاب سيبويه فتجد ترتيباً وتبويهاً منطقياً ، يبدأ بتقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ، ثم يعرف كل قسم ويأتي بأمثله ويذكر أحكامه ، وهكذا . ومن ذلك أن أرسطو قال : « إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء إذ لا بد لكل شيء مخلوق أن يكون واقعاً في زمان من الأزمنة ، وفي مكان من

الأمكنة ضمناً كالوعاء له . وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً ، أى وعاء .^(١) وكما ألف إيساغوجي أى المقدمة أو المدخل فى المنطق ؛ ألف ابن فارس « مقدمة فى النحو » .

وهذا القياس الذى شغل جزءاً كبيراً من منطق أرسطو طبق تطبيقاً دقيقاً ، وروعى فى كثير من العلوم . فالقياس فى الفقه وأصوله ، والقياس فى النحو واللغة ، والقياس فى الفلسفة ، وكان لهذا القياس أثر كبير فى تفرع المسائل وتنوعها ، ووضع المسائل المتشابهة تحت قاعدة واحدة ، وطرد أحكامها على ما لم يرد فيه حكم مأثور ، سواء فى ذلك الفقه والنحو واللغة ، وكان لهذا كله أثر فى تضخيم العلم وترتيبه وتبويبه^(٢) .

هذا فى الشكل ؛ وأما فى الموضوع ، فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين ، نمرض له عند الكلام فى المعتزلة . وكان للأفلاطونية الحديثة بعض الأثر فى التصوف ، نوضحه عند الكلام فيه . وكان لها معاً أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية ، وهذا بتاريخ الفلسفة الإسلامية أشبه وأليق . وكان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربى ، ولكنه دون بعد عصرنا الذى توارخه فلا تعرض له الآن .

(١) محاضرات الأستاذ جويلى ٨٥ .

(٢) أما القياس فى الفقه فسيأتى الكلام فيه ، وأما القياس فى النحو فقد عرفوه بأنه « حل فرع على أصل لعلته مشتركة بينهما » ويكاد يكون هو التعريف الفقهى ، وقد طبقه النحاة كما طبقه الفقهاء فيقولون - مثلاً - مفتوح والقياس الكسر . وكانوا إذا رويوا مسألة من عربى قاسوا عليها . ولذلك يقول ابن الأنبارى : « اعلم أن إنكار القياس فى النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو » وكانوا يقسمون مصادر المسائل إلى سبع وقياس ويمنون بالبيع ما سمعوه من العرب ، وبالقياس ما قاسوه على ما سمعوا . وقد ذكروا أن نخاع البعرة كانوا أصح قياساً من نخاع الكوفة ، لأن البصريين لا يلتفتون إلى كل مسموع ، ولا يقيسون على الشاذ . ومعنى هذا أن الكوفيين كانوا يستعملون القياس بأوسع من البصريين ، لأنهم كانوا يقيسون على الشاذ . وقال الأندلسى : « الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز فيه مخالف للأصول جعلوه أصلاً ، وببروا عليه بخلاف البصريين » (انظر مقدمة كتاب الإتصاف فى مسائل الخلاف) .

ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخداماً صالحاً ، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه ، وزادوا فيه وابتكروا ، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب . وكان كثير منهم ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية ، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية . فيختار من الأولى ما يتفق والثانية ، ويؤلف منها مزيجاً لا هو يوناني بحت ، ولا إسلامي بحت . إنما أظهر ما كان ذلك في العصر الذي يلي عصرنا هذا وهو العصر العباسي الثاني ، فقد كانت الترجمة قد تمت وركزت ، فأعقبها الأخذ بها والبناء عليها . وظهر أمثال إخوان الصفاء ، والقارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وأمثالهم .

* * *

وهناك نوع آخر خفيف من الثقافة اليونانية الرومانية ، وأهني به الثقافة التي تنشأ من امتزاج الجنس العربي والجنس اليوناني الروماني في الحياة الاجتماعية . فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين سماع العرب وبصرهم ، ولم عادات وتقاليد ، وأوسكار وآراء في نظم الحكم ، ولم فنون من غناء وتصوير وما إلى ذلك . فكان العرب يقتبسون من ذلك ما تيسر لهم لا عن طريق الدراسة المنظمة ، ولا عن طريق البحث العلمي ؛ وإنما عن طريق المشاهدة والنظر ، وعن طريق الحديث والمشاهدة . ولئن كان العراق أم منبع للثقافة اليونانية العلمية ، فقد كان الشام — على ما يظهر — أم منبع لهذا النوع من الثقافة الاجتماعية وسبب ذلك : أن الشام كان محكوماً بالرومان وقت الفتح الإسلامي ، وكانت سلطة الرومان عليه أكبر من سلطتهم على العراق لقرب العراق من الدولة الأخرى القوية — وهي الفرس — ووقوعه تحت سيطرتها في أغلب الأحيان ، وكان في الشام عرب كثيرون ، ورومان كثيرون ، اختلطوا اختلاطاً تاماً . وترك الرومان عند خروجهم عادات

وتقاليد وفنوناً ونظماً اقتبس منها العرب .

من الأمثلة على ذلك الغناء ؛ فيحدثنا الأغاني أن المسلمين اقتبسوا من الروم بعض غنائهم ، وكان موضع الاقتباس هو الشام فيقول في « ابن مُخَرِّز »
« إنه سقط إلى فارس فأخذ غناء الفرس ، وإلى الشام فأخذ غناء الروم ، فخير
من نعمتهم ما تفتى به غنائه »^(١) ويقول ابن مسجّع « إنه رحل إلى الشام
وأخذ ألحان الروم »^(٢) .

وقد رأينا عند الكلام في الرقيق ، أن كثيراً منه كان من الروم . وكان
هذا الرقيق من غلمان وجوار في قصور الخلفاء والأغنياء ، والشعراء والعلماء .
فكان للمأمون جوار روميات ، يلبسن لباسهن الرومي من زُنَّار ، وما إليه .
وكان لأبي تمام الشاعر غلام رومي^(٣) وهكذا .

ويحكى ابن أبي أصيبعة : أن الرشيد كانت له جارية رومية اسمها خَرَشَى ،
وكان لها من قرابتها أخت أو بنت أخت ، فضدّها الرشيد فلم يميحها ، فآل
خرشى عنها فأعلمته أنها زوّجتها من قريب لها ، فنضب من ذلك وقال : كيف
أقدمت على ذلك بغير إذني وأنت إنما اشتريتها من مالي ! وأمر سَلَامًا الأبرش
بتأديب زوجها على عمله ، فما زال سلام يتمرّف خبره ، حتى وجده نخصاه ،
وكانت الجارية الرومية قد علقت منه بغلام ، فلما ولدت الجارية — وكان
الرشيد قد توفي — تبنت خرشى الغلام ، وأدّجه بآداب الروم وقراءة كتبهم .
فعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رخصة ، وكان يعرف بإسحاق ابن الحمصي ،
وكان يتصل به كثير من أهل العلم والأدب^(٤) .

وكانت الحروب بين المسلمين والروم متواصلة في عصرنا هذا ، وتقع
الأمرى من كل من الجانبين في يد الآخرين فأمرى المسلمين قد يذهبون إلى

(١) ١ : ١٠١ . (٢) ٣ : ٨٤ . (٣) اتفاق ١٥ : ١٠٧ .

(٤) طبقات الأطباء ١ : ١٨٥ .

القسطنطينية . وأمضى الروم إلى العراق . والحكايات كثيرة في التاريخ عن النوعين من الأسارى ، وخاصة في عهد الرشيد ، فكان هذا سبباً من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعية واقتباس كلٍّ من كلٍّ . وليس من المقول أن يتر هذا الاتصال — بحكم الروم لكثير من البلاد الإسلامية أولاً ، ثم بالرق والأسر ، ثم بالاحتكاك الدائم السلمى أحياناً ، والحرب أحياناً — من غير أن يترك بعضاً من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضاً من الرومانيين يتكلمون العربية . فالريق الرومى مثلاً في البيوت كان يتكلم الرومية أولاً بالضرورة ، ثم يتكلم العربية محرفة ، ثم العربية القرية من الصحيحة ، وهكذا الشأن في أسرى المسلمين في الروم إن استقرّوا ، وهذا يحمل بعض الأفراد الراقيين من الجانيين على أن يتبادلوا الآراء والأفكار والكلام في اللغة والأدب . ويرى الأغاني في ذلك خيراً طريقاً فيقول : قدم رسول ملك الروم إلى الرشيد فسأل عن أبي العتاهية ، وأنشده شيئاً من شعره . وكان (أى الرسول) يحسن العربية فضى (الرسول) إلى ملك الروم وذكره له . فكتب ملك الروم إليه وردّ رسوله يسأل الرشيد أن يؤجّه بأبى العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن من أراد وألح في ذلك ، فكلّم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاستغنى منه وأباه ^(١) :

وهذا يسلّمنا إلى مسألة تستوقف النظر ، وهو ضعف تأثير الأدب اليونانى إذا قيس بتأثير العلم والفلسفة اليونانية ، فإنك تقرأ أسماء الكتب التى ترجمت من اليونانية إلى العربية ؛ فتجد الكثير في كل فرع من فروع العلوم الرياضية والطبية والفلسفة ، ولا تكاد تثر على كتب أدبى يونانى ترجم إلى العربية مع وفرة ما لليونان والرومان من كتب أدبية . وقد ألحنا بشئ من أسباب ذلك فيما مضى ^(٢) . ونزيد هنا سبباً آخر وهو : أن الفلسفة

(٢) فجر الإسلام : ١٦١ .

(١) أغاني ٣ : ١٧٩ .

والعلوم عالية ، والأدب قوى ؛ ذلك أن الفلسفة والعلم نتاج العقل ، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم — وإن اختلفوا في أنصبتهم منه — والمنطق الذى يضبط هذه العلوم يسيغه عقل الناس جميعاً ، وقواعد الهندسة والطب تطبق على الناس جميعاً : أما الأدب فلفة العواطف ، وليس للمواطف منطق. يضبطها ، والأدب ظل الحياة الاجتماعية ، ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة بها تمتاز عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميتها . من أجل ذلك تذوق العرب منطق أرسطو ، وطب جالينوس . ولم يتنوقوا إلايذة هوميروس ، ألا ترانا اليوم حتى في عصرنا الذى اتصل فيه الناس والأمم اتصالاً أوثق مما كان في القديم ؛ لا يتذوق العربى منا الإلياذة ، إلا أن يكون قد وقف على الحياة الاجتماعية اليونانية وأدرك كنهها ، ومرت ذوقه طويلاً على أن يستسيغها . وسبب ثالث يصح أن يكون ، وهو : أن الأدب اليونانى أدب وثنى ، فيه آلهة متعددة ، وفيه عبادة أبطال . والنوق العربى حين ترجمت العلوم ذوق . مسلم ، لم يستغ هذا النوع من الأدب الوثنى .

ومع هذا فقد كان لليونان أثر فى اللغة العربية والأدب العربى من وجوه : (١) ألفاظ يونانية عربت ، ونلاحظ أنها أكثر ما تكون فى أنواع ثياب يونانية أو رومانية لم يكن يعرفها العرب ، ثم عرفوها ولبسوها ، وأطلقوا عليها كتابتها الأصلية مثل « البرجد » Paraganda وهو كساء غليظ مخطط ، وأبو قفون وهو ثوب رومى يتلون للعيون ألواناً . أو أسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالم بالرومان ، ولم تكن من نتاج جزيرة العرب ، كالزرجد والزمرد والياقوت ، ومقاييس أو موازين رومانية كالقيراط والأوقية : أو أسماء طبية أو نباتية ، كالبلغم والقولنج والبرقوق ، واللوييا والترمس ، أو كلمات نصرانية كالجالثيق ، والبطريق ، أو نحو ذلك^(١) . ويظهر أن أكثر هذه الكلمات

(١) انظر فى هذا كتاب الفروق للأب لامانس .

تسربت إلى العرب عن طريق الشام للسبب الذي أبقا قبل .

(٢) قصص يونانية نقلت إلى العربية . وقد نقل ابن القديم أسماء كتب للروم في الأسماء والتاريخ ترجمت إلى العربية^(١) ، وحكى الجاحظ في كتاب الحيوان قال : « كان في اليونانيين عمرو له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ريسيموس والحكماء يروون له أكثر من مئتين نادرة [ما من نادرة] إلا وهي غربة وعين من عيون النوادر . فبينما أنه كان كلما خرج من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات — للغائط أو للظهور — ألقى في أصل باب داره ، وفي دورانه ، حجراً كي لا ينصفق الباب فيحتاج إلى معالجة فتحة ، وإلى رفعه . وكان كلما رجع من حاجته لم يجد الحجر ، ووجد الباب منصفقاً . فكأن في بعض الأيام يرى هذا الباب من يصنع به ما يصنع ، فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجل حتى تناول الحجر فلما نحا عن مكانه انصفق الباب ، فقال له مالك ولهذا الحجر ، ومالك تأخذه ؟ فقال لم أعلم أنه لك . قال : فقد علمت أنه ليس لك !

وقال بعضهم : ما بال ريسيموس يعلم الناس الشعر ولا يقول الشعر ! قال : ريسيموس كالمسنن الذي يشحذ ولا يقطع .

ورآه رجل يأكل في السوق فقال : أتأكل في السوق ؟ فقال إذا جاع ريسيموس في السوق أكل في السوق^(٢) الخ .

(٣) الحكم : فقد ترجمت حكم نسبت لقيثارغوس ، وسقراط ، وأفلاطون وأرسطو . وملئت بها كتب الأدب في ذلك العصر مثل البيان والتبيين ، وعيون الأخبار . وقال ابن النديم : إن علي بن رزين النصراني نقل كتاباً في الآداب ، والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب^(٣) الخ .

والظاهر أن ولوع العرب بهذين النوعين « القصص والأمثال » دون غيرهما

(١) الحيوان ١ : ١٤٠ وقد أصلحنا في

(٢) الفهرست ٣١٦ .

(٣) الفهرست ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

الحكاية بعض أغلاطها في الأصل .

وغيراً ثَبَّتَ الكتب التي ترجمها أو ألفها حنين ، والتي ذكرها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ؛ فترى أنه تعرض لكثير من فروع العلم المختلفة ، فضلاً عن كتبه الكثيرة في الطب كانت له كتب في الفلاسفة وغيرها ، فله كتاب في الهواء والماء والساكن ، وكتاب في تولد الفروج ، بين فيه أن تولد الفروج إنما هو من بياض البيضة ، واعتداؤه من الملح الذي فيها ، ومقالة في المد والجزر ، وكتاب في أفعال الشمس والقمر ، وكتاب السماء والعالم وكتاب في النطق ، وكتاب في خلق الإنسان ، ومقالة في تولد النار بين الحجرين ، وكتاب في أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين ، وكتاب نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين ، وكتاب في الفلاحة ، ومقالة في قوس قزح ، وكتاب تاريخ العالم وللبدا والأنبياء والملوك والأمم والخلفاء والملوك في الإسلام ، ومقدمة لكتاب فرفوروس في النطق ، وكتاب في الفراسة ، وكتاب في إدراك حقيقة الأديان .

ولو عدنا كل ما ترجمه وألفه ، نخرج ذلك بنا عن القصد الذي قصدناه ، ومن هذا نرى أنه هو ومدرسته نقلوا إلى العربية زبدة آثار اليونان ، وتناولوها بالشرح والاختصار ، وجعلوا الثقافة اليونانية في مختلف فروعها بين أعين العلماء من المسلمين والنصارى يقتبسون منها ، وينتفعون بها . وكان علمهم هم وأمثالهم غذاء للمتكلمين في مذاهبهم ، وفلاسفة المسلمين ، الذين نهضوا في العصر الذي بعد عصرنا هذا .

وقد نقل حنين الترجمة قلة جديدة لإتقانه اللغات المختلفة ، فكان العلماء يدركون الفرق الكبير بين ما ترجمه حنين ، وما ترجم قبله . قد كانت ترجمة حنين وافية دقيقة ، وترجمة من قبله عليقة سقيمة . حتى أن ابن ماسويه لما قرأ قطعة من ترجمته أول أمره قال « أنزى المسيح في دهرنا هذا أَوْحَى إلى أحد ! » إعجاباً بترجمته ، واعترافاً بأنها خارجة عن المؤلف في الترجمة لمهده .

إلى السريانية مرجس الرُّسُفَيّ ، وأيوب الرُّهاوى ، وسواهما من الأطباء المتقدمين ^(١) .

ومع هذا فتجد له كتباً كثيرة في غير الطب . فله كتب في المنطق ، وفي الطبيعة والهيئة ، في فلسفة أفلاطون وأرسطو . وقد أثبت البحث العلمى أن بعض الكتب التى نسبت إليه إنما هى من عمل تلاميذه ومدرسته لا من عمله . وإذا نحن أدركنا أنه أخذ يترجم عن اليونانية ، وقد اعترضته مئات الكلمات اليونانية التى لم يُعرف لها نظير في اللغة السريانية والعربية ، من مصطلحات طبية وفلسفية ، وأسماء للنبات والحيوان والهيئة وغيرها . وأنه كان مضطراً أن يوجد لها ألفاظاً عربية تقابلها إن أمكن ، وأن يوصل الكلمات الأجنبية صفلاً عربياً إن لم يمكن ؛ علمنا أنه اضطاع بعبء ينوء بالعصبة أولى القوة ، أدركنا قدر عنائه . ومبلغ نجاحه .

وقد عاب الأستاذ « سيمون » Simon — عند نشره ترجمة حنين وحيش لكتب جالينوس — عليهما « أن ترجمتها مملوءة بال فقرات الدخيلة التى لم تكن في الأصل ، وأن طريقتهما في التعبير حرفية وليست دائماً جميلة » وقد رد عليه الأستاذ برجستراسر ، ورأى أن حنيناً وتلميذه حيشاً نجحاً أكبر عناء في التعبير عن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما استطاع من الوضوح ، وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى ولو ضحيا في ذلك بجمال اللغة وتنسيقها . لكن ترجمة حنين أفضل ، ودقتها أعظم ، ومخيل إلى الإنسان أنها ليست نتيجة مجهود صادق فقط ، ولكنها نتيجة تمكن وثيق من اللغة ، وحسن تصرف في مذاهبها ، ويتجلى هذا في سلاسة التوفيق بين اليونانية والعربية ، والدقة المتناهية في التعبير مع الإيجاز . تلك مميزات فصاحة حنين التى اشتهر بها ^(٢) .

(١) الأستاذ مايرهوف (٢) كتاب الأستاذ برجستراسر عن حنين بن إسحاق ومدرسته وقد نقلنا تعريب هذه الجملة من مقدمة الأستاذ مايرهوف لكتاب العشر مقالات لحنين بن إسحاق .

أم ما امتاز به حنين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية ، بدأ ذلك وهو في السابعة عشرة من عمره ، ولكن كانت ترجمته ضئيلة لم ترضه لَمَّا أن نضج ، فأعاد بعدُ بعض ما ترجمَ وصحح بعضاً .

اتصل أول أمره بالأمون وعُين في بيت الحكمة الذي كان يزرخ بالكتب اليونانية التي نقلت من آسيا الصغرى ، ومن القسطنطينية . فأخذ حنين يترجم منها إلى السريانية أولاً ، ثم إلى العربية ، ثم ترجم للمعتمدين والوراق والمتوكل . ولم يكتف بما جمعه في بيت الحكمة ، بل رحل في نواحي العراق ، وسافر إلى الشام والإسكندرية وبلاد الروم ؛ يجمع الكتب النادرة . ومات سنة ٢٦٤ هـ بعد أن عمر نحو سبعين عاماً ، بذل فيها من الجهد العلى ما لا يستطيع غيره أن ينهض به في مثات السنين .

كان يترجم بنفسه ، وكان يشرف على جماعات تعمل بإرشاده ، فقد « جعل له للمتوكل كتباً نحارر ، عالين بالترجمة . كانوا يترجمون ، ويتصفح ما ترجموا ، كاصطف بن بسيل ، وموسى بن خالد الترجاني ، ويحيى بن هارون »^(١) كان يترجم كثيراً ، ويؤلف كثيراً ، وكان أحياناً يضع الشرح لما ترجم ، ويلخص المطولات ، ويصحح تراجم السابقين . وعلى الجلة فقد كان حركة عليية دائمة ، قل أن تُبارى بل ظلت حركته التي أنشأها تعمل عمله بعد وفاته ، على يد ولديه وتلاميذه^(٢) .

أكثر ما ترجمه حنين كتب طبية ، وخاصة كتب جالينوس . فقد ذكروا : « أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً ، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين ، وأصلح ما ترجمه تلاميذه وهي ستة إلى السريانية ، ومحو من سبعين إلى العربية ، وأصلح معظم المحسنين كتاباً التي كان قد ترجمها

(١) أخبار الحكماء ١٧١ . (٢) انظر قائمة كتبه في طبقات الأطباء لابن أبي أصيمة .

من أنواع الأدب كالإلياذة وبقية الروايات ، والأشعار ، والخطب اليونانية ؛
سببه ما قلّمنا . فهذان النوعان من النوع العالي ، قد جُردا مما يلبسهما من حياة
اجتماعية خاصة ، وليس فيهما أسماء يونانية ثقيلة على سمع العربي ولسانه ، وليس
فيهما أوزان شعرية لا تسيغها العربية ، ولا فيهما وصف لحياة اجتماعية بعينة
عما يألوه العربي للسلم .

وبعد ؛ فقد كان تأثير اليونان واسماً عميقاً في الفلسفة والعلوم الرياضيه
والطبية ، ضيقاً خفيفاً في الناحية الأدبية .

فإن شئنا أن نمّثر من يمثل هذه الثقافة اليونانية اخترنا لذلك « حنين
ابن إسحاق » .

حنين بن إسحاق

حنينُ بنُ إسحق ، ويلقب بأبي زيد ولد سنة ١٩٤ هـ من أب عربي من
قبيلة عباد التي تسكن الحيرة ، وكان أبوه إسحاق نصرانياً نسطورياً ، قشاً ابنه
كذلك . وكان إسحاق صيدلانياً ، فأعدّ ابنه لدراسة الطب . بدأ حنين يدرس
على يوحنا بن ماسويه . وكان حنين يكثر السؤال على أستاذه ، ويلج في الأسئلة
فأخرج صدر يوحنا فطرده ، وقال : « ما لأهل الحيرة والطب ، عليك ببيع
الفلوس في الطريق ! » وكان في يوحنا عصبية لأهل جندبسا بور ومدرستها ،
يعتقد أن العلم لا يخرج عنهم .

فذهب حنين إلى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة .
ولازم الخليل بن أحمد يأخذ عنه العربية . ويروون أنه حمل كتاب العين المنسوب
للخليل إلى بغداد .

وكان يحيد أربع لغات : الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والسريانية .

ولتسقى الآن مثلاً من ترجمته ، قال فى أول كتاب الأسابيع لبقرط ، وشرحه.
لجالينوس الذى ترجمه حنين :

« قال جالينوس : إن أبقرط شبه الإنسان بالدينا ، وسماء الدنيا الصغيرة .
لأن تديره على تدبير الدنيا ، وهذا الكتاب هو لأصحاب القياس ، أعنى الصنف .
من الأطباء الذين يدعون « دُعْطَاقِيَّين » وهم ذوو الجدل والمحاورة ، وقد
ذكر ههنا جزءى الطب ؛ الجزء الذى يسمى « فسيولوجيا » وهو معرفة الطبائع
والتوسم لها ، والجزء الذى يدعى « بَطْلُوغِيا » وهو معرفة العمل ^(١) .

وقال فى موضع آخر : قال أبقرط (إن الفرقدين يشبهان الحرارة التى
فى الإنسان) قال جالينوس قد وعد هذا الرجل الفائق أن يجرى العالم على سبعة
أجزاء ، فأنجز وعده ، وأحسن فيما قسم وجزأ . فإنه بدأ بالعالم الأقصى ، واتمى .
إلى الأرض ، ثم قرن بعد ذلك كل جزء من أجزاء العالم بأجزاء الإنسان فألطف .
النظر ، وأحسن القول ، وأحسن النظم ، فبدأ من الأرض حتى انتهى إلى النار .
وفسرنا قوله هذا ، والوجه الذى أراده فى ذكره الأرض وابتدائه بها . فإنه أراد .
أن يقرن أجزاء الإنسان بأجزاء العالم ، والإنسان أَرْضى ، يسلك على ظهر
الأرض ، فابتدأ بالأرض ، وجعلها أول قوله ، وكرر القول هنا ليدرككم ما قال
آنفاً ، فإن للمنى إذا رُدَّد ذكره مراراً كان النهم له أرسخ فى القلب
والحفظ ^(٢) .

وقال فى موضع ثالث : « واعلموا أن الغضب ينقاد للعقل ، وإنّا إذا تحركنا
للعصب قدر العقل وقوى على إمساك ذلك الغضب ولزومه ، ومنعه أن يفعل
أفاعيله ، فإن الغضب ربما هيج أفاعيل سيئة مكروهة ، فيحول العقل بينه
وبين أفاعيله :

(٢) ص ٦٨

(١) كتاب الأسابيع ص ٤

واعلموا أيضًا أن الشمس هي اللبنة للفرقدين ، وليست الفاعلة لذلك ،
لكنها تصعد وتنحدر فتظهر للفرقدين على نحو صعودها وانحطاطها ؛ فقال لذلك
هذا المرء الفاضل : إن الشمس تدبر الفرقدين ، وليست الحركة لها بالحقيقة ،
لكنها تظهرهما على وجه ما ذكرناه آنفًا ومعناه .
وقد ذكر ذلك « أراطن » الشاعر ووصفه فأحسن الصفة وأحكمها . فمن
أراد أن يستقصى معرفة ذلك فلينظر في كتابه الذي وضع في الفلك ويتفهمه ^(١) .

* * *

ومن هذا نستطيع أن نحكم أن عبارة « حنين » واضحة المعنى جيدة
الأسلوب ، وأنه — إذا اضطر — يستعمل المصطلحات العلمية بالفاظها مثل
« دغماطيقين » و « فسيولوجيا » و « بطولوجيا » وأن يتبعها بشرح معناها إلى
أن تؤلف الكلمة في العربية ، ويتحدد مدلولها ، وأنه يضع اللتين بين قوسين ،
ويتبع ذلك مما عنده من شرح . وقد جرى على هذا النمط علماء المسلمين بعد
في كتبهم .

وعلى الجملة ، فقد كان حنين ومدرسته خير من يمثل الثقافة اليونانية ، وخير
من قدم إلى قراء العربية نتائج القرائح اليونانية .

(١) ص ٨٣ .

الفصل الرابع

الثقافة العربية

لثقافة العربية ناحيتان هامتان (١) ناحية دنيّة من دراسة للقرآن الكريم وحديث وقته ، ومن انتشار للثقافة الإسلامية بين أهل المملكة ، وأثرها في عقولهم وأرواحهم . وهذا كله سنعرض له في مواضع متفرقة من الكتاب . (٢) وناحية لغوية أدبية وهي ما سنتكلم فيه الآن ، ذلك أن جزيرة العرب منبع اللغة العربية ، ومولد الإسلام ، والعرب هم الذين حملوا لغتهم معهم حيث يسكنون ، وحيث يفتحون ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عربي ، والقرآن عربي ، ودعاة الأمّ الأولون إلى الإسلام عرب . فمن الواضح بعد أن ينسب الدين واللغة ، وما لها من فضل إلى العرب ، أن نسي ما نتج عنهما ثقافة عربية .

اللغة — : في الحق إن اللغة العربية أرق اللغات السامية ، كما يقرر دارسو تلك اللغات فلا تعادها اللغة الآرامية ولا العبرية ، ولا غيرها من هذا الفرع السامي . وهي كذلك من أرق لغات العالم ، فهي — تمتاز حتى عن اللغات الآرية — بكثرة مروّتها ، وسعة اشتقاقها . فإذا قيس ما يشتق من كلمة عربية من صيغ متعددة لكل صيغة دلالة على معنى خاص ، بما يقابلها من كلمة أجنبية وما يشتق منها ، كانت اللغة العربية في ذلك — غالباً — أوفر وأغنى . فتلا اشتقوا من الضرب : ضرب ، ويضرب ، واضرب ، وضارب ، ومضروب . وسموا آلة الضرب مضرباً ، ومضرباً ، وقالوا ضاربه أي جالسه ، وتضرب الشيء ، واضطرب ؛ تحركوا موج ، وحديث مضطرب ، وأمر مضطرب ، والضرية ؛ ما ضربته بالسيف

وضاربه في المال من المضاربة (وهي أن تعطى إنساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون له سهم معلوم من الربح) واشتقوا منه مضارباً ، ومضارباً ، الخ الخ . هذا إلى المعاني المجازية التي يستعملون فيها الكلمة ، فيقولون : ضَرَبَ الدَّراهمَ والدنانيرَ (أى صَكَّها) واضْطَرَبَ خاتماً من ذهب (أى أمر أن يصاغ له) وضَرَبَ في الأرض ؛ إذا سار فيها مسافراً ، وضَرَبَت الطيرُ ؛ ذهبت . وضرب في سبيل الله ؛ نهض ، وضرب على يده ؛ كَفَّه عن الشيء ومنعه . واضرب عن العمل ؛ كف . واضْطَرَبَ البردُ النبات ، وضربه ؛ إذا اشتد عليه البرد حتى يبس ، والضَّريبةُ ؛ الصوف أو القطن يُضْرَبُ بالمِطْرَقة ، والضَّرْبِيُّ من اللَّبَنِ ؛ الذي يُحْلَبُ من عدة لِقَاح في إناء واحد ، فيضرب بعضه ببعض ، ثم أخذوا منه فلان ضَرَبَ فلان أى نظيره (والضَّرباء ؛ الأمثال والنظراء) والضرائب ؛ الأشكال ، وضَرَبَ للثل ذكره وقوله ، الخ . . . هذا قليل من كثير مما يدل على غنى اللغة العربية ، غنى تاماً في الاشتقاق والمجاز ، قل أن تجارها فيها لغة أخرى . وكذلك ما لها من طرق متعددة في القلب والإبدال والنحت مما يطول شرحه . وقد أَبْنَى في « فجر الإسلام » ما كان للعرب من ملاحظات دقيقة فيما يقع عليه حسهم ، فالإبل والخليل والأرض لكل شيء منها اسم ، فإذا طرأ أى تميز وضموها له اسماً خاصاً ، فإذا قصرت اللغة في شيء ، ففي ما لم يكن يقع تحت حسهم كاستخراجات البحار ، وأنواع النباتات والحيوانات التي تنتج في غير إقليمهم^(١) .

هذه المرونة الثامنة ، وهذا الاشتقاق والمجاز والقلب والإبدال والنحت ؛ هو الذي جعل اللغة العربية تستطيع أن تكون لغة القرآن الكريم والحديث وما فيها من معان في منتهى السمو والرفعة ، وما فيها من تعبيرات ذنية واجتماعية وتشريعية ، لا عهد للعرب بها في جاهليتهم ، كما استطاعت بعد

(١) انظر فجر الإسلام ص ٦٢ وما بعدها .

أن تكون أداة لكل ما نُقل من علوم القرس ، والمهند واليونان وغيرهم .
وفي نحو ثمانين سنة من بدء العهد العباسي كانت خلاصة كل هذه الثقافات
مدونة باللغة العربية ، والعرب الذين لم يكونوا يعملون شيئاً من مصطلحات
الحساب والمهندسة والطب ، ولا شيئاً من منطق أرسطو وفلسفته ؛ أصبحوا
في قليل من الزمن يعبرون بالعربية عن أدق نظريات أفليدس ، وحساب
الجيب الهندي ، وما وراء المادة لأرسطو ، ونظريات الهيئة لبطليموس ، وطب
جالينوس ، وحكم بزرجمهر ، وسياسة كسرى . وما كانت تستطيع ذلك كله لولا
ما بها من حياة وصرورة ورقى .

واجه العرب في العصر العباسي صعوبة شديدة في نقل هذه الذخيرة العلمية
الأجنبية إلى اللغة العربية ، بل وفي وضع مصطلحات لعلومها كالنحو والفقه ،
ورأوا أنهم أمام علوم جديدة وأفكار جديدة ، وأن رقعة المملكة الإسلامية
قد اتسعت ، واختلفت أقاليمها . ولكل إقليم نباتات ، وحيوانات لم تكن
تعرفها . ورأوا أنها قلمت على أنماط من النظم الاجتماعية ، لم تكن تألفها ،
فقد أنشئت دواوين لم تنشأ في العهد الأموي ، واختُرت في الأغاني نغمات
لا تعرف لها اسماً عربياً ، وآلات الموسيقى فارسية ورومية ، ولكل اسم
وملابس مختلفة الأنواع ، لأمم مختلفة . وما كل ومشارب كذلك . وعلى الجملة
فقد واجه العرب الحضارة العباسية ؛ كما يواجه اليوم العرب الحضارة الغربية
وهكذا ، فماذا تصنع أمام هذا السيل الجارف ؟ أنتطق بكل هذه الأسماء كما
ينطق أهلها ؟ وفي ذلك إهدار لشخصيتها . أو تضع لها أسماء عربية من عندها ؟
وفي تعميم هذا صعوبة شاقة . لقد نالبت على ذلك كله في دقة ومهارة . وفي
الحق إن معجم اللغة العربية تضخم في العصر العباسي ، من طريقتين :

الأول — : وهو الأكثر ، التوسع في مدلول الكلمات العربية ، فالعربي لم
يكن يعرف الفاعل ، والمفعول ؛ بالمعنى الذي يفهمه النحوي ، ولا يعرف

التضحية ولا للوضوح والحمول ؛ بالمعنى الذى يعرفه المنطقي . ولا يعرف الطويل والخفيف وللدديد ؛ بالمعنى الذى يفهمه العروضى وهكذا . وقد ملئت الكتب بحكايات ظريفة كانت تجرى بين النحويين والأعراب الوافدين ، فلا يستطيع الأعرابي أن يفهم النحوى ، لأنه يكلمه بمصطلحات لا علم له بها^(١) . وكان علماء اللغة يُعْمَلون جهدهم فى الأخذ عن الأعراب ، ويحتشدون فى وضع الصيغة التى يفهمها الأعرابي ، فإذا قيل له صنع من وقى على وزن مقفل لم يفهم ، لأنه مصطلح على .

بهذا كثرت معانى الكلمات العربية ، فلو عمل معجم لنوى فى العهد الأموى ما وجدنا للطويل معنى أنه بحر من بحور الشعر ، ولا وجدنا فيه فاعلاً وظرفاً بمعنىهما النحوى وهكذا — وقد سد هذا الباب أكثر الحاجات العلمية ، فإنك تقرأ النحر والصرف والفقه فلا تجد فيها لفظاً أعجيباً ، بل تقرأ المنطق كله — وهو يونانى الأصل — فلا تكاد تجد فيه كلمة أجنبية إلا مثل سفسطة ، وكذلك الشأن فى الفلسفة والرياضة فاستعملوا كلمة كيفية وكَمِيَّة وجوهر وعَرَض ، والمثلث والمربع والزاوية الخ ، ولم ينقلوا الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية .

والثانى : نقل الكلمات الأعجمية فسمها إلى العربية ، وأكثر ما كان ذلك فى أسماء البلدان والنباتات والحيوانات ، والآلات والأمراض والمآكل التى لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وفى هذ تصرفوا تصرفات مختلفة طوعا للسانهم ولم يحروا فى ذلك على سنن واحد ، قال الجوالقي : « إن العرب كثيراً ما يجترئون على الأسماء الأعجمية فيغيرونها بالإبدال ، قالوا : إسماعيل وأصله

(١) مثال ذلك ما حكى الربيع بن عبد الرحمن السلسي قال : قلت لأعرابي أهزم إسرائيل ؟ قال إنى إذا لرجل سر . ! قال فخير فلسطين ؟ قال إنى إذا لقوى ! . وقال خلف : قلت لأعرابي ألقى عليك بيتا ساكنا ؟ قال على نفسك فألقه !

اشتمائل فأبدلوا القرب المخرج . . وقد يدلون مع البعد من المخرج وقد ينقلونها إلى أبنتهم ويزيدون وينقصون»^(١) . وفي الواقع لو قارنا بين أصل الكلمات الأجنبية وما عربت به ؛ وجدنا أنهم لم يتبعوا قواعد ثابتة فتارة يدلون الشين سيناً وأحياناً يبقونها ، وأحياناً يقلبون الراء تاءً وأحياناً يبقونها ، وتارة يغيرون تنكيراً خفيفاً وتارة تنكيراً كبيراً^(٢) . والذي نلاحظه في ذلك أن النقل كان من مصدرين : مصدر العلماء الذين واجهوا كتب اليونان ، فعبروا ببعض أسماء النبات والحيوان . وهؤلاء تعريبهم أقرب إلى الأصل ، وأقرب لأن يكون على نمط واحد . ونقل لم يكن من عمل العلماء ، ولكن كان العرب الأميون وأمثالهم متروكين فيه لسليقتهم . فالعربي يسمع اسم بلدة فارسية أو شيء يوناني فينطقه كما يسهل عليه حسبما اتفق له . وقد يسمع عربي آخر اسماً آخر في ناحية أخرى ، فينطقه نطقاً ليس على نمط الأول ، بل إن الكلمة الواحدة قد ينطقها قوم من العرب نطقاً خاصاً وينطقها آخرون نطقاً مخالفاً ، فيكون في الكلمة لفتان أو أكثر . ومن أجل هذا صعب على الباحث أن يضع قواعد ثابتة لما اتبعه العرب في نقل الكلمات مما ليس من موضوعنا .



خرجت اللغة العربية من هذا المأزق سليمة قوية واسعة ، هي لغة الدين ولغة العلم والفلسفة ، ولغة الأدب ، واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة . فالفلة السريانية التي ترجمت إليها الكتب اليونانية ؛ أخذت تتدهور بعد أن نقل ما فيها إلى اللغة العربية . والفرس في ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هي اللغة العربية ، إن ألفوا أو شعروا أو كتبوا فبالعربية وحياء اللغة الفارسية إنما كانت عند التكلم العادي ، أو في أوساط الديانة الجوسية .

(١) المزهري ١ : ١٣٣ . (٢) للأطمة على ذلك أنظر كتاب القرون للامانس ، وكتاب الألفاظ الفارسية والمزهر للسيوطي ، وفقه اللغة للثعالبي .

وكذلك اللغات الأخرى من رومانية وقبطية ، في الشام ومصر . وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت في تأليفها وأدبها وعلومها تتاج كل هذه الأمم ، تلبس كل أفكارهم ، وتمعر عن قرائحهم . وكسبوا هم منها ما لها من ثقافة إسلامية وأدبية .

ولئن أغنى الأعاجم اللغة العربية التحريرية ؛ فقد أفسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا من لحن . كانت جزيرة العرب سليمة للمنطق قبل الفتح ، وقبل دخول الأعاجم في الإسلام ، ثم بدأ اللحن يفسو فيها ، وللحن تاريخ من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وانطلقا الراشدين والأمويين ؛ لا نعرض له الآن ، وإنما نريد أن نذكر كلمة عن اللحن في عصرنا ، فقد زاد بقلية الأعاجم سياسياً ، وأصبحنا نرى يده تكثر لفتين : لغة الكتابة ، والأعراب الفصحاء ، ومن جرى مَجْرامهم ، ولغة يسميها الجاحظ لغة اللولدين والبلديين ، يقول : ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها لإمع إعرابها ، ونحارج ألفاظها فإنيك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام اللولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الخشوة والطعام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو أن تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً » ويقول : « ولأهل المدينة ألسنة ذلقة وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب »^(١) ويقول : واللحن من الجوارى الظراف ، ومن السكواب النواهد ، ومن الشواب لللاح ، ومن ذوات الخلدور الفرائر أيسر ، وربما استماع الرجل ذلك منهم ، ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف »^(٢) .

وقال في موضع آخر : « وزعم أبو العاصي ؛ أنه لم يرق قروياً قط لا يلحن

(١) البيان والتبيين ١ : ١١١ .

(٢) البيان ١ : ١٢٣ .

في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس ؛ إلا ما تفقده من أبي زيد النحوي ،
ومن أبي سعيد العلم : »

وذكر ابن قتيبة : أن أعرابياً دخل السوق ، فسمعهم يلحنون . فقال :
سبحان الله ! يلحنون وربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح !^(١) .

كان هذا اللحن أنواعاً : فلحن في الإعراب فلا يصحون آخر الكلمات
كما تقتضيه قواعد النحو ، كالذي رَوَوْا : أن رجلاً قال لآخر : أحضرني قال
قد دعوتك لكل ذلك يابى — برفع كل —^(٢) ولحن في بناء الكلمة كالذي
قيل : إن نَبَطِيًّا سئل : لم اشتريت هذه الأمان ؟ قال أركبها ، وتَلَدَ لى (بفتح
اللام)^(٣) . ولحن في تركيب الجمل كالذي حكى الجاحظ قلت لخادم لى : فى أى
صناعة أَسْلِمَ هذا الغلام ؟ قال : أَحَبَّ سَد ، نَعَالٍ ، يريد فى أَحَبَّ النعال
السندية^(٤) . وأحياناً يلجأ الرجل منهم إلى إسكان آخر الكلمات ، وترك
الإعراب خوفاً من اللحن ، كأن مهدي بن مهلهل يقول حدثنا هشام بن
حسان ويمزم ذلك كله لأنه حين لم يكن نحوياً رأى أن السلامة فى الوقف^(٥) .
وكان هذا اللحن فاشياً ؛ حتى فى العلماء فقد لحن أبو حنيفة ، ولحن عمرو بن
عَبِيد ، وبشر الريسى^(٦) . وهذا لا يطعن فى علمهم ، فهناك فرق بين معرفة
اللغة علماً والنطق بها كلاماً ، فقد يجيد الرجل معرفة قواعد لغة وضبطها وفهمها ،
ثم هو لا يحسن التكلم بها ، كالذى حكى عن بعض أئمة النحو^(٧) .

نستنتج من هذا كله : أن فساد اللغة من الناحية اللسانية كثير — فى ذلك
العصر — وأنه قد بدأ يكون للناس لغتان ؛ لغة عامية هى التى يسميها الجاحظ
لغة المولدين والبلديين ، وهذه لها ألفاظ غير متقاة ، وتسامح فى الإعراب ،

(١) ميون الأخبار ٢ : ١٥٩ . (٢) العدد نفسه .

(٣) البيان ١ : ١٢١ . (٤) البيان ١ : ١٢٢ . (٥) البيان ٢ : ١٦٢ .

(٦) البيان ٢ : ١٥٦ والقند الفريد ١ : ٢٩٦ وطبقات الأدباء ص ١٧٩ .

(٧) كان الثلوثين إماماً فى النحو ، وكان لا يحسن الكلام .

وتميل إلى إسكان أواخر الكلمات^(١). ولغة الطبقة الراقية والمتعلمة ، وهذه لغة معربة متخيرة — وإن كان اللحن يصدر منهم — وهذه اللغة الأخيرة هي لغة الكتابة .



ومن ثم لم يكن علماء اللغة والنحو يأخذون إلا عن سكان البادية ، لأنهم رأوا الحضر قد فسد بالاختلاط ، بل كانوا لا يأخذون عن البدوي إلا إذا لم يفسده الحضر . فكانوا لا يأخذون عن الأعرابي إذا فهم القول للمحون « ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا (اللعن) وأشباهه بهرجوه (زفوه) ، ولم يسمعوا منه ، لأن تلك اللغة إنما اتهدت واستوت واطردت ، وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة ، وفي تلك الجيرة . ويقول الجاحظ : « ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة ، وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه كان قد وضع منزله في آخر موضع الفصاحة ، وأول موضع العجمة ، وكان لا ينفك من رُوَاة ومذاكرين^(٢) . وكان البصريون يفترضون على الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة حَرْشَةَ^(٣) الضَّبَابِ ، وأكَلَةَ^(٤) اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أَكَلَةِ الشَّوَارِيزِ ، وباعة الكواميخ^(٥) » وكان العلماء يمتحنون الأعرابي قبل أن يأخذوا عنه ، من ذلك : أن أبا عمرو بن الملاء ارتاب في فصاحة أبي خيرة الأعرابي ، فسأله كيف تقول حفرت الإيران؟ قال حفرت إِرَانَا . قال أبو عمرو « لَأَنْ جِلْدُكَ يَا أَبَا خَيْرَةَ ! »^(٦) .

(١) ذكر الأعمى أن الرشيد كان ما يسميه غناء الملاحين في الزلازل إذا ركبا ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعلّموا هؤلاء شعراً يفتنون فيه ، فقليل له ليس أحد أقدر على هذا من أبي النخعي فعمل قصيدته « خاتك الطرف الطموح » .
أغاني ٣ : ١٧٧ . (٢) البيان ١ : ١٧٢ . (٣) حرش الضب : صاده .
(٤) الشواريذ ، جمع شيراز : اللبن الرائب المستخرج مائه ، والكواميخ جمع كاميخ نوع من الأدم . (٥) يرميه أنه تحضر ففسدت لفته لأنه جمع « إرة » فكان الواجب أن يقول حفرت الإرين كمزة وحزين .

كان كثير من الأعراب يقدون على مدن العراق ، فيأخذ العلماء عنهم اللغة ، وقد عدَّ ابن النديم في الفهرست عدداً ، منهم أبو زياد الكلّابي ، أبو سَوار الفَنَوِي — وقد أخذ عنه أبو عُبَيْدَة — ثُور بن يزيد — وقد أخذ عنه ابن المقفع — وأبو خَيْرَة العَدَوِي ، وأبو مَهْدِيَّة ، وأبو مِسْحَل ، وأبو ضَمَمَ الكلّابي^(١) . وقد اتصل بهم علماء اللغة يأخذون عنهم ومن هؤلاء الأعراب من كان يكتب ويؤلف كتباً . كَأبي زياد الكلّابي ألف كتاب النوادر ، وكتاب الفرق ، وكتاب الإبل ، وكتاب خلق الإنسان . ومنهم من كان يعلم اللغة ويتعلم النحو على علمائه ، كَأبي مِسْحَل فقد أخذ النحو عن الكسائي . ومنهم من كان يميل إلى الغريب النادر ، ويتقعر في كلامه ، ويغلط طبعه ليبرهن على إيمانه في البداوة ، كَأبي مُحَظَّم الشَّيْبَانِي . وكانوا يتكسبون بذلك فمنهم من كان يعلم الصبيان بأجرة كَأبي البَيْدَاء الرِّبَاحِي ، ومنهم من كان يقد على الأسراء كَأبي ضَمَمَ وقد على الحسن بن سهل ، وكثير من الأعراب كانوا يقدون على إسحاق الموصلي^(٢) .

وكما كانت الأعراب ترحل إلى الحضر للكسب أو طلب العلم ، كان العلماء والأدباء يرحلون إلى البادية في طلب اللغة والأدب ، فيحدثنا الأغاني أن بشاراً « قيل له ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم ، وشكّ فيه ، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ وولدت هاهنا ونشأت في حُجُور ثمانين شيئاً من فصحاء بني عَقيِل ، بما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نساءهم ، فقساؤهم أفصح منهم ، وأيقفتُ فأبديتُ إلى أن أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ ! »^(٣) . ويقول زحل في ظاهِر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان :

(١) الفهرست : ٤٣ وما بعدها . (٢) أغاني : ٥ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٩٠ ، ١٢٠ .

(٣) أغاني : ٣ ، ٢٦ ، وأبلى أقام بالبادية .

وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتهم (وكان يأتهم أبان اللاحق)^(١) وكان علماء اللغة من بصريين وكوفيين يتساقون في الرحلة إلى البادية ، والأخذ عن العرب . وقد اشتهر في عصرنا بهذه الرحلة أبو زيد الأنصاري ، وأبو عمرو ابن العلاء ، والأصمعي والكسائي . فأبو زيد يقول في أول كتابه النوادر « ما كان فيه من شعر القصيد ؛ فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي ، وما كان من اللغات ، وأبواب الرجز ؛ فذلك سماعي من العرب » . وسأل الكسائي الخليل بن أحمد ، من أين علمك هذا ؟ فقال من بَوَادِي الحجاز ، ونجد وتهامة . ففرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه^(٢) . وأما أبو عمرو بن العلاء ، فقد رَوَا ؛ أن كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف^(٣) وتاريخ الأصمعي مملوء بالقصص عن الأعراب في البادية ، وما سمع منهم من لغة وشعر وقصص .

ولم يكن عمل علماء اللغة في ذلك العصر ، إلا نقل ما يسمعون من العرب مشافة إلى التقييد بالكتابة ، فأكثر اللغة كتبت في العصر العباسي الأول لاقبله ، وكانت أهم وسائل النقل هي ما ذكرنا من رحلة العرب إلى العراق ، ورحلة علماء العراق إلى البادية ، وتحرير اللغويين لما سمعوا من العرب مباشرة أو بواسطة . وبعد ، فهل كان كل الذي دونوه صحيحاً ؟ وهل كان الآخون وهم علماء اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة ؟ الحق أن لا ! وأن بعض العرب كانوا يخطئون أحياناً ، ويكذبون أحياناً ، وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون أحياناً ويكذبون أحياناً ، كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على جديد لم يعرفوه ، وكانت للناسفة بينهم شديدة ، وحب الفخر والتظاهر شديداً خصوصاً في مجالس الخلفاء والأسراء . وكان يُقضى على العالم في جملة بكلمة

(١) طقات الأدباء لابن الأنباري ص ٨٤ .

(٢) أغاني ٣ : ٥٢ .

(٣) ابن شلكان ١ : ٥٥٠ .

أو خطئه في كلمة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يزيّدوا ويختلقوا إذا أخرجوا ،
وأحسن بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يُفَرِّقون أحياناً ، ويختلقون
أحياناً . وسبب آخر وهو أن العداء بين البصريين والكوفيين بلغ مبلغاً عظيماً ،
فكان علماء كلتا المدينتين يشيِّعون لمذهبهم ، ويبرهنون عليه بالصنوع أحياناً ،
وكتب النحو واللغة مملوءة بالأدلة على ما هوول .

أما خطأ العربي فقد يكون من عدم فهمه لعنى الكلمة ، كقول عربي
يصف امرأة بالغلظة :

لَمْ تَذَرِ مَا نَسَجَ الْيَرَنْدَجُ قَبْلَهَا وَدِرَاسُ أَعْوَصَ دَارِسٍ مَتَّخِذِ
فَظَنَ أَنَّ الْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ ، وإنما هو جلد يصنع ^(١) .
وقال عمرو بن كلثوم :

علينا النِّبْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِي وَأَسِيَّافٌ يَتَّقُنَ وَيَنْحَنِينَا
قال ابن السكيت . سمعه بعض الأعراب ، فظن أن اليبُّ أجودُ الحديد ،
قال : « وَنَحْوَرُ أَخْلَصَ مِنْ مَاءِ الْيَلْبِ » وهو خطأ ، وإنما هو جلود تنسج ^(٢) .
وأحياناً يكون خطأ العربي ناشئاً من عدم فهم طبائع الأشياء ، كقول عربي
يصف درّة :

فجاء بها ما شئتَ من لَطِيمَةٍ يَدُومُ الْفَرَاتُ فَوْقَهَا وَيَمُوجُ
فجعل الدر من الماء العذب ، وإنما يكون في الماء الملح .

وقد يكون خطأ في الحوادث التاريخية ، فقد قال الكندي :

كَانَ النَّطَاطُ مِنْ عَلِيهَا أَرَاخِيزُ أَسْلَمَ تَهْجُو غِفَارًا ^(٣)

فقال نصيب : ما هجّت أسلم غفاراً قط ! وقد يكون من سوء تصرف

(٢) لسان العرب ٢ : ٣٠٦ .

(١) الزهر ١ : ٢٤٨ .

(٣) النططة : صوت القدر .

العربي ، فقد قال عربي — وكانت قد ماتت زوجاته تبعاً — :

غَدَا مَالِكٌ يَرَى نِسَاءً كَأَنَّمَا نِسَاءً لِسَهْمِي مَالِكٍ غَرَضَانِ

فياربِّ فاترك لي جُهَيْمَةً أَعَصُرَا فَمَالِكُ مَوْتٍ بِالْقَضَاءِ دَهَانِي !

ذلك ؛ أن هذا الأعرابي لما سمعهم يقولون « مَلَكُ المَوْتِ » سبق إليه أن هذه اللفظة على زنة قَمَلٍ — كقَمَلِك — فاشتق منها كلمة على وزن « فاعل » مع أن مَلَكَ على وزن تَمَلَّ لأن أصله مَلَأَ فلا اشتقاق خطأ . وكهمزهم مصائب ، قياساً على صحائف ، وهو غلط لأن ياء مصيبة أصلية ، وياه صحيفة زائدة ، الخ .

وأما أكاذيبهم ، فقد عقد للبرد باباً في كتابه الكامل ، مباح « أكاذيب

العرب » — هذا شأن العرب .

وأما خطأ العلماء فنرى منه ما روى ابن الأعرابي قال لقيني أبو محمّد ومعه أعرابي ، فقال جئتكم بهذا الأعرابي لتعرفوا منه كذب الأسمى ، أليس كان يقول في بيت عنبرة :

شَرِبْتُ بَمَاءِ الدُّخْرَيْنِ فَأَصْبَحْتُ رَوْرَاءَ تَنْفِرٍ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ

إن الديلم الأعداء لأنهم أعاجم ، والعرب كانوا يمدون جميع الأعاجم أعداءهم . فسلوا هذا الأعرابي ، ما معنى الديلم ؟ فسألناه فقال : الديلم حياض بالقور أوردتها إلى غير مرة !

والظاهر أن معاجم اللغة بعد ذلك جمعت كلّ ما روى وتأوّلت الخطأ ، وصححت الخط ، وأخذت آراء العلماء على اختلافهم من غير تدقيق ، فقد تأولوا كلمة « مالك » الواردة في البيت السابق ، وقالوا في اليلب إنه الحديد أو الجلد ، وصححوا الشطر الذي رويناه « يَدُومُ القَرَاتِ فَوْقَهَا وَيَمُوجُ » بقولهم تدوم البحار فوقها وتموج ، وفسروا الديلم بأنها الأعداء أو حياض بالقور ، وأسبغوا على العرب نوعاً من العصمة ليس بصحيح ، حتى زعموا أن العربي لا يطاوعه لسانه في الخطأ ولو تعدّد ، ورووا

لذلك الحكاية المشهورة التي كانت بين سيويه والكسائي، والحق أن العربي الصميم؛ مثله كمثل الإنجليزي الصميم، والفرنسي الصميم. ولو أراد الفرنسي مثلاً أن يحوّر لسانه؛ لينطق بالخطأ عمداً لاستطاع ذلك في يسر، وهو كذلك يخفى في استعمال بعض الكلمات والتراكيب، ونحو ذلك، فالعربي مثال ذلك. ولكن مهما قلنا في الخطأ أحياناً وفي الكذب أحياناً فهو صفة عارصة ونادرة، وكان الأغلب فيما قل من اللغة والصدق والصواب.

وقد جد العلماء الأولون في تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة، فقد رأوا أن هناك كلمات كثيرة أخذت عن قبائل مختلفة، لكل قبيلة لفظ أو لهجة، وبعضها أفصح من بعض. ورأوا ألفاظاً لم يستوثق من صحتها، والذي جاء بها لا يوثق به، ورأوا كلمات اختلفت في تحديد معانيها، لأنها رويت في جهل، ولللفظ فيها يحتمل أكثر من معنى واحد. ورأوا ألفاظاً صُحِّتْ، وألفاظاً كان ينطق بها عربي ألغ؛ فيظنها الآخذ عنه لغة، وهكذا. فاضطربوا أن يمحروا ذلك كله ويمحصوه، فبذلوا من الجهد ما يستدعي الإعجاب، وبينوا من اللغة ما هو صحيح وفصيح، وضعيف منكسر، وردى منموم فقالوا مثلاً: ثَبَّتَتْ شُعْةُ الْإِنْسَانِ وَرِمَتْ، وليس ثَبَّتَتْ — أرض حثَّوْا كثيرة التراب، وليس ثبتت وهكذا. وألف ابن خالويه كتاباً سماه «ليس في كلام العرب» بين فيه ألفاظاً تستعمل ولم يصح سماعها عن العرب، وقالوا: قال الأعمى ما سمعنا العام قابة أى صوت رعد، ولم يروه أحد غير الأعمى، وإنما روى الدماء ما أصابتنا العام قابة أى قطرة، وقالوا الفرز لغة أهل البحرين والفرز اللغة العليا، وهكذا. وقد تكون الكلمة واحدة، ويختلف العرب في النطق بها فقبيلة تقول، الطَّبء. في الطَّبَّير، وأما والله، وهما والله، وحما والله، والأباب والعياب. وأن له وعن له، والإعاء والوعاء. وهضم عليهم وهجم عليهم، إلى مثالت من مثل ذلك. وليس لاختلافها من سبب إلا اختلاف

القبائل العربية في النطق ، وأحياناً يكون الخطأ من العلماء في الكتابة ، وهو ما يسمى بالتصحيف ، فقالوا : وبها سُودّة من شباب ، أى بقيّة من شباب ، ثم قالوا وبها سُودّة من شباب أى بقيّة ، وليست الأولى إلا تصحيفاً للثانية . وأحياناً يكون العرى ألثغ ، فيقول في الشابة الثابة ، وفى الديك الديش . وقد تعرض العلماء لشيء من ذلك ولم يستوفوه ، ولكن للتأخرين وبخاصة صاحب القاموس المحيط كدّسوا ذلك كله من غير تمحيص ، ونغفروا بأنهم زادوا موادّ كثيرة عن قبلهم ، وكان الأولى أن تستبعد اللغات ، ويحقق التصحيف ، وترك اللهجات . وإنّ لا تتضمّن هذه المماجم ، وتعلّماً فراغاً كبيراً نحن أحوج إليه في ألوف الأشياء التي ليس لها اسم واحد .

* * *

وكان اللدّون الأولون للغة في هذا العصر يدونون للفردات حيثما اتفق ، وكما يتيسر لم سماعا . فقد يسمعون كلمة في الفرس ، وأخرى في النّثيث ، وثالثة في الرجل القصير . وهكذا ، فكانوا يقيّدون ما سمعوا من غير ترتيب . وكانت الخطوة الثانية ، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد ، وأظهر ما كان ذلك في كتب الأسمى ، فله كتاب الأنواء ، وكتاب اللّيسر والقديّاح ، وكتاب خلق الفرس ، وكتاب الإبل ، وكتاب الشاء ، وهكذا ، يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية في موضع واحد ، ويسميه كتاباً ، وقد يكون الكتاب بضع ورفات ، ثم كانت الخطوة الثالثة حل المماجم .

هذا موجز في القول من الناحية اللغوية للثقافة العربية ، وهناك ناحية أخرى هي الناحية الأدبية ، فقد كان للعرب أدب غزير ممتع ، وكان بجانب رواية اللغة رواية الأدب ، بل كثيراً ما تكون رواية اللغة في ثنايا رواية الأدب ، وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدراً للغة والأدب معاً .

كان الناس :ـ ذلك يتلذذون من سماع حديث الأعراب ، خلفه روحهم

وعذوبة نطقهم وبساطتهم ، قال الجاحظ : « ليس في الأرض كلام هو أمتنع ولا أمتنع ، ولا آتق ولا أذ في الأسباع ، ولا أشد اتصالاً بالمقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ؛ من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البليغاء »^(١) وقال ابن عدي ربه — في كلام الأعراب — : « هو أشرف الكلام حسباً ، وأكثره رونقاً . وأحسنه ديناً ، وأقله كلفة ، وأوضحه طريقة ، إذ كان مدار الكلام كله عليه ، ومنتهيه إليه »^(٢) وقد عتد فصلاً طويلاً ، قل فيه شيئاً من كلام الأعراب في الزهد والمدح والمذم والنزل والخليل والغيث ، والنوادر والمُلح ، والطعام ، الخ^(٣) . وعقد الخصري فصلاً ممتعاً عنوانه : « فَرَمَنَ كَلَامِ الْأَعْرَابِ فِي ضُرُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ »^(٤) وفي الحق ، إنك تقرأ هذه الفصول فتؤمن بأن أدبهم جَيِّدُ اللفظ ، قريب المعنى ، قليل الكلفة . يقول أعرابي في امرأة يحبها : « لَقَدْ نَعِمْتَ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقَى قَلْبٌ تَفَجَّعَ عَلَيْهَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَزُورُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، فَيَرْحَبُ بِي طَرَفُهَا ، وَيَتَجَمَّعُنِي بِلِسَانِهَا » . وكره أعرابي البصرة وأهلها ، فقال :

« دخلت البصرة ، فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبيد ، إقبال حظهم إقبال حظ الكرام ، شجر أصله عند فروعه ، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر » ووصف أعرابي أميراً ، فقال : « إذا ولي لم يطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه ، فهو غائب عنهم ، ساهد معهم ، فالحسين راج والمسيء خائف » وقدم أعرابي البادية — وقد نال خيراً من البرامكة — قيل كيف رأيتهم ؟ قال : « رأيتهم وقد أنست بهم نعمة كأنها من نياهم » إلى كثير من أمثال ذلك . ولهم النادرة الخلوة ، والفكاهة المذبة يتفككها الخلفاء في مجالسهم ، والخاصة في أحاديثهم ، والأدباء في سمرهم . وروى الأصمعي — مثلاً — في ذلك :

(١) البيان والبيان ١ : ١١٠ .

(٢) المقدم ٢ : ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ٩٢ - ١٣٢ .

(٤) زهر الآداب هامش المقدم ٣ : ٢ .

الشيء الكثير ، فخرج به همّ الولاة ، وضحك به الثمّار — سافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال له سئل : « ما ربنا في سفرنا إلا ما قصرنا من صلاتنا ، فأما الذي لقيناه من المواجه ، ولقيت منا الأباغر ، فمقوبة لنا فيما أفسدنا من حسن غلتنا ! » وقيل لأعرابي ما عندكم في البادية طيب ؟ قال حُرّ الوحش لا تحتاج إلى بيطار ! . وسأل أعرابي رجلاً فاعتل عليه فقال : إن كنت كاذباً فحملك الله صادقاً ! وقال الأصمى : أصابت الأعراب بحجاعة ، فررت برجل منهم قاعد مع زوجته بقارة الطريق ، وهو يقول :

بازب إني قاعد كما ترى وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى فما ترى يا ربنا فيما ترى ؟ الخ .

ثم لم الحكمة الرائعة يجرون فيها على سنن حكّم أكنم بن صبيّ والأحنف بن قيس هي أشبه ما يكون بالأمثال ، قال أعرابي : « الدنيا تنطق بغير لسان ، فخبير عما يكون بما قد كان » « لم أر صاحباً أغرّ من الدنيا ، ولا ظالماً أغشم من الموت ، ومن عصّف عليه الليل والنهار أردياه ، ومن وُكِّل به اللوت أفناه ! » وقال أعرابي : « الدراهم مياسم ، تسم حرداً وذنماً ، فن حبسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ، وما كل من أعطى مالا أعطى حرداً ، ولا كل عديم ذميمة ! » وقال أعرابي : « إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، واللّال عند من لا ينفعه ضاعت الأمور ! » وقيل لأعرابي لم لا تطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق » الخ .

ولم الشعر الرقيق العذب . كالأعرابي يقول في رثاء ولده :

دقنتُ بنفسى بعضَ نفسى فأصبحتُ وللنفس منها دافن ودفينُ

وكالأعرابي يقول في سوداء :

كأنها والكحل في مرودها تكحل عينها ببعض جلدها

وَأُنْشِدَ الرَّيَاسِيُّ لِأَعْرَابِي :

مَا كُنْتُ لِلْقَلْبِ إِلَّا فِتْنَةً عَرَضَتْ بِأَحْبَذِ أَنْتِ مِنْ مَعْرُوضَةِ الْفَتَنِ
تَسِيهِ سَلَى وَأَجْزِيهَا بِهِ حَسَنًا فَمَنْ سِوَايَ يَجَازِي السَّوَاءَ بِالْحَسَنِ
وَقَالَ أَعْرَابِي قَتَلَ أَخُوهُ ابْنًا لَهُ ، فَقُدِّمَ إِلَيْهِ أَخُوهُ لِيَقْتَادَ مِنْهُ ؛ فَرَمَى السِّيفَ
مِنْ يَدِهِ ، وَقَالَ :

أَقُولُ لِلنَّفْسِ نَاسًا وَمَعْرِيَّةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَنِي وَلَمْ تُرِدِ .
كَلَامًا خَلَفَ مِنْ قَدْرِ صَاحِبِهِ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي .
وَلَمْ يَقْصُصْ عَنْ حُرُوبِهِمْ وَأَيَّامِهِمْ ، فَكَانُوا يَرَوْنَ أَيَّامَ الْعَرَبِ فِي
جَاهِلِيَّتِهَا وَإِسْلَامِهَا ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ ، فَيَتَحَدَّثُونَ بِيَوْمِ الْفِجَارِ ، وَيَوْمِ
ذِي قَارٍ ، وَحُرُوبِ قَيْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَحَرْبِ دَاحِسٍ وَالْقَتْبَاءِ ، وَمَقْتَلِ
كَلِيبِ بْنِ وَائِلٍ . كَمَا يَتَحَدَّثُونَ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغُرَوَاتِهِ ،
وَالصَّحَابَةِ وَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ ، وَيَرَوْنَ شِعْرَ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ ،
وَيُخَطِّبُ الْمَخْطَبَاءَ ، وَأُمَثَالَ الْحُكَمَاءِ ، وَنَوَادِرَ الْفُرَاقِ .

كُلُّ هَذَا كَانَ فِي الْبَادِيَةِ ، فَهَمَّ رِوَاةُ الْأَدَبِ الْقَدِيمِ ، وَلَمْ يُنْشَأْ فِي الْأَدَبِ
الْحَدِيثُ ، لِذَلِكَ قَصَدَ الْعُلَمَاءُ يَأْخُذُونَ عَنْهُمْ كُلَّ ذَلِكَ .

وَفِي الْحَقِّ كَانَتْ سَكَنَاهُمْ فِي الْبَادِيَةِ ، وَقَلَّةُ امْتِزَاجِهِمْ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ
أَدْعَى لِأَنْ يَسْلُكُوا سَبِيلَ الْأَوَّلِينَ ، وَيَتَذَوَّقُوا ذَوْقَهُمْ ، وَيُعْجِبُوا بِمَآثِرِهِمْ ،
وَيَسِيرُوا فِي الْأَدَبِ عَلَى مَنَاجِمِهِمْ . فَإِنَّ تَأَثُّرَ شُعْرَاءِ الْعِرَاقِ وَأَدْبَاؤِهِم بِالْفَرَسِ
وَمِنْ إِلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَأَثَّرُوا بِأَدَبِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَبَادِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ
أَدَبُهُمْ صُورَةً حَيَّةً لِلأَدَبِ الْقَدِيمِ ، وَصُدُورِهِمْ وَاعِيَةً لِأَثَارِ الْأَقْدَمِينَ ،
وَنَوْعُ مَعِيشَتِهِمْ أَشْبَهَ بِمَعِيشَةِ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : « مَا قَوْمٌ أَشْبَهَ
بِالسَّالِفِ مِنَ الْأَعْرَابِ ، لَوْلَا جَفَاءُ فِيهِمْ ! » (١) .

(١) التَّقْدِيمُ : ٢ : ٩٣ .

فما لا شك فيه ، أنه كان في هذا العصر أدبان : أدب عربى صرف ليس فيه كبير أثر من حضارة ، ولا من ثقافات الأمم المختلفة . وهذا أدب — كما قلنا — خفيف الروح ، رقيق اللفظ ، لا ترى فيه خيراً كثيراً ، ولا ترى فيه تشبيهاً بفلان ، ولا ترى فيه غزلاً ببيان ، ولا ترى فيه فجراً فاجراً . ولا غشاً دافعاً . كما لا ترى فيه عمقاً في تفكير ، ولا إيماناً وفلسفة في تعبير .

بمجبى في ذلك قول النمرى ، قد قال : مما يدل على أن قصيدة :

إِنَّ بالشَّعْبِ الذِّى دُونَ سَلْعٍ لَقَتَيْلَا دَمُهُ مَا يُبْطَلُ

ليست لتأبط شراً وإنما هي ليخلف الأحر ، قوله فيها :

خَبْرٌ مَا نَابَنَا مُصْبِلٌ جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ

فإن الأعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا .

وأدب آخر حَصْرَى . كالذى تراه في كتابة عمرو بن مسعدة ، وابن للقمع ، وقد تأثر بالفرس أثراً كبيراً . وفي ذوقه إنه ليس في خفة روح الأول ولا رقة وعذوبته ، يحتاج الذهن فيه إلى أن ينحرف بعض الانحراف ليفهمه ، كالذى تراه في شعر بشار ، وأبى نواس ؛ فيه العمق وفيه الفجر . والقصيدة التى كان يُقَنَّى بها العربى ، ليعبر عن عاطفة قوية بسيطة ؛ أصبحت في الحضرة مُملة يتصنع صاحبها العاطفة ويُفَلِّقُ فيها . والأدب الذى كان يشرح حياة البادية ، وما فيها من بطولة وشجاعة وقوة ؛ أخذ يعبر عن حياة المدن ، وما فيها من نعمة ولين ، وانتقل النثر من جمل صغيرة مفصولة مقطعة أو خطبة قوية تقال شفاهاً ، إلى كتابة يتنوع موضوعها بتنوع مرافق الحضارة . ويفصل فيها الكلام ويربط . وقد كان العربى الذى يعبر بلسانه خرويج الطبيعة والبيئة ، فأصبح الذى يكتب بقلمه وليد التربية العلمية ، وخروج الكتب والدفاتر والمخابر . وعلى الجملة فكل النوعين من الأدب ظل لحياته الاجتماعية ، هذا في حصره وذلك في بادته . وإذا كانت البادية لم تتغير ،

وكانت في العهد العباسي مثلها في العهد الأموي ؛ كان أدبهم كذلك يجري في واد واحد ، وإذا كان الحضرمي متغيراً . فالعراق العباسي غير العراق الأموي ؛ كان الأدب الحضرمي مختلفاً عما قبله . فكتابة في أنواع جديدة ، وغزل جديد ، والكتب المؤلفة في الأدب تصف حياة اجتماعية جديدة ، وهكذا .

* * *

وكما كان خطأ ووضع في اللغة ؛ كان كذلك في الأدب ، بل الباعث في الثاني أقوى منه في الأول ، فالولادة الأسماء بمجبه الشعر اللطيف ، والقصص الغريب ، أكثر مما يجبه اللفظ ، والتزيد من القصائد لغز قبيلة أو ذمها ، والنوادر في القصص تسترعى الأسماع ، والحكايات لإعلاء شأن فرد أو قبيلة ، والتوسع في المثالب والنقاب . كل هذا يجد مجالاً في الأدب أكثر مما يجد في اللغة ، وقد كان هؤلاء الوضاع من العرب أحياناً ومن العلماء أحياناً . « تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : خرجتُ مرة على فرس لي ، فإذا أنا بظلمة شديدة فيمّمتها حتى وصلت إليها ، فإذا قطعة من الليل لم تنقبه ، فازلت أحمل عليها بفرسي حتى نبهتها فأنجّبتني ! فقال الآخر : لقد رميت ظلياً مرة بسهم ، فمدل الظلي ينفّذ فمدل السهم خلفه ، فتيسر الظلي فتيسر السهم ، ثم علا الظلي فعلا السهم ، ثم انحدر فأنحدر حتى أخذه ! » قال التوزي : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب فقال : إن العجم تكذب أيضاً فقول : كان رجل نصفه من نحاس ، ونصفه من رصاص ! فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه . وقد عقد الثعالبي - في كتابه فقه اللغة - فصلاً في خرافات العرب ، فوضعوا اسم أنثى لمن يتولد بين الإنسي والجنية ، والعملاق بين الآدمي والسّحابة . والعليان بين الآدمي والملاك . ومن ذلك ما ذموا أن جرّهما كانوا من تتاج حدث بين الملائكة والإنس ، وأن يلقب ملكة سبأ كانت من مثل ذلك النجل ،

(١) الزمر ٢ : ٢٥٣ نقل عن الكاظم .

وَأَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ هُم نِتَاجُ مَا بَيْنَ النَّبَاتِ وَبَعْضِ الْحَيَوَانِ ، الْخ^(١) .
 واشتهر بالوضع من العلماء ؛ حَمَادُ الرَّائِيَةِ ، وَخَلْفُ الْأَحْمَرِ ، وَهِشَامُ بْنُ
 الْكَلْبِيِّ النَّسَابَةِ وَغَيْرُهُمْ ، فَهَؤُلَاءِ مَلَّثُوا كُتُبَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ قِصَصًا وَقِصَائِدَ
 وَأَخْبَارًا وَأَنَسَابًا لَمْ يَتَحَرَّوْا فِيهَا الْحَقَّ وَالصَّدْقَ . فَمَلَّاهُ رَوَى كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ
 الْجَاهِلِيَّةِ وَشِعْرِ الْإِسْلَامِيِّينَ ، وَحُرُوبِ الْقَبَائِلِ ، وَرَوَى لِلْمَلَقَاتِ السَّيِّعِ ، وَكَانَ
 لَهُ مِنَ الْمَقْدَرَةِ مَا يَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ يَقْلِدَ الشُّعْرَاءَ الْأَوَّلِينَ ، وَيُعَمِّيَ بِهَا عَلَى النَّاسِ .
 رَوَى الْأَغَنِيُّ : « أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِي دَارِ الْمَهْدِيِّ بِمِيسَابِاذَ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا عِدَّةٌ مِنْ
 الرِّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَدَابِهَا وَأَشْعَارِهَا . وَلَقَاتَهَا ، إِذْ خَرَجَ بَعْضُ أَصْحَابِ
 الْحَاجِبِ ، فَدَعَا بِالْمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ الرَّائِيَةِ ، فَدَخَلَ فَكَشَتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا
 وَمَعَهُ حَمَادُ الْمَفْضَلِ جَمِيعًا — وَقَدْ بَانَ فِي وَجْهِهِ حَمَادُ الْإِنْكَسَارِ وَالنِّمَ ، وَفِي
 وَجْهِهِ الْمَفْضَلِ السَّرُورُ وَالنَّشَاطُ — ثُمَّ خَرَجَ حُسَيْنُ الْخَدَّامِ مَعَهُمَا ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ
 مِنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ؛ إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَعْلَمُكُمْ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ حَدَادًا الشَّاعِرَ
 بِمَشْرِينَ أَلْفِ دَرَاهِمَ لِمُجُودَةِ شِعْرِهِ ، وَأَبْطَلَ رِوَايَتَهُ لِمُزَارَاتِهِ فِي أَشْعَارِ النَّاسِ
 مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَوَصَلَ الْمَفْضَلُ بِخَمْسِينَ أَلْفًا لِمُصَدِّقِهِ وَصَحَّةِ رِوَايَتِهِ ؛ فَمَنْ أَرَادَ
 أَنْ يَسْمَعَ شِعْرًا جَدِيدًا مُحَدَّثًا فَلْيَسْمَعْ مِنْ حَمَادَ ، وَمَنْ أَرَادَ رِوَايَةً صَحِيحَةً
 فَلْيَأْخُذْهَا عَنِ الْمَفْضَلِ »^(٢) .

وَخَلْفُ الْأَحْمَرِ يَقُولُ : « أَتَيْتُ الْكَوْفَةَ لِأَكْتُبَ عَنْهُمْ الشُّعْرَ فَبَخِلُوا عَلَيَّ بِهِ
 فَكُنْتُ أُعْطِيهِمْ لِلنَّحُولِ ، وَأَخَذْتُ الصَّحِيحَ ، ثُمَّ مَرَضْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ : وَيْلَكُمْ ! أَنَا
 تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ ، هَذَا الشُّعْرُ لِي ، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنِّي ، فَبَقِيَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعَرَبِ لِهَذَا
 السَّبَبِ »^(٣) .

وَإِبْنُ الْكَلْبِيِّ كَانَ عَالِمًا بِالنَّسَبِ ، وَأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَيَّامِهَا وَوَقَائِمِهَا ، مَكْتَرًا

(١) ص ١١٧ فقه اللغة طبع مصر وقد حُذِفَ هَذَا الْفَصْلُ مِنَ الْآيَاتِ الْيُوسُفِيِّينَ .

(٢) أَغَنَى ٥ : ١٧٢ وانظر بقية الحكاية وسبب هذا التشهير (٣) ابن خلكان ١ : ٢٩٣ .

في التصانيف ، تزيد تأليفه على مائة وخمسين مصنفاً ، عدها ابن النديم في الفهرست . وقد قال فيه أحد بن حنبل : كان صاحب سير ونسب ، ما خللت أن أحداً يحدث عنه » وقال الدارقطني « هشام متروك وقال غيره ليس بثقة »^(١) . هؤلاء واضعون ؛ أفسدوا العلم والرواية . وأجهدوا الثقات من العلماء بنقد ما رووا ؛ يبينون صحبته من فاسده ، فوقفوا أحيانا ، ولم يوقفوا أحيانا . لأن قولهم فشا في الناس ، وتفرق في البلدان ، وتساهل الناس في الأدب والأخبار ما لم يتساهلوا في الحديث .

* * *

كان نتاج الأمة العربية اللغوى والأدبى في هذه القرون الثلاثة — أعنى قرناً ونصفاً قبل البعثة ، وقرناً ونصفاً بعدها — نتاجاً عظيماً ، ولكن نتاجها لا في فلسفة ولا في علوم رياضية ونحوها ، بل نتاج أدبى ، وليس محرراً في كتب كالتى دونها الفرس واليونان وإنما هو شفوئى — إلا القليل النادر — يتناقله جيل عن جيل ، والذاكرة لا تنسى كما يبنى الكتاب ، فدخل على هذه الثروة نقص وتزيد وتغيير وتبدل . ولكنها على العموم ثروة كبيرة وقيمة إذا قورنت بثروة أمة أخرى في مثل هذا الزمن ، وفي موقف كموقف الأمة العربية . وهذه الثروة متعددة النواحي ، فشمرد هسك كثرته ؛ حتى ليخيل إليك أن كل عربى شاعر ، وأن لسانه ينطق بالشعر كما ينطق بالكلام ، ثم هو متنوع الأغراض ، متنوع الوزن ، متنوع المعانى . فكان لنا من امرئ القيس ، إلى يشار بن بُزْد دواوين ضخمة لا تجمع كل ما قالوا ، ولكن تجمع أقله ، أودعوا فيه نغرم وهاءم ، وتفننوا فيه بمواقفهم وشعورهم ، ووصفوا فيه لوعتهم وحنينهم إلى وطن ، ووفاءهم لبيت ، ووصفوا طبيعة أرضهم ، ونباتهم وحيوانهم .

(١) ياقوت ٧ : ٢٥٠ .

وثروة من الخطب لا تقل شأنًا عن الشعر ، يستعينون بها في تهيج القبائل في الجاهلية ، وفي تنظيم الأحزاب السياسية في الإسلام ، ويصلون بها في الجاهلية والإسلام إلى تحقيق أغراضهم ، وبث أفكارهم في السلم والحرب ، وجمع الكلمة وتفريقها ، ولهم الأمثال والحكم ، وقد برعوا فيها وأكثروا منها ، وقامت لهم مقام الفلسفة لليونان ؛ أمدم بها كثرة تجاربهم ودقة ملاحظتهم وحسن صياغتهم .

ولهم الأخبار الكثيرة عن أبطالهم في الكرم ، وأبطالهم في الحرب ، وأبطالهم في الوفاء ، وأبطالهم في القيافة والكهانة ، الخ .
ولهم القصص عن وفودهم وأسواقهم ، وحكامهم وفرسانهم ، وعدائهم ولصوصهم ، ولهم أساطيرهم وخرافاتهم ، وتقاؤهم وتشاؤهم وتنبؤلاتهم .
ولهم الأخبار الطويلة عن أيامهم ، وأصنامهم وعبادتهم ، وحفائهم ويهودهم ونصاراهم .



ولما جاء الإسلام اتصلت به الثقافة العربية اتصالاً وثيقاً ، حتى كان من الدين التنقف بها ، والعلم بلفتها وأخبارها ، بل عمل الإسلام عملاً كبيراً في رقيها وتهينها . ذلك أن القرآن الكريم والحديث عرييان ، ومن حسن الإسلام تعلم لفته ، فكان الإسلام أكبر البواعث على نشر هذه الثقافة والعناية بها . دخل اللحن في العربية ، نغاف المسلمون على القرآن أن يتسرّب إليه لحن فوضوا النحر ، وحملهم وضع النحر على مشافة الأعراب ، والأخذ عنهم ، حتى يصلوا إلى قاعدة في الرفع والنصب والجر والجزم يضمنونها ، وكانت حركة عنيفة ومجهود كبير تؤجج بكتاب سيبويه . وما كان يكون لولا القرآن^(١) .

(١) قال ابن خلدون : « لما فسدت اللغة بما ألقى إليها مما يغيرها وعشى أهل العلوم أن تفسد تلك الملكة رأساً ، ويطول المهة بها ، فابتلى القرآن والحديث على الفهوم استنبطوا من -

ووردت في القرآن والحديث ألفاظ لغوية ، فاضربوا أكباد الإبل إلى
البادية يستفسرون عن لفظ ، أو يقفون على تعبير ، ودعاهم ذلك إلى حفظ
الأشعار ، ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً ، أو يساعد على فهم تعبير قرآني .
فأكثرهم من رواية اللغة والأشعار لذلك ، ودققوا فيها وتحروا الموضوع
من الصحيح . وما كان يبذل هذا الجهد ، وذلك التعرّى لولا ما وراه من
بأعش ديني^(١) .

وعنوا بلهجات العرب ، وكيف ننطق تميم وقريش ، ومن الذي يُنيل
ومن لا يُنيل ، ومن يبذل ومن لا يبذل ؛ لتفهم قراءات القرآن ، كما عنوا
بالعرب والأصيل لما في القرآن من معرّب وأصيل .
بل وجدَّ بعض العلماء بعد في البلاغة ، يضعون لها القواعد ، ويستنتجون
القوانين تفهماً لمواضع الإعجاز في القرآن ، وتنوفاً لبلاغته^(٢) .

= مجازي كلامهم قوانين تلك الملكة مطردة ، شبه التكريرات والقواعد يقيسون عليها سائر
أنواع الكلام ويلحقون الأشياء بالأشياء ، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، البغ
مقدمة ٤٨٠ .

(١) قال الصالبي في أول كتابه فقه اللغة « أما بعد فإن من أحب الله أحب رسول الله المصطفى
صل الله عليه وسلم ، ومن أحب النبي العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب اللغة
العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل النعم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها وثابر
عليها وصرف همه إليها » ويقول « والعربية خير اللغات والألسنة والإتيان على تفهمها من العبادة
إذ هي أداة العلم ومفتاح التعمق في الدين ، البغ » .

وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب فإذا عني حلوتنا الحرف من القرآن الذي أنزله الله
بلغة العرب رجعتنا إلى ديوانها فافهمنا معرفة ذلك منه ، وسئل عن قول الله تعالى « عن الذين
وعن الشمال هزين » قال عزير الخلق للرقاق ؛ قلل عبيد بن الأبرص :
فجاءوا يهرعون إليه حتى يكوّنوا حول حنجره هزينا

انظر الإتيان ١ : ١٤٩ وما بعدها .

(٢) يقول عبد القاهر في البلاغة « وهو باب من العلم إذ أنت تخته اطلمت منه على
نوائذ جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثرًا في الفهم عظيمًا وفائدة جسيمة . ووجدته سببًا
إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخلط فيما يتعلق بالهياويل
دلائل الإعجاز ص ٣٣ .

وهكذا كان القرآن منبعاً لثقافة روحية وعقلية ، سئنها بعد . وكان منبعاً لثقافة عربية وعلمية ، أشرنا إليها الآن .

* * *

وغنيت الثقافة العربية في الإسلام بما كان فيه من أحداث ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار الخلفاء ، والفزوات والفتوح ، وما نخلها من شعر وأدب وقصص ، وما كان يند على الخلفاء والولاة من شعراء وما كانوا يقولون ، وما تكون من مذاهب دينية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، وما كان لتلك من أدب ، وما كان من أحزاب سياسية وأحزاب الشعراء والخطباء إلى هذه الأحزاب .

كل هذا كان ثقافة عربية ، يتتف بها من كانوا عرباً في أصلهم ، ومن كانوا قرساً أو روماً أو يونانيين ، وعلى الجملة من كانوا في المملكة الإسلامية ، وخاصة من أسلموا وتعلموا . وما كان ينبغ التابغ إلا إذا عرفها ، وأحاط بطرف منها ، فكانت بذلك عنصراً من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر .

* * *

هم العلماء — في عصرنا الذي نؤرخه — من عرب وموال على هذه الثقافة يبحثون عنها من نواحيها للتجدة ، ويرحلون إلى البادية أحياناً ، وإلى الأمصار أحياناً ، ويسمعون للرجال والنساء والصبيان ، والخاصة والعامة . حتى اختلفوا ؛ هل يأخذون اللغة عن المجنون أو لا . يدخلون على المرأة في خباياها ، وعلى راعي الإبل في مرعاه ، أبو حاتم يسأل أمّ التميم ، والأصمعي يقول : سمعت صبية يتراجزون . والجاحظ : يروى عن عبد أسود بن أسد . والواقدي : يروى عن فاطمة بنت المنذر زوجة هشام بن عروة . وكان أم عمل لؤلؤة تمثيل الثقافة العربية من ثقافة لسانية شفوية — في الغالب — إلى ثقافة كتابية تحريرية ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى ليتناول العلماء بعد ما جمع ينقصونه ،

ويعيزون خطأه من صوابه ، ويضمون له القواعد .

وكان هؤلاء العلماء فرقة ، كل فرقة يفتل عليها الميل إلى ناحية من نواحي هذه الثقافة . فالحليل بن أحمد ، وأبو زيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأمثالهم ؛ غلب عليهم مفردات اللغة وجمعها والبدع بقبويها . والمفضل الضبي ، وخلف الأحمر ، وحماد الراوية ، وغيرهم غلب عليهم جمع القصائد والأشعار والأمثال ، وما إلى ذلك . وعمد بن إسحاق ، والواقدي ، وأبو مخنف ، والمهيتم بن عدي ، والمدائني ، مالوا إلى تدوين الروايات عن الأحداث التاريخية ؛ كفتوح الشام ، وفتوح العراق ، ووقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ونحو ذلك ، وفي أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وكتبه إلى الملوك والغازي ، وأسماء للناقضين ، والوفود . وابن الكلبي ، وأمثاله عنوا بالأنساب وما يتبعها من بيوتات ومنافرات وموءودات وفي أخبار الأوائل من عاد الأولى والآخرة ، والمعمرين والأصنام والقديح ، وأيام العرب وأسمارهم ، الخ .

* * *

وبعد ، فإذا حاولنا أن نختار من يمثل هذه الثقافة العربية بفروعها ، فلسنا نختار الأصمعي وما بين أيدينا من كتبه ؛ فليست تمثل إلا الناحية اللغوية ، ولا المفضل الضبي وكتابه المفضليات والأمثال ؛ فهما لا يمثلان إلا الناحية الأدبية . ولا كتب الجاحظ وابن قتيبة ؛ فإنها تمثل نوعا آخر من الثقافة سيأتي بيانه ؛ إنما الذي يمثل الثقافة العربية هو « المبرد » وكتابه الكامل أولا ، ثم أمالي . اقال ثانيًا . وليست الأمالي مما ألف في عصرنا ، فلندعها الآن ونجتزئ بالمبرد والكامل ، وإن كان قد عاش زمنا في عصرنا ، وزمنا في العصر الذي بعده ، وقد اخترنا الكامل لأنه خير كتاب وصل إلينا من تراث ذلك العصر ، يمثل شيئين هامين ؛ يمثل الثقافة العربية في عناصرها المختلفة ، ويمثل طريقة تعليم المعلمين في ذلك العصر لتلك الثقافة ومنهج التأليف فيها .

المبرد والكامل

كذلك لا نطيل في ترجمة المبرد ، فإلى يهمننا كتابه .

هو محمد بن يزيد ، عربى الأصل من قبيلة ثَمَلَة . وثمالة من الأزد ، والأزد من قحطان ، فهو من عرب اليمن . وكان للأزديةين أثر كبير فى الدولة الأموية . أعلنوا زياد بن أبيه وابنه من بعده ، وتحالفوا مع ربيعة يناهضون حلفاء آخر هو حلف تميم وقيس ، ووقفوا بجانب المهلب بن أبى صفرة — وهو أزدى كذلك — يخاربون الخوارج .

وُلد المبرد بالبصرة سنة ٢١٠ وأخذ العلم عن الجرمي واللازني « وكان إمام العربية ببغداد ، وإليه انتهى علمها ، وكان حسنَ الحاضرة فصيحاً بليغاً مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه كثير النواذر ، فيه ظرافة ولباقة »^(١) وكان يتنازع رئاسة العلم فى بغداد هو وثلعب ، ومن أسباب نزاعهما اختلاف مدرستهما ، فالمبرد بصرى تعلم على المذهب البصرى وطريقته ، وثلعب كوفى تعلم على المذهب الكوفى وطريقته ، وبينهما اختلاف كبير فى النحو والصرف واللغة ، وما يقاس عليه وما لا يقاس ، الخ . وقد ظفر المبرد بشعاب ؛ لأن المبرد كان حسنَ العبارة حلوَ الإشارة فصيحَ اللسان ظاهرَ البيان ، وثلعب متحفظ منكش ليس فى لباقة المبرد وفصاحته ، وكان للمبرد يحب الاجتماع بشعلب للمناظرة ، وثلعب يراوغ .

كان يحفظ كثيراً من اللغة وغريبها ، وأحفظ الناس فى عصره للأخبار ، واسع الاطلاع فى النحو ، وكان لا يعنى بالأسانيد فيما يروى من لغة وأدب كما يعنى غيره من علماء عصره . وقد ألف كتباً كثيرة فى فروع الثقافة العربية المختلفة . ألف فى النحو « المقتضب » وغيره ، وألف فى إعراب القرآن . وفى قواعد الشعر وضروب الشعر وشرح كلام العرب وتخليص ألفاظها ، وفى قحطان وعدنان الخ^(٢) ، وأم كتبها الكامل . وقد مات ببغداد سنة ٢٨٥ فى خلافة المعتضد .

(١) معجم الأدباء ٧ : ١٣٧ (٢) تجد أسماء الكتب التى ألفها فى فهرست ومعجم الأدباء

كتاب الكامل

البرّاد مسلم عربي ، أزدي يمانى ، وهو لنوى نحوى ، وهو لبق ظريف ، وهو لم يشق بغير الثقافة العربية — على ما يظهر — كان لكل كلمة من هذه الكلمات لون في كتابه الكامل ، فهو صورة تامة لكل ما ذكرنا .

قال في صدر الكتاب : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب : ما بين كلام منشور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة . ورسالة بليغة ، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا ، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا » ويقول في صدر باب من أبوابه : « نذكر في هذا الباب من كل شيء ؛ لتكون فيه استراحة للقارى ، وانتقال بنفى التملّل ، لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من المزّل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس »^(١) فالكتاب تغلب — في مختاراته — الناحية التي تبعث السرور والفرح والضحك ؛ إلا قليلا من ذكر الموت والرناء .

اختار فيه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوال الصحابة والتابعين مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وعمر بن عبد العزيز ، ومن أمثال الحكماء كما كتّم بن صنفى في الجاهلية ، والأحنف بن قيس في الإسلام ، وشعرا كثيرا من الشعر الجاهلى وصدر الإسلام ، وقليلا من شعر المحدثين ، وأدبا لحوادث تاريخية ومذاهب دينية كأدب الخوارج ، والكتب التي دارت بين أبي جعفر المنصور وعبد الله بن عبد الله بن حسن العلوى .

(١) كامل ٢ : ٢ .

أكثر ما يعجبه ما جمع بين الأشياء ثلاثة ؛ معنى جيد ، في التعبير عنه شيء .
من غريب اللغة . وشيء من مسائل النحو أو مشكلاته . تورد ما اختار ثم يعنى
بشرح ما فيه من لغة ونحو — ويورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح
الأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » فلا يتعرض
إلا لكلمة الفزع ومعانيها المختلفة ، ويستشهد على كل معنى ، وإذا ورد في
الاستشهاد كلمة لغوية أو نحوية شرحها .

يقنن كل بضع مختارات بكلمة « باب » ومن العسير في كثير من
الآحيان أن تفرق بين باب وآخر ، وتدرك أن هذا الباب وحده مستقلة تجمع
مختارات ذات صبغة خاصة تخالف ما في الباب الآخر ، اللهم إلا في القليل
النادر كباب الخوارج ، حتى ليخيل إلينا أن كلمة « باب » يستعملها في معنى
« درس » فكانه يعملون كل درس أو جملة دروس بباب ، والدرس
أو الدروس تكون حينئذ اتفاق له ، لا يتعبد فيها إلا بأنها مختار فيه أدب ، وفيه
لغة وفيه نحو .

والكتاب يمثل الثقافة العربية في جميع نواحيها ؛ فهو يختار من الحديث
ومن أقوال الصحابة مثل كلمة أبي بكر في مرض موته ، ورسالة عمر في القضاء
إلى أبي موسى الأشعري ، وكتاب عثمان إلى علي بن أبي طالب حين أحيط به ،
وكلمة علي حين بلغه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عامله حسان بن
حسان ، ثم يذكر باباً يُعنى فيه بما كان من كلام العرب مختصراً مفهماً ، بين
اللفظ حسن الوصف ، جميل الرصف كقول الخطيب :

وذلك فتى إن تأتته في صنيعة إلى ماله لا تأتته بشفيعة

وقول عنترة :

يخبرك من شهيد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند القم

ويقارن بين ما ورد لبعض العرب ؛ من ضرورة فيبحة ، وألفاظ مستهجنة ،

وبين ما هو أوضح لفظاً وأبين معنى ، ثم ينتقل إلى نبذة من كلام الحكماء فينقل عن ابن عمر أنه كان يقول : « إنا كنا معشر قريش نُؤدُّ الجود والحلم ؛ السؤدُد ، ونمد العفاف وإصلاح المال ؛ المروءة . وينقل عن الأحنف بن قيس قوله كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة اللزج تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرف به » ثم يسترسل في ذلك فينتقل عن عبد الملك بن مروان ، وأبي سفيان ومعاوية ، ثم ينتقل إلى شعر رجل يهجو بلال بن البكير المخاربي ، ولأبي الطمّحان مدح يمجّر بن إلياس وآخر ينفي نسب آخرين ، الخ . ويمقد باباً ثالثاً ، يذكر فيه مُبَدِّلاً من حكم العرب لمعاوية والأحنف بن قيس .

ثم باباً رابعاً يذكر فيه مختاراً لرجل من بني سعد يرثى رجلاً ولحضرته ابن عاصم ، وقد غُيِّطَ بميراث ورثه من أحد أهله . وانتقل فجأة إلى قول جميل يَشَبُّ فيه بُيُوتُهُ ثم لأمية بن أبي الصلت في الفناء ، ثم للهميم بن الربيع في الغزل ، ويأتي بعد ذلك باب خامس فيه نبذة من كلام حكماء العرب .

وعلى هذا النحو كل الكتاب ؛ يتعرض في بعض فصوله لما قال العرب في الخمر ، وما قالوه في السؤدُد وما قال جرير والفرزدق في الفخر ، ووعظ الوعاظ أمثال عمر بن عبد العزيز وعلى بن أبي طالب ، وينقل مختاراً في مجالس العرب ؛ فينقل عن الأحنف بن قيس وقد سئل : أي المجالس أطيب ، وعن المهلب بن أبي صفرة ، وقد قيل له ما خير المجالس ، وعن ابن عباس في المجلس ويذكر نبذة من أمثال العرب مثل : لم يذهب من مالك ما وعظك ، ورب عجلة تهب ريثماً ، وأن تردّ الماء بماء أكيس . ويذكر ما قاله بعض العرب في الرثاء ، وما قالوه في اللغة والعيش الرغد ، ويمرض لطرف مما دار من الكلام الحسن في الحروب الإسلامية الأولى كوقعة الجمل وما كان بين الحكّمين . ويذكر طرفاً من الخطب المختارة ؛ كخطبة زياد والحجاج . ثم الغزل وطرائفه ، فأعرابي يشكو حبيبته ، وعمر بن أبي ربيعة في النخافة وأقوال في دهاء العرب

وحلهم وكرمهم وشجاعتهم ، وما بينهم من مدح وهجاء ، وعدائهم ولصوصهم
وتكاذبهم ، ونوادر الأعراب في زواجهم وطلاقهم ، وطول لحية وقصرها ،
وبعض طرائف المشاق ، وتهاجى القبائل . ثم ما ورد من العرب في الوصف : في
وصف جبل وحرار وحامة وحاد ، ثم باب طويل في أخبار الخوارج ، وحروبهم
وعقائدهم وخطبهم وأشعارهم ونواذرهم . وبين هذا وذاك : أبواب علمية بعضها
محموى مثل « باب ما يجوز فيه يفعل فيا ماضيه قعل مفتوح العين » وبعضها
بلاغى مثل باب في التشبيه .

هذه نظرة الطائر ، إلى كتاب الكامل ، أردنا بها نستدل على أن الكتاب
يمثل الثقافة العربية ، وتبين منها الاتجاهات المختلفة التي اتجهت إليها هذه الثقافة ،
وعلى أن أنظار الملمين في ذلك العصر كانت أنظاراً فردية لمسائل فردية ،
فالموضوع الواحد كالسؤدد عند العرب ، مفرق في ثنايا الكتاب من أوله إلى
آخره . لا يجمع الباب ولا الكتاب إلا أنه يختار فيه معنى جميل أيّاً كان ،
وفيه لغة نحو ، فأما أن تكون أبيات المديح في جانب ، والدم والرثاء ونحو
ذلك في موضع واحد ؛ فليس هذا شأن الكتاب ، ولا شأن معلى ذلك العصر .
قلنا إن المبرد — على ما يظهر — لم يتقف إلا الثقافة العربية . وذلك واضح
في كتابه ، فلم يتعرض لنعيم إلا قليلاً نادراً ، لقد نقل عن بُرْزُجْمَهْر وأردشير
ولكن في مواطن معسودة ، وورد فيه كلام عن الموالي ولكن نظره إليهم نظر
عربي ، وقص ما كان بين عبد الله بن عبد الأعلى وأليون ملك الروم وقد أرسله
عمر بن عبد العزيز إليه يدعو إلى الإسلام . وقص ما كان بين الشعبي وملك
الروم ، وقص ما كان من استئذان ملك الروم معاوية في أن يغالبه ، فبحث إليه
ملك الروم برجلين أحدهما طويل ، والآخر قوى جسم الخ ، ولكن هذه أمور
لا تدل على ثقافة أجنبية لأنها حوادث متصلة بالمسلمين العرب ، وقد رواها
المبرد كما نقلت إليه عن العرب .

وقلنا إن البرد عربى أزدى يمانى ، وكتاب الكامل يمثل هذا النوع من
المصيبة القبلية تشيلاً صحيحاً ، فهو يتعصب للأزد واليمانيين ، ويرى الكثير
من الصحيح والسقيم لإعلاء شأنهم ، فهو يعقد باباً يعنونه « باب ذكر الأنواء
من اليمين فى الإسلام » فيذكر فيه الأنواء فى الجاهلية ، كذى كلاًع وذى نواس
وذى رعين ، وفى الإسلام كخزيمة بن ثابت ذى الشهادتين ، ويذكر خبراً عن
كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية ؟ فسمد بن معاذ الأنصارى هبط لموته
سبعون ألف ملك لم يهبطوا إلى الأرض قبلها . وحفظه بن أبى عامر الأنصارى
غسلته للملائكة ، الخ . — هذا فى آخر الكتاب — وأما فى أوله فيختار قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون
عند الطمع » والأنصار من الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمانيتان أزديتان فى
قول التثنيين ، ويختار قول أبى بكر فى المهاجرين « ولما لقيت منكم يا معشر
المهاجرين أشد على من وجى ، إني ولّيت أموركم خيركم فكلكم ويرم أفه أن
يكون له الأمر من دونه » ويختار الكلام فى الخوارج ويطيل لسبيين — على
ما يظهر — (١) فهو يعارض الجاحظ ، وقد ذكر فى كتابه الشعوية ، والشعوية
حركة أجمية تناهض العرب . والخوارج أكثرهم عرب خلص ، لم أدب عربى (٢)
والذى قاتل الخوارج المهلب بن أبى صفرة وبنوه ، وهو أزدى كالمبرد ، وكان
يعاونه الأزديون قبيلة المبرد ، فالإشادة بالتنكيل بالخوارج إشادة بقبيلته . وهو
فى كتاب الكامل يعلى شأن المهلب ويتأول له ، « لقد رمى المهلب بالكذب
حتى فى حديث رسول الله » فهو يذكر أنه إنما كذب فى الحرب ، والحرب خدعة
والكذب فى الحرب جائز ، والكتاب مملوء بالأخبار التى تعظم آل المهلب
وترفع من شأنهم ، ويروى فى أخبار الخوارج قول أعشى همدان :

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَكْبَلَتْ أَسْبَابُهَا لَابْنِ اللَّيْثِ الْفَرَّ من قَعْطَانِ
لِلْفَارِسِ الْحَامِي الْحَقِيقَةَ مُعْلِمًا زَادَ الرَّفَاقُ إِلَى قَرَى نَجْرَاتِ

الحارث بن عُمَيْرَةَ اللَّيْثِ الَّذِي يَمْحَى الْعِرَاقَ إِلَى قَرْيِ كَرْمَانَ
وَدَّ الْأَزَارِقُ لَوْ يُصَابُ بَطْمَنَةً وَيَمُوتُ مِنْ فِرْسَانِهِمْ مَائَتَانِ^(١)
ويروى للبرد عن علي أنه قال « للأزد أربع ليست لحى : بذل لما ملكت
أيديهم ، ومنع لحوزتهم ، وحى عمارة لا يحتاجون إلى غيرهم ، وشجمان
لا يحبون »^(٢).

وهكذا كان كتاب الكامل يمثل كل ناحية ، حتى التزديد في الأخبار
للعصية القومية والقبلية .



وبعد ؛ فإن كانت الثقافة الفارسية تمثل حياة كثرورية فيها مدينة معقدة
ونظم مركبة ، وفيها مرافق المدنية للمعنة في الحضارة ، وفيها محاسن المدنية
ومساوئها . فالثقافة العربية تمثل حياة بسيطة سهلة لا تتركب فيها ولا التواء ، فيها
بساطة العيش ، وفيها بساطة القول . وفيها محاسن البادية ومساوئها ؛ كما تمثل قوماً
عاشوا في جاهليتهم في نزاع قبلي ، يفخرون ويمدحون ويهجون ، ويدينون
بالأصنام ، ثم يجمعهم دين واحد هو الإسلام فيرفع من نفسياتهم وعقليتهم .
ويأخذون في حياة فيها أثر للقديم ، من عصبية قبلية ونجوها ، وفيها كثير من
جديد ، فتوحيد وتقوى وخوف من الله وعذابه ورغبة في ثوابه ، وفيها شعور
بعزة الفاتح وسُلطان الحاكم ، وفيها اعتداد بأنفسهم وخاصة من ناحيتين : لسانهم
وسيفهم ، واعتداد على غيرهم في مرافق مدنية دُرِّبوا ومرنوا عليها .

ولئن كانت الثقافة الفارسية دوت من قديم وتماوَّرها التلف والتجديد ،
وأُخِّرَتْ في كتب سلم منها شيء إلى العهد الإسلامي فالثقافة العربية كانت
كلها في جاهليتها ثقافة شغوية تمتد على الذاكرة والرواية ، وفي الإسلام إنما
عنى بتدوين القرآن وبعض الحديث ، فأما الأدب واللغة فظل أغلبهما كما كان

(١) الكامل ٢ : ٢١٠ . (٢) كامل ١ : ٣٥ .

الحال في الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي يتناقل من طريق الحفظ والرواية ، حتى كان آخر الدولة الأموية وأول العباسية فأخذ العلماء في تدوينه .

ولئن كانت الثقافة اليونانية قد سرت بالأدوار الطبيعية للعلم من بحث في مسائل متفرقة ، فتنظيم وتبويب ، وجمع للمسائل المتشابهة وقواعدها في باب واحد ، ووصلت إلى المسلمين بعد أن هذبها المنطق ، ورتبها الأجيال المتعاقبة من فلاسفة اليونان ، فالثقافة العربية في عصرنا الذي تؤرخه من لغة وأدب وتاريخ ونحوها كانت في أول دورها من حيث الترتيب والتبويب ، فزى الفوضى في كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر ، كما رأينا في كتاب الكامل . ولم تجتز الثقافة العربية هذا الدور إلا بعد أن انتهى عصرنا أو كاد .

ومهما يكن من شيء فالثقافة العربية كانت ركنا من أركان الثقافات في ذلك العصر ، وعنصراً هاماً من عناصرها ، لا تقلّ عن غيرها من العناصر ، إن لم تزد عليها ، لأن لسانها لسان الحكمين ، ولفتها لغة الدين .

الفصل الخامس

الثقافات الدينية

اليهودية والنصرانية والإسلام

بجانب هذه الثقافات المدنية — إن صح هذا التعبير — ثقافات أخرى رُوحية ، تنشرها الأديان المختلفة ، وأهمها الإسلام والنصرانية واليهودية .
اليهودية والنصرانية — يقول الأستاذ « مِتَز » « إن مما يميز الملكية الإسلامية عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى ؛ أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلام ، وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبِيع ظلت في الملكية الإسلامية ، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكون جزءاً من الملكية ، معتمدة في ذلك على اليهود وما أكتسبهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلق جوٍّ من التسامح لا تعرفه أوروبا في القرون الوسطى . كان اليهودى أو النصرانى حراً أن يدين بدينه ، ولكنه إن أسلم ثم ارتدَّ عوقب بالقتل . وفي الملكية البيزنطية كان عقاب من أسلم القتل »^(١) .

كانت الكنيسة تحرّم على النصرانى أن يتزوج غير نصرانية إلا إذا تنصرت ، وكذلك النصرانية لا تتزوج إلا نصرانياً . أما الإسلام فقد حرم على المرأة المسلمة أن تتزوج غير مسلم ، وأحل للرجل المسلم أن يتزوج كتابية

(١) نلصنا هذه الكلمة من كتاب مِتَز « نهضة الإسلام » الذى ترجمه « عبد الحى » من الألمانية إلى الإنجليزية .

يهودية أو نصرانية ، وإن بقيت على دينها لقوله تعالى : « أَلَيْسَ لَكُمُ الطِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » فكان كثير من المسلمين يتزوجون يهوديات أو نصرانيات . ومنهن من تسلم ، ومنهن من تبقى على دينها . وكان هذا سبباً من أسباب اتصال المسلمين باليهود والنصارى .

وقد كان بين الحنفية والشافعية خلاف شديد في قتل المسلم بالكافر ، فكان الحنفية يرون أن المسلم إذا قُتِلَ ذِمِّيًّا قُتِلَ بِهِ ، وخالفهم في ذلك الشافعي . وكان بين الفريقين جدال وحجاج ، تراه مبسوطاً في كتب الفقه . وكان مما احتج به الحنفية : أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — لما قتل أبوه — اتهم في الاشتراك في تدبير قتل « جُنَيْنَةَ » وكان نصرانياً ، فذهب إليه عبيد الله وقتله ، ولما علاه بالسيف صلب بين عينيه ، فلما استخلف عثمان بن عفان ، دعا المهاجرين والأنصار . فقال : أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل (يعني عبيد الله بن عمر) فتق في الدين ما فتق ، فاجتمع المهاجرون والأنصار فيه على كلمة واحدة ، يأمرونه بالنشدة عليه ، ويحثونه على قتله . فإشارة المهاجرين والأنصار دليل على أن المسلم يقتل بالذمي ، ولم يفعل عثمان ذلك ؛ لأن عمرو بن العاص أشار عليه بالأفعل ؛ لأن الحادثة كانت قبل أن يتولى عثمان ويكون له على الناس سلطان^(١) ، الخ .

وقد وقع في أيام أبي يوسف القاضي ؛ أن مسلماً قتل كافراً ، فحكم على المسلم بالقتل ، فقال أحد الشعراء :

يَا قَاتِلَ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ جُرْتِ وَمَا الْعَادِلُ كَالْجَائِرِ

(١) ويقول ابن قتيبة إن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — لما قتل أبوه — جرد سيفه فقتل بنت أبي لؤلؤة وقتل الهرمزان وجفينة — رجلاً أعجمياً — وقال لا أدع أعجمياً إلا تكلته فأراد مل قتله بمن قتل فهرب إلى معاوية فقتل في صغين : الماروف ٦١ ، ٦٢ .

يَا مَنْ يَبْغِدَادَ وَأَطْرَافَهَا مِنْ عُلَمَاءِ النَّفَاسِ أَوْ شَاعِرٍ
اسْتَرْجِعُوا وَأَنْكَبُوا عَلَى دِينِكُمْ وَاصْطَبِرُوا فَالْآخِرُ لِلصَّابِرِ
جَارٌ عَلَى الدِّينِ أَبُو يُوسُفَ يَقْتُلُهُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ

وخاف الرشيد الفتنة ، فأمر أبا يوسف أن يتدارك الأمر بحيلة لئلا تكون فتنة ، فطالب أبا يوسف أصحاب الدم ببينة على الذمة^(١) وثبوتها ، فلم يأتوا فأسقط القود^(٢) .

وكان الشافعي يرى ؛ أن القود لا بد فيه من تساوى القاتل والمقتول في الحرية والإسلام ، فإن فَضَّلَ القاتلُ المقتولَ بحرية أو إسلام ، قُتِلَ حرًّا عبداً ، أو مسلماً كافراً فلا قود عليه^(٣) .

وكان الشافعي يرى ؛ أنه يصح أن يشترك أهل الذمة من يهود ونصارى في الحروب مع المسلمين — أى أن يَجُنَّدُوا في الجيش الإسلامي — إذا رأى الإمام ذلك — واستدل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان في غزاة خَيْبَرَ بعدد من يهود بني قَيْنُقَاع كانوا أشداء ، واستعان في غزاة حُنَيْنَ بِصَفْوَانَ بن أمية وهو مشرك ، فلا بأس أن يستعان بالمشركون على قتال المشركين ، إذا خرجوا طوعاً ، ورضخ لهم ولا يسهم لهم^(٤) .

ولسنا نعرض هنا لملاقة اليهود والنصارى بالحكومة الإسلامية من حيث الضرائب ، وعلاقتهم برؤسائهم ، وعلاقة الرؤساء بالخلفاء ، ومدى استقلالهم ، والمقارنة بين حال النصارى في المملكة الإسلامية ، وللمسلمين في الممالك

(١) في الأصل (الذمة) وهو خطأ على ما يظهر .

(٢) الأحكام السلطانية ٢١٩ وقد قال الجاسط : « إن قضائنا أو علمهم يرون أن دم الجاليتين والمطران والأسقف ولاء بدم جعفر وعمل والقباس وحزة » ثلاث رسائل : ١٨ .

(٣) الأم ٤ : ١٧٧ ومعنى يرضخ لهم ؛ يعطيهم عطاء ليس بالكثير .

وقد روى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل معه قوم من اليهود في بعض حروبه فأسمهم لهم مع المسلمين ، تاريخ بغداد جزء ٤ : ١٦٠ .

النصرانية ، وكيف كان اليهود والنصارى يتقاضون في الأصقاع الإسلامية ، وعلاقتهم بالقضاة المسلمين ، ونحو ذلك من الشئون . فهذا بالتاريخ السياسى أشبه ، وإنما غرضنا هنا شرح ما كان لهم من أثر في الثقافة .

كان اليهود والنصارى منتشرين في المملكة الإسلامية ، وكانوا عدداً كبيراً ، فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا سنة ١١٦٥ م أى نحو سنة ٥٦٠ هجرية « أن عدد اليهود في للمكة الإسلامية غير العرب كانوا نحو ثلاثمائة ألف » وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات ، وفي جزيرة ابن عمر والقوصل وعُكْبيرة وواسط وفي بغداد والحلة ، والكوفة والبصرة ، وفي كثير من بلاد فارس ، في همدان واصفهان وشيراز ، وكانوا في غزنة وسمرقند ، وكان في فارس بلدتان تسمى كل منهما « اليهودية » ، إحداها ، بجرجان ، والأخرى بأصبهان . وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودى ، وكان فيها درب يسمى درب اليهود ، نسب إليه قوم من الخدثين منهم أبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى اليهودى^(١) وفي أوائل القرن الثالث الهجرى كان يحيى من الجزية من أهل بغداد مائة وثلاثون ألف درهم ، وفي أوائل القرن الرابع كان يحيى منهم ستة عشر ألف دينار . والمدندان يدلان على أن من كان ببغداد إذ ذاك من غير المسلمين ممن يدفع الجزية نحو خمسة عشر ألفاً^(٢) ويقول ابن حوقل : إن النصارى في مدينة الرها وتكرت أكثر عدداً .

وكان أغلب للمالين في الشام يهوداً ، وأغلب أطباء القصور في بغداد نصارى ، واشتهر اليهود باحترافهم حرفاً خاصة ، كالصيرفة ودباغة الجلود والصياغة^(٣) . وقال الجاحظ : « إن النصارى اتحنوا البراذن الشهيرة ، والخيل

(١) معجم البلدان في مادة يهودية .

(٢) متر نقلا عن خرداذبه .

(٣) Mez وكذلك ذكر الجاحظ في رسالة الرد على النصارى ص ١٧ .

العناق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصّوالجة ، وتحذقوا اللدني ، ولبسوا
الملحم والطبقة . واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس
والفضل وعلى ^(١) .

على كل حال كان بين المسلمين كثير من أهل الأديان الأخرى ، وخاصة
اليهود والنصارى ، وقد خالطهم المسلمون ، بل اتخذوا منهم أصدقاء . قال
الجاحظ : أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنديل الفزاري في ناس خالطهم
من اليهود :

وَجَدْنَا فِي الْيَهُودِ رِجَالَ صِدْقٍ عَلَى مَا كَانَ مِنْ دِينِ مُرِيْبٍ
لَمَمْرُكُ انْتِي وَابْنِي غَرِيْبُ لَيْثُلُ الْمَاءِ خَالَطَهُ الْحَلِيبُ
خَلِيلَانِ اكْتَسَبْتُهُمَا ، وَإِنِّي لِخَلَّةٍ مَا جِدَّ أَبَدًا كَسُوبُ
وقال أبو العَلَمَّحَانِ الْأُسْدَى — وكان نديماً لناس من بني الحَدَّاءِ ، وكانوا
نصارى فأحمد ندامتهم — قال :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَصْرِ مَقَاتِلُ وَزَوْرَةٌ خِلْلُ نَاعِمٍ وَصَدِيقُ
وَلَمْ أَرِدْ الْبَطْلَاءَ أَمْزُجُ مَاءَهُ يَخْمُرُ مِنَ الْبُرُوقَتَيْنِ عَتِيقُ
مَعِيَ كُلُّ فَضْفَاضِ الثِّيَابِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا جَرَى فِيهِ الْمَدَامُ فَتَتِيقُ
بَنُو الصَّلْبِ وَالْحَدَّاءُ كُلُّ سَمِيدَعٍ لَهُ فِي الرُّوْقِ الصَّالِحَاتِ عُروُقُ
وَلَوْنِي وَإِنْ كَانُوا نَصَارَى أَحِبُّهُمْ وَرَتَاتُحُ قَلْبِي نَحْوَكُمْ وَيَتَوَقُّ ^(٢)
ويقول أبو نواس :

سَأَلْتُ أَخِي أَبَا عَيْسَى وَجَبْرِيلَ لَهُ عَقْلٌ ^(٣)

(١) ثلاث رسائل ص ١٨ والملحم نوع من الثياب سداء حرير ولحمه غير حرير ،
والشاكرية جمع شاكرى معرب « شاكر » وهي بالقارسية بمعنى الأجير .

(٢) الحيوان ٥ : ٥٢ . (٣) أبو عيسى هو جبريل بن جندب بن جندب بن جندب
ابن جندب بن جندب ، كان طبيباً لرشيد .

قلت : الرَّاحُ تُجَبِّى فقال كثيرُها قتلُ
رأيتُ طبائعَ الإنسا ن أربعةً هي الأصلُ
فأربعةً لأربعة لكل طبيعة رطلُ

وبعد ، قد كان لكل من اليهودية والنصرانية ثقافة ، وقد تسرب إلى المسلمين شيء منها ، فلنحاول بيان ذلك .

اليهودية — أم منبع للثقافة اليهودية التوراة ، وقد ذكرت في القرآن الكريم ، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المنزلة « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » وورد فيه أن عيسى أتى بعدُ مصدقاً لما في التوراة « وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » وقد نص القرآن على بعض أحكام وردت في التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » وأشير في الأحاديث كذلك إلى التوراة ، وذكر فيها بعض أحكامها .

من ذلك ما روى أبو داود عن ابن عمر ، قال : أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القف ، فاتاهم في بيت المدراس ، فقالوا : يا أبا قاسم ؛ إن رجلاً منا زنى بأمرأة فاحكم ، فوضعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ، ثم قال : اتھوني بالتوراة فألقى بها ، فنبع الوسادة من تحتة ، ووضع التوراة عليها ، ثم قال : آمنت بك وبمن أنزلك ، ثم قال : اتھوني بأعليكم ، فألقى بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرحم^(١) وقد اختلفت أنظار المسلمين إلى التوراة على أقوال ثلاثة ، قال قوم :

(١) انظر كذلك البخارى في باب التوحيد وباب الاعتصام وباب التفسير .

إنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة ، ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى . وتعرض هؤلاء لنتائضا ، وتكذيب بعضها لبعض ^(١) . وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام : إلى أن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل ، وهذا مذهب البخارى ، قال في صحيحه : « يحرفون الكلم عن مواضعه » يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى . ولكنهم يتأولونه على غير تأويله ، وهذا هو ما اختاره الرازى في تفسيره . ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها ، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله ، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ ، بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة ، والتغيير على منهاج واحد وهذا ما يحيله العقل ويشهد بطلانه ، قالوا : وقد بين الله تعالى لتبنيه عليه السلام محتجا على اليهود بها : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » الخ . وذهبت طائفة ثالثة ؛ إلى أنه قد زيد فيها ، وغير ألفاظ يسيرة ، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه ، والتبديل في يسير منها جذا . ومن اختار هذا القول ابن تيمية في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ومثل لذلك بما جاء فيها » إن الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام : اذهب ولدك بركك أو واحدك إسحاق « فإسحق زيادة منهم في لفظ التوراة ، لأدلة ذكرها ^(٢) .

وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيرا للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود ، فتشمل الزبور وغيره ، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحيانا .

وكان لليهود بجانب ذلك سنن ونصائح وشروح ، لم تنقل عن موسى عليه السلام ، كتابة ، وإنما تدوّل نقلها شفاهاً ونمت على تعاقب الأجيال ، ثم

(١) من أشد من ذهب إلى هذا الرأي ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل وقد بحث فيه بحثا مفصلا وأطال في التدليل على ما في التوراة آله بين أيدينا من تناقض فاربع إليه .
(٢) انظر ذلك مطولا في كتاب إعانة الطالبين لابن القيم الجوزية ص ١٥ وما بعدها .

دوّنت بعد ، وهذا هو المسمى بالتلمود ، والتلمود مختلف فيه فما بينهم ،
فمنهم من يقبله وهم طائفة الرّبّانيين ، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرائين .
فأما التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار ؛ السفر الأول سفر التكوين
أو الخلق ، وقد ذكر فيه خلق العالم ، وقصة آدم وحواء وأولادهما ، ونوح
والطوفان وتبليّل الألسن ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام وابنه إسحاق وابنيه
يعقوب ويعيسو ، ثم قصة يوسف .

والسفر الثاني يسى الخروج — أى خروج اليهود من مصر — وفيه قصة
موسى من ولادته وبمشته ، وفرعون وخروج بنى إسرائيل من مصر ، وصعود
موسى الجبل وإتياء الله له الألواح .

والسفر الثالث سفر اللاويّين — أى الأخبار — وفيه حكم القربان
والطهارة وما يجوز أكله ، وغير ذلك من الفرائض والحدود .

والسفر الرابع سفر العدد ، بعضه فى الشرائع ، وبعضه فى أخبار موسى
وبنى إسرائيل فى التيه وقصة البقرة .

والسفر الخامس سفر التثنية — أى إعادة التاموس — .

وفى العهد القديم غير التوراة ، سفر يشوع وهو فى استيلاء بنى إسرائيل
على فلسطين ، ثم سفر القضاة أى الحكام ، ثم أربعة أسفار الملوك الأول فى
أخبار شمويل أو سمويل وشاول أى طالوت ، والثانى فى ذكر داود ، والثالث
والرابع فى سليمان بن داود ومن ملك بنى إسرائيل من بعده .

وأما التلمود فمجموعة من المناقشات الدينية الأولى ، مع شروح رجال
الدين من الأجيال المتعاقبة ، فيه القوانين اليهودية من قانون عقوبات وقوانين
مدنية ، وبعبارة أخرى فيه تحديد العلاقات الدينية والدنيوية . يسجل أفكار
اليهود فى حياتهم وتعاليدهم فى نحو ألف عام ويمزج مزجاً تاماً نواحي الشعب
الخليقية بنواحيهم الدينية .

وقد مُجّع التلعود في نحو ثلاثة قرون ، ابتداءً وجميعه في أوائل القرن الرابع لليلاد ، وتم في نحو نهاية القرن السادس . ويسمى القسم الأول منه المِشْنَا « Micna » وهو مجموعة أحكام استندت على العهد القديم ، وقد كتب باللغة العبرية الأولى . والقسم الثاني يسمى الجيارة « Gemara » ويتضمن مباحثات ربابنيهم — أى فقهاءهم — وقد كتب باللغة الآرامية . وحول هذه الكتب الدينية نسج كثير من الأدب اليهودى والقصص ، والتاريخ والتشريع والأساطير .

وكان بين اليهودية والوثنية اليونانية ، وبين اليهودية والمسيحية نزاع شديد في الشرق ، وخاصة في الإسكندرية — أهم مراكز الثقافة اليونانية — واضطر كثير من اليهود أن يتعلموا اللغة اليونانية ويتكلموا بها . وكان هذا النزاع في نوع الحياة الاجتماعية وفي الثقافة وفي الدين ، فاضطر كثير من اليهود أن يبدلوا حياتهم وأنظلم نحو الحياة اليونانية — كانوا يحرّمون غشيان معاهد التمثيل تمثل فيها روايات يونانية . فنشأ جيل جديد لا يرى في ذلك من بأس ، وهكذا . واضطروا أن يأخذوا بحظ من الثقافة اليونانية ، وواجهوا مشكلة جديدة وهي إلى أى حد يقبلون تعاليم اليونان مع الاحتفاظ بأصول اليهودية ؟ وكان من أشهر هؤلاء « فيلو » الذى حاول أن يوفق بين المعتقدات الدينية اليهودية ، وبين العلم اليونانى . فكان من ذلك يهودية مفلسة ، لا هى يهودية صرفة ولا فلسفة صرفة . اقتبس « فيلو » من أفلاطون والرواقيين ، واستعمل المصطلحات الفلسفية . ولكنه استخدم ذلك كله لإحياء العاطفة الدينية ، وتدليل الصعاب التى تواجهها اليهودية . وقد انتفعت الكنيسة النصرانية بعدُ بموقف اليهود إزاء الفلسفة اليهودية ، لأنهم واجهوا ما واجه اليهود قبلهم ^(١) .

(١) انظر الفصل الذى كتب في العلاقة بين اليهودية والفلسفة اليونانية في كتاب
The Legacy of Israel

وعلى الجلة فقد كان لليهود ثقافة دينية وأدبية وتاريخية وقانونية ، مزجت
يعدُّ بالثقافة اليونانية .

وقديماً تسربت الثقافة اليهودية إلى من جاورهم من العرب ؛ جاء في الحديث
عن ابن عباس : « كان هذا الحى — من الأنصار — وهم أهل وثن مع هذا الحى
من اليهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يرون لم فضلًا عليهم في العلم وكانوا يقتدون
بكثير من فعلهم »^(١) وكان ذلك قبيل الإسلام كما يدل عليه تنمة الحديث .

وكان بعض المسلمين في العصور الأولى يطلّمون على الكتب الأخرى للنزلة
ويتلونها ، روى ابن سعد في الطبقات أن أبا الجلد واسمه جيلان بن قَرْوَة ؛ كان
يقرأ الكتب . وروى عن ميمونة بنت أبي الجلد قالت كان أبى يقرأ القرآن
في كل سبعة أيام ويحتم التوراة في ستة ، يقرأها نظراً ، فإذا كان يوم يختمها
حُشِدَ لذلك ناس ، وكان يقول : كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة^(٢) .

وفي الحديث عن أبى هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة
بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل
إلينا ، وأنزل إلينا وإلينا وإلهمك وإلهمك واحد »^(٣) ويروون عن وهب بن مُنبه أنه
كان يقول « لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً ، كلها أنزلت من السماء ، اثنان
وسبعون منها في الكنائس ، وفي أيدي الناس ، وعشرون لا يعلمها إلا قليل »^(٤)
تسربت هذه الثقافة اليهودية إلى المسلمين من طرق أهمها : من دخل في

(١) أخرجه أبو داود . (٢) طبقات ابن سعد جزء ٧ قسم أول ص ١٦١ .
(٣) وفي البخارى أيضاً حديث آخر يخالف هذا وينهى عن سؤال أهل الكتاب فانظروا
في باب شهادة أهل الكتاب .
(٤) ابن سعد ٥ : ٣٩٧ .

الإسلام من اليهود ، وخاصة مُسلمة المين ؛ ككعب الأحبار ، ووهب بن منبه وأمثالهما . وقد دخل في الإسلام من اليهود كثيرون ، كان منهم بعض الصعابة وبعض التابعين ، وظلوا يقتابعون إلى عصرنا الذي توارخه ، وكان منهم محدثون ومنهم قصاص . ومنهم قراء ، ومنهم أخباريون . وأشهر من عرفنا في عصرنا هذا من أصله يهودى : أبا عبيدة معمر بن اللثنى — والآن نعرض لأنواع المعارف التي تأثرت باليهود .

فأول ذلك تفسير القرآن : ذلك القرآن الكريم والتوراة يتفقان — كما رأيت — في إيراد بعض المسائل ، وخاصة في قصص الأنبياء . ولكن للقرآن منحي يخالف منحي التوراة ، فإنه يقتصر على مواضع العظة . ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فهو لا يذكر — غالباً — تاريخ الوقائع ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها ، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث ، ولا يدخل في تفاصيل الجزئيات . إنما يتخير ما يمس جوهر الموضوع وموضع العبرة — لنأخذ لذلك مثلاً قصة آدم ، فقد وردت في القرآن الكريم في مواضع أطولها ما ورد في سورة البقرة منها « وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ، فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُنَا مَبْعٌ هَدَىٰ قَلِيلًا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

فقرئ من هذا أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ولا لنوع الشجرة التي نعى آدم عن الأكل منها ، ولا بين الحيوان الذي تقمصه الشيطان ليزلها ولا

ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم ولا البقعة التي طرد إليها آدم بعد خروجه من الجنة ، الخ . ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه فأبانت أن الجنة في عدن شرقاً ، وأن الشجرة التي نهيها عنها كانت في وسط الجنة ، وأنها شجرة الحياة ، وأنها شجرة معرفة الخير والشر ، وأن الذي خاطب حواء هو الحية ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي أغوتها بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب وانتقم من حواء بتعذيبها ونسلها في حبسها الخ ، فجاء المفسرون للقرآن ينقلون عن مُسَلِّم اليهود ما جاء في كتبهم ويضعونه شروحاً . فيحكى الطبري مثلاً عن وهب بن منبه أن هذه الشجرة كان لها ثمرٌ تأكله اللاتكة للخلاد ، فلما أراد إبليس أن يستلها دخل في جوف الحية ، وكانت للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التي نهي الله عنها آدم وزوجته الخ ، فلما أكلا قال الله لحواء يا حواء أنت التي غررت عبيدي فأنتك لاتحملين حملاً إلا حلتته كرها فإذا أردت أن تضي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً ، وقال للحية أنت الذي دخل للملعون في جوفك حتى غر عبيدي ، ملمونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك ، ولا يكن لك رزق إلا التراب ، الخ ، وروى عن ابن عباس نحو هذه القصة^(١) . ونقرأ تفسير الطبري على هذه الآيات فيجعل لك بوضوح أنهم أخذوا ما في التوراة وشروحها ، والأخبار التي رويت حولها ، ووضموها تفسيراً لآيات القرآن الكريم . وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة ، وعن إسرائيل عن أسباط عن الشدي مرة أخرى . وهكذا فعلوا في كل ما ورد في القرآن من قصص وردت في التوراة . ولم يكن

(١) تفسير الطبري ١ : ١٨٦ وما بعدها وقد روى الجاحظ في الحيوان ٤ : ٦٤ عن كعب الأحبار أنه قال : مكتوب في التوراة أن حواء عوقبت بعشر خصال وأن آدم عوقب بعشر خصال وأن الحية عوقبت بعشر خصال ثم ذكرها ، وشك الجاحظ في ذلك لأنها ليست في التوراة وقال إن صحت الرواية من كعب فإنه إنما كان يعني كتب اليهود جميعها .

كل هؤلاء اليهود علماء باليهودية مدققين ، بل كان منهم عوام يعرفون — كما يقول ابن خلدون — ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملتوا كتب التفسير بهذه المقولات^(١) . وما زالت هذه الإسرائيليات تكثر وتنمو ، حتى امتلأت بها الكتب أمثال قصص الأنبياء للثعلبي .

وعنى المسلمون بنقل تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم كما فعل الطبري في تاريخه ، وكما فعل ابن قتيبة في كتابه المعارف . وقد أثبت العلم أن كثيراً مما نقل من تاريخ بني إسرائيل غير صحيح ، مما يدل على أن الروايات التي نقلت كان كثير منها ينقل عن العوام وأشباههم . ونجد ابن قتيبة يقارن بين ما يرويه وهب ابن منبه وبين ما في التوراة ، ويبين أحياناً ما بينهما من خلاف .

وكان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الإسلامية ، فابن الأثير يروي عند الكلام على أحد بن أبي دُواد « أنه كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة وأخذ ذلك عن بشر المريسي ، وأخذ بشر عن الجهم بن صفوان ، وأخذ الجهم عن الجَعْدِ بن دِرْهم وأخذ الجعد عن أبان بن سميان ، وأخذ أبان عن طلوت بن أخت لبيد بن الأعصم وختنه وأخذ طلوت عن ختنه ، لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طلوت ، وكان زنديقاً فأفشى الزندقة^(٢) » وروى صاحب العقد الفريد عن الشعبي أنه قال للمالك بن معاوية « أحذررك الأهواء المضلة ، وشرها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة ، يفضون الإسلام كما يفض اليهود النصرانية . ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً بأهل الإسلام وبنياً عليهم ، وقد حرقهم على بن أبي طالب وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود . قالت اليهود لا يكون الملك إلا في آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب ، وقالت اليهود لا يكون

(١) مقالة ابن خلدون ٣٦٧ . (٢) ابن الأثير ٧ : ٢٦ .

جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي مناد من السماء ، وقالت
الرافضة لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل بسبب من السماء .
واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة . واليهود
لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً ، وكذا الرافضة . واليهود لا ترى على النساء عدّة ،
وكذا الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة . واليهود حرقوا
التوراة ، وكذلك الرافضة حرقوا القرآن . واليهود تنتقص جبريل وتقول
هو عدونا من اللائكة ، وكذلك الرافضة تقول غاط جبريل في الوحى إلى محمد
بترك على بن أبي طالب ، واليهود لا تأكل لحم الجوزور وكذلك الرافضة الخ^(١) .

واجه اليهود كثيراً من المسائل وبحوثها واختلفوا فيها ، فقد بحثوا في
النسخ ، وقالوا إن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وقد بدأت بموسى وتمت به ،
فلا يجوز النسخ لأن النسخ في الأوامر بدءاً ولا يجوز البدء على الله .

وتكلموا في التشبيه لأنهم وجدوا التوراة مملوءة بألفاظ تشعر بالتشبيه مثل
الصورة والمشافهة والتكلم جهراً والنزول على طور سيناء والاستواء على العرش
وجواز الرؤية .

وتعرضوا للرجعة أى رجوع بعض الأفراد إلى الحياة بعد الموت ، وجاءهم
ذلك من أن عزيراً أمانه الله مائة عام ثم يمته . وقالوا إنه مات وسيرجع وقال
بعضهم غاب وسيرجع^(٢) .

وهذه الأقوال والخلافات كلها تسربت إلى المسلمين عن أسلم من اليهود ،
فقرأنا المسلمين يبعثون في جواز النسخ في القرآن ، كما بحث اليهود في نسخ
التوراة . ويذهب جمهور المسلمين إلى جواز نسخ الحكم دون النص ، وإلى أن

(١) المقد ١ : ٢٦٩ .

(٢) حكى هذه الأقوال كلها من اليهود الشهرستاني في الملل والنحل ص ٨٥ و ٨٦ فانظرها

ذلك وقع فعلا، ومخالف في وقوعه أبو مسبل الأصمغاني. ونرى للمسلمين في كتب أصول الفقه — عند الكلام على النسخ — يناقشون اليهود في رأيهم، ويجادلونهم ويردون عليهم^(١) مما يؤيد وجهة نظرنا في أن اليهود هم السبب في إثارة هذه المسألة، ورأينا بعض الشيعة يرى البداء الذي أنكره اليهود. وأقدم من قال به المختار بن عبيد الذي كان يدعو لمحمد بن الحنفية. وقول الشهرستاني «إنما صار المختار إلى البداء لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال إما يوحى يوحى إليه، وإما برسالة من قبل الإمام. فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحلوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه، وإن لم يوافق قال قد بدا الربكم. وكان لا يفرق بين النسخ والبداء فإذا جاز النسخ في الأحكام جاز البداء في الأخبار»^(٢) وقد اعتنق كثير من الشيعة مذهب البداء وطبقوه في كثير من مسائلهم التاريخية وقال أحد أئمتهم «لا يعبد الله بأحسن من القول بالبداء» لأنه يفتح باب التوبة في طلب العفو من الله وكان اليهود أقوى المعارضين في البداء^(٣).

كذلك انتقل إلى المسلمين ما دار بين اليهود في التشبيه. فقد وضعت للبحث الآيات القرآنية التي تُشعر بذلك مثل «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» الخ وما ورد في الحديث كقوله «قلب للؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» واقسم المسلمون فيها أقساما فقال قوم من السلف تؤمن بذلك ولا تصرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات، وذهب جماعة من غلاة الشيعة وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية إلى التشبيه، وقالوا إنه يجوز عليه

(١) انظر أصول ابن الحماص ٢ = ١٨٨.

(٢) الشهرستاني ٥٥ وقد اشتقت كلمة البداء من بداهة.

(٣) انظر حكاية يحيى بن زكريا في التشبيه والإشراك المسموح.

الانتقال والنزول والصعود والاستقرار ، الخ . فخذوا في ذلك حذو اليهود في اختلاضهم . ويقول الشهرستاني في الكلام على التشبه — إنهم أجروا (الأحاديث الواردة في ذلك) على ما يتعارف في صفات الأجسام ، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضموها ، ونسبوها إلى النبي عليه السلام ، وأكثرها مقتبس من اليهود ، فإن التشبيه فيهم طبع حتى قالوا (في الله تعالى) اشتكت عيناه فعادته الملائكة ، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ، وإن العرش ليبيط من تحته كأطيظ الرجل الجديد . وروى للشبهة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقيني ربي فصافني وكافني ، ووضع يده بين كتفي وجدت برّداً نامله الخ »^(١) ويقول في موضع آخر « ولقد كان التشبيه صرفاً خالصاً في اليهود لا في كلهم ، بل في القرائين منهم ، إذ وجدوا في التوراة ألفاظاً كثيرة تدل على ذلك »^(٢) .

وقال الشيعة — في الرجعة — على نحو ما قال اليهود ، قد كان عند اليهود أن النبي « الياس » صيد إلى السباء وسيموديعيد الدين والقانون ، فقال ابن سبأ اليهودي — كما حكى ابن حزم — لما قتل علي : « لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ماصدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » ونمت هذه الفكرة عند الشيعة ، فقالوا كذلك في بعض الأئمة الذين اختفوا ، ثم قالوا كذلك في المهدي المنتظر .

فترى من هذا أن كثيراً من المسائل الكلامية وغيرها كان منبعها اليهود ، وأنها قيلت على مثال ما قالوا . وحتى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتنبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله أليهود والنصارى ؟ قال فن ١ وكان بعض التكلمين في العقائد من أصل يهودي كبشر المريمي ، وله

(١) الشهرستاني ٣٧ ، ٣٨ . (٢) ص ٣١ .

(٢٢) - نحو الإسلام ، ج ١

آراء كثيرة افترد بها ، وكرهه الناس من أجلها حتى كادوا يقتلونه ، وكان من أشهر القائلين بخلق القرآن .

وروى ابن قتيبة « أن هرون الأعور بن موسى — أحد القراء — كان يهودياً ثم أسلم ، قال الأصمعي قال هرون : كنت أقرأ ايزام بالعبرانية يعني آدم ^(١) » . ودخلت كتب الأدب نصائح يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحائهم ، كالذي روى أن شيعاء قال لبني إسرائيل « إن الدابة تزداد على كثرة الرياضة لدينا ، وقربكم لا تزداد على كثرة للمعظة إلا قسوة ، إن الجسد إذا صلح كفاه القليل من الطعام ، وإن القلب إذا صلح كفاه قليل من الحكمة إكم من سراج أطفأته الريح ، وكم من عابد أفسده العجب ! يا بني إسرائيل اسمعوا قولي ، فإن قاتل الحكمة وسامتها شريكاً ، وأولاهما بها من حقاً بعمله ^(٢) » . وقد ذهب بعض الباحثين — كالأستاذ شوفان — أن بعض قصص ألف ليلة وليلة من أصل يهودي .

وعلى كل حال ، فقد كانت هناك ثقافة يهودية ، بعضها صحيح علمياً وبعضها غير صحيح . بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب ، وبعضها أخذ عن عوام اليهود ، وهذا وذلك نفذ منه إلى المسلمين شيء غير قليل : وتجادل اليهود والمسلمون كل يدعو إلى دينه ويقيم الحجة على صحته ، وقد حكى لنا الكتب الكثير من هذا الجدل ، من أقدمها ما روى عن أوس من بني قريظة ، فقد أسلمت امرأته ودعته أن يسلم فأبى وقال :

دَعَتْنِي إِلَى الْإِسْلَامِ يَوْمَ لَقِيتُهَا فَقُلْتُ لَهَا لَا بَلْ تَعَالَى تَهْوَئِي
فَنَحْنُ عَلَى تَوْرَةِ مُوسَى وَدِينِهِ وَنَحْنُ لِمَعْمَرِ الدِّينِ دِينُ مُحَمَّدٍ
كَلَامًا يَرَى أَنَّ الرَّشَادَ دِينُهُ وَمِنْ يَهْدِ أَبْوَابِ الْعَرِاشِ يَرْتَدُّ
وكالذي حكى الصفدي في « الفئث » من مناقشة بين يهودي ومسلم يقول

(١) المأثور ١٨٠ (٢) عهده ١ : ٣٥٦ وفيه مواضع كثيرة من هذا القيل .

بالجبر^(١) . كل هذه المناقشات كانت تضطر كل جانب أن يكون على علم بدين منافذِهِ ، يستمد منه حجته ويدفع به حجة خصمه . فكان ذلك من أسباب انتشار التناقضين .

النصرانية — : كذلك ورد في القرآن الكريم آيات تشير إلى الإنجيل ، وتلمح كتاباً من كتب الله السماوية « ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ » « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » « وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ » الخ . وكان موقف المسلمين إزاء الإنجيل واختلافهم في صحته وتمحيضه كاختلافهم في التوراة ، بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرها في عدم الاعتراف بالإنجيل الذي بين أيدينا إلى أكثر مما ذهبوا إليه في التوراة^(٢) .

على كل حال كان للنصرانية ثقافة دينية أهمها الإنجيل ، وما أحاط به من شروح ، وما زاد عليه من قصص وأخبار . وقد تسرب ذلك كله إلى المسلمين من طرق : أهمها نصارى العرب ، وقد كانت النصرانية انتشرت بين بعض قبائلهم ، ولا سيما قبيلة تغلب ونجران . وكذلك من طريق من أسلم من النصارى . ونلس هذا الأثر في كثير من النواحي ، فأول ذلك تفسير القرآن .

ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على مواضع وردت في الإنجيل ، كقصة عيسى ومريم ومعجزات عيسى عليه السلام ، وأسلوب القرآن — كما ذكرنا — أسلوب موجز ، يقتصر على موضع العظة . فجاء المفسرون ينقلون عن مُسَلِّمة اليهود والنصارى شروحاً لهذه الآيات — إن شئت فاقراً تفسير سورة مريم

(١) ج ٤ : ٧٣ .

(٢) انظر الفصل في المال والنفل والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية .

في الطبري تجده يقل شروحاً كثيرة من الإنجيل وتفسيراته، وما وضع حوله ، يقل ذلك عن وهب بن منبه وعن أسباط وعن ابن جريج وعن زكريا بن يحيى بن زائدة . وانظر كذلك تفسيره لقوله تعالى — في سورة آل عمران — في تعداد معجزات عيسى عليه السلام : « وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ » الآية ، فيأتى ابن جريج فيفسر الطير بالخنزير ، ويروى الطبري عن ابن محمد عن سلمة عن ابن إسحق قصة في كيفية ذلك إلى آخره^(١) . وتضخم ذلك بعد حتى رأينا القصاص الطويلة عن زكريا ويحيى بن زكريا ومريم وعيسى عليهم السلام والحواريين وحديث المائدة في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي^(٢) وأمثاله . كذلك أدخل مُسَلِّمَةُ النَّصَارَى أقوالاً من الإنجيل دُسَّت على أنها أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد مثل الأستاذ جولز زيهير لِمَا دخل عن النصرانية في الحديث بمحدث « ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه » وحديث قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم سترون بعدى أثره ، وأموراً تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم » فقد أخذ بما ورد في إنجيل متى « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وكذلك الإيمان في تفضيل الفقراء على الأغنياء ، فإن هذا نظر نصراني ، وقد ورد في الحديث « يدخل قهرا أمتي الجنة قبل أغنيائها بمئتمائة عام » ومثل حديث « كونوا بلها كالخمام » فقد ورد مثله في إنجيل متى « ها أنا أرسلكم في وسط ذئاب ، فكونوا حكياء كالحيات وبُسطاء كالخمام » وكذلك حديث أبي داود عن أبي برداء ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه

(١) انظر ذلك في الطبري ٣ : ١٩٠ . (٢) توفي للثعلبي سنة ٤٢٧ هـ .

أخ له قليل : ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرؤ » فإنه دعاء نصرانى مشهور .

ونحن مع موافقتنا للأستاذ جولدميهر فى أن بعض الأقوال النصرانية دخلت فى الحديث ، ونسبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا نوافقة على كل ما قال ، ولا على نسبة كل الأحاديث التى ذكرها إلى النصرانية ، فمثلا نظرة تبجيل الفقر وتعظيمه ليست نصرانية بحته ، فكل الديانات الإلهية — من يهودية ونصرانية وإسلام — ترى هذا النظر . وطبيعى لها أن تراه ، فمن أركان الأديان اتخاذ المقياس الممل الصالح لا المال ، وهى تهجم ما ألف الناس من تقديرهم الإنسان بنباه ، فالدين يرى أن العمل الصالح له قيمته الذاتية سواء أتى من غنى أو فقير ، بل طبيعى أن يكون بعض الأعمال من الفقير أفضل كالأعمال الخيرية المالية ، إذ تضحية الفقير أعظم ، فتدل أن يكون ثوابها أعظم ، ومحمد رسول الله عفا عن الفنى ولم يشأ أن يكون غنيا ، وكان فى إمكانه أن يكونه . ووردت فى القرآن نفسه . آيات تمجّد الفقراء الصالحين : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فاتحاد الإسلام والنصرانية فى مدح الفقر لا يدل على أخذ الإسلام ذلك من النصرانية ، قالوا : إن العربى كان يفضل الفنى على الفقر ، فقد قال عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ :

دَعَيْتُ لِلْفَنَى أَسْمَى قَلْبِي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ

ولكن ، قد قال عربى غيره وهو قَيْسُ بْنُ الْحَطِيمِ :

غَنَى النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنَى وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاةُ

وليس في هذا ولا ذلك دليل على قولهم ، فكلامنا في الإسلام . والإسلام
 حكمة ما بيننا « قَمَنَ يَمْعَلُ مِقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
 يَرَهُ » « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » ولكن — من غير شك — رويت
 في النصرانية واليهودية أخبار كثيرة ، وقصص عن الفقراء وفضلهم ، أدخلها
 المسلمون في كتبهم . كالذي روى في الإحياء « أن المسيح صلى الله عليه
 وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة ، فأهبطه وقال : يا نائم قم فاذا ذكر الله
 تعالى ، فقال ما تريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهاها . فقال له قم إن شاء الله ، وموسى
 عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه كينة ، ووجهه ولحيته في التراب
 وهو متزر بعباءة ، فقال : يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع ! فأوحى الله تعالى
 إليه : يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا
 كلها ، وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : بشدة يدخل الغنى الجنة ، وقال موسى
 عليه السلام يا رب من أحبواك من خاقتك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال كل فقير
 فقير^(١) الخ . ويظهر لنا أن هذه الأخبار وأمثالها لو كانت حياة للمسلمين بلون خاص ؛
 فقد كان الإسلام في أصله يدعو إلى العمل في الحياة ، ولا يحب الرهبانية . ويقدر
 العمل بمن عمل ، غنياً كان أو فقيراً . ثم رأينا الأخبار التي وردت بعد من مثل
 ما حكى في الإحياء تحت على نزع جديلة ، هي الهرب من الغنى ، وحب العباد ،
 وإن ترك صاحبها العمل في الدنيا . وهي نزع أشبه ما تكون بالرهبانية لم نعرفها
 كثيراً في الأيام الأولى من تاريخ الإسلام .

روى أن رقة من الأشعرين كانوا في سفر ، فلما قدموا قالوا ما رأينا
 يا رسول الله بمالك أفضل من فلان كان يصوم النهار ، فإذا رأينا قام من الليل
 حتى نرمحل . قال فمن كان يمين له ويكفله ؟ قالوا كلنا ، قال : كلكم أفضل منه .
 وفي التاريخ عن مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى ، وكان من أولهم في ذلك

(١) الإحياء . ٢ : ١٥٢ وما بعدها .

اليقوي ، فقد ذكر في تاريخه مقبسات من الإنجيل . وفي تاريخ الطبري طرف من تاريخ النصارى ، ففيه خبر طائفة من الحواريين وخبر جرجيس وهو — كما يقول الطبري — عبد صالح من أهل فلسطين ، أدرك بقايا من حوارتي عيني وأطال في قصته . وفيه خبر أصحاب الكهف ، الخ . وكذلك فعل المسعودي . وقد خلطوا فيما كتبوه بين الأخبار الصحيحة ، والأقاصيص المتداولة على الألسنة ، كما فعلوا فيما نقلوا من تاريخ اليهود .

وغير هذا الذي ذكرنا كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى ، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق ، وكانت عملاء بالنصارى ، فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الحصومة باللسان . كانت المسلمون يدعون إلى الإسلام ، فيضطرم ذلك إلى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين . فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج ، فتشأ من هذا جدل كثير ، وكثر ذلك في الدولة الأموية . وكان أكثر ما يكون في الشام ، إذ دمشق عاصمة الخلافة ، وفي الشام كثير من النصارى ، لأنها كانت في يد الرومان النصارى . ولأن قصور الخلفاء الأمويين في دمشق كان فيها نصارى ، يتولون مناصب كبيرة — من ذلك ما حكى لنا عن يحيى البمشقي ، فقد كان نصرانياً شديد التمسك بنصرانيته ، وعمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان ، وألف يحيى كتاباً للنصارى يدفع به دعوة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه : « إذا قال لك العربي ، ما تقول في المسيح ؟ قل له : إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم بمسمى المسيح في القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يحميه المسلم ، فإنه سيضطرب إلى أن يقول « كلمة الله أقامها إلى مريم وروح منه » فإن أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذ كان ولم تكن له كلمة ولا روح ، قال يحيى : فإن قلت ذلك فستنجم العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا

الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وجد بكلمة الله وأمره ، من غير واسطة كما قال : « إِنْ مَثَلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة ، كقوله تعالى « وَأَيُّكُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » وأن عيسى لما لم يشكون من نقطة الأب ، وإنما تكون من نفخة الملك وُصف بأنه روح ، وقد سمي الله جبريل رُوحاً ، ولم يقل أحد فيه ما قالوا في عيسى ، وقال الله في آدم (وضعت فيه من روحي) كما قال في عيسى وسمى القرآن روحاً فقال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » ، الخ . قالوا وحينئذ لا يرد اعتراض يحيى المشرق لأنه اعتراض وارد على فهم ظاهر لفظ « كلمة » و« روح » . على كل حال كان هناك جدال بين المسلمين والنصارى ، وكان ذلك يضطر كلا لقراءة كتب الآخر ، يستعين بها على تأليف حججه .

وفي الفرق الإسلامية نجد ظلالاً للتعاليم النصرانية ، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلاً في خلود العذاب ، وذهب آباء الكنيسة اليونانية إلى إنكار أبدية عذاب النار^(١) . فرأينا جهنم بن صفوان يقول : إن الجنة والنار يفتيان ويفنى أهلها^(٢) .

ويذهب الأستاذ فون كيرمر « إلى أن فرقة المعتزلة نشأت من النصرانية ، لأن آباء الكنائس كانوا يجادلون في حرية الإرادة ، وأن الإنسان مجبوراً ومختار . وبعبارة أخرى في مسألة القدر ، كما كانوا يجادلون في صفات الله . وقد تسربت هذه العقائد إلى المعتزلة من طريق النصارى — بعد فصح للمسلمين للشام — ومن أشهر من احتك بالمسلمين في ذلك العصر الأموي يحيى المشرق وثيودور ابوكارا Abucara ، وقد تكلم يحيى في أن الله مصدر الخير ، وقال إن الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس ، فتكلم المعتزلة الأولون في القدر وفي صفات الله أخذوا عن النصارى . »

(١) فون كيرمر . (٢) الفصل لابن حزم ٤ : ٨٣ .

ولكني لا أرى هذا الرأي ، بل أرى أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين. أنفسهم ، وكان سبب ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ظاهرها الجبر مثل قوله تعالى « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » « أَقْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْمَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعِدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » وبجانب هذا آيات ظاهرة الاختيار ، وأن الإنسان مسئول عن عمله مثل « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » ، وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » ووردت أحاديث كثيرة تعرض للقدر ، وكان ذلك قبل فتح المسلمين للشام والعراق ، مثل ما روى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر حيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وعن علي قال « كنا في جنازة ببيع العرق ، فأنانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويده مخصرة فجعل ينكت بها الأرض ، ثم قال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا يا رسول الله أفلا تتشكل على كتابنا ؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل الشقاء . ثم قرأ « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »^(١) وروى

(١) اقرأ في هذا كتاب شفاء الليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتبليغ لابن القيم .

أن علياً — لما انصرف من صيِّين — قام إليه شيخ ، فقال أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدّر ؟ » إلخ ، إلى كثير من أمثال ذلك .

فترى من هذا أن فكرة القضاء والقدر كانت عند المسلمين قديما ، ويظهر أنها فكرة تحدث حول كل دين تقريباً ، فقد كانت في اليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلم كانت لما ظهرت في الإسلام ، وكان شأنها شأن الديانات الأخرى عُدّت نصرانية الأصل ؟ بل تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جدالم مع مجوس الفرس كان أكثر من جدالم مع اليهود والنصارى ، وأن كثيراً من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس لا على النصارى ، وأكبر ردهم كان على الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الخراساني الأصل ، لهذا نرى أن للمعتزلة كانت نشأتهم الأولى إسلامية بحتة . وإن تأثروا بغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، فمن ناحية أن هذه الديانات كانت تقترح على المعتزلة موضع النزاع : فإذا قال المجوسى الذى دخل الإسلام بالتجسيم ، أو قال بالجبر نازلها للمعتزلة . ولكمهم يستنقلون في حججهم على الإسلام والعقل ، أما بعد عصرهم الأول فهذا موضوع آخر سنتناوله عند الكلام في المعتزلة في العصر العباسى إن شاء الله .



واستمر الجدل بين المسلمين والنصارى في عصرنا العباسى ، وقد حكّت لنا الكتب منها الشيء الكثير كرسالة الجاحظ « في الرد على النصارى »^(١) فهي تصور لنا ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات ، وما كاد يدفع به المسلمون تلك الشبهات . كما تذكر لنا طرفاً من أخبار اليهود والنصارى ، والسبب الذى من أجله كانت العدواة بين المسلمين والنصارى أقل من العدواة بين المسلمين واليهود ، إلخ — ونقول إلينا أن عبد الله بن إسماعيل الهاشمى كتب رسالة إلى

(١) وردت هذه الرسالة باختصار في رسائل الجاحظ على هامش الكامل ووردت بأطول من ذلك في مجموعة ثلاث رسائل الجاحظ وهي التي نشرها يروش فينكل .

د المسيح إسحاق الكندي يدعوها إلى الإسلام ، فرد عليه عبد المسيح عوه إلى النصرانية ، وكان ذلك في عهد للمؤمن^(١) .

وحكي الجاحظ في الحيوان جدالاً كان بينه وبين النصراري في القرايين للذباح^(٢) ، إلى كثير من أمثال ذلك . وكل هذا الجدل يدل على معرفة اليهود لنصارى لكتب المسلمين يأخذون منها حججهم ، ومعرفة المسلمين لكتب يهود والنصارى كذلك .

وفي الأدب تسرب بعض ما للنصرانية إلى الأدب العربي من وجوه عدة :

١ - أن بعض الشعراء كانوا نصاري ، فأدخلوا في شعرهم العربي ثما من النصرانية ، وكان أوضح مثل لذلك في العصر الأموي « الأخطل »
ورد في شعره أثر من النصرانية مثل قوله :

لقد حلفتُ ربَّ موسى جاهاً والبيت ذى الحرُمتِ والأستارِ
بكل مُتَعَبِلٍ عليه مُسَوِّحُ دُونَ السماءِ مُسَيِّحُ جَارِ
حَبْرَنَ لابن الخليفة يَذْحِي وَلَا تَذِقَنَّ بها إلى الأنصارِ

ويقول « والصليب والقربان لا تخلصن إلى كليب خاصة - دون مضر -

يَلْبِسُهُمْ خَزِيهً وَيَكْزِمُهُمْ عَارُهُ »^(٣) وروى ابن الأثير أن الأخطل لما قال :

لما رأونا والصليبَ طالماً ومارِ سرجيسَ وثمَّ ناقماً
والخيلَ لا تحمِلُ إلا دَارِعاً وأبصروا راياتنا لوامعاً الخ
قال جرير :

أفبالصليب ومارِ منرجسَ تتقي شهباءَ ذاتِ مَتَارِكِ جُهْجُوراً ؟!

(١) ورد اسم الرسالة والإشارة إليها في كتاب الآثار الباقية للبيروني ، فاستشبه بكلام المسيح على ذبب الصابنة للادميين قرماناً القمر ، وقال : إن هذه الرسالة كتبت جواباً على ب عبد الله بن إسماعيل المصمعي . وقد طبعت هذه الرسالة بجمعية ترقية للمعارف المسيحية . ولكننا نشك كل الشك في أن هذه الرسالة كلها ببيتها هي التي رآها البيروني لأسباب ، هنا موضع ذكرها .

(٢) ألفاني ٧ : ١٧٣ .

(٣) الحيوان ٤ : ١٣٨ وما منها .

وقال أيضاً :

يستعصرون بمار مرجن وابنه بعد الصليب ، وما لم من ناصر !
ولكن أثر النصرانية في شعره قليل ، كما لاحظ الأستاذ « لا مانس » بل
هو متأثر في إثباته بالإسلام أكثر من تأثيره بالنصرانية ، كقوله :

إني حلفتُ ربَّ الرافِصَاتِ وَمَا أَخِي بِمَكَّةَ مِنْ حُجُبٍ وَأَسْتَارِ
وَالْهَدْيِ إِذَا احْمَرَّتْ مَذَلُّعُهَا فِي يَوْمِ نُسْكَ وَتَشْرِيقٍ وَنَحَارِ
وَمَا بَزْمَنَمَ مِنْ شُطَطِ مُحَلَّةٍ وَمَا يَثْرِبَ مِنْ عُونٍ وَأُبْكَارِ^(١)
ونوله :

وقد حلفتُ ميمتاً غيِّ كاذبة بالله ربَّ ستور البيت ذى الحُجُبِ
وكلُّ موفٍ يَنْذِرُ كَانَ يَحْفَلُهُ مُضَرَّجٍ بدماءِ البدنِ مُحْتَضِبِ
كذلك هو في حياته مضطرب بين عادات من حوله من النصارى
والمسلمين ، فهو يشرب الخمر ويلق الصليب ، وهو يطلق أسراه ويتزوج
أخرى بل ويَسْرَى !

وفي العصر العباسي لم يشتهر كثير من النصارى بالشعر العربي ، وعرف
منهم أبو قابوس قال في القلعة « كان أبو قابوس الشاعر رجلاً نصرانياً من
أهل الحيرة » وكان منقطعاً إلى البرامكة يمدحهم ويمنحونه ، روى من شعره
قليل ، من ذلك أنه استمنح جعفر بن يحيى اليرمكي ثوباً يلبسه يوم العيد في
الكنيسة ، قال من قصيدة :

أبوالفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا رأيتَ مهادةً لنا في الكنائس
فلا بُدَّ لي من جبةٍ من جبابكم طيلسان من خيار الطيَّاليس

(١) رقص البعير إذا أسرع في سيره ، والهدى المم تمهيد إلى الحرم ، والأشط الذي شعر
رأسه لينى وألود ، والوثج جمع عوان وهي المرأة تنصب واقع كان لها زوج

ولكن — على العموم — شعراؤهم في عصرنا قليلون ، وليس لهم كبير أثر في الشعر العربي ، ولم يكن لهم مثل الأخطل ، أو ما يقرب منه ^(١) .

٢ — كان أكبر من ذلك أثرا ما قل — من اللواعظ — عن الرهبان في الأديار ، وما قل عن الكتب النصرانية . كالذي حكى ابن قتيبة « قال بعضهم أنبت الشام فرورت بذير حرمة وبه راهب كان عينيه عدلا مزاد ، فقلت ما يبكيك ؟ فقال يا مسلم ، أبكي على ما فرطت فيه من عرى ، وعلى يوم مضى من أجل لم يحسن فيه عمل ! قال ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا أسلم وغزا فقتل في بلاد الروم » ^(٢) ويقول ابن قتيبة أيضا قرأت في الإنجيل « لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والديد ، وحيث ينهب السراق ، ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم ، الخ » ^(٣) وفي العقد الفريد « قال عيسى عليه السلام للحواريين لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد . فإنما الناس رجلان مبتلي ومعا ، فارحوا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » ^(٤) « ولقي رجل راهبا فقال يا راهب صف لنا الدنيا ، فقال الدنيا تخلق الأبدان وتجدد الآمال وتباعد الأمتية وتقرب التمنية » ^(٥) إلى كثير من أمثال ذلك .

ومن غريب الأسر أن هذه الأديار كانت منبعاً لشيثين متناقضين أشد التناقض ، كانت منبعاً لزهد وورع وبعد عن الدنيا وشئونها ، ومحطاً لبعض زهاد المسلمين ، يروون عن الرهبان أقوالهم في الحرب من اللذات كالذي رويها . وكانت كذلك مناح الخلايميين من الشعراء والأدباء يخرجون إليها ، ويتشبهون بفتيانها وفتياتها ، ويقولون في ذلك القول الخليل والشعر الجليل . ذلك أن

(١) انظر مصداق ذلك « كتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام » للأب لويس شيخو .

(٢) ميون الأخبار ٢ : ٢٩٧ . (٣) ميون ٢ : ٢٧٠ .

(٤) العقد ١ : ٣٥٦ . (٥) عقد ١ : ٢٧١ .

الأديار كانت غالباً في أجمل المراضع ، وأحسنها هواء وأجملها منظرًا ، تحيط بها أنواع البساتين وتجميل فيها الأزهار والرياحين ، قال المبحرِيُّ :

ما تُقَصِّى بُبَاهَهُ عِنْدَ بُنْيَى وَالْمَعْنَى بِالنَّائِيَاتِ مَعْنَى
نَزَلُوا رَبْوَةَ الْعِرَاقِ ارْتِيَادًا أَيْ أَرْضٍ أَشْفَى دَارًا وَأَسْفَى ؟
بَيْنَ دَيْرِ الْعَاقُولِ مُتَبَعٍ أَشْرَفَ مُحْتَلُهُ إِلَى دَيْرِ قُنَى
حَيْثُ بَاتَ الزَّيْتُونُ مِنْ فَوْقِهِ النَّخْلُ عَلَيْهِ وَرُقَى الْحِمَامُ تَقَعَى

وشاع عند الشعراء ما فيها من خمر معتق ، وشراب جيد مصفى .

إِنَّ هِجْرًا كَمَا نَكُونُ وَعَبْنَا أَنْ نَرَى صَاحِبَيْنِ فِي دَيْرِ قُنَى
حَبْذَا رَوْضُهُ الْتَدَبُّجُ لَيْلًا وَهَوَاهُ ذَاكَ التَّمَسُّكُ رَدْنًا
قَدْ جَرَى السَّلْسِيلُ بِالسِّكِّ فِيهَا فَحَوَتْهُ الدَّنَانُ ، دَنًا فَدْنًا

ويظهر أن الحمارين استفلوا شهرة الأديار بالشراب ، فأنشثوا حولها الحانات ، قال ابن فضل الله العمري « وكانت حول دير العذارى حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات »^(١) وكانت تقام لبعض الأديار أعياد سنوية ، قال الخلالى فى دير الكلب « وله عيد فى وقت من السنة يخرج إليه خلق من النصارى نساء ورجال للإقامة عندهم وخلق من المسلمين للنظر إليه والنزهة فيه ، ويجمع إليه أهل الرفث والمجان ، وتُسمع به الأغاني وأنواع للملاهي ، وتذبح به الذبائح وتشرب الخمر »^(٢) .

اغتم الحجان من الشعراء هذا كله ، فأنشثوا حول الأديار أدبا غزيرًا ، وشعرا كثيرا ، هو من الناحية الفنية بديع ممتع ، مثل قول ابن المعتز :

يَا لَيْلَى بِالطَّيْرِ وَالْكُرَى خُودِى الشَّوْمِيَّ بِاللهِ عَوْدِي

(١) سالك الأبصار ١ : ٢٥٨ . (٢) ٢٥٤ .

كنتِ عندي أُمُودَ جاتٍ من الجنة لكنها بغير خلود !
أشربُ الرَّاحَ وهي تشربُ عَليَّ وعلى ذلك كان قتلُ الوليد
وقول آخر :

ما ترى الدَّيْرَ ، ما ترى أسفل الدَّيْرِ وقد صار وزدةً كالدهان ؟
لو رآه الثَّمان شقَّ عليه ما يرى من شقائق الثَّمان
وآخر :

فتننا صورةً في يَمَّةٍ فتَنَّ اللهُ الذي صورها
زادها الناقشُ في تحسينها فَضَلَ حُسْنَ إلهٍ نصَّرَها
وجَّهها لاشك عندي فتنةً وكذا هي عند من أبصرَها
أنا للقسَّ عليها حاسِدٌ ليت غيري عبثاً كسَّرها

وسرت هذه العادة في كل الأقطار ، فجد شعراء العراق والشام ومصر
يتشبهون بالأديار ومن فيها وما فيها ، وتقرأ كتاب الديارات للشابشي ومسالك
الأبصار لابن فضل الله العمري ، فتعجب من كثرة ما قيل من الشعر فيها وسكانها .
وترجم قد سلكوا في ذلك كلَّ مسلك ، وتفننوا كل فن ، وهم بين مستهزئ ومحتشم
وطريف ومؤدب وخليع ماجن . وهكذا كانت الأديار مصدراً لفتنتين كانت
الناس يسمعونهما كثيراً في ذلك العصر : نفمة حزينة زاهلة ، تدعو إلى الفرار
من الحياة وارْتِباب الموت . ونفمة مريحة لاهية ، تدعو إلى احتساء الكأس إلى
آخر قطرة من قطراته ، كلٌّ يوقع على الوتر الذي يهواه ، وكلٌّ يقف على ليلاه .



كذلك نفذ إلى المسلمين بعض عادات اليهود والنصارى الدينية ، فقد اتخذ
بعض المسلمين أعياد النصارى عيداً فيوم السَّعائين^(١) عرف في العصر العباسي

(١) السعائين عيد النصارى قبل الفصح بأسبوع .

وما بعده ، وقالت فيه الشعراء شعراً كثيراً . من ذلك ما يقوله عبد الله بن
المباس بن الفضل بن الربيع :

يا شادِنَا رَامَ إِذْ مَرَّ فِي السَّعَانِينِ قَتْلِي
يَقُولُ لِي كَيْفَ أَصْبَحْتَ ، كَيْفَ يُصْبِحُ مِثْلِي؟!

ويقول :

يا لَيْلَةَ لَيْسَ لَهَا صُبْحٌ وَمَوْعِدًا لَيْسَ لَهُ نَجْحٌ
مِنْ شَادِنٍ مَرَّ عَلَى وَعْدِهِ السَّيْلَادُ وَالشَّلَاقُ وَالذَّبَّاحُ^(١)
وَفِي السَّعَانِينِ لَوْ أَنِّي بِهِ وَكَانَ أَقْصَى لِلْوَعْدِ الْفُضْحُ
فَاللَّهِ اسْتَعْدَى عَلَى ظَالِمٍ لَمْ يَنْصِرْ عَنْهُ الْجُودُ وَالشَّحُّ

ويقول :

إِنَّ فِي الْقَلْبِ الظَّيِّ كَلُومٌ فَدَعِ اللَّوْمَ فَإِنَّ اللَّوْمَ لَوْمٌ
حَبْذَا يَوْمُ السَّعَانِينِ وَمَا نِلْتُ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ لَوْ يَدُومُ!
إِنْ تَكُنْ أَعْظَمْتَ أَنْ هِمْتُ بِهِ فَالَّذِي تَرْكَبُ مِنْ عَذْلٍ عَظِيمٌ
لَمْ أَكُنْ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْهَوَى فَدَعِ اللَّوْمَ فَذَا دَاءٌ قَدِيمٌ^(٢)

ويقول :

إِنْ كَفَتْ ذَا طَبَعَ فِدَاوِينِي وَلَا تَلَمْ فَاللَّوْمُ يُغْرِبُنِي
يَا نَظْرَةً أَبَقْتَ جَوَى قَاتِلَا مِنْ شَادِنِ يَوْمِ السَّعَانِينِ الْخ
ويرى ابن تيمية أن اتخاذ المسلمين القبور مساجد كان تقليداً لليهود
والنصارى ، وروى في ذلك الأحاديث الكثيرة مثل « إن من كان قبلكم كانوا
يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد » ويقول الشافعي

(١) الميلاد واللاق والذبح أمياد النصارى (٢) انظر كذلك فسى الإسلام ص ٨٨

« وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس »^(١) وعدد كثيراً من البدع التي أدخلت على زيارة القبور من أبنية الأضرحة وإيقاد المصابيح والتوجه بالدعاء نحو القبور ، وحتم ذلك بقوله « وكل هذه الأشياء من البدع التي تضارع دين النصارى »^(٢) .

وعلى الجملة ، فنظرة إلى هذا كله ترينا أنه قد تسرب إلى المسلمين — في العصر العباسي — شيء غير قليل من اليهودية والنصرانية في التفسير والحديث ، والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد ، وأنهما كانتا عنصرين من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر .



موسم — : ليس من غرضنا — هنا — أن نبين تعاليم الإسلام وما دعا إليه ، وما أتى به من أصول وفروع ؛ فوضع ذلك قد مر في جحر الإسلام ، وإنما غرضنا أن نبين تاريخ الإسلام في العصر العباسي ، فهو بموضوعنا البقي .

ليس من شك أن العباسيين لم يضيفوا كثيراً من البلدان والأقطار إلى رقعة المملكة الإسلامية ، فنحن إذا قارناها في ذلك بالدولة الأموية رأينا المهد الأموي أكثر فتحاً ، وأعظم نشراً للإسلام ؛ ففيه فتح السند وبخارى وتمرقند إلى كاشغر ، في حدود الصين . وفحصت الأندلس وكان الفاتحون — كما رأينا — فيهم الدعاة إلى الدين ، وفيهم العلماء ، فلم يكن الفتح فتحاً سياسياً حريماً فقط ، بل كان أيضاً نشراً للدعوة الإسلامية ، وتعليماً لأصول الإسلام وفروعه ، ووضماً للنظم الإسلامية وتعليماً للغة العربية وما إليها . وتبع ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام^(٣) ، وكان أكبر ثم

(١) ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٠ وما بعدها .

(٢) ص ١٧٥ وقد عهد في هذا الكتاب أشياء كثيرة من العادات والتقاليد التي أخذت من أهل الكتاب والمجوس فأرجع إليه . (٣) دوى بعض المؤرخين أن العراق كان ينفذ من الجزية في عهد عمر بن الخطاب نحو مائة مليون درهم ثم ١٢٠ مليوناً نقص في عهد عبد الملك ابن مروان إلى نحو ٥٠ مليوناً من كثرة دخول المسلمين في الإسلام .

العباسيين أن يُبقوا على التراث الذى ورثوه عن الأمويين ، ويحافظوا على وحدته ، فنجحوا بعض النجاح أولاً وفشلوا أخيراً ، وعلى العموم لم يزيدوا شيئاً يذكر من الأقطار الأجنبية على للملكة الإسلامية .

ولكن — مع هذا — كان للعباسيين أثر كبير فى دخول عدد عديد فى الإسلام ، من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، مما فتح فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين .

وفى نظرى أن العباسيين من حيث هم أصحاب السلطان وأولياء الأمر والقابضون على زمام الدولة ؛ بذلوا فى هذا الباب جهداً أكثر من الخلفاء الأمويين — إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز — فقد كان نشر الدعوة فى العهد الأموى عمل قواد وعلماء وأفراد متدينين أكثر منه عمل حكومة ، ولم يكن للخلفاء الأمويين — غالباً — مظهر دنى من هذا القبيل . أما الخلفاء العباسيون فقد صبغوا صبغة دينية ظاهرة ، ونظر إليهم كأنهم حماة الإسلام . وكان أبو جعفر المنصور أكبر من أحاط الخلافة بالإجلال الدينى ، وقوى من حرمة البيت العباسى ، لا من ناحية القوة المادية — فحسب — بل من ناحية القوة الروحية كذلك . وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لما ضعف نفوذهم المادى ، وفقدوا السلطان على الرعية ، ولم يك شيئاً من القوة فى أيديهم ظلت هذه السلطة الروحية فيهم ، يستغلها القواد والأشرار والوزراء وأصحاب السلطان المادى ، فيستجلبون رضى العامة بإعلان رضى الخليفة عنهم وإمداده الروحى لهم . ومن مظاهر ذلك فى هذا العهد أن رأبنا البيعة للخلفاء تحاط بأنواع من المراسم والشعائر لم تكن معروفة ، وتؤكد البيعة فى الحرم ، ويطلب شأن إجماع أولى الحل والعقد ونحو ذلك .

صبغة الخلفاء العباسيين بهذه الصبغة جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة ، ويتدخلون فى المسائل الدينية بأكثر مما كان الأمويون . من ذلك أن

نرى المهدي — كما سبق — يتعقب الزنادقة ، ويميّز من على أمرهم ، ويعاقب من ظهر منهم ، ويحث العلماء على وضع الكتب في الرد عليهم ، ويسير من بعده من الخلفاء سيرته ، وذلك ما لم نعهده من قبل المهدي . ونرى الرشيد يتصل بالقضاة والعلماء اتصالاً لم نعرفه في العهد الأموي ، فلا نجد — مثلاً — قاضياً كان من الخليفة الأموي من القرب والاتصال ؛ ما كان أبو يوسف من الرشيد .

ويصور أبو يوسف نظر الناس إلى الخليفة في عصره ، فيقول للرشيد في أول كتابه الخراج « وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاية الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم » وقد إبراهيم بن السديّ أمام للآمون على ركبته ، فقال له للآمون تمسكن في قودك ، فقال إبراهيم : والله لا أضع قدر الخلافة ، ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدي مولاه ^(١) .

ويقول البحتري للمتوكل ويذكر خروجه يوم عيد الفطر :

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| أظهرت عزَّ الملك فيه يحفظ | لحب يحاط الدين فيه وينصر |
| خِلنا الجبال تسير فيه وقد غدت | عُدَّ يسير بها القديد الأكثر |
| واخليلُ تصهل والفوارس تدعى | والبيضُ تلع والأسنة تزهر |
| والأرضُ خاشعة تهيلُ بتقلها | والجوُّ مُتكيرُ الجوانب أغبر |
| حتى طلعت بضوء وجهك فانبجكت | تلك الدجى وانجاب ذاك العتير |
| واقفان فيك الناظرون فإصبع | يؤى إليك بها وعين تنظر |
| يمجدون رؤيتك التي فازوا بها | من أنتم الله التي لا تكفر |
| ذكروا بطلعتك النبي ضلوا | لنا طلعت من الصغوف وكبروا |

(١) طيفور ٦٨ .

حق انتهت إلى لأصلي لآيساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهو ولا يتكبر
فلان مشتاقاً تكلف فوق ما في وُسْمِهِ لمشي إليك للنبز
أبدت من فضل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق للبين وتخبر
ووقفت في بُرْدِ النبيّ مذكراً بالله تنذر تارة وتبشر
حتى لقد علم الجاهل وأخلصت نفسُ الرّويّ واهتدى للشعير
صالحاً ورائك آخذين بعصمة من ربهم وبذمة لا تُخفّر

وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء في نشر الدعوة إلى الإسلام ، مع ما كان من حمية الناس وحاستهم للدعوة . ولذلك رأينا كثيراً من أهل الملل الأخرى يدخلون في الإسلام أفواجا ، ولم يكن السبب لدخولهم واحداً ، فهناك — من غير شك — أسباب لتلك متعددة .

منهم من كان يطمع اقتناعاً بالإسلام ، وإيماناً ببساطة عقيدته ويسرها وسهولة فهمها . فيكنى أن يقول الرجل « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ليمد مسلماً من غير مراسم ولا مقوس ، وفي أى مكان وعلى يد أى إنسان .

وساعد على ذلك ما لاحظته الأستاذ أرنولد « من أن المذاهب النصرانية من يعاقبة ونساطرة وملكانية وغيرها ، كان بينها من العداء واضطهاد بعضها بعضاً أشد مما كان بين أهل دين ودين آخر ، فليس عجيباً أن يهرب آلاف من هذا الاضطهاد والمذاب ، ويلجئوا إلى عقيدة سهلة هي عقيدة الوحدانية »^(١) .

وقد عمل — بجد — في نشر الدعوة في ذلك العصر التكلمون من المسلمين وعلى رأسهم المعتزلة ، ذلك أن هؤلاء التكلمين هم الذين كانوا يبحثون في الإسلام ، ويعلمون آراءه وتعاليمه من طريق العقل ؛ على حين أن المحدثين

(١) انظر Preaching of Islam لأرنولد ص ٦١ وما بعدها .

والمفسرين وأمتالم كانوا يخلعون الإسلام من طريق النقل . فاضطر المتكلمون
تحمياً مع العقل أن يتسلحوا بكل ما يعينهم في سبيلهم ، فاستعانوا بالنطق اليوناني
يصوغون في قوالبه قضاياهم ، وعرفوا آداب الجدل وللناظرة وتقييدوا بقوانينها ،
وقرؤا بعض كتب الفلسفة اليونانية . فيذكر المرتضى « أن النظام كان قد نظر
في شيء من كتب الفلاسفة ، فلما وردَ البصرة كان يرى أنه قد أورد من لطيف
الكلام ما لم يسبق علمه إلى أبي الهذيل العلاف . قال فناظرت أبا الهذيل في
ذلك ، فغفل إلى أنه لم يكن متشاعلاً قط إلا به لتصرفه فيه وحذقه في المناظرة
فيه »^(١) ويقول في موضع آخر : « إن جعفر بن يحيى البرمكي ذكر أرسططاليس .
فقال النظام : قد قضت عليه كتابه ، فقال جعفر كيف وأنت لا تحسن أن
تقرأه ؟ فقال أبا أحب إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره ، أم من آخره إلى
أوله ؟ ثم اندفع يذكر شيئاً فشيئاً وينقذه عليه فتمجّب منه جعفر »^(٢) ثم نظروا
في كتب الديانات الأخرى وتبحروا فيها ، فيقول المرتضى أيضاً : « إن النظام
كان يحفظ القرآن والإنجيل وتفسيرها »^(٣) ووصف رجل واصل بن عطاء فقال :
« ليس أحد أعلم بكلام غالبية الشيعة ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدةرية
والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه »^(٤) وبعد أن أعد المتكلمون — وخاصة
المعتزلة — أنفسهم هذا الإعداد نزلوا في الميدان وقاموا بعملين ، أحدهما : أنهم
نازلوا الطوائف الأخرى الإسلامية المخالفة لهم يجادلونهم ويردون عليهم ،
ويدعونهم إلى عقائدهم الخاصة . فالمعتزلة تحارب الحنابلة ، والمعتزلة تنازل الرافضة .
تجادلوا جميعاً في الجبر والاختيار ، وفي صفات الله وفي التجسيم ، وفي الثواب
والعقاب . وروت لنا الكتب الشيء الكثير من هذا الجدل ، وليس هذا
الوضع محله . وثانيهما : منازلتهم لأهل الديانات الأخرى من مجوس ويهود

(١) المنية والأمل ص ٢٩ .

(٢) ص ٢٩ .

(٣) ص ٢٩ .

(٤) ص ١٨ .

ونصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام . وكانت هذه الحركة عنيفة في عصرنا ، على أشد ما يكون من العنف ، مانوية يدعون إلى دينهم ويظهرون محاسنه ، ويهاجون الإسلام ويأتون بالحجج ، ويهود ونصارى كذلك . ولم يكن المحدثون وأمتالم يستطيعون أن يقوموا بمناهضتهم ، إنما الذين استطاعوا ذلك وانتدبوا أنفسهم للقيام به هم المتكلمون ، حكى المرتضى « أن ملك السند طلب إلى الرشيد أن يبعث إليه من يناظره في الدين فبعث الرشيد إليه قاضياً لا متكلماً — لأن الرشيد كان قد منع الجدل في الدين وحبس علماء الكلام — فأتى ملك السند سُمَيَّةً ليجادل القاضى فسأل السمنى القاضى ، أخبرنى عن معبودك هل هو القادر ؟ قال نعم ، قال أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال القاضى . هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة وأحبابنا ينكرونه . فقال السمنى للملك : قد كنت أعلمتك دينهم . وكتب ملك السند بذلك إلى الرشيد فقامت قيامته وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ قالوا بلى يا أمير المؤمنين ، هم الذين نهيتهم عن الجدل في الدين ، وجماعة منهم في الحبس . فقال : أحضروهم فلما حضروا قال ما تقولون في هذه المسألة ؟ فقال صبي من بينهم : هذا السؤال محال ، لأن الخلق لا يكون إلا غدًا ، والحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر ، كما استحال أن يقال يقدر أن يكون طائرًا أو جاهلاً ، فقال الرشيد : وجهوا إليه بهذا الصبي ، فقالوا إنه لا يؤمن أن يسأله على غير هذا ، فقال اختاروا غيره ، فاختاروا معمر بن عباد السلى (من شيوخ المعتزلة) فسم في الطريق » (١) .

عرف المعتزلة المانوية واليهودية والنصرانية معرفة واسعة ، كما عرف علماء هؤلاء الطوائف الإسلام . وبذل كل فريق الجهد في الدعوة إلى دينه والرد

على مخالفته فأسلم على يدهم كثيرون : يقول (المرتضى) إنه أسلم على يد أبي الهذيل العلاف — شيخ المعتزلة — أكثر من ثلاثة آلاف رجل^(١). ويقول ابن خلكان « إن لأبي الهذيل كتاباً يعرف بميلاس ، وكان ميلاس رجلاً مجوسياً فأسلم ، وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور ، وجماعة من التنوية قطعهم^(٢) أبو الهذيل ، فأسلم ميلاس عند ذلك »^(٣) وحكى الجاحظ « أن قساً نصرانياً راهن على أن الصليب الذي في عنقه من خشب لا يحترق ؛ لأنه من العود الذي كان للمسيح عليه السلام صلب عليه ، وكاد يفتن بذلك ناساً من غير أهل النظر حتى فطن له بعض المتكلمين ، فأثام بقطعة عود تكون بكرمان ، فكانت أبقي على النار من صليبه »^(٤). وحكى المرتضى في أماليه « أن أبا الهذيل في حديثه بلغه أن رجلاً يهودياً قدم البصرة ، وقطع جماعة من متكلميها ، فقال لعمه : يا عم امض بي إلى هذا اليهودي حتى أكله ، وأخ عليه في ذلك ، فذهب إليه وما زال به حتى أخذه »^(٥). ويذكر ابن خلكان أن واصلاً ألف فيها ألف كتاباً في الدعوة ، والظاهر أنه في الدعوة إلى الإسلام ، أو الدعوة إلى مذهب الاعتزال . وقد رأينا قبل أن الجاحظ يؤلف رسالة في التصاري ، يذكر حججهم ورد عليها وروى ابن النديم : أن المأمون أرسل إلى يزدان بنخت — أحد رؤساء اللانوية — فأحضره من الري — بعد أن أمنه — فقطعه المتكلمون . فقال له المأمون : أسلم يا يزدان بنخت فلو لا ما أعطيناك إياك من الأمان لكان لنا ولك شأن ! فقال له يزدان بنخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك

(١) ص ٢٦ .

(٢) يعني ألزمهم الحجة وقد استعملت كلمة قطعهم في هذا المعنى كثيراً في ذلك العصر .

(٣) ابن خلكان ١ : ٦٨٥ . (٤) الحيوان ٥ : ٩٥ .

(٥) انظر الحكاية بطلوها في أمالي المرتضى ١ : ١٢٤ .

من لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم . فقال للمأمون أجل ، ووكل به حفظة
خوفا عليه من التوغاء ، وكان فصيحاً لساناً^(١) .

وبجانب هؤلاء العقليين الذين يدعون إلى الإسلام — من طريق العقل
والحجج المنطقية — كان من يدعو إلى الإسلام من طريق السيرة
الطاهرة ، والخلق النبيل ، والحياة الصالحة ، فكان داعياً من طريق المثل .
ومن ذلك ما حكى ابن خلكان « قيل إنه أسلم يوم مات أحد بن حنبل
عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس »^(٢) أو من طريق الوعظ
والتصوف ، فأبو القاسم الجنيد يقف على حلقاته في المسجد غلام نصراني .
ويسلم^(٣) . وبعد هذا المعسكران أبو الفرج بن الجوزي واعظاً مؤثراً وقد أسلم
على يده كثيرون .

وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء في الدعوة إلى الإسلام للصفة
الدينية التي شرعناها قبل .

وكان المأمون من أحرصهم على ذلك ، فحوله للتكلمون ، يدعون
إلى الإسلام . وهو بمنه يفسر دعوته ، روى البلاذري قال : « لما
استخلف المأمون أغزى الشعب وأشرؤسنه ، ومن انتقض عليه من أهل فرغانة ،
الجنذ وألح عليهم بالحروب والفارات أيام مقامه بخراسان وبعد ذلك ، وكان
مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب
فيها » وقال : « وكان المأمون — رحمه الله — يكتب إلى عماله على خراسان
في غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر ، ويوجه
رسله فيغرضون لمن رغب في الديوان . . . ويستميلهم بالرغبة فإذا
وردوا بابه شرهم وأسنى صلاتهم وأرزاهم ، ثم استخلف المعتصم بالله

(١) التمهت ٣٣٨ (٢) ابن خلكان ١ : ٢٣ (٣) ابن خلكان ١ : ١٦٥

فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والأشروسنه وأهل الشاش ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الإسلام على من هناك»^(١) .

وكان رجل من خراسان ، نصرانياً فأسلم فارتد ؛ فأمر المأمون بحمله إلى بغداد ، فسأله ما الذى أوحشك من الإسلام ؟ فقال المرتد : أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف في دينكم ! قال المأمون : فإن لنا اختلافين ، أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجناز والاختلافات في التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات . واختلاف وجوه الفتيا ، وما إلى ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من الحنفية فن أذن مثني وأقام فرادى ، لم يؤثم من أذن مثني وأقام مثني ، لا يتعايرون ولا يتعابرون ، أنت ترى ذلك عياناً ، وتشهد عليه ببياناً . والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذى أوحشك هذا ، حتى أنكرت كتابنا ؛ فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع ما في التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيهه ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات . . . ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويحمل كلام أنبيائه ، وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لقول ، ولكننا لم نر شيئاً — من الدين والدنيا — دُفع إلينا على الكفاية . ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة . فارجع الرجل إلى الإسلام فخر المأمون ساجداً لله ، ثم قال لأصحابه : لا تَبْرُؤوه في يومه ربنا يعتق إسلامه كيلاً يقول

(١) فتوح البلدان ٤٣٦ و ٤٣٧ طعة مصر .

عدوه إنه يُسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بركة ونصرته وتأييده^(١) .
على كل حال نشط الخلفاء العباسيون الأولون في الدعوة إلى الإسلام ،
ولكن قل أن كان منهم إكراه على الدخول في الإسلام ، كما رأينا في موقف
الأمون نحو يزدانبحث ، فقد اعترف بأن للأمون لا يجبر الناس على ترك
مذاهبهم ، وأقره الأمون على قوله ، يقول الأستاذ « قَنِسِنَك » : « ومع أن
نصارى الشرق كان يقل عددهم باعتناقهم الإسلام ، قلّ منهم من
أسلم كرهاً »^(٢)

نعم ، صدر من بعض الخلفاء في ذلك العصر من اشتد في معاملة
المسيحيين ، كالذي رواه الطبري في حوادث سنة ١٩١ قد قال : « إن الرشيد
أمر بهدم الكنائس بالنفور ، وكتب إلى السّندي بن شاهك يأمره بأخذ
أهل الذمة — بمدينة السلام — بمخالفة هيتهم هيئة المسلمين في لباسهم
وركوبهم »^(٣) ولكن هذا وأمثاله كان أثراً من آثار سوء العلاقات السياسية
بين الدولة الإسلامية والملكة البيزنطية ، لا أثراً للتعالم الدينية ، وإلا فلم
كان أمر الرشيد مختصاً بأهل الذمة في بغداد ، دون سائر الأقطار الإسلامية ؟
وغلّت الأوامر بمخالفة الدّميّين في لباسهم والتشديد عليهم تنمو مع نمو سوء
العلاقات السياسية حتى بلغت أشدها ، في أيام الحروب الصليبية ، صدى لما
كان من معاملة الروم للمسلمين .

كذلك لا ننكر أن بعض من أسلم إنما أسلم لنيل الجاه والنصب ،
كالذي كان من كاوس ملك أشروسنة ، فإنه لما غلب في الحرب أظهر
الإسلام ، وكذلك ابنه حيدر المعروف بالأفشين ، والذي مات في سجن
المعصم نزدقته كما أبنا من قبل^(٤) . وحكى الجعشيارى أن الفضل بن سهل (وكان

(١) طيفور ص ٦٠ ووردهت الحكاية في العقد الفريد مع غلاف في بعض النسخها .

(٢) Muslim Creed ص ٢٨ . (٣) طبري ١٠ : ١٠٠ .

(٤) انظر البلاذري ص ٤٣٦ و ٤٣٧ .

محبوساً) نقل ليحيى بن خالد البرمكي كتاباً من الفارسية إلى العربية ، فأنجب بفهمه وبجودة عبارته ، فقال له يحيى : إن أراك ذكياً وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأنتم ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا ، والإحسان إليك ، فقال نعم ، أصلى الله الوزير ، أسلم على يدك فقال له يحيى لا ، ودعا بسلام مولاه فقال خذ بيدهما الفتى وامض به إلى جعفر وقل له يدخله على المأمون وكان المأمون في حجر جعفر — حتى يسلم على يديه ، ففعل وأسلم على يد المأمون^(١) . وهو الذى صار فيما بعد وزير المأمون ، والذى لقب بذى الرياستين . كما أسلم بعض الناس فراراً من الجزية ، حتى إن بعض الولاة كتب إلى الحجاج « إن أنتراج قد انكسر ، وإن أهل الذمة قد أسلموا ، ولحقوا بالأمصار ، فأخذ الحجاج منهم الجزية مع إسلامهم ، وجعل قراء البصرة ييكون لما يرون ! »^(٢) ولكن هذه الجزية لم تكن بالرهقة « فعى لا تؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذمى يتصدق عليه ، ولا من المترهين الذين فى الديار إذا لم يكونوا من أهل اليسار . ولا تؤخذ الجزية من الشيخ الكبير الذى لا يستطيع العمل ولا شئ له »^(٣) ويدفع الفنى ٤٨ درهما كل سنة ، ويدفع الوسط ٢٤ درهما ، والعمال والصناع ونحوهم ١٢ درهما^(٤) . وهذا مقدار محتمل ، لا يدعو كثيرين أن يهربوا من دينهم .

وكما أثر النصارى فى المذاهب الإسلامية ، والمادات — كما أسلفنا — أثر المسلمون فى النصارى ، فقد ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام . من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين

(١) الوزراء ٢٨٧ (٢) ابن الأثير ٤ : ١٧٩ (٣) أنتراج لأبي يوسف

(٤) واللهدم نحو قرشين مصريين ونصف قرش .

ظهرت في سبتانيا (Septimania) ^(١) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القس ، وأن ليس للقس حق في ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قيسون وورهبان وأحبار ، فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف ^(٢) .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصُور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع الميلادي أو القرن الثالث والرابع الهجري ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الإمبراطور الروماني ليو الثالث أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمر آخر سنة ٧٣٠ م ، يمد الإتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة ايريني من مؤيدي عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون أن كلوديوس (Claudius) أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨ م وحول ٣١٣ هجرية) والذي كان يحرق الصور والصابان ، وينهى عن عبادتها في أسقفيته ، ولد ورُبِّي في الأندلس الإسلامية ^(٣) . وكرهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة . روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترتُ سهوةً لي بقرامٍ فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه وتلّون وجهه ، وقال يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت قطعناها فجعلنا منه وسادة أو وسادتين ^(٤) » والأحاديث في هذا الباب مستفيضة . كذلك وجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة الثلاث بما يقرب

(١) سبتانيا مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

(٢) خداجش (٣) حداجش (٤) السهوة النافذة بين الدارين والقرام الستر .

من الوجدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام ^(١) .

ومسألة أخرى كبيرة الأهمية في عصرنا الذي تؤرخه . تلك هي أن تصور كثير من المسلمين الإسلام في ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له في العصور الأولى ، حياة العرب الساذجة البسيطة السهلة تمعدت ، والديانات المختلفة تسربت والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو مانويين أو نحوم دخلوا في الإسلام ولم تنقّ رموسهم من كل ما عاق بها من الديانات القديمة . وقد عاشوا في المدنيت المركبة المعقدة ، فنظروا إلى الإسلام بعيونهم ، لا بالعين العربية الأولى . وحق ما يقال : إن الأمم وإن أتمدت ديناً فكل أمة يختلف نظرها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى ، وهي تنظر إلى الدين من خلال تاريخها ونظما الاجتماعية ، من خلال أديانها المتعاقبة . ومن خلال لغاتها وتقاليدها ، ومن خلال ثقافتها وتربيتها ، إلى غير ذلك . كل المسلمين يقولون « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكن نظر العالم الواسع الثقافة إلى الإسلام غير نظر العامي الجاهل ، وكلاهما غير نظر الصوفي ، وهكذا . بل نظر المسلمين من للصريين — على وجه العموم — إلى الإسلام ؛ يختلف في تفاصيله عن نظر افنود المسلمين والأثرائك المسلمين . لأن كل أمة تداول عليها من العوامل ما يخالف غيرها ، وذلك — من غير شك — خالف بين أنظارهم وتقاليدهم ، والناس كانوا ينظرون إلى الإسلام نظراً يختلف باختلاف العصور ، بمعنى في ذلك ما رواه البخاري والترمذي عن أنس بن مالك التوفي سنة ٩٠ هـ قال : « ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : الصلاة ؟ قاله أليس صنعت ما صنعت فيها ! » ^(٢) فأنس رضي الله عنه قد شاهد عصر النبي

(١) Malce's Christianity of Islam in Spain ص : ١١٦ .

(٢) باب الاتصال بالسنّة .

صلى الله عليه وسلم وعصر الأمويين ومع قرب العصورين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال ، فكيف إذا شاهد المباسين ومن بعدهم . قد كان الإسلام سهلاً يسيراً ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن هذا الدين يسر ، وإن يشأ الدين أحدٌ إلا غلبه » . ويقول : « لا تشدوا على أنفسكم فيشدّ عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »^(١) ، وكان القاسم بن محمد بليس الخنز ، وسالم بن عبد الله بليس الصوف ، ويقعدان في مسجد للدينية ، فلا يتكر هذا على هذا ، ولا ذا على هذا^(٢) » وكان هناك نزعة لبعض الصحابة في الغلو في الدين ، تقاومها رسول الله صلى الله عليه وسلم . كالأذى كان بينه وبين عبيد الله بن عمرو ، فقد بلغه أنه لا ينام ولا يقطر ، ولا يؤدي حقوق أهله انتهى كما في العبادة . فقال له رسول الله يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة حسنة ، فرسول الله يصوم ويقطر ويأكل اللحم ، ويؤدي إلى أهله حقوقهم . يا عبد الله إن الله عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً . وبعد هذا رأينا تشدداً في دين ، وابتداعاً لتقاليد ، وغلو في نواح مختلفة ، منهم من بليس الصوف ويلتزمه ، ومنهم من ينلو في الإنكار عليهم « قدم حماد بن سلمة البصرة ، فجاءه فرقة السنجي ، وعاليه ثياب صوف . فقال له حماد دع عنك نصرانيتك ! »^(٣) وقال ابن السبك لأصحاب الصوف ، والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرايركم ، قد أحبيتم أن يطلع الناس عليها ، وإن كان مخالفاً لقد هلكتكم ! » وكان بعض الموالى يتشدد في الوضوء والطهارة ، وينلو في ذلك غلو لا يعرفه العرب . فكان العرب يكرهون منهم ذلك^(٤) ، إلى كثير من أمثال هذا

(١) أخرجه أبو داود .. (٢) المقدم القريد ١ : ٢٥٠ .

(٣) المقدم ١ : ٢٥٠ . (٤) انظر المقدم ٢ : ٩١ .

وهناك ما هو أهم من هذا ، ذلك أن الناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبمده كانوا يقرءون القرآن أو يسمعونهُ فيُفْتَنُونَ بفهم رُوحه ، فإن عنى علماءهم بشيء وراء ذلك فما يوضح الآية من سبب للنزول ، أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظا غريبا ، أو أسلوبا غامضا . وأكثر ما روى لنا في الطبرى وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل ، وما عرفنا في العصر الأول انخياز الصحابة إلى مذاهب دينية ، وآراء في اللال والتحل . فلما كنا في آخر العصر الأموى رأينا الكلام في القدر ، ورأينا المتكلمين فيه ينظرون إلى القرآن من خلال عقيدتهم ، فن قال بالجبر أول كل آيات الاختيار . ومن قال بالاختيار أول كل آيات الجبر . وسال بمد ذلك السيل في العصر العباسى ، فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم . ولئن كان هذا النظر أقاد من ناحية الجدال بين المسلمين ، وغيرهم والدعوة إلى الإسلام — كما بينا في موقف للمعتزلة — فقد أساء بإضمار الروح الدينية وما كانت توحيه من إحياء القلب . أصبح علماء الكلام وللذاهب الدينية ، ينظرون إلى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية ، وذلك إن كان فيه مرآة عقل وتوسيع لبعض مناحى الفكر ، ففيه إضمار لقوة الروح وحاسة القلب ؛ سواء في ذلك المعتزلة والأشعرية والماتريدية ، فكلهم استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية ، وهى غير العارفة التى نحاها القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين ، لقد كادوا بسلهم هذا يقطعون الصلة بين العقل والقلب ، ويتكئون الناحية العقلية على حساب قوة العاطفة ، إن شئت فاقرا — لإثبات قدرة الله — قوله تعالى « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ثم اقرا — في

كتب علم الكلام — الجدَل بين الأشعرية والماتريدية في أن القدرة صفة أزلية تتعلق وفق الإرادة ، بمعنى صحة صدور الأثر والتسكن من الترك كما يقول الماتريدية ، أو هي صفة تؤثر في القدورات عند تعاقبها كما يقول الأشاعرة . فكم من الفرق بين المنهجين والروحين ! أمْ غرض القرآن الكريم أن يحمي الشعور ببيان علاقة الإنسان القوية بالله والعالم ، وأن يعمل على ذلك بتنفيذ الحياة الروحية . أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المنطق ، وشتان بين الطريقين ! فحياة المنطق لا تملأ القلب حماسة ، ولا تبعث في النفس حرارة إيمان ، إنما تفعل ذلك الحياة الروحية .

لقد كثرت المذاهب والنحل في ذلك العصر كثرة مذهبة ، حتى يصنفهم للأمنون فيقول : « وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجاساً ، اعتقد به رئاسة ، لعله يدسوقه إلى ضرب من البدعة . ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه في الأمر الذي عقد به رئاسة بدعة ويشيط بدعه ، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالمة عليه » (١) الخ . ونستعرض أسماء الفرق والمذاهب في كتاب اللل والنحل للشهرستاني ، فندش لكثرتها واختلافاتها . وهذه كلها كانت تنظر إلى القرآن الكريم بمن مذهبها وتفسره بما يلائمه . فالمنزلى يطبق القرآن على مذهب في الاختيار والصفات والتصحيح والتصحيح العقليين ، ويؤول ما لا يتفق ومذهبه ، وكذلك يفعل الشيعة ، وذلك يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين إلى القرآن .

كان القرآن يدعو إلى الإيمان من طريقين : طريق النظر إلى العالم نفسه وطريق التاريخ . فهو يرى أن نظر الإنسان إلى العالم يدعم إيمانه ويقوى يقينه ، ففي الرياح والسحاب للسخر بين السماء والأرض ، والإبل كيف خافت والسماء كيف رفعت والأرض كيف سطعت آيات على الله ؛ كما أن في الأحداث

(١) طيفر ٧٨ .

التاريخية من الأنبياء وأهمهم ما يدعو إلى الإيمان ، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم . ففي استطاعة العالم والجاهل أن ينال الإيمان من هذا الطريق ، والدعوة إلى الحياة الروحية وحدها هي الدعوة التي يمكن أن توجه إلى الناس كافة . فلما أولع العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حوّلوا اتجاه القرآن نفسه إلى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ، ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والمنفعة والهيئة ، فكان في ذلك إضرار بالدين من ناحيته القلبية . ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الإسلامية السهلة السمعة ، حتى صار يمثلها تعاليم المتكلمين من معتزلة وأشعرية ، وأصبح أخيراً يمثلها « العقائد النسفية » و « متن الشنوسية » وشعر بهذا النقص قوم من الصوفية المخلصين ، فدعوا إلى الإسلام من منهجه الأول ، ولكن سرعان ما تحول بعضهم أيضاً إلى الفلسفة يستمد منها ، كما سنبينه إن شاء الله .

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا إلى القرآن من خلاها ، فإذا أتت آية في الرد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجردية ، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبقوا ما علموا من علم الهيئة ، وإذا أتت إشارة في آية إلى جبر أو اختيار عدّوا مذاهب المتكلمين فيها ، وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين . وعلى الجملة ، قد كدّسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية ، وتضخم ذلك على توالى الأزمان ، كما ترى بعد في تفسير الفخر الرازي ، ففيه كل شيء وصل إليه المسلمون إلا شيئاً واحداً ، هو شرح روح القرآن .

* * *

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من ناحية الدين فقد كان لها فضل كبير من الناحية الدينية أيضاً ، ذلك أن الناس واجهوا

مشكلة كبرى في العصر العباسي ، وأوامديات عظيمة لأُم مختلفة ، وورثتها للملكة الإسلامية ، وأوامادات مختلفة لأُم متعددة في جميع مناحي الحياة ، وأوامامامامات تجارية ونظماً للأحوال الشخصية تأثرت بديانات الأُم المختلفة . وهكذا في كل ناحية من النواحي الاجتماعية ، سواء كانت نواحي اقتصادية أم سياسية أم قانونية . وأواما — من ناحية أخرى — أن الإسلام أتى بأصول يجب المحافظة عليها ، وأتت فيه نصوص كذلك على جزئيات يجب مراعاتها ، ولكن في كل عصر تحدث من الأفضية والأحداث ما لم يكن حدث من قبل ، ولم يرد فيه نص . فكان أمام العلماء أن ينظروا بإحدى العينين إلى قواعد الإسلام وتعاليمه ، وبالعين الأخرى إلى المدينة العباسية ، وما جدَّ فيها من مظاهر وأحداث شتى ، وكان لا بد من أن يطبقوا قواعد الإسلام على تلك الأحداث — ولم يكن هذا بالأمر الهين — نعم عرضت هذه المشكلة في تاريخ الإسلام من قبل العباسيين ، قد واجهها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بعد أن فتحت الفتوح ومُصرت الأمصار ، ودخلت أُم مختلفة العقائد والنظم واللغات تحت حكم الإسلام ، وبذلك من المجد هو ومن حوله من العلماء ما لا يقدر ، وضرب مثلاً صالحاً لمن يأتي بعده . ولذلك نص للشرعون على العمل برأيه في كثير من نظام الفتح والجهاد والضرائب ، ونحو ذلك ، وعدوه مثلهم الذي يحتذى . وواجه هذه المشكلة الأمويون ، فخوروا في نظم اللواوين والنقود ونحوها ، فخطوا بذلك خطوة ثانية . ولكن للمشكلة أمام العباسيين كانت أعقد لأن الدهشة الفتح قد زالت ، والأُم التي دخلت في الإسلام استقرت ونسكت جيلاً جديداً ، ورث من آباءه وورث من المسلمين . والعباسيون — كما رأينا قبيل — لم يشاموا أن يعيشوا عيشة ساذجة كمن قبلهم من الأمويين ، وتغلبت العناصر الأخرى كالقرس ذات الحضارة المركبة ، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يضعوا نظماً كاملة شاملة ،

وأن يواجهوا هذه المشاكل ويحلوها حلاً بقوانين ومبادئ لا بأمر جزئى ولا برأى فرعى ، فأعادتهم العلوم فى ذلك العصر على هذا كله ، ولولا العلوم لما استطاعوا . فرأينا أبا يوسف فى كتابه « الخراج » يضع النظام المالى للدولة الرشيد ، فيقرر نظام الأرض ومسحها ، وما يؤخذ منها وكيف يكون ذلك ، ويضع نظام الضرائب غير الأرض مما يخرج البحر ونحوه ، ويضع نظام الرى من الآبار والأنهار . ونجد الأئمة الأربعة وغير الأربعة يجهلون فى وضع القوانين من مالية وجنائية وما يسمى بالأحوال الشخصية ، وغير الفقهاء يضعون نظاماً إدارية كنظام الشرطة والجند والجيش ، وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الإداريين فينظر فى التوفيق بينهما ، ويوضع نظام البريد والمصانع والتجارة ونحوها ، كل هذه حركات كانت فى الدولة العباسية نشيطة قوية ، وكانت خاضعة فى مبادئها للقواعد الأساسية للإسلام . وبذلك نستطيع أن نقول : إنه فى هذا العصر قُنى الإسلام وأصبح هو النظام لحكومة ممدّنة — بالمعنى المصرى — نعم كان هناك خروج عن الإسلام فى بعض التصرفات ، وكان هناك قص فى تنفيذ الأحكام القضائية ، وكان هناك نقص فى إعطاء الأحكام الفقهية سلطة القانون ، ولكن هذا لا ينقص ما ذكرنا من أن الروح العامة — فى التشريع ووضع النظم — كانت تنقيد بأصول الإسلام . وأنه لولا اشتغال المسلمين بالعلم فى فروعِه الخفيفة ما كان يمكن ذلك .

وهذا الإسلام بتعاليمه ونظم حكمه خن كل الأمم الإسلامية على اختلاف أنواعها من آريين وساميين وحاميين يخضعون لسلطانه ، ويجرون فى نظامهم وقضائهم ومعاملاتهم على ما قنن من أحكامه . ومن أجل هذا أخذت الفروق بين الأمم تنقلص ويحل محلها وحدة إسلامية . ومن أجل ذلك أيضاً كانت هذه الوحدة متجلية فى العصر العباسى أكثر مما كان فى العهد الأموى ، ودخل الإسلام فى الحياة العامة وفى السياسة وفى الإدارة ،

وتأثر التشريع بعبادات الناس ، وتأثرت عادات الناس بالتشريع .
كان الإسلام ديناً في مكة ، وكان ديناً وحكماً في المدينة ، وكان ديناً وحكماً
ومدنية في بغداد وسائر المملكة الإسلامية في العصر العباسي . ولعل هذا من
الأسباب التي دعت إلى دخول كثيرين في الإسلام في ذلك العصر ، فقد
كان الناس يتنفسون إسلاماً أينما حلوا ، في البيت ، في الشارع ، في المحكمة ،
في المعاملات التجارية ، في الضرائب ، في التعليم ، في كل مرافق الحياة .

* * *

وبعد فقد كان للإسلام ثقافة واسعة من تفسير القرآن واشتغال بالحديث
وتشريع الأحكام ، ولكن محل ذلك كله الكلام في الحركة العلمية إن
شاء الله .

الفصل السادس

امتزاج الثقافات

هذه الثقافات التي ذكرنا من فارسية وهندية ، ويونانية وعربية . ومن يهودية ونصرانية وإسلام ، التقت كلها في العراق في عصرنا الذي نؤرخه . ولكن كل ثقافة في أول أمرها كانت تسقى لنفسها جدولاً خاصاً بها يمتاز بلونه وطعمه ، ثم لم تلبث إلا قليلاً حتى تالقت ، وكوّنت نهراً عظيماً تصب فيه جداولٌ مختلفة الألوان والطعوم ، مختلفة العناصر .

والعلماء — على اختلاف أنواعهم — لم يكونوا كلهم يستسيغون ماء النهر الأعظم ، ولا يتنوفون طعمه ، فكان منهم من يخرج إلى بادية العراق يَرِدُ الجدول العربي صافياً قبل أن تكدره الحضارة ، يستقي منه ما شاء أن يستقي ، ويعود إلى الحضرة وقد تزود مما استساغ من ماء يمش عليه ولا يشرب إلا منه ، وإذا استسقى فلا يسقى إلا منه ، أولئك أمثالُ الأصمعي الذي حفظ — كما يقولون — اثني عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب ، وحفظ الكثير من قصائدهم ونوادرهم ولتتهم ، وتخصص لذلك يؤلف فيه ويعلم في المسجد ومحاضر الخلفاء والولاة وأمثالهم . وكأبي زَيْد الأنصاري الذي يحيد نوادر اللغة وغريبها . وكحماد الراوية وخَلْف الأحرر والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني وعبد ابن سلام الجعفي ، هؤلاء كانوا لا يمجهم إلا الجدول العربي ، يرحلون إليه يأخذون منه ، وينقلون في قبائله ، ويروون شعره ولفته وأدبه ، ويقصون نوادره مهما تَمَيَّهَتْ ، ويحيئون كل شيء له . ثم يذهبون إلى العراق يطنون عن مائة ، ويبشرون بمذوبته وصفاته . فإن عرض لهم ماء من جدول

آخر عاقوه واستكروهه ونجته نفوسهم .

ومنهم من كان لا يجب إلا الجدول اليوناني ، يتعلم كتبه ولغته ، ويستلهم مؤلفاته ، ولا يرى العقل إلا فيه ، ولا الحكمة إلا صادرة عنه ومقتبسة منه ؛ كأطباء السريان في ذلك العصر ، وهكذا .

ومن الناس من يستقى من جدولين ، يرد هذا مرة وذاك مرة ، حتى إذا علّ ونهل ملأ منهما كلّ أنيته ، وعاد فزج المنصرن وكون منها شرايباً جديداً يستسيغه الناس فيُعجبون به ويستطعمونه ؛ كالذي فعل أبو عبيدة معمر بن لثلي فهو مؤلف فارسي ، اطلع على آداب الفرس وأخبارها وبلوكها وحكاياتها ومحاسنها ومساوئها ، وعرف أخبار العرب وقبائلها ولغتها وأغاصيها وحقايقها وخرافاتهما ، وروى أيام العرب التي يتناقلها المؤرخون إلى اليوم . فكان واسع الاطلاع في الأديين — العربي والفارسي — وكان يجلس إلى الناس فيحدث بأخبار هؤلاء وهؤلاء ، ويقارن بين مفاخر العرب ومفاخر الفرس ، ويؤلف الكتب في هذا وفي ذاك ، يؤلف في « فضائل الفرس » و « مآثر العرب » ومثالبهم فطلع على الناس بثقتين في وعاء واحد ، فكرهه من تعصب للعرب ، ورأوا مائه ليس صافياً ، ولا طعمه بالذي ألفوه واعتادوا الرى به . وأحبه من ينزع إلى الفرس كالوصلي وأبي نواس ، ومن يفسح صدره لكل علم وخبر ، ويرى الحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث وجدها كالجاحظ .

ومنهم من تنقف بأكثر من ثقافتين ، وتأدب بأكثر من أديين كما سيأتي بيانه .

وفي الحق ، إن الجدول العربي كاد يكون مستقى الناس جميعاً ، إذا نحن استثنينا طائفة من السريانيين الذين يتقفون بالثقافة اليونانية ، أو الجوس الذين يتأدبون بالأدب الفارسية ، ويدينون بالديانة الزردشتية وأمثالهم .

أما غير هؤلاء فكانوا يأخذون بمحض الجدول العربي قل أو أكثر ، ذلك لأن الدولة السياسية عربية بخلفائها ولتها ودينها ، ودولة الأدب عربية ، فلا يحيا فيها إلا ما كان عربياً ، فاضطر كل ذى أدب وكل ذى علم ، وكل ذى لنة أن يتعلم اللغة العربية ، يصوغ فيها أفكاره وأدبه وعلمه . فن تبخر في العلوم اليونانية وجب أن يُخرج ما علم إلى اللغة العربية . ومن تأدب بالأدب الفارسي فلا قيمة له إلا أن يخرج أدبه باللغة العربية . وإذا كان رياضياً هندياً ، أو طبيياً هندياً فليس له حظوة إلا أن يعرب ما علم ، وهكذا . لذلك كان هذا الجدول مورداً للأدباء والعلماء ، وكان من ذلك أن قوماً وفروا جدهم له ، يتبحرون فيه ولا يستقون إلا منه . وقوماً تبخروا في غيره ، ولكن اضطروا إلى وروده وفردوه ، يستعينون بمائه على إساعة ما عندهم للناس .

وهنا يعترضنا سؤال لا بد منه ، وهو : أى أنواع الثقافات كان أكبر أثراً وأشد نفوذاً وأقوى سلطاناً ، الثقافة العربية بما لها من لغة وأدب ودين ؟ أم الثقافة الفارسية بما لها من نظام وأدب ؟ أم الثقافة اليونانية بما لها من علم وفلسفة ؟ وإن شئت وضعت السؤال بهذه الصيغة : أى الثقافات كان أكثر تأثيراً في الثقافة العربية ، الثقافة الفارسية ، أم الثقافة اليونانية ؟ نعم ، كلتا الثقافتين لونت الثقافة العربية بلون ما كان يكون لولاها ، ولكن أى اللونين كان زاهياً ناضراً ، وأيهما كان ضعيفاً شاحباً .

ذلك سؤال عويص ، ولكن يظهر لي أن أسدّ طريق الانحياز إجابة مطلقة ، أن نقول : إن كل ثقافة من هذه الثقافات كانت لها « منطقة نفوذ » لا تكاد تزاوحها فيها الثقافة الأخرى ، فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك وطب وما إليه وفلسفة وما إليها كانت منطقة النفوذ

اليوناني ، تزامها فيها الثقافة الهندية ، ولكن مزاجها غير عتيقة . فأساس هذه الأعياء كلها عند المسلمين هو الأساس اليوناني — وإن كان بعض أركانها هنديا — والنهج الذي اتبع في هذه العلوم منهج يوناني في منطق وطريقة تأليفه ، وما علق عليه من شروح . وكتب هذه العلوم عليها مسحة خاصة هي غير المسحة الأدبية ، وهي غير المسحة الجغرافية والتاريخية ، هي مسحة يونانية بمجة ، لأنها تأثرت كل التأثير بما ترجم من اليونان ، وظلت حافظة لشكلها ، حتى أن ألف المسلمين فيها . وقد بدأت الرياضة الهندية والفلك الهندي تدخل في ثنائيا ما ألف للمسلمون في هذه العلوم ، ولكنها ما لبثت أن ذابت .

أما الأدب ، فلم يتأثر كثيرا بالأدب اليوناني ، وهذا ظاهر في ألف من الكتب في هذا العصر ، فنهجها غريب لا يتصل بسبب إلى النهج اليوناني ، فلا أثر للترتيب المنطقي فيه ، ولا ترى وحدة للكتاب ولا للباب ، كما رأينا في كتاب الكامل للبرد ، وكما نرى في البيان والتبيين للجاحظ ، إنما هي جزئيات جمعت حيثما اتفق ، هي أشبه بسر العلماء في المجالس . فأما موضوع واحد يرتب فيه كل ما يراد أن يقال وتسلسل أفكاره ، وتسلك ألفه إلى يائه بالتدرج ، كما يفعل العقل اليوناني ، فذلك ما لا نجده في كتب الأدب العربي .

هذا من ناحية الشكل ، وأما من ناحية الموضوع ، فإن ما فيها من أدب شرقي فارسي أو هندي أكثر مما فيها من أثر يوناني . ففيها الحكم عن أردشير وبزرجمهر أكثر مما عن أفلاطون وأرسطو ، وفيها نظام الحكم الفارسي لا نظام الحكم اليوناني ، وفيها تصور للعدل وطبقات الناس ، كما يتصوره الفرس ، وفيها توقيعات للوك وقصصهم مع رعيتهم على النحو الفارسي لا النحو اليوناني ، وعلى الجملة فنغوذ الفرس في الأدب أكثر من

نفوذ اليونان . وقد حاولنا فيما سبق بيان السبب في ذلك .

ومما يجب التنبيه له أن كثيراً من حاملي لواء الأدب في ذلك العصر ، من شعراء وكتاب كانوا من أصل فارسي من ناحية الأبوين معاً أو أحدهما ثم تعلموا اللغة العربية وحذقوها . فكانت تجديدهم للأدب مديناً للفرس والعرب معاً ، فأدخلوا على الأدب العربي عناصر جديدة لم تكن ، فبشّار الفارسي يخترع تشبيهات جديدة لم يستعملها العرب ، وأبو المتاهية زعيم الشعر الديني والسابق إليه من الموالى ، وأبو نواس المتخصص في الخمر وما إليه ، والناجح للناس باباً من الهجاء لم يلجأه من قبل هو نصف فارسي . وكذلك الثّيان في الكتاب وما أدخلوا من أسلوب ، كآبن المقفع وسهل بن هارون . كل هؤلاء كانوا من أصل فارسي أو ما يقرب منه فأنتجوه — من غير شك — نتاج للأصل الفارسي والثقافة العربية ، وملؤن بالحياة الاجتماعية التي كان يعيشها العراقي . وقل أن نجد من هؤلاء الأدياء من كان من أصل رومي ، يتلون بلون الروم ، ويتتقف بثقافتهم ، وإذا كان الأدب العباسي أسلاً كبيراً من أسس الأدب جرى الناس بعد على منواله وحذوا حذوه . وإذا كان من سام في هذا الأساس هم الفرس لا اليونان ، أمكننا أن نستنتج أن نفوذ اليونان في الأدب العربي ضعيف .

ثم من الحق أن نقول : إن نفوذ العرب في أدبهم — وخاصة في شعرهم — كان أقوى من أي نفوذ آخر ، فقد ظل الشعر حافظاً لأوزانه الجاهلية وتقاليدهم إلى عصرنا هذا ، ولم تستطع أمة بنفوذها مهما عظم أن تحوله . وكل ما قلنا من أثر فارسي ، فإنما كان في بعض العناصر — التي تصب في القالب — لا في القالب نفسه ، وأبو نواس يحاول أن يخرج على الجاهليين ، ويقول :

صِفَةُ الطُّولِ بِلَاغَةُ الْقُدَمِ . فَاجْمَلْ صِفَاتِكَ لِابْنَةِ الْكَرَمِ

ولكنه — مع هذا — لا يستطيع أن يتحرر من قيوده ، ولو فعل لما قرئ

ولا سمح . ويصف الجاحظ شعور الناس — في عصره — نحو الشعر الجاهلي والثرث الجاهلي ، فيقول : « إنهم يفضلونه على الشعر الإسلامي ، وهم به أكثر ولوعاً ، وأشدّ تقديرًا » . ويقول : « إنهم يعدّون حاتمًا أجود العرب ، ولو كان الأمر مفوضاً إلى تقدير الرأي لكان ينبغي لفالب بن صمصمة أن يكون من المشهورين بالوجود ، دون هرم وحاتم . فإن زعمت أن غالباً كان إسلامياً ، وكان حاتم في الجاهلية ، والناس بآثر العرب في الجاهلية أشدّ كلفاً فقد صدقت ! » ويقول : « إن أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس ، وأحل في الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد . . . ومع الإسلام الذي شملهم ، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحانهم ^(١) » كل هذا جعل تأثير الأدب الجاهلي في الأدب الإسلامي شديداً قوياً ، وجعل الإسلاميين يحتذون حذوه ولا يخرجون — كثيراً — عن قيوده . فلئن كانت الثقافات الأجنبية في العلوم واضحة الأثر فأثرها في الأدب خفيف ، ولو كانت شديداً قوياً لأدخلوا على بحور الشعر الجاهلية بحوراً فارسية أو يونانية ولتصرفوا أحياناً من القافية ، ولأدخلوا ضرب الشعر القصصي والتبليغي ولإسموا طريقة جديدة لنهج القصيدة ، فلم يتقيدوا ببكاء أطلال ولا وقوف على ديار ، ولهجروا الغزل الطويل يدخلون به على مدح المدح . ولعلوا كثيراً من أمثال ذلك ولحدثت ثورة في الشعر والأدب ، فنقلته قفلة جديدة كما حدثت في العلوم . نعم ، حدث تغيير من دخول بعض الفنون الشعرية ، واصطبغها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك ، ولكنه تغيير خفيف ، لا يكاد يرى إلا بالهجر . كم بين طب العرب في الجاهلية وطب حنين بن إسحق وبختيشوع من فرق ! وكم بين نظر العربي إلى الأنواء والنجوم ونظر توبخت ! بل كم بين ما روى من فقه عن ابن مسعود وما روى عن محمد بن الحسن ، ونحو

(١) حيوان ١ : ٣٧ .

أبى الأسود الدؤلى كما يروون ونحو سيبويه . . . ولكنك لا تجد هذه المسافات
الواسعة بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامى والعباسى .

وعلى الجملة فقد كانت نواحى التأثير ومصادره ومقداره مختلفة اختلافاً
كبيراً وعلى أشد ما يكون من دقة ، إن أنت حاولت أن تعبر عن ذلك بأرقام
خانتك قوتك ، ولم تجد سيلاً لذلك . كل ما نستطيع أن نقوله : إن طبيعة
الثقافة اليونانية عقلية منطقية ؛ تحاول أن تجعل لكل شيء مقدمات وتأمّج .
وهذا الضرب تجلّى عند المسلمين فى الرياضيات والفلسفة وما إليهما ، وأنت
هذه الأشياء فى العهد العباسى ومواقعها خالية — تقريباً — فكان من السهل
أن تصبح بالصبغة اليونانية من غير كبير مزاحمة ، وطبيعة الثقافة الفارسية
على ما وصلت إلينا فلسفة عملية ، من حكم تصاغ حول العدل والظلم ونظام
الحكم ، ونحو ذلك مما تراه فى الأدب الكبير والصغير لابن المقفع ، ليس
فيها مجال كبير للنظريات كما هو الشأن عند اليونان ، ولكن تجارب عملية
تجرب فتصاغ فى قالب حكمة أو مثل . وهذا النوع استساغه العرب فى أدبهم
لأنه أشبه بأمثالهم ، وطبيعة الثقافة الهندية مزيج من حكمة ، كالتى قلنا فى
الفرس تتجلى فى مثل كليلية ودمنة ، ومن نظريات فلسفية ورياضية كالتى عند
اليونان ، ولكن بلا حظ البيرونى أنهم لا يجيدون تعليلها ، ولا البرهان عليها
— كما يفعل اليونان — وطبيعة الثقافة العربية الأدبية لسانية ، أين شيء فيها
جاءها الثنى ، وإنها بنت البديهة ونتيجة السليقة ووليدة القطرة . وهذا هو
السبب فيها حكى الجاحظ ، إذ يقول : « وقد قلت كتب الهند وترجمت حكم
اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص
شيئاً . ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، مع
أنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره الحجة فى كتبهم ، التى

وضعت لمآشهم وفطنهم وحكمهم»^(١) ، وسبب ذلك : أن أسهل شيء في الترجمة المعاني المخلدة ، وأصعب شيء جمال الأسلوب ، وإذا كانت طبيعة الأدب العربي ما يبتأ كان قلبه أصعب قتل ، وكان أداؤه بلغة غير اللغة العربية ذاهبا ببعجته ، مضيقاً لجماله .

عمل على نشر نتاج هذه الطبائع المختلفة قوم مختلفون ، فوزراء العباسيين ومن نحا نحوم يؤيدون الثقافة الفارسية ، ومدرسة جندتسابور وما تفرع منها تؤيد الثقافة اليونانية ، والعرب والأدباء وعلماء اللغة والنحو يؤيدون الثقافة العربية ، وأطباء الهند يؤيدون الثقافة الهندية . وقد نشر هؤلاء جميعاً في الجوه هذه الثقافات المختلفة ، يتفنن كل منها حسب ميوله واستعداده ونوع تعلمه ، وكان الوزراء والكتاب أكثر الناس ثقافة فارسية عربية ، وكان أطباء القصور النساطرة أكثرهم ثقافة يونانية عربية ، وكان المتكلمون — على ما يظهر — أكثر ثقافة من كل نوع ، يقول الجاحظ : « وللتكلمون يريدون أن يملأوا كل شيء ويأبى الله ذلك »^(٢) .

وفي الحق ، إن المتكلمين كانوا أكبر عامل من عوامل المزج بين الثقافات المختلفة ، من نواح متعددة . فقد كانوا بطبيعة موقفهم الذي شرحناه قبل من دعوة إلى الإسلام مضطرين أن يطلعوا على الأديان الأخرى : من مجوسية ويهودية ونصرانية . وكانت اليهودية والنصرانية قد تسلحت بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ، فاضطر المتكلمون أن يتسلحوا بنفس سلاحهم ، فكانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية في الإسلام ، وكان المتكلمون حلقة الاتصال بين من قبلهم من المسلمين الذين وقفوا عند نصوص القرآن والحديث ، وبين من أتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وابن رشد ، وكان موقفهم جديداً لأنهم سلكوا غير طريق السلف وتعرضوا لمسائل كثيرة

(١) الحيوان ١ : ٣٨ . (٢) حيوان ٤ : ١٠٦ .

لم يتعرض لها من قبلهم . فقام في وجوههم طبقة المحافظين ، وعلى رأسهم رجال
الحديث ، وكانت حرب عوان نشرها عند الكلام في التكمين إن شاء الله .
كذلك كانوا صلة بين الفلسفة اليونانية والأدب ، فقد تتقنوا ثقافة
يونانية — كما رأينا — وتتقنوا ثقافة عربية من لغة وأدب ، ومزجوا الاثنين
مزجاً تاماً . رأوا معاني يونانية وأسماء يونانية ، فوضعوا لها كلمات عربية .
كما أنهم — لدعوتهم إلى الإسلام — مضطرون أن يتخيروا خير الألفاظ وخير
التعابير ، فزروا على الخطابة والبلاغة ، ووضعوا أسسها كما وضعوا أساس
آداب البحث والمناظرة ، قال الجاحظ : « كان كبار التكمين ورؤساء النظارين
فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تَخَيَّرُوا تلك الألفاظ
لتلك المعاني ، وهم اشتقُّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطاحوا
على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ،
وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا العَرَضُ والجَوْهرُ وأيس وليس ، وفترقوا
بين البطلان والتلاشي ، وذكروا الهَيْدِيَّةَ والهَوِيَّةَ والمَاهِيَةَ ، وأشباه ذلك » (١) .
وقدموا معاني للأدباء والشعراء لم تكن معروفة من قبل ، كما قدموا لهم
تعابير لم تكن ، يقول أبو نواس :

تَكَلُّ عَنْ إِذْرَاكِ تَحْصِيلِهِ عَيُونُ أَوْهَامِ الضَّمَايِرِ
نَنْقَسِبُ الْأَلْسُنُ مِنْ وَضْفِهِ إِلَى مَدَى عَجْزٍ وَتَقْصِيرِ

ويقول :

تَنَازَعَ الْأَحْدَانِ الشُّبُهَ فَاشْتَبَهَا خَلَقًا وَخُلُقًا كَمَا قَدْ اشْتَرَاكَانِ
اِثْنَانِ لَا فَصْلَ الْمَقُولِ بَيْنَهُمَا مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَالْمِدَّةُ اِثْنَانِ

ويقول :

كَفَنَ الشَّتَّانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجَرٍ

(١) البيان والتبيين ١ : ١٠٦ .

ويقول أبو تمام :

جَهِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ
قَالَ سَمِيدُ بْنُ حَمِيدٍ :

قَدْ قُلْتُ بِالْعَدْلِ وَلَكِنِّي
قُلْتُ بِالْإِجْبَارِ مُسْتَغْفِرًا
عَدَلْتُ فِي الْحُبِّ عَنِ الْعَدْلِ
لَهُ مِنْ قَوْلِي وَبَيْنَ فَعْلِي

ويقول ابن الرومي :

مَا عَذِرَ مُتَعَزِّلِيهِ مُوسِرٍ مَنَعَتْ
أَبْرَعُ الْقَدَرِ — الْمُحْتَنُومِ — يَنْسُطُهُ
كَفَّاهُ مُتَعَزِّلِيًّا مِثْلَهُ صَفَدًا
إِنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ حَلَّ الَّذِي عَفَدَا

ويقول الناشئ يفصح بالكلام والشكلمين :

وَنَحْنُ أَنَاسٌ نَعْرِفُ النَّاسَ فَضَلْنَا
نُبِيرُ وَجْهَ الْحَقِّ عِنْدَ جَوَابِنَا
بِالسُّنَنِ زَيْنَتْ صُدُورُ الْمُحَافِلِ
وَإِذَا أَظْلَمَتْ يَوْمًا وَجْهُهُ الْمَسَائِلِ
وَقُلْنَا فَلَمْ تَتْرُكْ مَقَالًا لِمَا صِيتِ
وَقُلْنَا فَلَمْ تَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ

ويقول أبو نواس :

وَذَاتِ خَطَرٍ مَرَدَّدُ
تَأْمَلُ الْعَيْنُ مِنْهَا
قَوَاهِيَةِ التَّجَرُّدِ
مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْفَعُ
وَبَعْضُهَا قَدْ تَنَاهَى
وَبَعْضُهَا بَتَوَلَّدُ
وَالْحُسْنُ فِي كُلِّ عَضْوٍ
مِنْهَا مَعَادُ مَرَدَّدُ

ويقول :

تَرَكْتُ قَلْبِي قَلِيلًا
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّأُ
مِنَ الْقَلِيلِ أَقْلًا
أَقْلُ فِي اللَّفْظِ مِنْ لَا

إلى كثير من أمثال ذلك .

وعلى الجملة كان التكمون صلة لأشياء مختلفة ، كانوا صلة بين الأديان بعضها وبعض ، وصلة بين الفلسفة والدين ، وصلة بين الفلسفة والأدب . فلو قلنا إن التكمين كانوا من أظهر الصائمين بعملية المزج لم نبعد عن الصواب .

* * *

لئن كان التكمون هم الصلة بين اليونان والمسلمين ، فقد كان الفرس المتربون صلة بين الفرس والعرب ، مزجوا ما نشئوا عليه من أدب فارسي بما تملوا من أدب عربي ، مزجوا القصة الفارسية بالقصة العربية كما في ألف ليلة وليلة ، وغيره ، ومزجوا الحكم الفارسية والتشبيهات الفارسية بالحكم والتشبيهات العربية . « كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالزرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بيت در أبيض ، على زمرد أخضر » فيقول الشعر العربي :

وَيَا قُوتِيَّ صَفْرَاءُ فِي رَأْسِ دُرَّةٍ مُرَكَّبَةٌ فِي قَائِمٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ
كَأَنَّ بَقَايَا الطَّلِّ فِي جَنَابَاتِهَا بَقِيَّتُهُ دَمْعٍ فَوْقَ خَيْدِ مُورَدٍ

وكان أردشير بن بابك يصف الورد ، ويقول : « هو دُرُّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كرمي زبرجد أخضر ، توسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ونفحات المطر » فيقول محمد بن عبد الله بن طاهر :

كَأَنَّهِنَّ يَوَاقِيتُ بَطِيفُ بِهَا زُمُرْدٌ وَسَطُهُ شُذُرٌ مِنَ الذَّهَبِ
فَأَشْرَبَ عَلَى مَنْظَرٍ مُسْتَظَرَفٍ حَسَنِ مِنْ سَحَرَةٍ مُزَّةٍ كَالْجَمْرِ فِي اللَّهَبِ

ويضع الفرس الأساطير فينحو العرب نحوهم ، فقول العرب في المنقاء يشبه قول الفرس في « سيمرغ » ومن أساطير الفرس أن مسكن السيمرغ على الشجرة التي تقي كل البنور ، وهي في المحيط الواسع على مقربة من شجرة

الخلد ، تجتمع عليها البذور التي أنتجتها النباتات كلها طول السنة ^(١) .
 . ولا تزال تنتقل الأسطورة بين العرب ، حتى يدخلها الفيروز آبادي في
 القاموس المحيط فيقول : والجزائر الخالدات ، ويقال لما جزائر السعادة ست
 جزائر في البحر المحيط من جهة الغرب ، منها يتبدى المتجمون بأخذ أطوال
 البلاد ، تنبت فيها كل فاكهة شرقية وغربية وريحان وورد ، وكل حب من غير
 أن يغرس أو يزرع ^(٢) . ويقرأ القارئ الشاهنامة ، وما فيها من أساطير فتوح
 إليه بمقارنات ومسابقات بينها وبين الأساطير العربية لا تكاد تحصى . كأسطورة
 « ازدهاك » وهو روح شريرة في الأساطير الآرية ، وفي الأبتاقي هو شيطان
 يمنع ماء السحاب أن ينزل إلى الأرض ، وعند الفرس ملك ظالم جبار يمثل
 فيه الشر كله .

وتحول الكلمة في العربية إلى الضحاك ، ويزعمون أنه عربي من اليمن
 ويفخر به أبو نواس في قصيدته التي يفخر فيها بقصطن على نزار فيقول :
 وكان مِنَّا الضحاك يعبده السخايل والعلير في مساربها ^(٣)
 ويقول صاحب القاموس والضحاك رجل ملك الأرض ، وكانت أمه جنية
 فخلق بالجن ، الخ .

وينتقل مذهب تناسخ الأرواح من الهند ، فينتشر في العراق ، ويدعو إليه
 غلاة الشيعة وبابك النورمى وأصحابه .

وهكذا تمتزج في العراق كل الثقافات ، وتبادل كل الآراء ، وتعرض
 كل الآداب فيعزى الأغاني : « أنه كان في مسجد البصرة حلقة قوم من أهل
 الجدل يتصايحون في المقالات والحجج فيها ^(٤) » ويحاجونهم حلقة للشعر والأدب .

(١) انظر الشاهنامة والتعليق عليها ص ٥٦ . (٢) القاموس مائة ج ٢ر .

(٣) انظر تعليقات الشاهنامة ص ٢٥ وما بعدها ، والسخايل الجن .

(٤) ١٢ : ١٣٨ .

وهكذا . وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من أجناس مختلفة وديانات مختلفة وآراء مختلفة ، وكانوا يتلاقون في المسجد وفي المنازل ، وفي قصور الولاة والخلفاء ، ويتحاجون ويتجادلون ، يخرج الجاحظ صباحاً إلى المسجد لطلب الحديث ، ويلتقي بعد بمجنين بن إسحق وسلمويه ، ويلقى النصراني واليهودي فيجادلها ، ويلقى البدوي العربي فيأخذ عنه . يتقابل أصحاب الديانات فيحكي كل ما ورد في كتبه عن خلق العالم ، ويتجادلون في رؤية الله هل تكون أو لا تكون ؟ وفي صفات الله هل هي زائدة على الذات أو لا ؟ على حين يتجادل الآخرون في أى الأمم خير ، ويتمصب هذا للعرب وهذا للجم ، وغير هؤلاء في لغة وفي أدب ، ويقارن العلماء بين اللغات المختلفة والآداب المختلفة . فكان من هذا كله حركة عنيفة ، لم تدع نوعاً من المذاهب والأديان واللغات والآداب يعيش وحده ، بل لم تدع جزءاً من الأجزاء إلا مزجته بأجزاء أخرى حتى صعب على الباحث أن يرد الأشياء إلى أصولها ، ولم تكن هذه العملية كعملية مزج الزيت بالماء ، يسود كل عنصر ملتئماً مع نوعه منفرداً لغيره ، ولكنه كامتزاج السكر بالماء ، أو ففحات الأزهار بالهواء . تتمزج فتبقى أبداً ، وتتلاقى فلا تفترق أبداً . وكذلك كانت الثقافات ، التقت في هذا العصر فكان أول تلاق ، وصارت على توالى المصور أشد تلاقاً ، وأكثر امتزاجاً .

وكان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج ، فإف من أسلم من الأمم الأخرى — وأعني الخاصة — يرى أن لا يكمل دينه ، ولا يقوى إيمانه إلا إذا قرأ القرآن ودرسه . فكان ذلك يدعو إلى تعلم العربية والتشف بأدبها ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية وثقافته العربية . وفي هذا مزج — على الأقل — لثقافتين ، وجمع بين عقليتين . فكثير من الفرس تعربوا ، وكثير من الروم والمنوود تعربوا ، وكثير من الأنباط تعربوا . ومعنى تعربهم أنهم أفسحوا رءوسهم

وأستهم لثقافة عربية ، تزواج مع ما نشأوا فيه وشبوا عليه ، وأنسحوا صدورهم للإسلام ليحل محل دين ولثوا عليه ، وعاشوا حينا في شعائره وتقاليده . كل هذا وذاك كان سبباً في التزواج والإنتاج ، ومن أجل هذا لا تكاد ترى في هذا العصر ثقافة مدنية أو دينية عاشت وحدها في عزلة عما حولها ، بل كان كل مؤثراً متأثراً ، وفاعلاً قابلاً ، وإن اختلفت — فيما بينها — في مقدار فاعليتها وانفعالها ، ونواحى تأثيرها وتأثرها .

وبعد ، فإن نحن أردنا أن نختار من يمثل هذه الثقافات متميزة لا نجد خيراً من الجاحظ وابن قتيبة وأبي حنيفة الدينوري . كل واسع الاطلاع ، غزير العلم ، كثير التأليف ، نال حظاً وافراً من نواحى العلوم المختلفة أولم زعيم المتكلمين من المعتزلة ، وثانيهم زعيم أهل السنة ، وثالثهم زعيم علماء النبات . كل أديب وعالم ولفوى ومؤرخ . وعلى الجلة فكأنوا هم ثلاثتهم « دائرة معارف » زمنهم ، نستطيع إذاً المنة بكتبهم أن نعرف أى شيء من العلم كان في عصرهم وأى شيء لم يكن . وهم مع هذا كله مختلفون تمام الاختلاف طعماً وذوقاً وروحاً وعقلية ونظراً إلى الحياة ، كما سيتضح عند الكلام فيهم . ولسنا نريد أن تتوسع في تاريخ حياتهم . ولا نحليل كل كتبهم . ولا الإحاطة بكل نواحيهم ، فذلك ما لا يسهه كتاب كهذا . وإنما نتكلم من الناحية التى قصدنا إليها فحسب . وهى أنهم يمثلون الثقافات متميزة . وجداول العلم مجتمعة . ونختار من كتبهم أدلها على ذلك الغرض ، وأوفاهها لهذا المقصد .

الجاحظ — هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، والأرجح أنه كنانى بالولاء . لا كنانى صليبة ، فقريب الجاحظ — وهو يموت بن للززع — يقول « الجاحظ خال أمى ، وكان جد الجاحظ أسود يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمر بن قلع الكنانى »^(١) وقد اختلف فى تاريخ مولده ولكنهم

يكادون يتفقون على تاريخ وفاته وهو ٢٥٥ هـ وأنه عُمِّر نحو ٩٦ عاماً فيكون ميلاده حول سنة ١٥٩ هـ ، ولد بالبصرة وأخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري . وأخذ النحو عن الأخفش . وأخذ الكلام عن النظم وكان يذهب إلى مَرَبِدِ البصرة يأخذ عن العرب شفاهاً . وأولع بالقراءة فقالوا (إنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان . وكان يكثر دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر) تتقف الثقافة العربية من المَرَبِدِ ، ومن علمائها أمثال الأصمعي وأبي زيد . وأنت له الثقافة اليونانية من طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن إسحق وسنؤويه وأمثالها . وحذف الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وأخذ عن أبي عبيدة ، وتوسّع في الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها . ولد في خلافة المهدي ، وكان صلياً في خلافة الهادي . وأنته خلافة الرشيد وهو شاب ، وشاهد الصراع بين الأمين والمأمون ، وكان ناخباً وقت سلطة المعتزلة في عصر المأمون ، واتصل بما كان في أيامه من حركة علمية وفلسفية . في كل ذلك شاهد سلطان الفرس وغلبيتهم ، وشاهد في أيام المتعصم سقوط الترك ، وحلّوهم محلّ الفرس ، كما شاهد دولة الواثق وسيّره سيرة المتعصم والمأمون في مناصرة الاعتزال ، وحضر دولة التوكل وقد هزم للمعتزلة وأبطل دولتهم ، ومرّت عليه دولة المتنصر والمستعبر والمعتز وهو يمانى الفالج والنقرس ، إلى أن مات في خلافة المهدي بالله . فتاريخ الجاحظ تاريخ قرن كامل ، هو زهرة النبوة العباسية ، قل أن تعلم أحد من أحداثها ما تعلم الجاحظ . أحسن بيؤس الفقراء قد نشأ فقيراً ، حتى يحكى من رآه يبيع الخبز والسّمك بسّيجان ، ويخالط العلماء على اختلاف مذاهبهم ومناحيهم . ثم يكون كانياً وقتاً قصيراً ويعترف ثقافة الكتاب ودخائلهم ، ويتفنى بما ألف ، فتكون له ضيعة تنسب إليه ، ويقتنى مالا ويبتاع يحرب فيه زرع شجر الأراك ، ويعنى بأبوابه حتى يختار لتركيبها أمهر النجارين ،

ويقتنى من العبيد من سبق أن خدم الملوك^(١) ، ويحصل بالوزراء أمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، وينتقل في البلاد فيعيش في بغداد زمناً ، ويرحل إلى دمشق وانطاكية . كل هذا أورثه نوعاً من الثقافة قيمياً ، ليس من نوع ما يؤخذ من الكتب والدفاتر ، أورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وطرق معاشهم وفضائلهم ورذائلهم . وكان الجاحظ على استعداد تام لهذا النوع من الثقافة فبال منه حفظاً وافرأ — وكما كان حسن الاستعداد في الأخذ منه ، كان كذلك في المعطاء ، فمن أكبر ما يمتاز به كتبه أنه يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ، ويجعلك تلمسها وتذوقها — على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية — فإذا أنت قرأت « الكامل » أو « أمالي القالي » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئاً من ذلك . ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية في عصره .

كُتِبَ الجاحظ في كل موضوع تقريباً من الملمين إلى بني هاشم ، ومن اللصوص إلى الذئاب ، ومن الكلام في صفات الله تعالى إلى القيان ، ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد ، ومن الإمامة إلى الخلول والمُور . فإن نحن قلنا إن كتبه « دائرة معارف » زمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس ، كانت ذلك صواباً . وللجاحظ أسلوب يمتاز به ، ولا ينسب إلا إليه . هو أسلوب الجاحظ ، تظهر فيه شخصيته ظهوراً تاماً ، حتى نستطيع من غير كثير عناء أن نعرف أى الكتب له وأيها ليست له . هو في تأليفه أنيس محاضر ، تحرّر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجِد وتقل النموض الذى كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائماً يخلط جداً بهزل ، ويسيفك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويمجد حتى إذا أعلدك للبكاء رماك بنادرة تمنع منها في الضحك ، ويأخذ بيدك حتى إذا كنت

(١) هذه الحقائق مأخوذة من كتابه الحيوان في مواضع شتى .

في أصعب موضوع وأعمق قرار قفز بك فجأة إلى السماء ، وحدثك حديثاً
 خفياً أنسلك جملك وعناك ، قال السعوى : « ولا يعلم أحد من الرواة
 وأهل العلم أكثر كتباً منه » وكتب الجاحظ مع انحرافه للشهور نجو
 صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ،
 ورفضها أحسن رفض ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف
 ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى
 نادرة ظريفة ^(١) . كما تحرر من طريقة العلماء ، في قصر نفسه على الموضوع الذي
 يتكلم فيه . فالجاحظ لا يؤمن بذلك ، وأنت عرضة لأن تجد في كتبه أدق
 الموضوعات وأجلها في أنه العناوين وأسخفها . غلبت عليه النزعة الأدبية
 في كل ما كتب حتى في الحيوان ، فهو يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات
 ويفر سريعاً من التحقيق العلمي إلى مناحي الأدب من شعر أو حكمة أو نادرة .
 ألف في مواضيع المتكلمين مثل : كتاب خلق القرآن ، وكتاب في الرد
 على المشبهة ، وكتاب في الرد على النصارى ، وكتاب الاعتزال ، وكتاب
 الإمامة ، إلخ . كتب في موضوعات سياسية تاريخية ككتاب العرب
 والموالى ، وكتاب العرب والعجم ، ورسالة في فضائل الأتراك — بمناسبة دخول
 الأتراك في جند المعتصم — وكتاب السودان والبيضان ، وكتاب الصرحاء
 والمجنأ ، إلخ . وألف في الأخلاق التي كان يشعر بها في عصره وطبقات الناس
 فألف كتاب البخلاء ، والسلطان وأخلاق أهله ، وكتاب الجوارى ، والחסد
 والمحسود ، والنساء ، والإخوان ، والحزم والعزم ، والأمل والمأمول ، والاستبداد
 والمشاورة في الحروب ، والتقضاء والولاء ، وغش الصناعات إلخ .
 وألف في النبات كتاب الزرع والبخل ، وألف في الحيوان كتاب
 الأسد والذئب وكتاب البغل وكتاب الحيوان .

وفي كل هذه الكتب — كما يدل على ذلك ما بين أيدينا منها — مزج العلم بالأدب، ولم يقتصر على ذكر البراهين النظرية، بل استعان بالتاريخ والشعر، وبما يعرف من أحداث، وما جرب هو نفسه من تجارب. ومزج ما تعلم بما قرأ، بما سمع، بما شاهد، بما جرب. كما مزج الشعر الجاهلي بالشعر الإسلامي، بعلم أرسطو، بطب جالينوس. كما مزج آي القرآن الكريم بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم برأى الطبيعيين والدهريين، باليهودية والنصرانية، برأى الزردشتيين والماتويين. وفي الحق إن هذا كله مزيج عسر المهضم، لولا ما حظي به من أسلوب سمح فضفاض، ونفس مرحة تقدر كل التقدير النادرة الحلوة، والفكاهة المذبة.

وبعد؛ تغير كتبه التي يظهر فيها هذا الامتزاج وانحما قوياً كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان.

كتاب البيان والتبيين : — هو كتاب في الأدب من آخر ما ألف الجاحظ^(١). مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة، ممزوجة بما له من آراء في مسائل عدة. ويذكر ياقوت أن الكتاب نسختان «أولى وثانية والثانية أصح وأجود»^(٢)، ولست أدرى أية النسختين هي التي في أيدينا.

بدأ بالتعوذ من الله، وساق الأشعار في فمه وحكاية موسى عليه السلام في طلبه من الله تعالى أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وانتقل إلى فصاحة اللسان ونعمتها، والعي ورداءته، وعاب التشديق والتعوير والتعقيب وفضله على العي المتزايد والمحصّر المتكلف، واستطرد من ذلك إلى فصاحة

(١) من الأدلة على ذلك أنه لم يشر إليه في ثبت كتبه في أول الحيوان مع أن كتاب الحيوان من آخر كتبه تأليفاً كما يستفاد من كلامه وأنه ألفه وهو مريض سن وقد أشار في البيان والتبيين إلى كتابه الحيوان بما يدل على أنه ألفه بعده ٣ : ١٧٣ و ١ : ١٣٨ .
(٢) مجمع الأدباء ٦ : ٧٦ .

واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ولغته في الراء ، وأنه كان يقول القمح بدل البر وجره ذلك إلى الكلام في أن البر أفصح أو القمح ، وانتقل منه إلى اختلاف لغات العرب في استعمال الألفاظ . فقبيلة تستعمل غرفة وأخرى عليّة وهكذا ، ثم رجع إلى واصل وما كان بينه وبين بشار ، وذكر قصائد في مدح المعتزلة ، وإذا كان واصل أثنى ، فقد عقب ذلك بالكلام على اللثغة والحروف التي تدخلها اللثغة والتي لا تدخلها ، واستطرد من اللثغة إلى عيوب اللسان على العموم من فافأة وتمتمة ، ثم ما يعرض للخطيب من منححة وسملة ، ويربط ذلك بالخطابة وانطباء من القبائل المختلفة ، وعدد كثيراً منهم ومن الخطباء الشعراء . وكان أحد الخطباء الذين ذكروهم ، في كلامه صغير يخرج من موضع ثناياه فجره ذلك إلى الكلام في الأسنان وعلاقتها بالخطابة ، والجدال في أن سقوط الأسنان كلها أقل عيباً للخطيب أو سقوط بعضها ، ثم انتقل من ذلك إلى الكلام في الألفاظ المتنافرة والحروف المتنافرة ، وأسلمه ذلك إلى الكلام في اللكنة ، وعدد قوم من الالكناء ، وبذلك تم الباب الأول . ويطول بنا القول لو سرنا معه في الكتاب كله تتبع خطاه ونرصد انتقالاته ، وحسبنا أن نذكر هذا مثلاً يبين القوضى في تأليفه ، ولا تظن أن موضوعاً من هذه الموضوعات التي ذكرنا قد فرغ من الكلام فيه ، فسترى في ثنايا الكتاب الرجوع إليه مرة بعد مرة .

بعد ذلك عقد باباً للبيان ، وباباً في ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء والأمرءاء ، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل . ثم فصلاً عرض فيه للبلغة ما هي وباباً في اللسان وباباً في الصمت ، وأبواباً أخرى في الشعر والخطب ، ثم باباً في الأسجاع من الكلام ، ثم عاد إلى الخطباء والبلغاء وبيان قبائلهم وأسماهم ، وباباً في أسماء الكهّان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان . وقال في أول الجزء الثاني : إنه أراد أن يرد على الشيعية في طعنهم على خطباء العرب ، ولكنه أحب أن يصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول

رب العالمين والسلف للتقدمين ، والجللة من التابعين واسترسل في مختار من الحديث وانحطبت والحكم والألفاظ ، وتكلم فيه في اللحن والحقى والمجانين وكتب وصايا ونوادر لبعض الأعراب ، حتى أتم الجزء الثانى ، فإذا جاء الجزء الثالث فأوله كتاب المصا فى الرد على الشعوبية . ثم كتاب فى الزهد تكلم فيه على التمسك وكلامهم وأخلاقهم ومواعظهم ، ثم باب فى دعاء الصالحين والسلف للتقدمين ، ودعاء الأعراب ، ثم مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم .

وفى كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط ، واستطرد لا يحد . والحق أن الجاحظ مستول عن القوضى التى تسود كتب الأدب العربى ، فقد جرت على منواله ، وحذت حذوه ، فالبرد تلميذه تأثر به فى تأليفه ، والكتب التى ألفت بعد كميون الأخبار والعقد الفريد فيها شئ من روح الجاحظ وإن دخلها شئ من الترتيب والتبويب . ذلك أنا نرى أن الكتب التى ألفت فى العصر العباسى الأول كانت أساس التأليف ، وهى التى حددت نوع القالب الذى يصب فيه العلم ، فكتاب سيبويه فى النحو حدد الطريقة التى يتبعها النحاة فى التأليف ، وكل ما عملوا بعده أن أوسعوا أو بسطوا أو اختصروا . وكتب محمد بن الحسن الشيبانى حددت طريقة التأليف فى الفقه ، وكتب للنطق الأولى هى التى سارت عليها كتب للنطق الأخيرة . ولما كان كتاب البيان والتبيين أول كتاب ألف فى الأدب على هذا النحو كان أثره فى الأدب كأثر هؤلاء الذين ذكرنا فى علومهم ، وكان الجاحظ مسئولاً عما فيها من نقص وعيب . وأوضح شئ من آثار الجاحظ فى كتب الأدب إذا قورنت بالعلوم الأخرى القوضى وكثرة الزاح . ويجون يصل إلى الفحش أحياناً ، ولسنا نريد أن نحمل الجاحظ كل مسئولية فى هذا فقد تكون طبيعة الأدب نفسها داعية إلى ذلك ولكن مما لا شك فيه أن الجاحظ كبير الأثر ، ولو كان قد وضع الأساس غيره لكان قد تشكل الأدب شكلاً آخر .

والذى يهتما هنا مظهر امتزاج الثقافات فى هذا الكتاب والحق إن للثقافة العربية فيه للظهر الأكبر ، والسبب فى ذلك أن الكتاب كتاب أدب وقد أبنا قبل أن أثر تلك الثقافات فى الأدب أقل منها فى العلوم ، ومع هذا لفظ الثقافات الأخرى فى هذا الكتاب غير قليل ، انظر إليه وهو يقارن بين آراء الأمم فى تعريف البلاغة فيقول « قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل والوصل ، وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي (الروماني) ما البلاغة ؟ قال حسن الاقتضاب عند البداية والتزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندي ما البلاغة ؟ قال وضوح الدلالة وابتهاز الفرصة وحسن الإشارة »^(١) . وينقل صحيفة عن الهنود فى البلاغة وشروطها^(٢) ، وينقل عن فتى من النصارى الشروط التى يجب أن تتوفر فى من يختار جاثليقا^(٣) ، وينقل أن كسرى أنوشروان قال لبزرجمهر أى الأشياء خير للمرء العمى ؟ قال : عقل يعيش به ، قال فإن لم يكن له عقل ، قال فإخوان يسترون عليه ، قال فإن لم يكن له إخوان ، قال فال يتحجب به إلى الناس ، قال فإن لم يكن له مال ، قال ففى صامت ، قال فإن لم يكن ذلك ، قال فموت مرهم^(٤) . وينقل عن المسيح ابن مريم أنه سئل من يجالس ؟ قال من يزيد فى علمكم مفعقه ، وتذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم فى الآخرة عمله . ويحكى أن المسيح مر يقوم بىكون فقال ما لمؤلا يىكون ؟ قالوا يخافون ذنوبهم ، قال اتركوها يفتركم^(٥) . ويحكى أسطورة الخطباء الذين تكلموا عند الإسكندري لما مات^(٦) . ويقارن بين مقدرة العرب على الخطابة ومقدرة الفرس والرنج ، ويحكى أن للفرس كتابا فى صناعة البلاغة وأن لليونان « منطقا » يعرف به السقم من الصحة والخطأ من الصواب ، وأن للهنود كتباً فى الحكم والأسرار من قرأها عرف غور تلك

(١) البيان والتبيين ١ : ٧٥ (٢) ١ : ٧٩ (٣) ١ : ٩٦ .

(٤) ١ : ١٥٨ (٥) ٢٥١ : ١ (٦) ١ : ٢٥٥ .

المقول وغرائب تلك الحكم^(١). ويرى أن كلام الفرس يصدر عن فكرة وطول روية واجتهاد وخلوة ومشاورة ومعاونة ، وكلام العرب صادر عن بديهية وارتجال ، حتى كأنه إلهام^(٢) ، ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا وعادة الجائليق في اتخاذ القناع والمظلة والمكازة والعصا^(٣) . ويحكي مذهب التناسخ الذي أبقا قبل أنه للهند^(٤) ، وينقل في باب الزهد كلاما طويلا لميسى عليه السلام^(٥) ، ويحكي مواعظ لداود عليه السلام^(٦) ، ويحكي عن أردشير أنه قال « احذروا صولة الكريم إذا جاع والثلثم إذا شبع »^(٧) الخ .

عدا مثل من أمثلة للزج بين الثقافات ، فقد رأيت أنه عرض أدب العرب وأدب الفرس ، وحكم الهند ونصائح اليهودية والمسيحية . هذا إلى أنه ينقل عن فرس تعربوا ويذكر حكمهم ، كسهل بن هارون وابن القفيع والأسوارى وهى — ولا شك — وليدة فرس وعرب . ولكن بالمقارنة نرى — كما أشرنا — أن للأدب العربى في هذا الكتاب الحظ الأكبر والنصيب الأوفر ، لأنه موضوعه . وهناك نواح أخرى لدراسة كتاب البيان والتبيين ، كبحت أى مثال احتذى فى تأليفه ، والفكرة التى عرضت له فى ترتيبه ، ومقدار الثقة به والاعتماد عليه ، وشيوخه الذين أخذ عنهم ومصادر الكتاب إلى غير ذلك ولكن موضع هذا كله البحث الأدبى .

كتاب الحيوان : — كذلك هو كتاب ألقه الجاحظ أخيراً بدليل ثبت كتبه التى عدها فى صدره ، وإن كان ألقه قبل البيان والتبيين . وقد ذكر فى مواضع عدة من الكتاب أنه ألقه لبيان ما فى الحيوان من الجبج على حكمة الله العجبية وقدرته الباهرة ، وهذه الناحية من النظر أبانها القرآن الكريم فى غير موضع « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ

(١) البيان والتبيين ٦ : ٧٠ (٢) ٢ : ١٥ (٣) ٣ : ٥١ .

(٤) ٣ : ٥٩ (٥) ٣ : ٨١ و ٩٢ و ٩٩ .

(٦) ٣ : ٩٠ (٧) ٣ : ١٠١ .

الشجرَ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَمَّتِ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » . « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّهَا » إلى أمثل ذلك ، وسميت سور من القرآن بأسماء بعض الحيوانات ، كسورة البقرة والأسماء والتحل والنمل والقيل . ونسب إلى الإمام علي وصفه البديع الطلّاءوس ودلالته على قدرة الله ، وإن كنا في شك من صحة نسبتها إليه . واتجه المعتبرة في العصر العباسي هذا الاتجاه ، وأجاد فيه قبل الجاحظ بشر بن الْمُفْتَمِر ، أحد زعماء المعتزلة ومما قال في ذلك قصيدتان طويلتان تقع إحداهما في ستين بيتاً ولأخرى في سبعين ، وقد أوردهما الجاحظ في كتابه الحيوان ^(١) وشرحهما شرحاً مطولاً ، من إحدى القصيدتين قوله :

تَبَارَكَ اللَّهُ وَسُبْحَانَهُ مَنْ يَبْدِيهِ النِّعَ وَالضَّرَّ
مَنْ خَلَقَهُ فِي رِزْقِهِ كُلَّهُمْ الذِّئْبُ وَالتَّيْتُلُ وَالْفَرَّ ^(٢)
وَسَاكُنُ الْجَوِّ إِذَا مَا عَلَا فِيهِ وَمَنْ مَسَكْنُهُ الْفَقْرُ
وَالصَّدْعُ الْأَعْمَى فِي شَاهِقٍ وَجَابَةُ مَسْكَنِهَا الْوُغْرُ ^(٣)
وَالْحَيْئَةُ الصَّمَاءُ فِي جُجْرِهَا وَالتَّنْفُلُ الرَّائِغُ وَالذَّرُّ ^(٤)
وَهَيْئَةُ تَرْتَاغٍ مِنْ ظِلِّهَا لَهَا عِرَارٌ وَلَهَا زَمَرُ ^(٥)

(١) الحيوان : ٩٢ وما بعدها (٢) الذئب : ذكر الضبع ، والتيتل : شبيه بالنمل ، والفَرَّ : ولد الأروية وهي الأنثى من الأوعال .

(٣) الصَّدْعُ : الشاب من الأوعال ، والجَابَةُ : الأتان الدليظة .

(٤) التنفل هو التلعب . (٥) المقل : الفئ من النعام أو الظلم والمقلة الأنثى منهما .

تَلْتَمِهُمُ الرُّوْءُ عَلَى شَهْوَةٍ وَحَبُّ شَيْءٍ عِنْدَهَا الْجَمْرُ^(١)
وِظْلِيَّةٌ تَخْضُمُ فِي حَنْظَلِي وَعَقْرُبٌ يُعْجِبُهَا الثَّمَرُ

والقصيدتان على هذا النمط يذكر خصائص الحيوان ، ويستخرج منه الحكمة ، يعجب من جرادة تخرق متن الصفا ، ومن خنفس تحيا بالروث ويقتلها الورد :

وَحِكْمَةٌ يُبْصِرُهَا عَاقِلٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهَا سِتْرٌ

ثم يعرج في آخر القصيدة على مهاجمة خصومه من أباضية ورافضية وغيرهم ، وبعبيرهم بأن لا تنجح الحكمة فيهم ، والقصيدة الأخرى رائية مكسورة على نعلها . وقد أخذ الجاحظ هاتين القصيدتين عن بشر بن المعتز ، وقد عاصره زماناً ، ويظهر أنهما أوحتا إليه أن يؤلف كتاباً في الحيوان من هذه الناحية . ولكن الجاحظ لا يصبر على موضوع واحد فإذا تكلم في شيء خرج منه إلى أشياء ، كما لا يصبر على الجد ، فسرعان ما يخرج منه إلى المزل . ولذلك صبغ الموضوع بصيفته الخاصة فاستطرد لا إلى حد ، وأخرج للموضوع من عظة واعتبار إلى معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان ، علمية أحياناً وأدبية أحياناً . وكان هزله فيه من أغرب المزل ، فال موضوع جد كل الجد تخشع له النفس ، ويدعن له القلب ، وتثوره العاطفة الدينية ، كما تشعر إذا قرأت الآيات السابقة أو وصف الطاووس أو قصيدتي بشر ، ولكن هذا الجلال يضع تماماً في كتاب الحيوان ، ويتلون بلون الجاحظ العجيب فيخرج شيئاً آخر غير العظة وغير المبرة ، فيه ألوان الحرباء وفيه روايات مختلفة مأساة ومهزلة ، وفيه الكلام على الخصيان بجانب فوائد الكتاب ، وفي الكلام على الخصيان معلومات قيمة نادرة ربما لا تمر عليها في كتاب آخر من الناحية التاريخية والاجتماعية ، وبجانبها الذع والإحساس وفكاهة ومجون مكشوف ،

(١) المرو : حجارة بيض يرثقه تكون فيها النار وتقلع منها .

وكل هذا مزج مزجاً غريباً ، وهكذا شأنه في كل موضوع .

وقد ذكر الجاحظ نفسه في كتاب الحيوان طريقة تأليفه في عدة مواضع فهو يقول « متى خرج (القارى) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى الشعر ، ومن الشعر إلى نوار ، ومن النوار إلى حكم عقاية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل ، والملا ل إليه أسرع حتى يفضى به إلى مزج وفكاهة وإلى سخر ، خرافة ، ولست أراه سخرًا »^(١) ويقول « إني أوشح هذا الكتاب بنوار من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارئه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وإذا كانت الأوائل قد صارت في صغار الكتب هذه السيرة . كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلاح ، وما غابتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً »^(٢) ويأسف لسلوكه هذا السبيل ، ويعترف بعبثها ولكنه يقول إنه اضطر إلى ذلك اضطراراً فيقول : « وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة ، تصلح لهذا كره وتبعث على النشاط ... ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجت إلى مداراتهم واستاتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم — مع فوائد هذا الكتاب — إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن أفيده إياهم أستفيد منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم »^(٣) ويعترف بأنه عانى في هذه الطريقة أكثر مما يمانى لو كتب كتاباً في موضوع واحد من غير استطراد « ولو كنت تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومما فيه ، ثم كان من كتب العرض والجوهر والطرفة والتوليد وللداخلة والفرائز والنهاز لكان أسهل

(١) الحيوان ١ : ٤٦ (٢) ٣ : ٢ (٣) ٥ : ٥١ .

وأقصر أياماً وأسرع فراغاً ، لأنى كنت لا أفرغ فيه إلى تألُّط الأشعار وتتبع
 الأمثال واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور
 في الكتب وتباعد ما بين الأشكال ، فإن وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ
 ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام ... فلا تنكر بعد أن صورت لك حالى القى
 ابتدأت عليها كتابى . ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه إذ كنت لم ألتس به
 إلا إتمامك مواقع الحجج لله وتصاريف تدييره والذى أودع أصناف خاتمه من
 أصناف حكته لما تعرضت لهذه المكروه ^(١) .

ومصادر الكتاب كثيرة فأى من القرآن أو التوراة أو الإنجيل ، وحديث
 وخبر تلقاه من الرواة ، وشعر عربى كثير وأمثال مضروبة وكتب عديدة
 قرأها فى فنون شتى ، وعادة لمن يثق بهم من أطلباء وتجارب وذوى حرف ،
 وتجارب يجربها بنفسه فى الحيوان والنبات ، وسفر وسباع لمن قد مارس
 الأسفار وركب البحار ، وسكن الصحارى وسلك الوديان ، وهذا — من غير
 شك — يدل على سعة اطلاع قل أن يكون له نظير .

والحق أن عقله كان قوياً قل أن يقبل خرافة ، بل هو يهزأ بمن يقبلها . ثم
 هو فى كثير من الأحيان يقف على الاعتقاد حتى يجرب ويشك ويدعو إلى
 الشك حتى تثبت صحة النظرية ، ويستغرب القارىء من صحة منطقته وسبقه
 إلى نظرات فى منهج البحث لم تعرف إلا فى المصر الحديث ، كقوله « اعرف
 مواضع الشك وحالاتها للوجبة لها لتعرف بها موضع اليقين ، والحالات
 للوجبة لها . وتعلم الشك فى الشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن ذلك إلا تعرف
 التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه » ^(٢) كما أنه سبق إلى اتجاهات
 قيمة فيما يسمى الآن سيكولوجية الحيوان ، فهو يراقب نداء الديك بالليل
 ويبحث : هل إذا كان فى قرية وحده يصيح أولاً ؟ ليعلم هل تصيح الديكة

(١) الحيوان ٤ : ٦٩ . (٢) ٦ : ١٠ .

بالتجارب أو بطبعها ، وراقب الدجاج هل تكثر أفراسها إذا كثر عديدها
أو تقل ؟ ولاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجوه تنبيهه
والفروق الدقيقة بين أصنافها إلى كثير من أمثال ذلك .

وبعد ، فظهر امتزاج الثقافات المختلفة في الحيوان آيين منها في البيات
والتبين ، وذلك يرجع إلى موضوعه وإلى مسلكه في تأليفه ، وإلى علاقاته
للمشعبة بأولى العلم والصناعات والطبقات من كل نوع .

من أهم العناصر التي اعتمد عليها في كتابه هذا كتب أرسطو ، وقد عُرِفَ
عن أرسطو أنه ألف في موضوعات عديدة في حياة الحيوان ، وكان مشغولاً
بهذا العلم ودراسته ، حتى أحصى للتأخرون ما كان يعرفه أرسطو من أنواع
الحيوان ، فوجدوه نحواً من خمسمائة نوع . ومع أنه لم يرتبها الترتيب المصري
فقد كان له فضل السبق في وضع هذا العلم الذي لم يكن مؤسساً من قبله . وقد
وصلت هذه الكتب إلى العرب ، ونقلت إلى العربية فيما نقل ، فيقول ابن النديم
« إن كتاب الحيوان لأرسطو تسع عشر مقالة نقله ابن البطريق ...
ولنيقولاوس اختصار لهذا الكتاب ... وقد ابتداء أبو علي بن زرعة بنقله
إلى العربي وتصحيحه » ^(١) .

ولكن يظهر أن العرب في هذا الكتاب — كما هو الشأن في غيره — لم
يميزوا بدقة بين ما هو لأرسطو حقاً وما ليس له — على كل حال وقع الكتاب
في يد الجاحظ وقراه ، وكان مصدراً كبيراً من مصادره . وإذا قل منه فكثيراً
ما يسمى أرسطو « صاحب المطلق » وقد يصرح باسمه ، وقد نقل عنه في هذا
الكتاب عشرات المرات — وكان موقف الجاحظ تجاه أرسطو موقفاً بديعاً ،
فلم يُصَبَّ أمامه بشكّل الفكر كما أصيب في أكثر الأحيان ابن سينا وغيره من
فلاسفة الشرق والغرب ، وإنما وضعه في الخبر يمتحنه ويحججه ، فقد قل عن أرسطو

(١) فهرست ابن النديم ٣٥١ .

أن إناث العصافير أطول أعماراً وأن ذكورها لا تبيض إلا سنة^(١). واعتقده بأنه لم يأت بدليل على ذلك ، وكيف يستطيع أن يأتى بدليل جازم والمصافير قد تكون في المزارع ، والمليازب مملوءة بها وبييضها وفراخها ، والناس القريبون منها لم يروا عصافيراً قط ميمًا ، ولو قال أرسطو وأمثاله بذلك على جهة التقريب والظن لم يلهم أحد من العلماء « والأمور المقرّبة غير الأمور الموجبة » ، فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والتقرب ، وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل^(٢) ويقول « وقال صاحب المنطق ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية « طبقون » حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك — قال الجاحظ — ولم أنهم هذا؟ ولم كان ذلك؟ »^(٣).

وأحياناً يقارن بين قول أرسطو في الموضوع وما ورد فيه من شعر جاهلي أو إسلامي ، ويفاضل بينهما ويحكم عقله وتارة ينصر أرسطو وتارة ينصر العرب . وتارة يكذبهما معاً ، فيقول : زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرايياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت له فن أي جهة الرأسين تسمى ؟ ومن أيهما نأكل وتمض ؟ فقال فأما السى فلا تسمى ولكنها تسمى إلى حاجتها بالقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تشمى بغم وتتغذى بغم ، وأما العض فإنها تعض برأسها معاً — فإذا به أكذب البرية !^(٤) ومثل ذلك في الكتاب كثير ، فهو يعرض لما عرف عن اليونان وما ورد في الموضوع من شعر العرب وقصصهم وأساطيرهم ، وما عرف عن الأمم الأخرى ، ويمزج كل ذلك مزجاً تاماً ، ويعرضه بأسلوبه الجذاب ومبالفته للمألوفة .

ولا يظن ظان أن الكتاب — وقد سمي الحيوان — قد اقتصر على الكلام في الحيوان بل لا يبعد إذا نحن قلنا إن ما فيه عن الحيوان أقل مما فيه عن غيره . فقد

(١) : ٥ (٦) ٦٧ : ٥ (٢) ٧١ : ٤ (٣) ٧٦ : ٤ (٤) ٥٢ :

استغرق الجزء الأول والثاني من الكتاب الكلام في الكلب والديك والمفاضة
بينها ، واحتجاج صاحب الكلب للكلب والديك للديك ، ويستوفى كل
ما قيل في ذلك من آية أو حديث أو شعر أو قول لصاحب المنطق أو قصة
أو أسطورة ، كاتخاذ الجن الكلاب مأوى لها والكلب واعتقاد العرب أن دم
الأشراف يشق منه الخ ، ولكنه في كل ذلك يخرج عن الكلب والديك إلى
موضوعات لا تخطر على البال ، فتراه في أثناء ذلك يتكلم في الإمامة والشيعة
والشعر وأثره في القبيلة يرغبها ويضعها ، الخ .

اتصل الجاحظ باليونان من كتبهم ومن طريق المتكلمين ، ففرع أرسطو
كما بينا ونقل عن أقلليون صاحب الفراسة في الكلام في الحمام^(١) ونقل عن
جالينوس فيما يصاح له لحلم الضب^(٢) وفي معارف البهائم والطيور^(٣) ويذكر أن
كتب المنطق وكتب إقليدس لا يفهما العربي البليغ^(٤) ويظهر أن ثقافته اليونانية
آسست بمجالسته لكثير من المثقفين بها ، فقد كان يتحدث إلى سلمويه وابن
مانويه^(٥) وإلى حنين بن إسحاق^(٦) وإلى ثمتون الطيب^(٧) واتصل بالفرس
وعرف الكثير عنهم ، فينقل عن ابن المقفع ويتكلم في أساطيرهم ويعقد كلاماً
طويلاً يذكر فيه نيرانهم ، ويحكى عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعبادتهم ،
ويحكى عن اليهود والنصارى ، ويذكر شبا أثارها بعضهم حول آيات من
القرآن الكريم مثل آيات الشهب ورد عليهم .

وعلى الجملة فكتاب الحيوان معرض لكل الثقافات ، عربية ويونانية
وفارسية وهندية ، ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشتية ودهرية
ويهودية ونصرانية وإسلام ، ولو ذكرنا ما قاله في كل ثقافة ورددناه إلى أصله
لاستغرق منا كتاباً كاملاً ، فليكتف بهذا القدر للدلالة على ما نقول . ونتم

(١) ٨٢ : ٣ ٨٧ (٢) ١٧ : ٦ (٣) ١٠ : ٧ (٤) ٤٥ : ١
(٥) ١١٧ : ١ (٦) ١٠٨ : ٥ (٧) ٢ : ٢

قولنا بالشروط التي يشترطها الجاحظ: لن تكون له الرياسة في العلم ، وقد حققها هو في نفسه ، فقد رأى أن العالم من يحسن من كلام الدين يقدر ما يحسن من كلام الفلسفة ، وللصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطوائع حقائقها من الأعمال^(١) .

* * *

وبجانب الجاحظ عالمان آخران يمثلان معه كل معارف العصر ، كما يمثلون أنواعا مختلفة العلوم والألوان من الامتزاجات بين الثقافات ، أحدهما ابن قتيبة الدينوري ، والآخر أبو حنيفة الدينوري .

ابن قتيبة : فأما ابن قتيبة فهو أبو محمد عبد الله بن مسلم ، أصله فارسي من صرو ، وتربى في بغداد وتولى القضاء بدينور فنسب إليها ، ثم كان معلما ببغداد عاش من سنة ٢١٣ هـ إلى سنة ٢٧٦ هـ . فهو قد عاصر الجاحظ جزءاً طويلاً من عمره وكان يكرمه كما يدل على ذلك قوله للجاحظ الذي أوردته في كتابه « تأويل مختلف الحديث » فقد اتهمه بأنه يذكر حجج النصارى على المسلمين بأقوى مما يذكر الرد عليهم ، وبأن كتبه ملئت بالمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ وأنه يستهزئ بالحديث كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده للشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا^(٢) ، وأنه كذاب يضع الحديث وينصر الباطل^(٣) ؛ والظاهر أن سبب النزاع اختلاف الطبعيتين واختلاف المذهبين ، فالجاحظ مزاح خفيف الروح مهذار واسع العقل متصرف ، وابن قتيبة جد ، قاض ، عليه وقار القضاء يمزح أحياناً ولكن ليس له خفة روح الجاحظ ، ثم الجاحظ معتزلي من للتكلميين وابن قتيبة من أهل السنة — كما يحكي ابن تيمية — والنزاع بين الطائفتين شديد طويل . وشخصية الجاحظ في كتبه

(١) ٢ : ٤٨ .

(٢) ٢ : ٧٢ .

أقوى ، فهو لا يخرج ما علم إلا مبهضوما ، قد أسبع عليه من نفسه ومن لسانه .
وابن قتيبة واسع الاطلاع في غير شخصية قوية — كما يظهر لى — يعرف
كثيراً ويجمع كثيراً ويؤلف كثيراً ، وقد يكون في ذلك قريباً من الجاحظ ،
وكل ما وصلنا من تأليفه يدلنا على أنه عالم أديب ، اتصل بنواح كثيرة من
العلم من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وقفه وتاريخ ومذاهب دينية ،
ولكنه يفهم من التأليف أن يجمع ، ويجمع عن سعة اطلاع ، ويختار
ما يجمع ، من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع . فإذا حاول أن يبدى شخصيته
اضطرب كالذي كان في كلامه في الشعبية ، ينقض في موضع ما أبرمه في
آخر ، كما لاحظ ذلك صاحب المقد الفريد ، وميزة أخرى يمتاز بها الجاحظ ،
وهي أنه في جميع ما يكتب يمس الحياة الاجتماعية في عصره ويفتغل في
ثناياها ، ولا يستحي أن يضرب مثلاً ما عبداً فما فوقه ، يتحدث عن التجار والحواريين
وراعى الغنم ، ويستخرج منهم علماً أو تجربة ويحكيها ويعلق عليها ، أما ابن قتيبة
فليس له شيء من هذه الناحية ، لأن هذا الضرب لا يتجسج إلا في يد قوية كيد
الجاحظ ولو تعرض لما ابن قتيبة لفشل .

على كل حال علم ابن قتيبة كثير ، وتأليفه غزيرة ومتعدد النواحي ^(١) ولكن
ما يهمننا هنا هو مظهر الثقافات المختلفة في كتبه ، ولعل أدلها على ذلك كتاب
عيون الأخبار .

عيون الأخبار : — كتاب في المختار من الأدب ، قسمه إلى عشرة كتب
كل كتاب ككتاب : كتاب السلطان ، والحرب والسودد والطبايع ،
والأخلاق الممنومة ، والعلم والبيان والزهد ، والإخوان ، والحواريين ،
والطعام ، والنساء .

وقد تبع الجاحظ في الإتيان بما يضطك خوف الملل ، فقال « ولم أدخله

(١) انظر ترجمته وكتبه في مقدمة كتاب الميسر والقناع ومقدمة الجزء الرابع من عيون الأخبار

مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة وأخرى مضحكة . . .
لأرواح بذلك عن القارىء من كد الجهد واتعاب الحق ، فإن الأذن مجاجة
والنفس حمضة ^(١) ولكنه يحس أنه سينتقد على ذلك من وسطه التزمت فيعتذر
بأنه مما يترخص فيه . كذلك يعتذر عن أن الكتاب لم يكن في القرآن ولا في السنة
ولا شرائع الدين وعلم الحلال والحرام ، بأنه دال على معالي الأمور ومرشد
لكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ناه عن القبيح ^(٢) فالشعور الديني والخلق
متملك له مسير له في تأليفه ، فهو إن تكلم في الدنيا وشئوننا فقد أودع فيه طرفاً
من محاسن كلام الزهاد في الدنيا ، وذكر فجائها وزوالها وانتقالها حتى
يستوجب بذلك الأجر ، بل رضى من القيمة بالسلامة ؛ وسأل الله أن يمحو
ببعض بعضاً ، ويغفر بخير شرأ ، ويحمد هنلاً .

والحق أنه قل التأليف في الأدب نقلة جديدة من حيث الترتيب وقلة
الاستطراد ونمذ ذلك في كتابه وغفر به فقال : « وقرنت الباب بشكله ،
والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على التعلم علمها وعلى الدارس حفظها » ^(٣)
ويذكر أنه وضع كتاب الطبائع والأخلاق بعد كتاب السؤدد لأنه مقارب
له ، وقد التزم ذلك فقل أن يخرج عن موضوعه في غير مشاكلة وتقارب ، فهو
بذلك — من حيث منهج التأليف — أرقى من البيان والتبيين والكامل .

وقد تعرض في أول الكتاب لمصادره فقال : إنه تاقط ما فيه عن فوقه
في السن واللعرفة ، وعن جلسائه وإخوانه ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ،
وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، ولم يستنكف أن يأخذ عن الحديث
سناً لحداثته ، ولا عن الصغير قدراً لخلاسته ، ولا عن الأئمة الوكثاء لجلالها
فضلاً عن غيرها ، ولم يتحرج أن يأخذ العلم عن غير مسلم ، قلن يزرى بالحق
أن تسمعه من المشركين ، ولا بالصيغة أن تستنبط من الكاشعنين .

(١) عيون : ١ ل (١) ١ : ١ .

وإذا كان الكتاب أكثر ترتيباً كان مزيج الثقافات فيه أكثر وضوحاً
 فكما كان يضم الشيء إلى مثيله كان يضم ثقافة أمة في شيء خاص إلى ثقافة الأمة
 الأخرى فيه . فهو إذا ذكر السؤدد عن العرب ذكر السؤدد عن الجعم ، فهو
 يذكر السؤدد في نظر الأحنف بن قيس وغيره من سادات العرب ، وينقل عن
 كتاب الهند في السؤدد . ويذكر رأى بعض العرب في أسباب السرور فيقول :
 قال قتيبة بن مسلم لحصين بن المنذر ما السرور ؟ قال امرأة حسناء ، ودار قوراء ،
 وفارس مرتبط بالفناء .

وقيل لعبد الملك بن الأهمم ما السرور ؟ فقال رفع الأولياء ، وحط الأعداء ،
 وطول البقاء مع القدرة والثناء . ثم ينقل رأى الفضل بن سهل الفارسي في
 السرور إذ يقول : توقيع جائز ، وأمر نافذ . ورأى أبي نواس — نصف الفارسي —

إذ يقول : إِنَّمَا الْعَيْشُ سَمْعٌ وَمُـدَامٌ وَنِدَامٌ
 فَإِذَا قَاتَكَ هَذَا قَتَلَ الْعَيْشُ السَّلَامَ

وينقل عن المسيح عليه السلام قوله لأصحابه « إذا اتخذكم الناس رعوساً
 فكونوا أذناً » ثم ينقل عن كتب الجعم « علامة الأحرار أن يُلقوا بما
 يُحبُّون ويحرموا ، أحب إليهم أن يُلقوا بما يكرهون ويُعطلوا » ثم ينقل
 عن أردشير وعن ابن المقفع في كلمة ودمنة ، وعن أنوشروان وعن استشهاد
 جعفر البرمكي بقل أبروز ويقول « أعلنت أن ناووس أبروز أندخ لأبروز
 من شعر زهير لال سنان ؟ » ^(١) وهكذا فهو يتعرض للعرب والجعم والهند
 ويعرض آراءهم وأقوالهم بأنظم مما يفعل الجاحظ .

كذلك يمثل كتابه ما ذهبنا إليه قبل « من مناطق النفوذ » فنعن إذا
 استعرضنا — في عيون الأخبار — كتاب السلطان وسيرته والمشاورة رأياه يكثر

(١) قال ذلك لما رأى الأسمى يحلى الكثير ويميش عيش سوء .

القل عن الفرس والمند ، مما يدل على أن الأدب العربي في هذا الباب أكثر تأثره بهاتين الأمتين . ونراه في باب القضاء والأحكام والشهادات والنظم قل أن ينقل عنهما ، إنما ينقل عن العرب وأحكام الإسلام ، وإذا تكلم في الزهد فيكاد يكون الفصل الأول كله قلا عن اليهودية والنصرانية . وفي باب الطعام عقد فصلا للياه والأشربة قل فيه عن الأطباء وعن « الفلاحة النبطية » وعن ابن ماسويه ، وعقد فصلا للحمّان وما شاكلها ومضار الأطعمة ومنافعها والنباتات وخصائصها وسائر الجاحظ فكتب فصولا عن الحيوان وقل عن أرسطو وغيره . والثقافة اليونانية في كل هذه الفصول غالبية شائعة .

ثم هو رجل ديني من رؤساء أهل السنة ، فكان لذلك متقفا ثقافة دينية واسعة ، ولم تقتصر ثقافته على الإسلام ، بل قرأ التوراة والإنجيل وأكثر النقل منهما ، فهو ينقل كثيرا عن وهب بن منبّه وعن التوراة والإنجيل ، ويقول : قرأت في التوراة وقرأت في الإنجيل ، وينقل دعاء المسيح ودعاء داود ودعاء ليوسف عليهم السلام ، وينقل أخبارا عن الرهبان كما ينقل أحاديث عن رسول الله والصحابة والتابعين والزهادين من المسلمين .

وعلى الجلة ، فثقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة ، ومظهر امتزاج الثقافات فيه — مدنية كانت أو دينية — مظهر جلي واضح .

أبو حنيفة الدينوري : — ثالث ثلاثة ثقفا ثقافة علمية وأدبية واسعة وليس بأقلهم ، وإن كان حظه من الشهرة في عصورنا الأخيرة دونهم ، هو أحمد بن داود بن وند ، ولد بديشور ، ولم يعلم تاريخ ولادته وإن كان يرجع أنها في العشرين الأولى من القرن الثالث الهجري^(١) وأخذ النحو عن ابن السكيت وأبيه في الكوفة ، وفي سنة ٢٣٥ كان في أصفهان يرصد الكواكب ويضع نتائج رصده ، ومات على الأرجح نحو سنة ٢٨٢ هـ كانت معارفه واسعة

(١) انظر ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومعجم الأدباء وبنية الوعاة وعزلة الأدب

في نواح مختلفة ، في التاريخ — وقد وصل إلينا منه كتاب « الأخبار الطوال »
وفيه معلومات عن علاقة العرب بالقرس قد لا نجد لها في غيره . وكان — كما
يقول ياقوت — نحوياً ، لغوياً ، مهندساً ، منجماً ، حاسباً ، راوية ، ثقة فيما
يرويه ويحكمه .

كان يقرن بالجاحظ في بلاغته ، ويختلف الناس أيهما أبلغ ، وصحاحكمون
إلى أبي سعيد السيرافي فيقول : « أبو حنيفة أكثر ندارة وأبو عثمان (الجاحظ)
أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لا تطفئ بالنفس ، سهلة في السمع ، ولفظ
أبي حنيفة أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب »^(١) ويمدحه أبو حيان
التوحيدى أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تعريضهم ومدحهم ونشر فضائلهم
— في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم — ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم :
الجاحظ وأبو حنيفة ، وأبو زيد الهلثي ، ويصفه بأنه من نوادر الرجال ، جمع
بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له في كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم .
ويظهر أن ثقافته اليونانية والمندبية كانت أوسع منها في صاحبيه الجاحظ
وابن قتيبة ، وعلمه الرياضي يكمل نقصهما . يدل على ذلك تأليفه في الفلك
والحساب والجبر والقياسة ونوادر الجبر والقبلة والزوال والكسوف والبحث
في حساب الهند .

اشتهر بالكتابة في النبات ، وربما كان كتابه فيه أظهر شيء في المزج ،
ومع الأسف لم يصلنا كتابه هذا ولكن هل منه الكثير في المختص لابن
سيده ، وفي مفردات ابن البيطار ، ولم يقتصر فيه على نباتات العرب ، بل
ذكر نباتات تبث في الأقطار الأخرى ، وجمع بين ما روى لغوي العرب
في النبات وما كتب عنه في الأمم الأخرى ، واستعان ببلاغته على حسن وصفه
فهو يقول — مثلاً — الخَزَأَى : « عُشْبَةٌ طَوِيلَةُ الْمِيدَانِ ، صَغِيرُ الْوَرَقِ ، حُمْرَاءُ

(١) معجم الأدباء ١ : ١٢٤ .

الزهرة طيبة الريح، لما تَوَزُّ كَنُورُ الْبَنْفَسَجِ » وهو كما ترى وصف دقيق، ويقول: « ويقال للموضع الذى يجعل فيه الزرع إذا حصد الأندر والبيدر والمزبد والجُوْخَانُ والمِسْطَح وهو سوادى عُرْبٍ والجُرَيْنُ وجمعه الجُيْنُ والأَجْرِيَّة » فتراه يدخل كلمات عربت . ويقول : « وإذا تناوب أهل الجوخان ، فاجتمعوا صرة عند هذا وصرة عند هذا وتعاونوا على الدَّيَّاس فإن أهل اليمن يسئون ذلك القاء ، ونوبة كل واحد قأهه ، وذلك كالطاعة له عليهم ، لأنه تناوب قد أزموه أنفسهم ، فهو واجب لبعضهم على بعض » فتراه يعرف العادات المختلفة في البقاع ، ويصف الشعير في أما كنه المختلفة ، فالشعير العربى والشعير العراقى والشعير الحبشى . ويصف نباتات لها أسماء غير عربية كالكَسْبَرَة والكُرُوبَا ويقول الكُثُون ليس من نبات بلاد العرب ، وهكذا كان ذا نظر واسع وخبرة دقيقة في النباتات عربية وغير عربية ، وكان أساساً من أسس اللغة أمدها في النبات وما إليه بألفاظ جديدة ، وحدد ألفاظها القديمة .

كذلك له كتاب في الأنواء، إلا أنه قصره على ما كان للعرب من العلم بها ، كما يدل على ذلك الجزء الذى نقله عنه ابن سيده في المخصص^(١) .

ولعلك ترى معنى بعد أن هذا العصر كان بوتقة صهرت فيها عناصر الثقافات المختلفة ، أو مصباً لجدول متعددة المجرى مختلفة المتابع ، وأن العلماء كانوا مظاهر تختلف باختلاف مصادرها « فاشبه جبل الجبال بألوان صخورها » وعلى أعراقها تجري الجياد » وأنهم كلهم كانوا يمحرون في عنان^(٢) فأورثونا ثروة علمية وأدبية متعددة النواحي ، نصفها في الباب التالى إن شاء الله .

(١) جزء ٩ ص ١٠ وما بعدها (٢) اللسان للشوط .

أهم الأحداث في ذلك العصر

| أهم الأحداث | التاريخ المجري | التاريخ الميلادي | بده السنة الهجرية |
|------------------------------------|-------------------|---------------------|----------------------|
| قيام الدولة العباسية وخلافة السفاح | ١٣٢ | ٧٤٩ | ٢٠ أغسطس |
| خلافة أبي جعفر المنصور | ١٣٦ | ٧٥٣ | ٧ يولي |
| قتل ابن المفتح | ١٤٥ ؟ | ٧٦٢ | ١ أبريل |
| موت عمرو بن عبيد المعتزلى | ١٤٤ ؟ | ٧٦١ | ١١ أبريل |
| تأسيس بغداد | ١٤٥ | ٧٦٢ | ١ أبريل |
| موت جعفر الصادق | ١٤٨ | ٧٦٥ | ٢٧ فبراير |
| موت أبي حنيفة | ١٥٠ | ٧٦٧ | ٦ فبراير |
| موت الأوزاعي | ١٥٧ | ٧٧٣ | ٢١ نوفمبر |
| خلافة المهدي | ١٥٨ | ٧٧٤ | ١١ نوفمبر |
| موت سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم | ١٦١ | ٧٧٧ | ٩ أكتوبر |
| موت دواد الظاهري | ١٦٥ | ٧٨١ | ٢٦ أغسطس |
| قتل بشار بن برد على الزندقة | ١٦٧ | ٦٨٣ | ٥ أغسطس |
| خلافة الهادي | ١٦٩ | ٧٨٥ | ١٤ يولي |
| خلافة هرون الرشيد | ١٧٠ | ٧٨٦ | ٣ يولي |
| تأسيس الدولة الإدريسية في مراكش | ١٧٢ | ٧٨٨ | ١١ يوني |
| موت مالك بن أنس | ١٧٩ | ٧٩٥ | ٢٧ مارس |
| موت أبي يوسف القاضي | ١٨٢ | ٧٩٨ | ٢٢ فبراير |
| نكبة البرامكة | ١٨٧ | ٨٠٢ | ٣٠ ديسمبر |
| موت محمد بن الحسن | ١٨٩ | ٨٠٤ | ٨ ديسمبر |
| خلافة الأمين | ١٩٣ | ٨٠٨ | ٢٥ أكتوبر |
| خلافة المأمون | ١٩٨ | ٨١٣ | ١ سبتمبر |

| أهم الأحداث | التاريخ المجرى | التاريخ الميلادي | بده السنة المجرية |
|---|-------------------|---------------------|----------------------|
| موت معروف الكرخي | ٢٠٠ | ٨١٥ | ١١ أغسطس |
| موت الشافعي | ٢٠٤ | ٨١٩ | ٢٨ يونيو |
| موت أبي عبيدة | ٢٠٨ | ٨٢٣ | ١٦ مايو |
| قول المؤمن بخلق القرآن | ٢١٢ | ٨٢٧ | ٢ إبريل |
| خلافة المعتصم | ٢١٨ | ٨٣٣ | ٢٧ يناير |
| انتقال عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامرا | ٢١٩ | ٨٣٤ | ١٦ يناير |
| موت أبي الهذيل العلاف المعتزلي | ٢٢٦ | ٨٤٠ | ٣١ أكتوبر |
| استمرار محنة خلق القرآن | ٢١٨-٢٣٤ | ٨٣٣-٨٤٨ | |
| خلافة الواثق | ٢٢٧ | ٨٤١ | ٢١ أكتوبر |
| موت بشر الحافي الصوفي | ٢٣١ | ٨٤٥ | ٧ سبتمبر |
| موت النظام المعتزلي | ٢٣٢ | ٨٤٦ | ٢٨ أغسطس |
| خلافة المتوكل | ٢٣٤ | ٨٤٨ | ٥ أغسطس |
| الأمر بعدم القول بخلق القرآن | ٢٤٠ | ٨٥٤ | ٢ يونيو |
| موت أحمد بن أبي دواد | ٢٤١ | ٨٥٥ | ٢٢ مايو |
| موت أحمد بن حنبل | ٢٤٣ | ٨٥٧ | ٣٠ إبريل |
| موت الحارث المحاسبي | ٢٤٥ | ٨٥٩ | ٨ إبريل |
| موت ذي النون المصري | ٢٤٧ | ٨٦١ | ١٧ مارس |
| خلافة المنتصر | ٢٤٨ | ٨٦٢ | ٧ مارس |
| خلافة المستعين | ٢٥٢ | ٨٦٦ | ٢٢ يناير |
| خلافة المعتز | ٢٥٥ | ٨٦٨ | ١ يناير |
| خلافة المهتدي | | | |
| موت الجاحظ | | | |

فهرس الكتاب

الباب الأول

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول

صفحة

مقدمة - في المقارنة بين العهد الأموي والعهد العباسي في
الحركة العلمية ١٩
الفصل الأول - سكان المملكة الإسلامية ٢٣
العناصر التي تكونت منها المملكة - مزايا كل عنصر - اختلافهم
في الأهواء والميول السياسية - اختلافهم في الأدب - عمليّة
التوليد - ميزات المولدين - التوليد العقلي - التوحيد بين
العناصر المختلفة .

٣٥ الفصل الثاني - الصراع بين العرب والموالي
تغلب الشعور القملي عند العرب في الجاهلية - ظهور الشعور
بالأمة في الإسلام - العصبية القبلية - تعصب العرب على الموالى -
مقاومة التعاليم الإسلامية للعصبية بنوعها - تعصب الموالى
على العرب - تاريخ العصبيتين في العصر الأموي - في العصر
العباسي - أشكال الصراع - نتيجته .

٦٧ الفصل الثالث - الشعوبية
الزعات السائدة في ذلك العصر - نزعة سيادة العرب - نزعة
سيادة غير العرب - نزعة المنفاة - لفظ الشعوبية ومن أين
تقّى ؟ - بدء الشعوبية - أوصافها - الأشكال المختلفة التي حارب
ها الشعوبية العرب - أثر الشعوبيين في الأدب - في العلم .

الفصل الرابع - الرقيق وأثره في الثقافة ٩٧

الموقف القانوني للرقيق في الإسلام - تجارة الرقيق - اختلاف أنواع الرقيق وميزة كل نوع - تعليم الجوارى - أثر الجوارى في الثقافة والفنون - مقارنة بين الحرائر والجوارى .

الفصل الخامس - حياة اللهو وحياة الجلد ١١٩

مقارنة بين الأمويين والعباسيين في ذلك - تاريخ التدرج في اللهو في ذلك العصر - السفاح - المنصور - المهدي - الرشيد - الأمين - المأمون - المعتصم والوائق - كلمة في الشراب والمذاهب فيه - البيت العباسي وأثره في الناس - مظاهر الترف - تحول الترف من الحجاز إلى العراق - اختلاف الناس في النعيم والبؤس - ما أنتجه الإفراط في النعيم والإفراط والبؤس من دعوة إلى الإصلاح وميل إلى الزهد - أسباب الزهد - أثر هذه الظواهر في العلم والأدب والفن .

الفصل السادس - حياة الزندقة وحياة الإيمان ١٥٥

الحرب بين الزندقة والإيمان - السبب في انتشار الزندقة في العصر العباسي - تاريخ الزندقة في عهد الخلفاء العباسيين - المعاني المختلفة التي كانت تدل عليها كلمة الزندقة - الزندقة في الموالي والعرب - الدواعي إلى الزندقة - كثرة الاتهام بها حقاً وباطلاً - الحكم الفقهي في الزندقة - الإيمان - مثل أعلى من المؤمنين .

الباب الثاني

الثقافات في ذلك العصر

تمهيد - نظرة عامة في الثقافات المختلفة ١٨٠

الفصل الأول - الثقافة الفارسية ١٨٢

أسباب انتشارها في العصر العباسي .

(١) الوزارة - أكثر الوزراء كانوا فرسنا - ثقافتهم -
استعانتهم بالكتاب - طائفة الكتاب - ثقافتهم -
أثرهم في الثقافة .

(٢) انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى العراق - أثره
في الثقافة - أثر الثقافة الفارسية في الثقافة الإسلامية (١) الألفاظ
(ب) العلم والأدب - ما ترجم من الفارسية إلى العربية -
تتلف بعض العرب بالثقافة الفارسية ومعرفتهم لغتهم - تأثير
الفرس في الحياة الاجتماعية وعلاقة ذلك بالأدب - الإفراط
في اللهو والإفراط في الزهد - التوقعات - القصص - حملة
العلم أكثرهم من الموالى - مناقشة ابن خلدون - الدعاة إلى
الثقافة الفارسية - ابن المقفع خير من يمثل هذه الثقافة -
ملخص حياته - تحليل كتبه - الأدب الصغير - الأدب
الكبير - رسالة الصحابة - كلية ودمنة - كتاب الزندقة
المنسوبة إليه .

٢٤٧ الفصل الثاني - الثقافة الهندية

بدء علاقة المسلمين بالهند - أثر الهنود في الثقافة الإسلامية -
في الإلهيات - الفرق بين الفلسفة الهندية والفلسفة اليونانية -
نظرية التناسخ وأثرها في المسلمين - السمنية وظهورها في
العراق - مناقشة المسلمين للسمنية - الرياضيات الهندية وتأثير
المسلمين بها - الأدب الهندى - بدء علم النحو - أهم ما استفاد
الأدب العربى من الهند - الألفاظ الهندية - علم البلاغة عند
الهنود - مقارنة بين البلاغة العربية والهندية - القصص الهندى -
الحكم الهندية - الشطرنج - انتشاره بين المسلمين - بعض
العادات والشرائع الهندية .

٢٧١ الفصل الثالث - الثقافة اليونانية الرومانية

مناجها - انتشارها في الشرق - اتصال المسلمين بها (١) مدرسة

جنديسابور (٧) مدرسة حران (٣) مدرسة الإسكندرية - حركة الترجمة في ذلك العصر - الباحث عليها - تدرج اتصال المسلمين بموضوعاتها - أثر الثقافة اليونانية في المسلمين - في الشكل - في الموضوع - في الأدب - سبب ضعف تأثيرهم في الأدب - غير من يمثل هذه الثقافة حنين بن إسحق - حياته - أعماله .

٣٠٧ ... الفصل الرابع - الثقافة العربية

نواحيها - اللغة العربية - منزلتها من اللغات السامية والآرية - موقفها إزاء العلوم في العصر العباسي - أثر الموالى فيها - اللحن - رحلة العلماء إلى البادية ورحلة الأعراب إلى الحضر - مدار الثقة بما نقل - تدرج تنويع اللغة - الأدب العربي - روايته - الأدب البليوي والأدب الحضري - مقدار الثقة بما نقل من الأدب - أثر الإسلام في انتشار الثقافة العربية - اختلاف الاتجاهات التي اتجهها العلماء في دراستها .

يمثل هذه الثقافة المبرد - تاريخ حياته - تحليل كتابه « الكامل »

٣٤٠ ... الفصل الخامس - الثقافات الدينية

اليهودية والنصرانية في المملكة الإسلامية :

اليهودية - ثقافتها - التوراة - نظر المسلمين إليها - تأثير اليهودية باليونانية - تسرب الثقافة اليهودية إلى المسلمين - في التفسير - في التاريخ - في المذاهب الإسلامية .

النصرانية - الإنجيل - نظر المسلمين إليه - أثرها في التفسير - في الحديث - في الفرق الدينية - في الأدب - الأديار وأثرها - أثر النصرانية في عادات المسلمين وثقافتهم .

الإسلام - مقارنة بين الأمويين والعباسيين في انتشار الإسلام - أسباب انتشار الإسلام - المتكلمون وأثرهم في نشره - عمل الخلفاء العباسيين في ذلك - أثر الإسلام في النصرانية .

الفرق بين تصور الصلوة للإسلام وتصور العباسيين له -
تأثير المذاهب الإسلامية في تصور الإسلام - الفرق بين أسلوب
القرآن وأسلوب المتكلمين - تأثير الفلسفة في النظر إلى الدين -
تأثير الفلسفة في تنظيم العلوم والإدارة - نفوذ الإسلام في جميع
مظاهر الحياة الاجتماعية .

الفصل السادس - امتزاج الثقافات ٣٩٩

محافظة كل ثقافة أول أمرها على مجراها ثم تجمعها بعد في مصب
واحد - اختلاف العلماء في الاستقاء من هذه الجداول - عملية
الامتزاج والعلماء الذين ساعدوا عليها - أى الثقافات الأجنبية
كان أكثر تأثيراً ؟ - مناطق النفوذ - أثر الإسلام في عملية
الامتزاج - غير من يمثل هذا الامتزاج : الجاحظ ، وابن قتيبة ،
وأبو حنيفة الدينورى .

الجاحظ - حياته - ثقافته - طبيعته - أسلوبه - تأليفه - تحليل
كتاب البيان والتبيين - كتاب الحيوان - أثر الجاحظ فيما ألف
بعده من كتب الأدب .

ابن قتيبة - حياته - مقارنته بالجاحظ - تحليل كتابه « حيون
الأخبار » - مظهر الثقافات الممتزجة فيه - مظهر مناطق
النفوذ فيه . أبو حنيفة الدينورى - حياته - ثقافته - أثره في
عملية الامتزاج .

رقم الإيداع : ٨٠٧٧ / ٩٧

التزقيم الدولي : I.S.B.N 977-01-5325-7

■ أحمد أمين

- من جيل الرواد العمالقة الذين أثروا المكتبة العربية بغير عطاءهم فى البحث العلمى والفكر والإبداع.

- ولد بالقاهرة فى أول أكتوبر ١٨٨٦، وهو من تلامذة الشيخ محمد عبده المخلصين.

- عمل أثناء حياته مدرسا بالتعليم، ثم قاضيا، ومدرسا بمدرسة (كلية) القضاء الشرعي، ثم مدرسا بكلية الآداب ١٩٣٦.

- ألف مع نخبة من أصدقائه جمعيات ثقافية وعلمية وأخرى للتأليف والترجمة والنشر، وأسهم فى إنشاء الجامعة الشعبية ومعهد المخطوطات، مثلما كان عنصرا نشطا فى الحياة الوطنية.

- من مؤلفاته: الأخلاق، فجر الإسلام، ضحى الإسلام ثلاثة أجزاء، فيض الخاطر، عشرة أجزاء، ظهر الإسلام أربعة أجزاء، زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، هارون الرشيد، حياتي، قاموس العادات والتقاليد والتعابير الشعبية وغيرها.

- منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب - جامعة القاهرة (فؤاد الأول) ١٩٤٨.

مكتبة الأسرة



عدد ممتاز
بسعر رمزى جنيها
بمناسبة

• مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

Bibliotheca Alexandrina



0407345